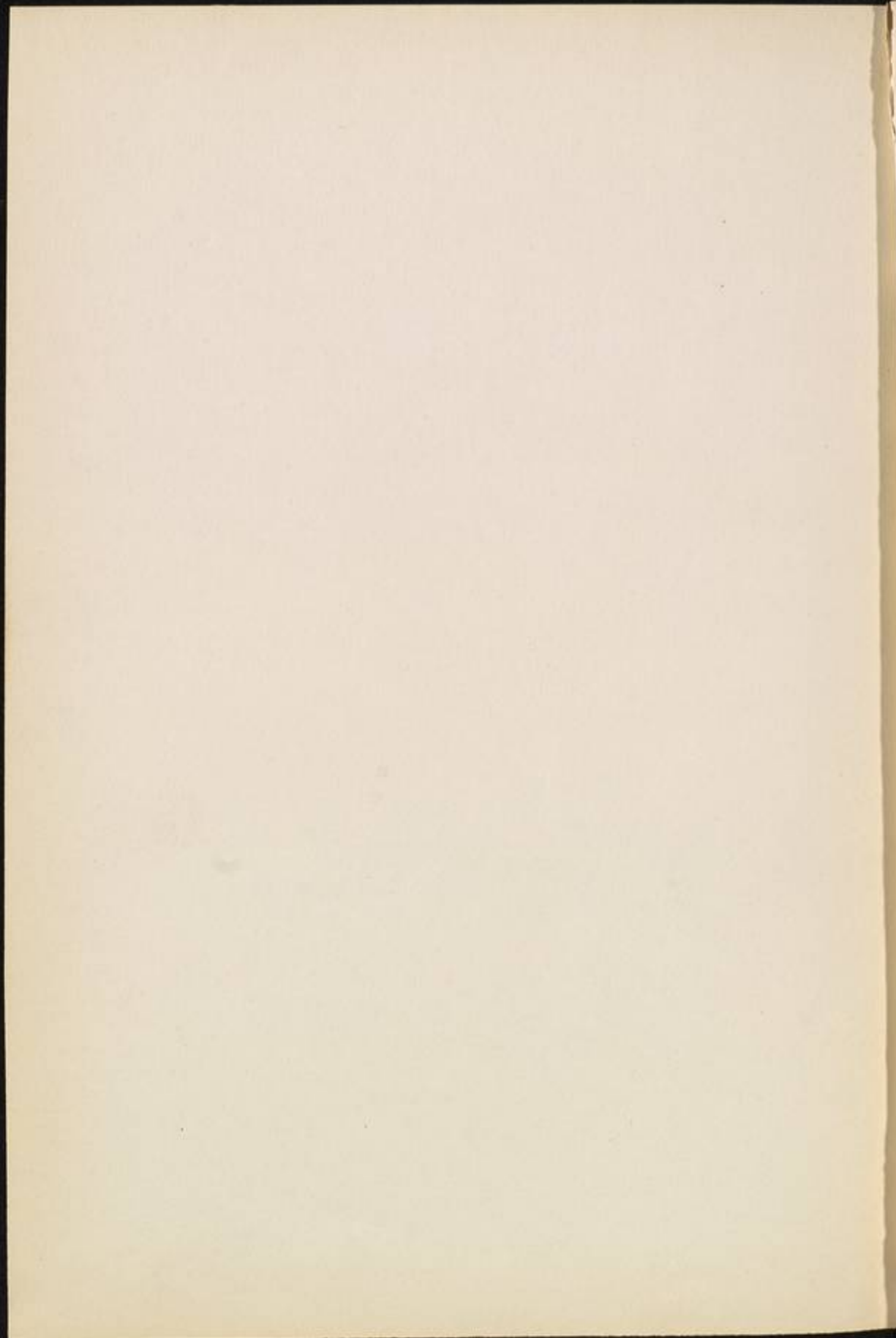
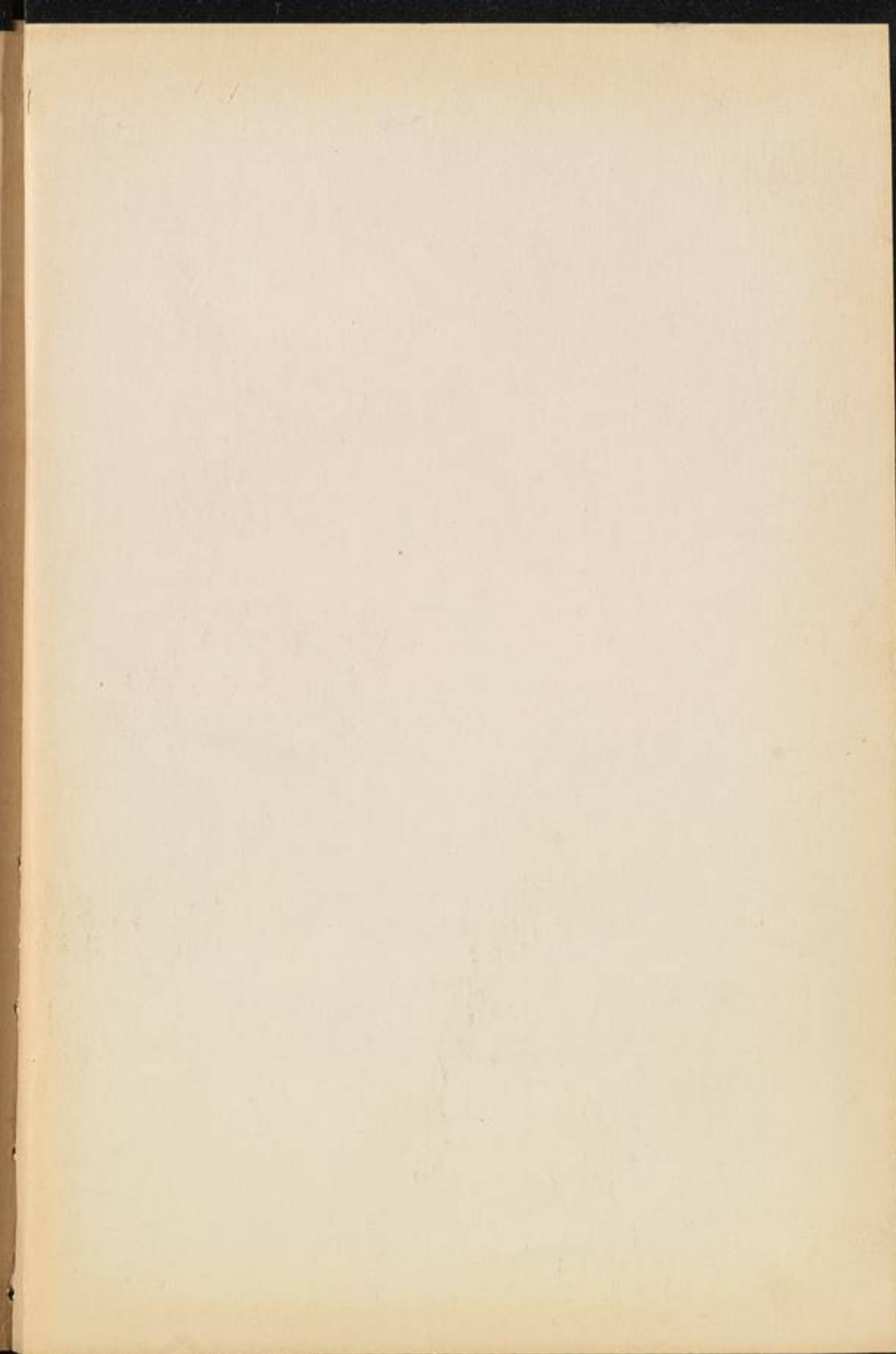


Columbia University  
in the City of New York

THE LIBRARIES







# المعز لدين الله

إمام الشيعة الإسماعيلية  
ومؤسس الدولة الفاطمية في مصر

تأليف

طه أحمد شرف

لبسانيه في الآداب ، دبلوم معهد التربية العالي للمعلمين  
ماجستير في الآداب ، ودكتور في الآداب  
مدرس التاريخ بـ مدرسة الخلية الثانوية  
وكليّة الآداب

هين إبراهيم

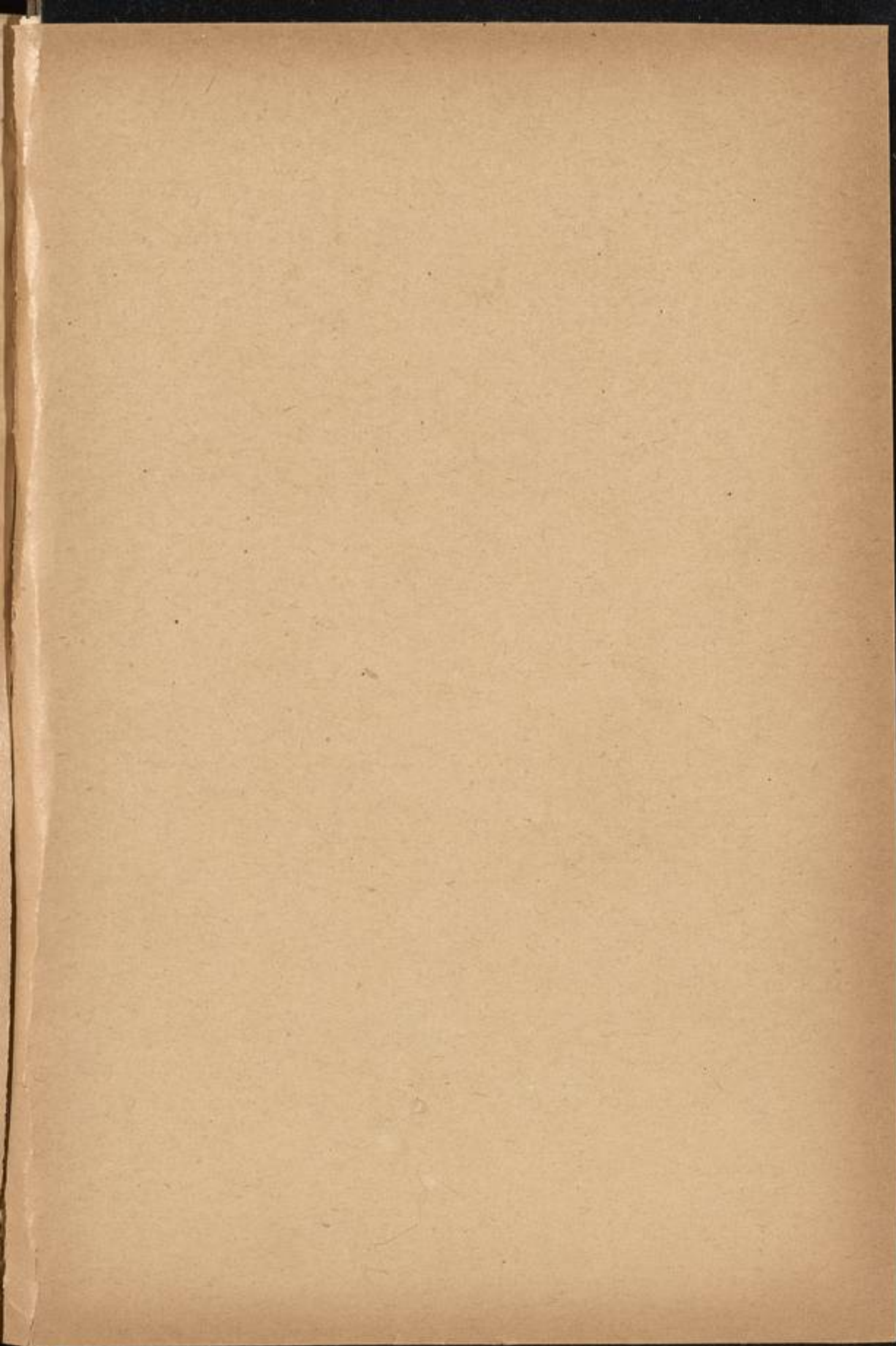
دكتور في الآداب ( القاهرة )  
ودكتور في الفلسفة ، ودكتور في الآداب ( لندن )  
أستاذ التاريخ الاسلامي ورئيس قسم التاريخ  
بجامعة زواد الأول

١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا — القاهرة



# المعز لدين الله

إمام الشيعة الإسماعيلية  
ومؤسس الدولة الفاطمية في مصر

تأليف

طه احمد سرف

يسايفيه في الآداب ، دبلوم معهد التربية العامل للمعلمين  
ماجستير في الآداب ، ودكتور في الآداب  
مدرس التاريخ بمدرسة الخلية الثانوية  
وكلية الآداب

هيمن إبراهيم حسن

دكتور في الآداب ( القاهرة )  
ودكتور في الفلسفة ، ودكتور في الآداب ( لندن )  
أستاذ التاريخ الاسلامي ورئيس قسم التاريخ  
بجامعة فؤاد الأول

١٣٦٧ هـ — ١٩٤٧ م

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى باشا — القاهرة

مطبعة الشكشكي بالازهر بمصر

893.791

H 2733



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة الكتاب

أخذنا على عاتقنا ، كما ذكرنا في كتابنا « عبيد الله المهدي » ، أن نحلل الشخصيات الفاطمية الغدّة ، وأن نبيط اللثام عن كثير من الحقائق التي كانت - ولا تزال - غامضة في تاريخ المذهب الإسماعيلي ، مذهب الفاطميين ، وحاولنا أن نحقق هذه الرغبة بتحليل شخصية عبيد الله المهدي ، إمام الشيعة الإسماعيلية ، ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب .

والآن نعرض لتحليل شخصية أخرى من أبرز الشخصيات في تاريخ الدعوة الإسماعيلية عامة ، وتاريخ الفاطميين خاصة ، وهي شخصية المعز لدين الله ، الخليفة الفاطمي الرابع .

فكما أن حياة عبيد الله تمثل عصرين مختلفين ، هما : عصر الاستتار ، أي العصر الذي كان فيه الإمام الإسماعيلي مستترا عن أعين العباسيين ، عاملا على توجيه الدعوة في أرجاء العالم الإسلامي كافة ، لتأسيس الدولة الإسماعيلية المنشودة ، وعصر الظهور ، أي ظهور عبيد الله المهدي ، وجلوسه على العرش الفاطمي ، وحمله الإمامة في حياته ، وديعة يردّها عند وفاته إلى إمام الاستقرار ، وهو القائم ، الذي تمتع بالإمامة في حياته ، وورثها ابنه المنصور من بعده - كذلك يمثل عصر المعز لدين الله دورين مختلفين ، هما : الدور المغربي الذي دانت فيه لسلطانه بلاد المغرب وصقلية ، والدور المصري ، الذي تم فيه فتح مصر والشام ، وأخذت الدعوة الإسماعيلية تنتشر في بلاد الحجاز وفارس واليمن ، وفي الهند نفسها .

هكذا رسم عبيد الله المهدي للخلفاء الفاطميين ، السياسة التي ساروا عليها في الدور المغربي ؛ ومهد المعز لدين الله السياسة التي سار عليها خلفاؤه في الدور المصري .

كان عصر المعز لدين الله حافلا بمظاهر القوة والعظمة . ولا غرو ، فقد استطاع ، بما أوتيته من ذكاء فذ ومهارة حرية ممتازة ، أن يوحد بلاد المغرب كافة تحت رايته ، وينتصر على الأمويين وحلفائهم الروم في غير موقعة ، حتى كان الأمويون يخشون على بلادهم من أن تقع في قبضته ؛ وسارع الروم إلى مخالفته ، خوفا من أن تقع قلوبهم في يده . كما حاول الفاطميون في عهده أن يتخذوا من جزيرتي صقلية وإقريطش قنطرة يعبرون منها إلى إيطاليا شمالا ، وإلى مصر والشام شرقا ، واتخذ من فتح هذه البلاد وسيلة لقلب الخلافة العباسية السنية ، وإحلال الخلافة الفاطمية الشيعية محلها .

وقد عول المعز على نشر الدعوة الإسماعيلية في العالم الإسلامي ؛ فأنفذ دعواته إلى الآفاق ، وزوّدهم بمنشوراته أو محاضراته في المذهب الإسماعيلي ، وألف هو وأقذاذ دعواته كتب الباطن ، كما كانوا يسمونها . وكانت منشورات المعز تلتقى على أنصار هذا المذهب في بلاد المغرب ، وكانت هذه المنشورات أو المحاضرات أشبه بمجالس الحكمة التي كانت تلتقى في مصر ؛ وفي قصور الخلافة ومساجدها يتلقى الإسماعيلية أصول مذهبهم عن طريق المنشورات والكتب . كما كانت احتفالات الفاطميين الرائعة في عهد المعز لدين الله ، كاحتفال بصلاح الجمعة ، وصلاة العيدين ، ومولد النبي ، ومولد علي وابنيه الحسن والحسين ، ومولد الإمام الجالس على العرش ، مثلا احتفاده من جاء بعده من الخلفاء . وكان لتنظيم الحكم الدقيقة ، التي سار عليها المعز لدين الله ، أثر بعيد في رقي بلاده . ولا غرو ، فقد كان يمثل الحاكم المستنير ، الذي يجمع في يده السلطات كلها ، ولكنه يسعى دائما لإسعاد شعبه ، ويعتبر الحكم أمانة من الله ائتمنه عليها ، وأن زعامته المسلمين واجب ألقاه على عاتقه انتسابه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فقامت نظم الحكم التي سنّها مثلا أعلى في الدقة والإتقان ، حتى فاقت أمثالها عند الأمويين والعباسيين .

وإن مدينة القاهرة المعزية التي تعد الآن من أمهات مدن الشرق ، والجامع الأزهر أقدم جامعات العالم ، ليديتان بوجودهما إلى المعز لدين الله ، ويشهدان على نهضة الفنون في عهد المعز ، الذي فاق خلفاء عصره من الأمويين والعباسيين .

وقد بحثنا شخصية المعز لدين الله والمذهب الإسماعيلي في عهده من النواحي

الدينية والسياسية والثقافية والاجتماعية ، مستعينين بما عثرنا عليه من المراجع الإسماعيلية المخطوطة والمنشورة ، وألحقنا بالكتاب كثيرا من الوثائق التي تصور تاريخ هذا العصر أروع تصوير . وذيلنا الكتاب بثبّتت يشمل المصادر ، مرتبة على أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين ، وبفهارس شاملة لأسماء الأعلام من الرجال والنساء والأماكن والحوادث التاريخية الهامة .

وقد أخذنا على أنفسنا أن نوالى البحث في تاريخ المذهب الإسماعيلي من الناحية السياسية بوجه خاص ، وما أدخل عليه من تطورات ، وذلك في عهد المستنصر بالله الفاطمي والحسن الثاني الزاري ، أحد أجداد سمو أغا خان .

وإننا في هذا المقام ، نهدى أجزل الشكر وأجمله ، إلى حضرة صديقنا الوفي الأستاذ مصطفى السقا ، الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، لتفضله بمراجعة هذا الكتاب ، وإمدادنا بكثير من المعلومات التاريخية والأدبية ، وحضرة حسن أحمد محمود أفندي الطالب بقسم الماجستير بكلية الآداب ، لمساعدته القيمة في عمل الفهارس ؟

٢ يناير ١٩٤٨

حسن إبراهيم حسن      طه أحمد شرف

## محتويات الكتاب

صفحة

مقدمة الكتاب

٣ ... ..

محتويات الكتاب

٦ ... ..

### الباب الاول — المعز لدين الله منذ ولد إلى أن ولي الخلافة .

١ — بيت المعز ... .. ٢ — مولد المعز ونشأته ... ١٣-٩

٣ — تولية المعز العهد والخلافة ... .. ١٩

### الباب الثاني — المعز لدين الله الفاطمي في بلاد المغرب

١ — علاقة المعز بالأدارسة وزعماء المغرب ... .. ٢٤

٢ — علاقة المعز بالأندلس ... .. ٣ — علاقة المعز بجزيرة إقريطش ٤٦-٣٦

٤ — علاقة المعز بجزيرة صقلية ٥ — أشهر ولاية المعز بصقلية ٦١-٥٢

### الباب الثالث — المعز لدين الله وفتح مصر

تمهيد ... .. ٦٧

١ — العوامل التي ساعدت المعز على فتح مصر ... .. ٦٩

(١) نجاح الدعوة الفاطمية في مصر والمشرق ... .. ٦٩

(ب) ضعف الدولة العباسية ... .. ٧٦

(ج) ضعف الدولة الإخشيدية في مصر (د) قوة الدولة الفاطمية ٨١-٧٩

٢ — جهود المعز في فتح مصر ... ..

(١) مسير جوهر إلى مصر (ب) فتح مصر ٨٥-٨٤ ... ..

٣ — المعز لدين الله وفتح بلاد الشام ... ..

(١) عوامل فتح الشام ... (ب) جعفر بن فلاح وفتح الشام ٩٣-٩١

٤ — النزاع بين المعز والقرامطة ... ..

(١) علاقة المعز بالقرامطة قبل ثورة الحسن الأعصم ... ٩٨

(ب) العوامل التي أدت إلى قيام الحرب بين القرامطة والفاطميين في مصر والشام ١٠٣

(ج) الصراع بين القرامطة والفاطميين إلى أن وصل المعز إلى مصر ١٠٦

١ — جعفر بن فلاح والحسن الأعصم ... .. ١٠٦

٢ — جوهر الصقلي والحسن الأعصم إلى أن وصل المعز إلى مصر ١١٢

(٥) النزاع بين المعز والحسن الأعصم ... .. ١١٥

صفحة

١٢٧ ... ( هـ ) أفتكين التركي والمعز لدين الله الفاطمي

الباب الرابع - نظم الحكم في عهد المعز لدين الله

١ - النظام السياسي

١٣٤ ... تمهيد

١٤٥-١٣٥ ... (١) الخلافة ... (ب) الوزارة

٢ - النظام الإداري

(١) ولاية الأقاليم

١ - في بلاد المغرب ٢ - في مصر والشام والحجاز ١٥١

(١) في مصر (ب) في بلاد الشام (ج) في الحجاز ١٦٢-١٦٠

١٦٥

(ب) الشرطة ... ١٦٦

٣ - النظام المالي ١٦٨

٤ - النظام الحربي ١٧٥

(١) الجيش ... (ب) البحرية ... ١٨٤-١٧٥

٥ - النظام القضائي

(١) القضاء ... (ب) الحسبة ... (ج) المظالم ... ١٩٠-٢٠٠  
٢٠٣

الباب الخامس - الفن والثقافة وأهم مظاهر الحياة الاجتماعية في عهد المعز لدين الله

١ - الفن في عهد المعز

(١) في بلاد المغرب ... (ب) في مصر ... ٢٠٧

١ - تأسيس مدينة القاهرة ... قصر المعز ... ٢١٧-٢١٠

٢ - بناء الجامع الأزهر ... ٢١٩

٢ - الثقافة في عهد المعز

(١) الثقافة العلمية ... ٢٢١

١ - ابن هانيء الأندلسي ٢ - تميم بن المعز ... ٢٣٠-٢٢٥

(ب) الثقافة المذهبية

١ - ثقافة الدعوة الإسماعيلية في المغرب ... ٢٣٢

٢ - الدعوة الإسماعيلية في مصر ... ٢٤٠

٢٤٠ ... الدعوة الفاطمية في المساجد

صفحة	
٢٤٢	١ — الدعوة الفاطمية في مسجد عمرو ... ..
٢٤٢	٢ — الدعوة الفاطمية في جامع ابن طولون ... ..
٢٤٦	٣ — الدعوة الفاطمية في الأزهر ... ..
٢٥٢	٤ — الدعوة السرية وأعلام الدعاة ... ..
٢٦٨-٢٥٨	أبو حنيفة النعمان ... جعفر بن منصور البجلي ... ..
٢٧٢	٣ — أهم مظاهر الحياة الاجتماعية
٢٨٤-٢٧٣	(١) مظاهر الترف والثروة (ب) الحفلات والأعياد
٢٨٧	٤ — أخلاق المعز وصفاته ... ..
٢٩٠	٥ — خاتمة القول في المعز لدين الله ... ..

### ملاحق الكتاب

٣٠٣	الملاحق ١ - رسالة المعز إلى أبي الحسن علي الإخشيد يطلب إليه إنجاز مسلي إقريطش
٣٠٤	الملاحق ٢ - عهد جوهر الصقلي إلى المصريين ... ..
٣٠٧	الملاحق ٣ - رسالة المعز لدين الله إلى الحسن الأعصم القرمطي ... ..
٣١٧	الملاحق ٤ - موقف المعز من أهل مجلسه ... ..
٣٢٠	الملاحق ٥ - نصيحة المعز لعامل مجلسه ... ..
٣٢١	الملاحق ٦ - تهديد المعز لإمبراطور الدولة البيزنطية لاستيلائه على إقريطش
٣٢٢	الملاحق ٧ - كلام في مجلس خوطب به رسول الأموي ... ..
٣٢٥	الملاحق ٨ - رد المعز على عبد الرحمن الناصر الأموي ... ..
٣٢٧	الملاحق ٩ - نقض المعز كتاب الناصر ... ..
٣٢٩	الملاحق ١٠ - بعض التشريعات الإسماعيلية في عهد المعز لدين الله ... ..
٣٤٢	الملاحق ١١ - ما ينبغي أن يستعمله الدعاة إلى الأئمة صلوات الله عليهم في دعواتهم إليهم
٣٤٥	الملاحق ١٢ - في الحديث على طاعة الفاطميين ... ..
٣٤٦	الملاحق ١٣ - مدح المعز كتامة ... ..
٣٤٨	الملاحق ١٤ - اشتغال الأئمة في صلاح الأمة ... ..
٣٤٨	الملاحق ١٥ - توقيع في ذكر عاشوراء ... ..
٣٤٩	الملاحق ١٦ - النهي عن الغلو في أولياء الله ... ..
٣٥٠	الملاحق ١٧ - نصيحة المعز لعامله ... ..
٣٥١	الملاحق ١٨ - نصيحة المعز لأحد العمال ... ..
٣٥٢	الملاحق ١٩ - في ترتيب استعمال العمال على العمل ... ..
٣٥٣	مصادر الكتاب ... .. فهارس الكتاب

## المعز لدين الله

الخليفة الفاطمي في المغرب ومصر

( ٣٤١ — ٥٣٦٥ )

### الباب الأول

المعز لدين الله منذ ولد إلى أن ولي الخلافة

١ - بيت المعز :

يعتبر المعز لدين الله ، الخليفة الفاطمي الرابع ، من كبار رجال عصره ؛ فقد يذ أقرانه ومنافسيه ، علما وسياسة وحربا . لهذا لا تغلو إذا قلنا إن نفوذ الدولة الفاطمية بلغ أقصى مداه في عهده ، وإن الفاطميين لم يستطيعوا أن يحتفظوا بذلك التراث المجيد الذي تركه لهم هذا الخليفة . ومن ثم أخذت الدولة الفاطمية في الضعف والانحلال بعد وفاة العزيز بن المعز ، وسقطت في ميدان التنافس بين السنية والشيعة ، بعد أن تركت أثرا لا يمحوه توالي الأيام والأعوام .

وقد ساهم المعز لدين الله في إنعاش الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ومصر ، واستولى على جميع البلاد الإفريقية على البحر الأبيض ، عدا طنجة وسبتة ، وتوغلت جيوشه في بلاد الشام ، وهددت بغداد ، حاضرة العباسيين في ذلك الحين . واستطاع هذا الخليفة أن ينظم هذا الملك الواسع ، بما سته من النظم الإدارية الحازمة . ولم يكتف بذلك ، بل نهض بالناحية العلمية ، والثقافة المذهبية ، حتى أصبحت المنصورية في بلاد المغرب ، والقاهرة في مصر ، كعبة العلماء والطلاب والمستجيبين والدعاة . وعمل على تقدم النهضة الاجتماعية في بلاده ، فعمظت دولته ، وتدققت عليها الأموال ، وعمها الرخاء .

ولكى نرسم صورة واضحة عن حياة المعز لدين الله ، لابد لنا من أن نتعرض للكلام على مولده ونشأته ، ونبين أثر البيئة التي ترعرع فيها . ولا غرو ، فقد نشأ المعز في ذلك البيت الذي كان يرنو ببصره إلى الزعامة والملك ، وحاول تحقيق ما كانت تصبو إليه نفوس العلويين ، برغم ما وقف في طريقهم من عقبات . لكن هذا البيت ظل يعمل في السراحيانا ، وفي الجهر أحيانا أخرى ، حتى تُسوّجت جهودده بقيام الدولة الفاطمية في المغرب ، في أواخر القرن الثالث الهجري ، على يد عبيد الله المهدي . ثم خلفه القائم والمنصور ، فكسنا لهذه الدولة الفتية . حتى إذا جاء المعز لدين الله ، وجد الأمور موطأة بمهددة لتشر نفوذه ، وبسط سلطانه في المغرب والمشرق . وقد أحرز المعز نجاحا هائلا في هذه السبيل ، ولا تغلو إذا قلنا إنه يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية ، لأنه وطد سلطانه ، ووسع رقعتها ، ووضع نظام الحكم الذي أصبح نبراسا يهتدى بهديه من جاء بعده من الخلفاء والأمراء والسلاطين .

ينتسب المعز لدين الله إلى الرسول ﷺ عن طريق ابنته فاطمة الزهراء ، وإلى علي بن أبي طالب ، ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة . فهو فاطمي ، لأنه من سلالة فاطمة ، وعلوي لأنه من سلالة علي . وقد اشتهر أفراد بيت المعز بالكفاح في سبيل زعامة المسلمين وإمامتهم ، لأن علي بن أبي طالب وأبناءه من بعده ، كانوا يرون أنهم أحق من سواهم بالملك وإمامة المسلمين . ولذلك قامت الحروب بين العلويين وبين الأمويين والعباسيين . حتى حمل الإسماعيلية لواء الكفاح حول منتصف القرن الثاني للهجرة ، وتكلت جهود هذا الفريق بقيام الدولة الفاطمية - علي ما رأينا - في سنة ٢٩٦ هـ .

وبقيام الدولة الفاطمية ، انتهى أخطر دور مر على الأئمة الإسماعيلية العلويين ، فانقضى دور الستر ، وجاء بعده دور الظهور ، وبعبارة أخرى ، انقضى دور التجارب والمحن ، وحل محله دور الاستقرار والعمل<sup>(١)</sup> .

وإذا كان أبو القاسم بن الحسين ، الإمام المستقر<sup>(٢)</sup> ، قد نشأ وترعرع في دور

(١) أنظر ما كتبناه عن الأئمة ونواجههم في كتاب ، عبيد الله المهدي ، للذوافين من ٢٥ - ٩٢ .

(٢) الإمام المستقر هو الذي يستطيع توريث الامامة لسواه .



الستر<sup>(١)</sup>، وشاركه في ذلك عبيد الله الإمام المستودع<sup>(٢)</sup>، ونالها من الأذى شيء غير قليل في سلبية، وفي طريقهما إلى بلاد المغرب، ثم في بلاد المغرب نفسها. فقد جنى كل منهما ثمار ما غرسه آباؤه وأجداده، وتمتع كل منهما في عهد عبيد الله - بفترة، سادها الاستقرار، فاستطاع عبيد الله أن يجلس على عرش الدولة الجديدة، وأن يرأس الدعوة الإسماعيلية؛ كما استطاع أبو القاسم أن ينعم بولاية العهد، ويطمئن إلى أن العرش الفاطمي سيتول إليه بعد وفاة المهدي. وهكذا شاهد هذان الإمامان: الإمام المستودع، والإمام المستقر، عصرين متناقضين متباينين، هما عصرا الستر والظهور.

على أن المعز لدين الله لم يشارك جده الإمام القائم، وهو الإمام المستقر، ولا نائبه عبيد الله المهدي، الإمام المستودع، في الجمع بين عهدي الستر والظهور؛ فقد ولد في أخريات حياة عبيد الله، وتنسم الحياة في عهد هذا الإمام المستودع. وبعبارة أخرى كان لوجود المعز في دور الظهور أثره في حياته؛ فقد استطاع أن يتغذى بلبان الحرية، وينعم بحياة أبناء الخلفاء وأولياء العهود، فلم يتعرض لتلك المحن التي تعرض لها جده القائم، ولا مساعد جده الإمام المهدي. ولا غرو فقد كان لقيام الدولة الفاطمية أثره الكبير في وضع حد لنهاية هذه الآلام، التي قاساها أفراد البيت العلوي في دور الستر، كما كان بداية عهد ازدهار وسعادة، تمتع بها هذا البيت الذي طالما صب عليه الأمويون والعباسيون من بعدهم كل ألوان الظلم والعسف.

وكان المعز لدين الله علويا لهما ودما، فلم يكن من أبناء ميمون القداح - حجج الأئمة الإسماعيلية في دور الستر - لأنه لا يمت إلى عبيد الله المهدي، الخليفة الفاطمي بصلة النسب والقرابة، وإن كان يمت إليه بصلة التعليم الروحي حسب. فقد رأينا عند دراستنا تاريخ الأئمة المستورين ونوابهم، ونسب عبيد الله الفاطمي<sup>(٣)</sup>، أن هناك فرعين متباينين: فرعا خاصا بالأئمة، يبدأ بالحسين بن علي، وينتهي بالإمام القائم، وهو الخليفة الفاطمي الثاني؛ وفرعا خاصا بنواب الأئمة، ويبدأ بسليمان الفارسي،

(١) ويبدأ باستنار محمد بن إسماعيل، وينتهي بقيام الدولة الفاطمية.

(٢) الامام المستودع: هو الذي يتمتع بالامامة في حياته ولا يورثها غيره.

(٣) انظر كتاب عبيد الله المهدي للمؤلفين ص ١٥٦ - ١٦٩.

ويتمى بعبيد الله المهدي . وقد دخل فرع الأئمة في دورين اثنين ، كان أئمة الدور الأول معروفين للناس جميعا ، يثرون على الأمويين حيناً ، ويلجئون إلى إخفاء ما في نفوسهم حيناً آخر . وليس هناك ما يمنع من تسمية هذا الدور من أدوار تاريخ الإسماعيلية ، بدور الظهور الأول .

وأئمة هذا الدور الذين يعترف بهم الإسماعيلية هم : علي بن أبي طالب ، والحسن بن علي ، والحسين بن علي ، وعلي زين العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق . وأما أئمة الدور الثاني ، فلم يكونوا معروفين لكافة الناس ؛ كانوا يعملون في استتار ، وينظمون الدعوة بعبيد بن أعين الرقباء ، مستعينين بدعاتهم وحججهم ، ويلتف حولهم مستجيبوهم الذين يفرقون في حبههم ، ويعمرونهم بكثير من أموالهم . وبذلك استطاع هؤلاء الأئمة أن يكونوا مجتمعات إسماعيلية بحتة ، في كافة أرجاء العالم الإسلامي . وكانت هذه المجتمعات تموج بالذين يخلصون لأئمة هذا الدور ، أي دور الاستتار ، ويتفانون في حبههم ، دون أن يعرفوا أشخاص أئمتهم على وجه التحقيق . ذلك أن هؤلاء الأئمة قد حاطوا أنفسهم بسياس من التخفي والكتان ، حتى لا يناله ما نال آباءهم وأجدادهم من إلقاءات السجن وإزهاق أرواحهم . وأئمة هذا الدور ، أي دور الستر ، هم : محمد بن إسماعيل ، ويلقب بالمستور حيناً ، والمكتوم حيناً آخر ، ثم ابنه الإمام عبد الله الأكبر ، ثم الإمام أحمد التقي ، ثم الإمام أبو القاسم بن الحسين الوفي ، الذي تسمى بعد ذلك القائم بأمر الله ، وجلس على عرش الخلافة الفاطمية بعد وفاة عبيد الله المهدي ، ثم ابنه المنصور إسماعيل والد المعز . وهكذا ينتسب المعز لدين الله إلى أحد فروع البيت العلوي ، وهو الخليفة الرابع عند طائفة الإسماعيلية ، ويفصل بينه وبين علي بن أبي طالب اثنا عشر إماماً ، منهم ستة في دور الظهور الأول<sup>(١)</sup> ، وأربعة في دور الستر الأول<sup>(٢)</sup> ، واثنان في دور الظهور الثاني<sup>(٣)</sup> . وعلى هذا لم نضع عبيد الله بين أئمة الاستقرار الإسماعيليين . ولا بدع

(١) وهم الحسن ، والحسين ، وعلي زين العابدين . فمحمد الباقر ، جعفر الصادق ، ثم إسماعيل بن جعفر الصادق .

(٢) وهم محمد بن إسماعيل ، وعبد الله الأكبر ، وأحمد التقي ، والحسين الوفي .

(٣) وهما القائم بأمر الله (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ) والمنصور إسماعيل أبو المعز (٣٣٤ - ٣٤١ هـ) . ويقصد بهذا الدور الفترة التي تبدأ بقيام الدولة الفاطمية في سنة ٢٩٦ هـ ، وتتمى باختفاء الإمام الطيب ابن الخليفة الأمر سنة ٥٢٦ هـ .

في ذلك ، فإنه يفتنى إلى بيت غير البيت الذي ينتمى إليه القائم وسواه من الأئمة أجداد المعز .

ولندع إحدى نساء المهدي توضح لنا حقيقة هذا البيت الذي ولد فيه المعز ، ونشأ وترعرع ؛ فقد كانت تقول ، « لولد المهدي ونسائه بعد وفاته : والله لقد خرج هذا الأمر من هذا القصر ، يعنى قصر المهدي بالله ( صلح ) ، فلا يعود إليه أبدا ، وصار إلى ذلك القصر ، يعنى قصر القائم بأمر الله ، فلا يزال في ذرية صاحبه ما بقيت الدنيا<sup>(١)</sup> . ولو كان أبناء القائم من ذرية المهدي ، لما عبرت هذه السيدة بذلك ، لأنه يدل على أن ذرية المهدي غير ذرية القائم ، كما يدل على أن المعز لدين الله لا ينتمى إلى بيت عميد الله ، أى إلى البيت القداحي ، وإنما ينسب إلى جده القائم وأبيه المنصور ، وهما من سلالة أئمة الاستقرار .

## ٢ — مولد المعز ونسأته :

ولد أبو تميم معد بن المنصور ، بمدينة المهديّة ، قاعدة الفاطميين ، في ١١ رمضان سنة ٣١٩ هـ ، وذلك في أواخر عهد الخليفة المهدي بالله ؛ فأدرك في حياته ثلاثة من الخلفاء الفاطميين هم : المهدي ، والقائم ، والمنصور . وعاش في عهد إمامة الاستيادع ( من سنة ٣١٩ إلى سنة ٣٢٢ هـ ) ، ثم في عهد إمامة الاستقرار ( من سنة ٣٢٢ إلى سنة ٣٤١ هـ ) . وكانت أم المعز أم ولد ، وكان في دور الرضاع في الوقت الذي أخذ فيه نفوذ المهدي يبلغ غايته ، فترى هذا الطفل في قصور المهديّة ، يتعم بما يتعم به صغار الأمراء .

وكانت تبدو على معد أمارات النجابة منذ نعومة أظفاره ، حتى لقد اختبر المهدي ذكاه وأعجب به ، وتنبأ بأنه سيكون له شأن كبير . يخبرنا المعز بذلك فيقول : « إنى لأذكر يوماً حملت فيه إليه ( أى إلى المهدي ) ، وأنا يومئذ فطيم أعقل الكلام<sup>(٢)</sup> ،

(١) الثمان المغربي : المجالس والمساربات ج ٢ ص ٦٢١ .

(٢) ولد المعز في رمضان سنة ٣١٩ هـ ، ومات المهدي في منتصف ربيع الأول سنة ٣٢٢ هـ . ومعنى ذلك أن المعز عاش في حياة المهدي سنتين ونصف سنة فقط . وإذا هل كان المعز في هذه السن المبكرة بحيث يستطيع أن يرى ما دار بينه وبين المهدي من حديث ؟ وإذا صح ما ذكره المعز فإنه يدل هل ذكاه غارق ، استطاع به أن يرى هذا الحديث بعد وقت طويل .

وأحفظ ما يكون ، فتناولني وقبلني ، وأدخلني تحت ثوبه ، وكشف عن بطني  
وألصقها ببطنه . ثم أخرجني وبارك علي ، وسألني عن حالى ، وأجلسني في حجره  
ودعاني بما أكل ؛ فأتيت بطبق من فضة مذهب ، فيه موز وتفاح خريفي وعنب ؛  
فوضع بين يدي ، فلم أتناول منه شيئا ، فأخذه بيده ، وناولنيه ، فأخذته يدي  
فقال : امض به فكل منه أنت ما فيه ، وأعط الطبق فلانة ، وذكر بعض البنات ،  
وهي يومئذ في مثل سنى ، فقلت له : لا ! بل آخذ أنا الطبق وأعطيها ما فيه . فضحك  
(المهدى) ، وتعجب من انتباهي لذلك ، ودعاني بخير . . . وقال : سيكون  
له شأن (١) .

وهكذا عاش المعز في المهديّة والمنصورية حاضري الفاطميين بإفريقية ، وتمتع  
برؤية الأئمة الخلفاء الثلاثة ، حتى كان المهدي يجتمع به وبجده القائم وأبيه المنصور ،  
ويقول : « ما على ظهر الأرض مجلس أشرف من هذا المجلس : اجتمع فيه  
أربعة أئمة . . . »

وقد سن المهدي سنة جديدة في تربية أولياء العهد والأمراء ، تلخص في أن يتعهد  
الجد ، لا الأب ، ولى العهد ، الذى سيصبح « ولى الزمان » ، وخليفة فى الوقت  
نفسه . ولذلك كان المهدي يهتم بتربية المنصور أكثر من اهتمام أبيه القائم به . كما  
كان القائم يهتم بتربية المعز اهتماما بالغاً ، يفوق اهتمام المنصور به ، حتى لقد قال المعز  
نفسه عن أبيه المنصور والخليفة المهدي : « ما علمت أحدا ممن يقرب من المهدي  
كان يحل محل المنصور . . . وإن المهدي (صلح) كان يغذيه بالحكمة ، ويرشحه للإمامة (٢) . »  
ويبدو أن الخلفاء الفاطميين كانوا يعدون أولياء العهود إعداداً مذهيباً دينياً ،  
فيحتمون عليهم البحث فى كتب الباطن ، ويشجعونهم على الإمعان فى فهمها . وكان  
الجد يتولى هذه المهمة بنفسه ، ويتعهد ولى العهد . وبهذا كان المهدي يعلم أن القائم  
سيخلفه ، وأن المنصور سيخلف القائم ، وكذلك كان الخليفة القائم يعلم أن المنصور  
سيخلفه فى العرش والإمامة ، وأن حفيده المعز سيخلف المنصور .  
ويمتاز الدور الفاطمى المغربى بإباحة اطلاع الأمراء ، مثل المعز وسواه ،

(١) الثعالب : المجالس والمداير ج ٢ ص ٦١٦ - ٦١٧ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٥٣٩ - ٥٤٠ .

على أسرار المذهب الإسماعيلي ، وإمامهم بها إماما يجعلهم صالحين لزعامه تلك الجماعة ، من الناحية الروحية والإدارية معا ، حتى إننا نرى المهدي يتم اهتماما بالغا بتعليم المنصور وتهذيبه ، ولا يفارقه إلا في القليل النادر : فكان يغذيه بالحكمة ، ويرشحه للإمامة ، ويعطيه الكتب المذهبية ليدرسها ، حتى يكون على علم تام بالمذهب ومبادئه . وكانت هذه الكتب تسمى كتب الباطن ، أو كتب الطب الحقيقي .

انظر إلى المهدي يقول للمنصور ، وقد أعطاه كتابا من كتب الباطن : « يا بني ! ذلك هو الطب الحقيقي ، وهو طب الأرواح في الدار الآخرة ، به يعالج من ألها ، ويداوى من سقمها ... انظر فيه ، واعرف معانيه ، واحفظ أصوله ، فإن فيه أصولا من العلم الشريف . فإذا أنت حفظت ذلك ، وأتقنت معرفته ، فاصرفه لأعطيك غيره <sup>(١)</sup> . » وكذلك نرى الخليفة القائم يقصر جهوده على تنشئة حفيده المعز ، الذي كان موضع حبه وإعجابيه . ومات القائم في سنة ٣٣٤ هـ ، وقد أخذ المعز منه كثيرا ، في الناحيتين السياسية والروحية .

وقد نسأل عن السبب الذي حدا للخلفاء الفاطميين على الاهتمام بالأحفاد أكثر من الأبناء ، فيحذب المهدي على المنصور ، ويحنو القائم على المعز . والواقع أن هذا النوع من تعليم الأئمة وإرشادهم أحفادهم ليدل على مهارة سياسية ؛ فإن الآباء كثيرا ما كانوا ينجبون أبناء من أمهات متعددة . ولو أظهر الأب عطفه على واحد منهم ، وآثره على من سواه ، أغضبهم من ناحية ، وأثار حفاظ أمهاتهم من ناحية أخرى ؛ وهذا يؤدي إلى قيام المنافسة بينهم .

فها هو ذا القائم يلقى على حفيده المعز درسا نافعا في طاعة الآباء ، والحذب على الإخوة ، ويوضح له سبب محبته له ، وإيثاره إياه ، فيقول : « اسمع ما أقول لك . إن أخوف ما أتخوفه عليك ، من أيك . . . ما أعله من ميله إلى أمهات إخوتك ، فأخشى خشية المشفق عليك ، أن يعدل بهذا الأمر عنك إلى غيرك منهم . وكلاهما لا يفعل الله ذلك ، إن شاء الله . ولكن متى رأيت منه أثره عليك أو ميلا عنك ، فاصبر صبر من أحسله الله محلك ، وأقامه مقامك ، فأنت صاحبها . ولولا صغر

(١) التعمان : المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٥٤٢ .

سنة (١) اليوم ماعدتك (٢) وعن قريب تصير إليك ، فأوصيك بتقوى الله ، واحتمل ما حملت ، والصبر على ماض ما يؤتى إليك . وإخوتك إخوتك ، فأحكم معاملتهم في يومك وغدك (٣) ... (وقال) : الإخوة الإخوة ، (يتحول أمرهم لما كان ناله المعز صلى الله عليه وسلم ، في سياسة أمرهم) . ومن هنا نرى أن الخلفاء الفاطميين في الدور المغربي ، كانوا يعملون على تهيئة الأمام من الأبناء والأحفاد ، وإعدادهم للحكم والسياسة ، واستطاعوا بذلك أن يعدوا للدولة نفرا من خيرة الخلفاء ، كالمعز لدين الله . ولم يقف الأمر عند ذلك الحد ، فقد كان الخليفة القائم يأنس إلى المعز ، ويتخذ واسطة بينه وبين الرعية ، ليزوده بالخبرة التي تجعل منه حاكما ممتازا وسياسيا بارعا ، وليسكن بذلك ولاء أشياع مذهبه ، ورجال بلاطه وولايته وغيرهم من ذوى المناصب العالية في دولته . ويقول صاحب كتاب المجالس والمساربات : وكان المعز لدين الله صلى الله عليه وسلم ، يحل من القائم والأئمة من ذريته الطاهرين ، محل خصيصا منذ نشأته ؛ وكان يقربه ويدنيه ، ويسر إليه دون أبيه . وكان رسوله وسفيره إلى الناس فيما يأمر به ، وينهى عنه ، ويحتاج إليه . فإذا خلا كان بين يديه ، ومتى غاب عنه أرسل إليه (٤) .

وهكذا نال المعز ، قبل أن يلي الخلافة قسطا غير قليل من التعليم ؛ وكان من أثر اتصاله بجده القائم وغيره من رجال الدعوة أن تعمق في دراسة أصول المذهب الإسماعيلي ، وألم بكثير من كتب الباطن . ولما كان المعز على شيء كبير من الذكاء ، عمل على تعلم كثير من اللغات ؛ فتعلم اللغة الإيطالية القديمة ( اللاتينية ) ، لقرب بلاده من إيطاليا . ولا غرو ، فقد أخذت جيوش الفاطميين في صقلية تغزو إيطاليا الجنوبية ، وخصوصا قلورية ( كالابريا ) ، وإيطاليا الشمالية ، وتستولى على جنوة نفسها . وكان المعز كان يطمع في الاستيلاء على إيطاليا ، فتعلم لغتها .

(١) كان عمر المعز حين وفاة القائم ، أي حين أوصاه هذه الوصية ، لا يزيد على خمس عشر سنة . لأنه مات في سنة ٣٦٥ هـ ، وله من العمر ست وأربعون سنة .

(٢) أي ما جاورتك

(٣) الثمان : المجالس والمساربات ج ٢ ص ٤٦٧ - ٤٦٨ .

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٥٣٨ - ٥٣٩ .

ومهما يكن من شيء ، فقد استطاع المعز أن يتعلم هذه اللغة في صباه حين كان في جزيرة صقلية ، ما يدل على أنه لم يكن من الأمراء الخاملين ، بل كان كثير الترحال والاختلاط بالناس . كما تعلم اللغة الصقلية التي كانت سائدة في هذه الجزيرة . وإذا علمنا أنه كان من جند المعز الذين غزوا مصر فرقة كبيرة تسمى فرقة الصقالبة ، وأن أساتيد المعز في طفولته كانوا من هؤلاء الصقالبة ، أدركنا لماذا تعلم هذه اللغة . وعلى هذا النحو تعلم المعز اللغة السودانية ، لأن السودانيين كانوا يكونون جزءا كبيرا من جيشه ، ولأنه قد عول على فتح مصر وضم السودان إليها . كذلك تعلم المعز لغة البربر ، لأنه يقيم بين أظهرهم . وقد رأى أن يتعلم لغتهم ليقى شرم . وهكذا أتقن المعز اللغة العربية إتقاناً نراه في تلك الملاحق التي نقلناها عن النعمان . ثم أخذ - كما يقول المقرئ (١) - نفسه بحفظ اللغات الأخرى ، فابتدأ بالبربرية فأحكمها ، ثم بالرومية ، ثم بالسودانية ، ثم بالصقلبية .

ويظهر أن ذكاء المعز وهو أمير ، قد اشتهر لدى الخاص والعام ، وأنه عرف في جميع مراحل حياته بحل المعضلات ، والتغلب على كل ما يشكل على سواه من الأمراء والعلماء ، يدل على ذلك ما ذكره أبو حنيفة النعمان من أن المنصور خرج ذات يوم ، ومعه المعز وكثير من حاشيته ، وخرج النعمان معهم كذلك ، وقد عرضت على المنصور شكاية من رجلين من أصحاب الضياع ، ليفض النزاع بينهما ، فأشكل الأمر على الخليفة وعلى النعمان نفسه ، وعلى كل من كان معهم ، حتى لقد قال النعمان لزميل له : « لقد اشتبه عليَّ أمرهما ، وحسبك ما ترى من توقف أمير المؤمنين (صلح) ، والمنصور ، من الفصل بينهما » ، ثم جعل يدلي لزميله بما يدل على كفاية المعز فيقول : إن المتخاصمين « لو وقفا بين يدي الأمير - أعني المعز لدين الله (صلح) - لفصل بينهما . . . والله ما ضاق عليَّ أمر قد رأيت به ، ولا اشتبه عندي وجه الحق فيه ، فرفعت إليه ، إلا أجابني عنه قبل استيفائه آخره ، أو عند ما يستوفيه ، بجواب ما خطر ببالي ، بعد الروية له ، والفكر فيه الأيام الكثيرة ، والليالي العديدة ، بما

(١) اتعاظ الخفاص ٦٥ . ويخبرنا المقرئ أيضا أن المظفر الصقلي ، معلم المعز لدين الله ، كان دلا عليه ، لأنه أستاذه ومعلمه ، وأنه ثار ذات يوم في وجه المعز ، فنطق بكلمة صقلبية وعابها المعز في ذهنه . ولما تعلم اللغة الصقلبية : « مرت به تلك الكلمة ، فإذا هي شبيهة ، بقيت في نفسه ، حتى قتل المظفر الصقلي هذا هو رقيقا صقلبيا آخر (اتعاظ الخفاص ص ٦٥) .

لا أشك فيه أنه الحق الذي لا وجه له غيره ، (١) . ولما أدرك الخليفة المنصور  
عجزه عن الحكم بين المتخاصمين ، أحال الأمر على الأمير المعز ، ففصل بينهما سريعا ،  
فصلا يدل على ذكائه .

ولم يكن المعز في حياة أبيه بعيدا عن الإدارة والحكم ، بل كان أبوه يستشير  
في أمور الدولة ، كما كان الموظفون يرجعون إليه في دقائق أعمالهم . وكان يختلط بهم ،  
ويقف على أخطائهم ، ويراقبهم عن كسب . وكان أهم ما يعنى به المعز في حياة أبيه  
المنصور ، الإشراف على هيئة القضاء في بلاده ، فيولى النعمان قاضى قضاة المنصور  
شيئا غير قليل من الاحترام . ومما يدل على اهتمام هذا الأمير بالقضاء ، حثه النعمان  
وجميع القضاة على عدم الأخذ بشهادة الكاذب ، وذم القضاة الذين يخالفون ذلك (٢) .  
كما كان القضاة يستشيرونه في كثير من الأمور ، حتى إن النعمان كثيرا ما كان يلجأ  
إليه حين تلبس الأمور عليه .

ولما كانت السقيفة التي اتخذها المنصور للنظر في القضايا تضييق المتقاضين ،  
أشار المعز على أبيه ببناء مكان فسيح يتسع لهؤلاء المتقاضين . وهكذا عمل المنصور  
على تنشئة المعز تنشئة قوامها المراتبة والدربة والخبرة ، وتزويده بالوسائل التي تجعل  
منه أميرا مستتيرا وخليفة قادرا على تصريف شئون دولته .

وتدل هذه الوصية التي أوصى بها المنصور ابنه المعز على عظيم ثقته به ، وتقديره  
موابته . ويقول المعز : ولما احتضر المنصور بالله ﷺ جعل يوصيني بما أعمل  
عليه بعده ... وأوصى إلى رجل من عبيده كان قائما بين يديه ، ثم نظر إليه وقد دمع ،  
فقال : والله لتعاينن من مولاك هذا ، ومن جميع أفعاله وسيرته ، وما يجريه الله عز  
وجل من الخير على يديه ، ويصنعه من الجميل له ، ويؤيده به ، ويمكنه له . ويفتحه  
عليه ، ما لم تر ، ولا سمعت قط مثله . فقال الرجل : يا مولاي ! وأى شيء بقى له  
من ذلك لم تفعله أنت ؟ قال : كثير والله جدا ، هو في القوة لم يظهر بعد إلى الفعل ،  
يظهره الله له ، ويجريه على يديه . (٣) .

(١) النعمان : المجالس والمساربات ج ٢ ص ٣١ - ٣٢ .

(٢) المصدر نفسه : ج ١ ص ١٦ - ١٧ .

(٣) النعمان : المجالس والمساربات ج ١ ص ٩٠ - ٩١ .



وترجع ثقة المنصور بابنه الأمير معد إلى أمرين : أولهما ، توقة ذلك المعز وحسن تدييره ، وثانيهما ، مبادئ العقيدة الإسماعيلية التي تنص على أن الإمام اللاحق يفوق الإمام السابق علما ودراية وتجربة . وفي ذلك يقول المنصور : « إنه لا يأتي إمام إلا أعطاه الله فضل الإمام الذي مضى قبله وعلمه وحكمته ، وزاده مثل ستة أسباع ذلك » (١) .

وإذا علمنا أن المعز لدين الله أفاد كثيرا من اتصاله بجده القائم ، وانتفع بعلمه وأبيه وحكمته ، أدركنا أنه كان أحق الفاطميين بزعامة العالم الإسماعيلي بعد المنصور ، حتى إن جده القائم عرف ذلك فيه وقال له : « لولا صغر سنك ، لجعلت هذا الأمر إليك ؛ ولكن أنت أبو تميم حقا كما كنت » (٢) ، أي أن التمام أمور الدولة واتساعها سيتم على يديه . وهكذا رشع المنصور ابنه المعز للإمامة والخلافة معا ، لا لأنه كان أحب الناس إليه ، بل لأنه كان أقدر أبنائه على النهوض بأعباء الخلافة والدعوة .

### ٣ - تولية المعز المعز والخليفة:

إن نظام ولاية العهد عند الفاطميين ليؤلف فصلا رائعا في تاريخ الخلافة الفاطمية في الدور المغربي ، فإن انتقال الإمامة من الخليفة المهدي إلى الخليفة القائم ، كان معناه رد الوديعة إلى صاحبها الشرعي . فقد أدى المهدي إلى القائم وأمانته ، وسلم إليه رتبته ، وأعطاه وديعته التي استودعها الله إياه له ، لم يجعل لساير أولاده فيها نصيبا ، بل أقر الحق في مقره ، وجعله في مستقره (٣) . ومن ثم لم يكن بد من أن يضع أئمة الاستقرار الذين يبدؤون بالخليفة القائم نظاما لانتقال الإمامة والخلافة معا من شخص إلى آخر .

(١) التمام ج ١ ص ٧٥ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(٣) الداعي إدريس : زهر ألعان ( من المنتخب ) ص ٧٠ .

وقد سن القائم في نظام ولاية العهد سنة طيبة سار عليها خلفاؤه من بعده ؛  
فقرض على كل من الخلفاء الفاطميين أن يعين من يخلفه قبل أن يدفن سلفه بيده ،  
وأن يشهد على هذا التعيين أخلص الناس إليه . ويقول الداعي إدريس : إن الخليفة  
القائم الفاطمي أشهد ، جوذرا ، أحد المخلصين من أنصار الفاطميين على ذلك وقال  
له : « يا جوذر ! إنه لا يحل أن يدفن الإمام الإمام الذي قبله ، حتى يقيم حجة لنفسه ،  
وليس يحل ذلك لي حتى أقيم حجتي . وقد ارتضيتك لهذه الإمامة دون جميع الخلق ،  
وتلا عليه قوله سبحانه ؛ « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال  
فأبين أن يحملنها (١) » ، إلى آخر الآية . ثم قال : ادن مني أفلا دنا منه قال : هات  
يدك ! فبسط يده وهو مرعوب لهيبته ، وقال : إنا أخذنا عليك عهد الله وغليظ  
ميثاقه ، أنك تكتم عني ما أظهره وأكشفه لك . قال : نعم يا مولاي صلى الله عليك !  
فقال له : ولدي إسماعيل المنصور هو حجتي وولي عهدي ، فأعرف حقه وقدره ،  
واكتم أمره وسره ، حتى أظهره في الوقت الذي يريد الله فيه ظهوره (٢) .

ومن الغريب أن المنصور لم يعرف أنه ولي العهد ، إلا قبل وفاة القائم بثلاثة  
أيام ( سنة ٣٣٤ هـ ) ، مع أنه قد نص على توليته العهد منذ اثنتي عشرة سنة ، أي  
في سنة ٣٢٢ هـ (٣) . لذلك لم صادت منية القائم أظهره جوذرا ، عهد المنصور  
لجميع الإسماعيلية ، فدانوا له بالطاعة . ولا بد أن يكون الخليفة المنصور قد فعل يوم وفاة  
أبيه القائم مع ابنه المعز ما فعله أبوه معه ، أي أنه ولي المعز عهده ، وأخفى أمره  
على الناس ، إلا بعض خواصه المقربين إليه . وكان المعز فوق ذلك يعرف أنه  
ولي العهد ، منذ أخبره القائم قبيل وفاته بأن الأمر سينزل إليه بعد أبيه ؛ مما يجعلنا  
نعتقد أن تولية المعز العهد بعد المنصور ، كان أمرا مقررًا بين القائم والمنصور نفسه ؛  
وإن في تلك العبارة التي ذكرها القائم للمعز ما يؤيد هذا حين قال له : « فأخشى  
خشية المشفق عليك أن يعدل ( المنصور ) بهذا الأمر إلى غيرك منهم ( أي من

(١) سورة الأحزاب آية ٧٢

(٢) الداعي إدريس : زهر المغانق ( من المنتخب ) ص ٧٢ .

(٣) الثعالب : المجالس والمساربات ج ٢ ص ٤٦٨ .

إخوة المعز) . وكلاً لا يفعل ذلك إن شاء الله . وهكذا نستطيع أن نقول ، إن المعز تولى العهد وله من العمر اثنتان وعشرون سنة .

وإن تعيين الإمام بالنص أمر مسلم به عند الإسماعيلية ، حتى إن المنصور قال للمعز حين عهد إليه : « والله ما أنا آثرتك بما آثرتك به ، بل الله آثرك واختصك وأعطاك واجتباك . والله لو ملكت من الدنيا درهما فما فوقه من غير هذا الوجه ، لما استجزت أن أخص به أحداً من ولدي دون أحد . فأما ما خولني الله من الكرامة ، واصطفاني به من الإمامة ، فإنما هو متاع عندي ، وغارية في يدي ، إلى انقضاء المدة وتمام العدة . ثم هو لك بحكم الله وأمره وإعطائه ، لا عن أمري وحكمي واختياري واختصاصي إليك به <sup>(١)</sup> . » وكان يتحتم على الخليفة أن يستغل تجاربه في تنقيف ولي عهده ؛ فنرى المنصور يوصي المعز بقوله : « إني أجمع لك الوصايا كلها في كلمة واحدة : فانظر فما كنت رأيتني أفعله فافعله . وما كنت رأيتني تركته فاتركه ، واصنع بعد وفائي ما كنت رأيتني أصنع في حياتي ، فنعم السلف أنا لك <sup>(٢)</sup> . »

وأما تولية المعز الخلافة الفاطمية ، فإنه اعتلى العرش في اليوم الذي توفي فيه أبوه المنصور أبو الطاهر إسماعيل ، وذلك في سلخ شوال سنة ٣٤١ هـ ؛ فأخفى موت أبيه إلى أوائل شهر ذي الحجة من السنة نفسها ، حتى لا تتعرض بلاده للثورة . وإذا كان القائم قد أخفى موت المهدي سنة كاملة . وأخفى المنصور موت القائم سنتين ، فإن المعز لم يفعل ذلك ، لأن أمور الدولة كانت حين ولي الخلافة أكثر استقراراً ، وأدعى للطمأنينة ، منها في عهد أبيه وجده .

ولم تكن إدارة البلاد ، وتسيير شئون الدولة أمراً جديداً على المعز ؛ فقد مرن عليها ، وتدرّب على تصريف شئونها منذ أيام القائم . ولم يشعر رجال الدعوة وأساتذتها ودعاتها ومستجيبوها بأن المعز شخص غريب عنهم ؛ فقد كان خير معين وملاذ للدعوة في عهد الخليفة المنصور ، كما أمنت الرعية جانبه ، لأنهم

(١) الثمان : المجالس والمساربات ج ١ ص ١٥٢ - ١٥٣ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٩٦ - ٩٧ .

ألفوا كياسته وحسن تديره . ولم يكن الجند أقل ميلا إلى المعز من الرعية ؛ فطالما أنسوا إليه ، واستعانوا به ، ولذلك أصبحوا بعد توليته الخلافة أسلس قيادا ، وأكثر طاعة . وعلى أيديهم تمت الانتصارات الرائعة في الشرق والغرب وفي البر والبحر . ولما ولي المعز الخلافة ، حرص على أن يتقرب إلى الرعية ، وإلى الكتاميين خاصة ، وكان يقف منهم موقف الأستاذ من تلميذه والاب من أبنائه . وكثيرا ما كان يجتمع بكبار شعبه ، ويزودهم بنصائحه ، ويضرب لهم المثل الأعلى ، ويبين لهم أنه يتعب ويشقى في سبيل هئامتهم وسعادتهم ، ويطلب إليهم مساعدته على النهوض بالدولة والدعوة . انظر إليه وهو يعظ جماعة من مشايخ كتامة ووجوههم ، فيقول : «إني أنزلت كباركم منى منازل الإخوة ، وصغاركم منازل الأولاد ؛ وأنتم في خير زمان ؛ فاعرفوا قدر النعم عليكم ، وقيسوا أنفسكم اليوم بمن مضى منكم بالأمس . من قوم أتم بعض حسناتهم . . . وأنتم اليوم معنا في خير زمان مع خير إمام ؛ برّ بكم ، عطوف محسن إليكم ، يقيلكم العثرة ، ويفقر لكم الزلة ، ويحسن إلى محسنكم ، ويتعمد (١) عن مسيئكم (٢) .»

ولم يقف المعز عند ذلك الحد ، بل جعل يرسم لرعاياه ما يجب عليهم أن يسلكوه في حياتهم ، ويبين لهم الصفات التي يجب أن يتحلوا بها ، حتى يكون مجتمعه وحدة لا تفكك فيها . يتضح ذلك من وصيته التي أوصى بها شعبه المغربي والكتاميين منهم خاصة حين يقول لهم : «أريد منكم ثلاثا ، وأكره لكم ثلاثا : أريد منكم الصدق ، وأكره لكم الكذب ؛ وأريد منكم العفاف ، وأكره لكم الخيانة ، وأريد منكم التواضع ، وأكره لكم الكبر . وهذا أخوف ما أتخوفه عليكم (٣) .»

ولم تسكن الرعية أقل حبا للمعز ودولته ؛ فقد شعر المغاربة وعلى رأسهم الكتاميون ، أن الدولة الفاطمية هي التي سمت بهم إلى الرفعة ، ووجدت بلاد المغرب ، وأنه لولا تلك الدولة لظلوا خاملين . ومن ثم لهجوا بالثناء على الفاطميين . وكثيرا

(١) يتعمد : يستتر وهو متعمد وقد يضمن معنى يصفح ، فيمدى بن

(٢) الثمان : المجالس والمساربات ج ١ ص ٩٦ - ٩٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٨٧ .

ما تغنى زعمائهم بفضل المعز ، وقالوا له : « يا أمير المؤمنين ! نحن عبيدكم ، وما فعلته  
 فينا من جميل ، فالله يجزيك به . ولو شكرناك باقى أعمارنا لم نبلغ أقل إحسانك  
 إلينا وفضلك علينا . وقد حقق المغاربة جميع أعمال المعز ، فأداروا دفة الحكومة  
 بطريقة تثير الإعجاب ، وحاربوا فى شجاعة نادرة المثال . وهكذا نال المعز إعجاب  
 رعاياه ، حتى إنه « لم يبق منهم أحد إلا أناء وأحسن إليهم (١) » .

كان على المعز إذن ، بعد أن وطد علاقته مع رعيته أن يستغل ذلك لمصلحة  
 دولته ودعوته ، وأن يكرس جهوده وجهود رعيته لرقى بلاده ، فاستطاع أن  
 يكون جيشاً قويا ، وأن يصطنع قوادا أقوياء ، تركوا لهم تراثا مجيدا يشيده الأبناء  
 والأحفاد . فظهر فى عهده جوهر الصقلي ، الذى تم على يديه توحيد جميع بلاد المغرب  
 تحت راية الفاطميين ( فى ٣٤٧ هـ ) كما تم على يديه فتح مصر ، وظهر فى عهده زيرى بن  
 مناد الصنهاجى وأبناؤه ، وخاصة بلسكين الذى خلف المعز على بلاد المغرب ،  
 والحسن بن على الكلبى صاحب صقلية ، ومؤسس الأسرة الكلبية فى هذه الجزيرة ،  
 وغير هؤلاء كثير .

وكان على المعز فوق ذلك أن يصلح ما أفسده أبو يزيد مخلد بن كيداد ، فإن  
 المنصور لم يستطع أن يقضى على آثار تلك الثورة الجامحة ، ولم يأخذ المغاربة الذين  
 كانوا يماثلون ابن كيداد بالشدة ، بل لاینهم واستياهم (٢) . ولما أدرك المعز أنه أرضى  
 رعيته ، ونظم جيوشه ، عمل على توحيد جميع بلاد المغرب تحت رايته . واستطاع  
 فى سنة ٣٤٧ هـ أن يقضى على خطر الأمرء المستقلين فى بلاد المغرب ، كأمرى فاس  
 وسجلماسة ، وأن يفل شوكة بنى عمه الأدارسة ، ويقضى قضاء يكاد يكون تاما على  
 نفوذ الأمويين فى بلاد المغرب ، بالفتك بمن اتهم بمالائهم والتقرب إليهم .  
 ولم يسكتف بتوحيد جميع بلاد المغرب ( الأقصى والأوسط والأدنى ) تحت رايته ،  
 بل عمل على إثارة محاوف الأمويين والإغارة عليهم فى عقر دارهم ، وانتصر على  
 أسطولهم وحرب موانيهم ، كما حارب الروم الذين تحالفوا مع الأمويين ، ورجعوا  
 فى الوقت نفسه فى الانضمام إلى الثوار فى صقلية ، والوقوف فى وجه الفاطميين ،  
 واستطاع أن يغزو جنوب إيطاليا ( قلورية ) ، وعنى عناية تامة بالتهوض  
 بالدعوة الفاطمية .

(١) ابن الأثير : الكامل ٨٣ ص ٨٠ .

(٢) المصدر نفسه ٨٣ ص ١٧٩ - ١٨٠ .

## الباب الثاني

### المعز لدين الله الفاطمي

١ - عمارة المعز بالأرداسية وزعماء المغرب

ولي المعز لدين الله الخلافة الفاطمية ، بعد أن أذكى أبو يزيد مخلد بن كيداد (١) تلك الثورة ، التي كادت تعصف بهذه البلاد ، وتركت ، شمالاً إفريقية في حالة يرثى لها ، وأثرت في موارد الدولة الفاطمية ، حتى أصبح بيت المال خلواً من الصفراء والبيضاء ، وقضى الخليفة الفاطمي المنصور البقية الباقية من خلافته ، في إصلاح ما أفسده

(١) نشأ أبو يزيد في مدينة توزر أكبر مدن بلاد الجريد ، وهو من زنانة ، ينتمي إلى الكاهنة ، التي وقفت حجر عثرة أمام المسلمين الأوائل حيناً من الزمن ، واعتنق منذ صغره مذهب الخوارج الغلاة الذي يقضى بتكفير أهل الدين واستباحة أموالهم والخروج على ملوكهم ، حيث لا طاعة لهم إلا لله . وانتقل أبو يزيد إلى تاهرت ، حاضرة المغرب الأوسط ، وأخذ يعلم الصبية فيها ، ثم فر إلى نفوس ، حين خرج أبو عبد الله الشيعي قاصداً سلجاسة لتخليص المهدي ، واتخذ من تعليم الصبية وسيلة لنشر مذهبه . واستقامت له الأمور منذ أواخر عهد المهدي ، وزاد خطره بعد وفاته ، وساعدت قبائل نفوس والزاب والمغرب الأقصى ، واستولى على مدن كثيرة ، وأصبح خطراً يهدد كيان الفاطميين باستيلائه على مدينة الأدريس ، مفتاح المهدي ، وأغار على المهدي نفسها ، وبلغ أوج عظيمته في سنة ٣٣٣ هـ . وكان يركب حملاً ، يسمى صاحب الحمار ، وتسمى أيضاً شيخ المؤمنين .

وقد استعان القائم بقائده زيري بن مناد زعيم قبيلة صنهاجة ، واتخذ مدينة نفوس المحمدية مركزاً يوجه منه ضرباته إلى جيوش أبي يزيد ، الذي لم يلبث أن تركه كثير من أنصاره ، ولم يبق معه سوى قبيلتي هواة ، وبني كلان . واضطر إلى الارتداد عن المهدي إلى القيروان ، غير أن أهلها امتنعوا عليه فاضطر إلى التفرق مع من بقى معه . فهلك كثير منهم . ولما ولي المنصور للخلافة بعد القائم ، قوى مركزه كثيراً بانضمام صنهاجة إلى الفاطميين ، وتمكن من هزيمة أبي يزيد ، وطرده في الصحراء ، ثم قبض عليه وساقه إلى المهدي ، فات بها متأثراً بجراحه ، وذلك في سنة ٣٣٦ هـ .

أبو يزيد ، وإعادة تنظيم بلاده ، (١)

والحق أن هذه الثورة كادت تقضى على نشاط الفاطميين السياسى والحربى معا ، فشلت أيديهم ، وحالت دون تحقيق تدبيرهم لفتح مصر ، فلم يحاول القائم (٣٣٤ هـ) أو المنصور (٣٤١ هـ) أن يجدد ما بدأه عبيد الله من تركيز جهود الدولة لفتح هذه البلاد والاتجاه نحو الشرق ، كما أتاحت هذه الثورة الفرصة لأهالى الأقاليم المغربية النائية لشق عصا الطاعة ، والوقوف فى وجه الفاطميين .

على أن عبيد الله المهدي استطاع أن يقضى على أدارسة فاس ، باستعانتة بحليفه موسى بن أبى العافية ، وقائده المشهور مصالة بن حبوس . وبفضل هذين الرجلين زالت دولة الأدارسة ، وأكادت ، من فاس . إلا أن زوال هذه الدولة الشيعية قد ترتب عليه أمران ، كلاهما خطر على الفاطميين ؛ أولهما : تكتل الأدارسة وأنصارهم فى بلاد الريف ، مما جعلهم يعدلون عن سياسة التقرب إلى الفاطميين ، ويرتمون فى أحضان أعدائهم الأمويين فى الأندلس ؛ وثانيهما : استبداد موسى بن أبى العافية وأبنائه ببلاد المغرب الأقصى ، وإعلانهم استقلالهم عن الدولة الفاطمية ، بل إنهم أعلنوا انضمامهم إلى الأمويين أعدائهم الأساسيين فى الأندلس . ومن ثم تحتم على خلفاء عبيد الله ، وبخاصة القائم والمعز ، العمل على ازدياد نفوذهم فى المغرب الأقصى وبلاد الريف ، للقضاء على نفوذ الأدارسة وبيت ابن أبى العافية من ناحية ، وعلى نفوذ الأمويين من ناحية أخرى .

استقام الأمر لموسى بن أبى العافية ، على ما يقوله السلاوى (٢) ، فى المغربين الأقصى والأوسط ، منذ زال نفوذ الأدارسة من فاس فى عهد عبيد الله المهدي . ومن ثم خلع طاعة الفاطميين . ودخل فى طاعة عبد الرحمن الناصر ، الخليفة الأموى فى الأندلس (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) ، خصوصا بعد أن أخذت مطامع الأمويين تتجه إلى هذه البلاد ؛ فاستولوا على مدينة سبتة فى سنة ٣١٩ هـ ، وخطب موسى لهم على منابر بلاده دون الفاطميين . وساعده على ذلك موت القائد الفاطمى المشهور

(١) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر من ٨٦ — ٨٧

(٢) الاستقصا ، لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨١

مصالة بن حبوس ، وانتصاره على الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس الملقب بالحجام ، الذى يعتبر آخر أدارسة فاس ( سنة ٣١٣ هـ ) ، فصفاه له ملك بلاد المغرب ، وعلى أدارسة الريف فى سنتى ٣١٨ ، ٣١٩ هـ ، وما بعدهما . ولم ير الفاطميون بدا من أن يحتفظوا ببيتهم فى تلك البلاد النائية ، وأن يقبضوا على أنصار الأمويين فيها . ولذلك أرسل عبيد الله جيشا بقيادة حميد بن يصال ، صاحب تاهرت من قبل الفاطميين ، وابن أخى قائدهم المشهور « مصالة بن حبوس » ، واستطاع حميد أن يحل الهزيمة بموسى بن أبى العافية ، الذى فر من مدينة فاس . ومن العوامل التى ساعدت على انتصار الفاطميين ، أن الأدارسة اتهموا فرصة هجوم حميد ابن يصال ( ٣١٧ هـ ) على مدين بن موسى بن أبى العافية ، ولما سمع ولد موسى بقدم حميد هربت جنوده من فاس ، وتظاهر بنو إدريس على قائد موسى ابن أبى العافية ، فهزموه وغنموا أكثر عسكره . (١) .

وقد قلد القائد الفاطمى « حامد بن حمدان » ولاية إقليم فاس ، وعاد هو إلى تاهرت . بيد أن هذا الولى تعرض لهجمات منافسى الفاطميين ، فقتله أحمد بن أبى بكر بن سهل الجنامى ، واستولى على فاس ، وأرسل رأسه ورأس ابنه إلى موسى ابن أبى العافية ، وبعث موسى إلى قرطبة إلى عبد الرحمن الناصر ، وخطب للأمويين فى بلاد المغرب من جديد ، (٢) . وقد حدث ذلك كله بعد وفاة عبيد الله المهدي ، مما يدل على مدى الاضطراب الذى ساد الدولة الفاطمية فى ذلك الوقت .

على أن الخليفة العاطمى القائم لم يكن أقل اهتماما بشأن المغرب من سلفه عبيد الله ؛ فقد أرسل فى سنة ٣٢٢ هـ — ٣٢٣ هـ قائده المشهور ميسورا الفقى (٣) ، الذى استولى على فاس من مغتصبها أحمد بن أبى بكر الجنامى ، وساقه أسيرا إلى المهديّة ، وأثار الخلاف بين ابن أبى العافية والأدارسة ، الذين أصبحوا عوناً للفاطميين . ويرى ابن عذارى أن ميسورا لم يستطع الاستيلاء على فاس ، وأن أهلها قاوموه

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٢٢

(٢) السلاوى : الاستقصا ، لاخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨٢

(٣) ويسى ميسورا الحصى أيضا .



سبعة أشهر دون جدوى (١). وبذلك خضع الأدارسة للفاطميين ، على ماسنرى ، بعد أن خضعوا للأمويين من قبل .

وإبن خلدون (٢) يرى أن ميسورا الفتى فتح مدينة فاس ، وولى عليها الحسن ابن القاسم اللواتى ، وأن الفاطميين استردوا نفوذهم في هذه البلاد ، فخطب للقائم على المنابر ، وضربت السكة باسمه هنالك ، واستمر الحسن بن القاسم اللواتى على حكم هذه البلاد نحو اثنتى عشرة سنة ، إلى أن خلعه أحمد بن أبي بكر ، بعد أن أطلق سراحه من المهديّة في سنة ٣٣٥ هـ .

والواقع أن خطر بيت ابن أبي العافية ظل جاثماً على صدر الفاطميين ؛ فقد استطاع موسى أن يعتصم بأحد الحصون ، ويناوى الفاطميين وأنصارهم ، وينادى في الوقت نفسه بزعامة الأمويين . ولم يزل خطر آل أبي العافية عن المغرب الأقصى إلّا في أخريات عهد المعز لدين الله ، حيث انقرضت دولتهم في سنة ٣٦٣ هـ . واستمر نفوذهم في أطراف المغرب ، حتى قضى عليه يوسف بن تاشفين (٣) ، وبذلك نرى أن هذه الأسرة قد أنعبت المعز لدين الله ، وأن جوهر الصقلي لقي عناء كبيراً في حملته الكبرى على بلاد المغرب سنة ٣٤٧ هـ .

أما موقف الفاطميين من الأدارسة ، فقد رأينا كيف ساهم موسى بن أبي العافية مع الفاطميين في القضاء على أدارسة فاس ، منذ أوائل القرن الرابع ، وكيف اتحد موسى هذا مع ابن عمه مصالة بن حبوس ( من سنة ٣٠٥ إلى سنة ٣٠٩ هـ ) عليهم . حتى قضوا على نفوذ يحيى الرابع بن إدريس بن عمر ( ٢٩٢ — ٣١٠ هـ ) ، الذى فر إلى المهديّة نفسها ، ومات بها في سنة ٣٣٢ هـ .

والواقع أن الأدارسة ، بعد يحيى هذا ، لم يستكينوا لهذِهِ النهاية المؤلمة ، حيث ثار أحدهم ، ويدعى الحسن بن محمد المشهور بالحجام ( ٣١٠ — ٣١٢ هـ ) ، على والى الفاطمى ، وقبض عليه ، واستبد بأمو فاس ، وهزم جيوش ابن أبي العافية غير

(١) ابن هذارى : البيان المغرب ٣ ١ ص ٢١٧ .

(٢) العبر ٦٣ ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ٣ ص ٢٨٤ .

مرة . إلا أن موسى لم يزل به حتى هزمه وطرده عن فاس ، و انتظم له الأمر في المغربين الأقصى والأوسط ، . وكان من أثر هذا الانقلاب أن لجأ أدارسة فاس إلى بني عمهم في إقليم الريف ، وكانوا يحقدون على ابن أبي العافية ، الذي لم يلبث أن قلب للفاطميين ظهر المنجن ، فأبطل الخطبة لهم من بلاده ، وخطب للأمويين (١) .

وقد تكشف للفاطميين والادارسة نيات ابن أبي العافية ، واتحدت رغبة كل منهم في القضاء عليه . وليس معنى ذلك أن الادارسة كانوا يميلون إلى الفاطميين ، بل إن كلا من هؤلاء وأولئك ، رغب في الانتقام من ابن أبي العافية ؛ أما الفاطميون فقد حنقوا عليه ، لأنه استبد بالمغرب الأقصى دونهم ، وتحالف مع أعدائهم الأمويين ؛ وأما الادارسة فلأنه انتزع منهم إقليم فاس بالمكائد حينما ، والحروب حينما آخر ، ولذلك انضموا إلى ميسور الفتي . قائد الفاطميين ، في صراعه مع موسى بن أبي العافية في سنتي ٣٢٣ ، ٣٢٤ هـ ، واستردوا ما كانوا قد فقدوه ، بل استولوا على جميع البلاد التي كان يتحكم فيها ابن أبي العافية (٢) . غير أن سياسة الادارسة قد أثارت حنق الخليفة الناصر الأموي عليهم . وكان من أثر ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد على الفاطميين أنهم لم يستطيعوا أن يحرموا الادارسة ، وتركوهم طعمة للأمويين .

والواقع أن ميسورا الفتي قائد الفاطميين ، لما طارد موسى بن أبي العافية إلى الصحراء ، انتقلت السلطة في بلاد المغرب الأقصى إلى القاسم ، وأخيه إبراهيم (٣) ، وكابا من زعماء الادارسة ؛ ودخلت بلاد ابن أبي العافية تحت حكم القاسم ، الذي اتخذ من قلعة حجر النسر بإقليم الريف مقرا لإمارته (٤) . وكان يرى وجوب

(١) انظر كتاب ، عبيد الله المهدي ، للدولتين ص ١٩٧ — ١٩٩ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٧ .

(٣) يعرف القاسم بقنون ، وإبراهيم بالرموني . وهما أخوا الحسن بن محمد بن القاسم ، آخر أمراء أدارسة فاس ، وهو المعروف بالحمام .

(٤) لما أجلى ابن أبي العافية أدارسة فاس إلى الريف ، أصبحت رياستهم في يد إبراهيم بن محمد بن القاسم ، فاخطط لهم قلعتهم حجر النسر ، في سنة ٣١٧ هـ ( ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٦ ، ٧ ) . وكانت سياسته ترمي إلى التقرب من الأمويين . أما أخوه القاسم الذي خلفه فقد انصرف عن الأمويين إلى الفاطميين .

التخلص من سيادة الأمويين عليه ، ووجوب القضاء على أسرة ابن أبي العافية ، وفي سبيل ذلك تعلق بالفاطميين . يقول ابن خلدون (١) : « تولى على بنى محمد القاسم الملقب بقنون ، وهو أخو الحسن الحجام ، واسمه القاسم بن محمد بن القاسم . وقام بدعوة الشيعة انحرافا عن أبي العافية ومذاهبه ، واستمر حتى توفى في سنة ٣٣٧ هـ . وتولى بعد القاسم ابنه أحمد المعروف بأبي العيش . وقد وصفه السلاوي (٢) ، بأنه ، كان فقيها ورعا ، حافظا للسير ، عارفا بأخبار الملوك وأيام الناس ، وأنساب قبائل العرب والبربر ، شجاعا جوادا . وكان يعرف في بنى إدريس بأحمد الفاضل . وقد غير سياسة أبيه ، فأنحرف عن الفاطميين إلى الأمويين ، لبعده الشقة بين المهديّة وبين بلاده الريف ، ولقرب الشقة بين قرطبة وبين بلاده . إلا أن سياسة التقرب إلى الأمويين قد أطمعت عبد الرحمن الناصر الأموي في ملك الأدارسة ، فعمل على الاستيلاء على طنجة ليضمها إلى سبته ، وكان قد استولى عليها في سنة ٣١٩ هـ - على ما رأينا . وقد حاول أبو العيش الوقوف في وجه الناصر ، لكنه بعد أن أدرك خطل سياسته في التقرب إلى الأمويين والتباعد من الفاطميين ، اضطر إلى التسليم والإذعان ، بعد أن أرسل إليه الخليفة الأموي جيشا وأسطولا حاصراه وضيقا عليه . واستمرت الحال على ذلك حتى مات أبو العيش في عهد المعز سنة ٣٤٨ هـ .

ولم يكتف أبو العيش بذلك ، بل اشترك مع الناصر في حروبه مع الفرنجة ؛ ولذلك استخلف أحمه الحسن بن القاسم قنون على بلاده ، وقصد الأندلس . فكان في هذا العمل معنى التبعية المطلقة للأمويين في أسبانيا . يدل على ذلك أن الأدارسة حين هموا في سنة ٣٤٧ هـ بإعادة بناء مدينة «تطوان» المجاورة لسبته ، لكي يتنافسوا بها تلك المدينة ، أنفأ أهالي سبته من ذلك ، واستعانوا بالخليفة الناصر الذي أرسل الجيوش من الأندلس لمحاربة الأدارسة ، فاضطر هؤلاء إلى التسليم ، وبعثوا أولادهم

(١) العبر ج ٤ ص ١٧ .

(٢) الاستقصا ، لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨٥ .

مراهين<sup>(١)</sup> إلى قرطبة<sup>(٢)</sup> .

وهكذا لم تكن الأمور قد استقرت بعد للفاطميين في بلاد المغرب . فلم يكن بد من أن يعمل المعز لدين الله على إخضاعها وإقرار الأمن في ربوعها ؛ وبذلك يستطيع أن يوجه جيوشه إلى بلاد أسبانيا ، ثم إلى مصر ، ومد نفوذه إلى المشرق . وقد قام المعز لدين الله بجهود جبارة في سبيل إخضاع جميع بلاد المغرب ، وتم ذلك على مرحلتين ، كان جوهر الصقلي بطل المرحلة الأولى ، وزيرى بن مناد الصنهاجى بطل المرحلة الثانية . وكانت الظروف تحتم عليه أن يقوم بعمل جدى في بلاد المغرب الأقصى ، كي لا تضيع هيبة الفاطميين هنالك ؛ فقد استطاع الأمويون أن يخضعوا كثيرا من أمراء تلك البلاد ، بالقوة تارة ، وبالخدعة تارة أخرى ، منتهزين فرصة بُعد تلك البلاد عن حاضرة الفاطميين .

يدل على ذلك هذا الوصف الممتع الذى أورده السلاوى<sup>(٣)</sup> عن طريقة توغل نفوذ الناصر في شمال إفريقية ، فيقول : وكانت قوات الناصر تجوز من الأندلس إلى العدو<sup>(٤)</sup> ، يقاتلون من خالف الأدارسة من البربر ويستألفونهم . والناصر محمد مساعد لمن عجز منهم برجاله ، مقولن ضعف منهم بما له ، حتى ملك أكثر بلاد المغرب ، وبايعته قبائله من زناتة والبربر ، وخطب له على منابرهم ، من تاهرت إلى طنجة ، ماعدا ببجلماسة ؛ وبايع الناصر أهل فاس فيمن بايعه من بلاد العدو .

وليس هذا فقط ، بل كان هناك من الحوادث ما أثار مخاوف الفاطميين على ملكهم في أقصى المغرب . فقد جذب الناصر إليه كثيرا من أمراء زناتة وروساء تاهرت ، ووهران ، وسواها ، حتى إنه في سنة ٣٤١ هـ أدخلت بين يدي الناصر بعض رؤوس كبار الفاطميين التي احتبزها حلفاؤه بالمغرب ، وعلى رأسهم رأس القائد الشيعى ميسور ، ورأس محمد بن ميمون ، وغيرهما من رؤوس أعلام

(١) أى رهائن .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

(٣) الاستعما ، لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨٥ .

(٤) العدو : بضم العين ، هى الأرض المرتفعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط والمحيط

الأطلسى ، وتسمى عدوة المغرب ، وتقابلها عدوة الأندلس .

الشيعة ، وعشرة من جنودهم أدخلت منكسة ، ومعها عدة من طبولهم . فرفعت هذه الرموس والبند والطبول على باب قصر قرطبة ، وأقيمت له ولمن جاء بعده الكرامات الواسعة ،<sup>(١)</sup> .

ولاشك أن المعز لدين الله كان يطمع في أخذ بلاد الأندلس ، وأن الرسائل قد تبودلت بينه وبين الناصر ، وقامت الحروب بين القربيين . ولكي يحفظ المعز هيئته في شمال إفريقيا ، لم يكن بد من أن يجهز الجيوش ، ويقضى على نفوذ الأمويين في هذه البلاد .

وتتلخص السياسة التي رعى المعز من وراثتها ، إلى تسيير تلك الجيوش الضخمة بقيادة وزيره وقائده جوهر في اشتراك كثير من الأمراء المواليين للفاطميين ، حتى تكون المظاهرة أشد إحكاما . ولذلك وضع على رأس الحملة مع جوهر عددا كبيرا من هؤلاء الأمراء ، مثل زيري بن مناد الصنهاجي ، أمير وأشير ، وجعفر بن علي الأندلسي ، أمير ، المسيلة ، وغيرهما . كما كان يرعى من وراء تلك الحملة الكبيرة إلى إخضاع الأمراء الثائرين على الحكم الفاطمي ، والفتك بمن انضموا إلى الأمويين ، وجعل بلادهم تحت إشراف جماعة عرفوا بإخلاصهم للفاطميين .

وكانت وجهة هذه الحملة بلاد تاهرت للانتقام من واليها الفاطمي ، يعلى بن محمد ، لانضمامه إلى الأمويين ، وانحرافه عن الفاطميين ؛ ويبدو أن يعلى هذا تظاهر لجوهر وزيري بن مناد ومن معهما بالإخلاص ، إلا أنه بدا منه ما يدل على عدم إخلاصه للفاطميين أو لحملة جوهر ، ولذلك قبض عليه وعلى أبنائه ، وهدمت حاضرة ولايته<sup>(٢)</sup> . ويرى بعض أن يعلى بن محمد الزناتي ظل على إخلاصه للناصر الأموي ؛ وأنه كان نائبه ببلاد المغرب ؛ ولذلك قاوم الجيوش الفاطمية ، فأسره جوهر ثم قتله<sup>(٣)</sup> . وسواء جهر يعلى بعدائه للفاطميين أو بإخلاصه لهم ، فإنه كان أموي النزعة ، كما كان القبض عليه وعلى أنصاره ثم القضاء على مركز مؤامراتهم ، من أكبر

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ٢٣٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٨٩ .

(٣) السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨٦ .

عوامل نجاح جوهر ، الذي وضع بلاد المغرب الاوسط في قبضة زيري بن مناد ،  
على ما سنرى .

قصد جوهر بعد ذلك لإقليم فاس ، وحاصر حضرته انتقاما من مغتصبها أحمد  
ابن أبي بكر بن سهل الجذامي ، الذي خلع طاعة الفاطميين ، وانضوى تحت لواء  
الأمويين . ولكن هذا الوالى استطاع أن يصد جيوش الفاطميين الذين لم يتم لهم  
فتح هذه المدينة إلا بعد استيلائهم على سجلماسة (١) .

ولم يقل اهتمام الفاطميين بالاستيلاء على سجلماسة عن اهتمامهم بالاستيلاء على  
فاس أو تاهرت . ولاغرو فقد استبد بحكمها ابن واسول ، وتسمى أمير المؤمنين ،  
وتلقب الشاكر لله ، وصك النقود باسمه . وعلى الرغم من استقلاله عن الأمويين ،  
كان شوكة في جنب الفاطميين ، الذين رأوا أن نفوذهم ان يستقر في هذه البلاد مع  
وجود حكام ذوى نفوذ ، كالشاكر بالله محمد بن الفتح المعروف بابن واسول  
صاحب سجلماسة .

أعد المعز لدين الله حملة لقتال ابن واسول ، ضمت كثيرين من الكتاميين .  
ولكى يثير المعز حماسة رجال هذه الحملة جعل يقول لهم : « والله ما أردت بهذا  
البعث الذى بعثكم فيه شرا أستدفعه ، ولا دفع مكروه أخافه ، ولا استكثارا من  
دنيا أصيبها . أما المكروه فقد علم الخاص والعام والقريب والبعيد ، أن غاية أمانى  
من حولنا من أهل الأرض من المتغلبين ، ممن دان بجملة الإسلام والمشركين ، أن  
يسلبوا منا ، ويعافوا من بأسنا . وما أحد منهم أمسى وأصبح اليوم بحمد الله  
يطمع فى شيء مما عندنا . أما اكتساب حطام الدنيا ، فما نحن ننفق من أموالنا على  
هذا البعث ما لا نرى أنا نرتجع مثله ؛ وإن مكنتنا الله وأيدنا ونصرنا . ولكننا  
أردنا بذلك وجوها ، منها ما افترضه الله عز وجل علينا من جهاد من خالف أمرنا  
وتسمى بأسمائنا . وادعى ما جعل الله عز وجل لنا ، (٢) .

اضطرب محمد بن الفتح ، وهرب من سجلماسة حاضرة ولايته ، حتى قبض عليه

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٤٦ - ٤٧ .

(٢) التتبع : المجالس والمساربات ج ٢ ص ٢٩ .

وهو يحاول التسلل عائدا إلى سجلماسة (١). وكان اهتمام المعز بفتحها عظيما ، حتى إنه ضرب القود فيها باسمه . ويقول الثعمان إن المعز دعا ، بمال أناه مما ضرب بمدينة سجلماسة باسمه ، ففرقه على من حضر ، وقال : تبركوا به ؛ فهذا من أول ما ضرب لنا بالموضع الذي افتتحه الله علينا . وقد عامل الفاطميون الشاكر بالله ، كما عاملوا صاحب فاس ، وشهروا بهما معا ، ورضعوا على سجلماسة وفاس واليمن من أخلص ولاتهم .

لم يبق أمام جوهر ورجاله سوى أدارسة الريف والبلاد الخاضعة للأمويين . أما البلاد الخاضعة للأمويين ، فسنتناولها بالبحث عند كلامنا على علاقة المعز بالناصر . وأما أدارسة الريف فقد كانت رياستهم في يد الحسن بن القاسم قنور ، الذي لم يستطع مقاومة جيوش الفاطميين ، ورأى السلامة في الهرب إلى الأندلس ، والاحتياء بعبد الرحمن الناصر ، مما يدل على مدى شعور أدارسة الريف بالتبعية للأمويين . واستطاع جوهر أن يمد نفوذ الفاطميين إلى سواحل المحيط الأطلسي ، أى على جميع أنحاء المغرب الأقصى والأوسط ، وبأسر بعض الأدارسة ، ويبعث بهم إلى المهديّة ؛ ولم يمتنع عليه من بلاد المغرب سوى سبتة وطنجة .

وهكذا انصرف جوهر راجعا ، كما يقول السلاوي (٢) ، بعد أن دوخ البلاد وأثنخ فيها ، وقتل حماتها ، وقطع دعوة المروانين فيها ، وردّها إلى العبيديين ، نخطب لهم على جميع منابر المغرب ، وانتهى القائد جوهر إلى المهديّة ، دار المعز لدين الله ، وقد حمل معه أحمد بن أبي بكر أمير فاس وخمسة عشر من أشياخها ، وحمل أيضا محمد بن أبي الفتح أمير سجلماسة ، ودخل بهم أسارى بين يديه في أفصاص من خشب على ظهور الجمال ، وجعل على رؤوسهم فلانس من لبد مستطيلة ، منبته بالقرون ؛ فطيف بهم في بلاد إفريقية وأسواق القيروان ، ثم ردوا إلى المهديّة ، وحبسوا بها حتى ماتوا في سجنها .

وليس معنى ذلك أن جوهر قد تغلب بحملته التي شنّها في سنتي ٣٤٧ - ٣٤٨ هـ ،

(١) العمان : المجالس والمسايرات ج ١ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٢) الاستنفا ، لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨٦ - ٨٧ .

على جميع متاعب الفاطميين في بلاد المغرب الأقصى خاصة ، فإن الأدارسة لم يبقوا جميع أسلحتهم ، كما أن الأمويين ظلوا على عدائهم للفاطميين ، لم تمسهم تلك الحملات بسوء ، بل ضاعفوا جهودهم ، على ما سنرى ، في الاستعداد الحربي لصد الفاطميين ، إذا حدثتهم أنفسهم بغزو بلاد الأندلس ، أو الاستيلاء على طنجة وسبتة منهم . ولذلك كان لزاما على المعز أن يعالج هذا الموقف من جديد .

ويظهر أن الحسن بن القاسم الإدريسي ، الذي فر إلى قرطبة ، عاد لمناوأة الفاطميين ، وإعلان ولائه للخليفة الناصر ثم لابنه الحكم المستنصر من بعده . وقد ذكر السلوى سبب هذا التقرب ، فعزاه إلى خوف الحسن بن القاسم من الأمويين في الأندلس ، لقرب المسافة بين بلاده وبلادهم . وكان من أثر ذلك أن بعث الخليفة المعز الفاطمي قائده بلكين بن زيري بن مناد الصهاجي ، الذي استطاع ، أن يعيد الخنطبة للفاطميين في بقايا دولة الأدارسة ، ويطلب الدعوة للأمويين منها ، (١) .

ومع ذلك لم يستطع المعز القضاء على الأدارسة ، لأن الحكم الثاني في الأندلس استغل ضعفهم ، فعمل على بسط نفوذه في جميع بلادهم في إقليم الريف . وقد أرسل قائده ومولاه غالبا على رأس جيش كثيف لمحاربة الحسن بن القاسم ، فانتصر عليه ، وأسرته هو وأهل بيته . وقد أقاموا في الأندلس طول عهد المعز تقريبا ، حيث عفا عنهم الحكم الثاني ، إلا أنه لم يلبث أن غضب عليهم وطردهم من قرطبة ، ففروا إلى تونس ، ومنها رحلوا إلى مصر في عهد العزيز الفاطمي ، الذي رحب بهم ، وأمد الحسن بجيش قصد به إفريقية ، وأعانته زيري بن مناد بجيش آخر ، لاسترداد بلاده من الأمويين . إلا أن المنصور بن أبي عامر حاجب الخليفة هشام الثاني المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) ، أرسل إليه جيشا ضخمًا استطاع أن يحل به الهزيمة ، وقتله في سنة ٣٧٥ هـ ، حيث انقرضت دولتهم ، ولكن جماعة منهم استطاعوا أن يرثوا الدولة الأموية بالأندلس ، وهم بنو حمود (٤٠٧ - ٤٤٩ هـ) .

هكذا زالت دولة الأدارسة بالمغرب ، بعد أن تربعت على العرش نحو قرنين .

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ٣ ص ٢٨٥ .



وساهم في القضاء عليهم آل ابن أبي العافية والفاطميون والامويون أنفسهم .  
والواقع أن ملك الفاطميين في المغربين الأوسط والأقصى ، لم يصف لهم تماما  
بعد سنة ٣٤٧ هـ ، وأن ما فعله جوهر وزيري بن مناد لم يقض على ثورات المغاربة ،  
وخصوصا زناتة ، وإنما نجح الفاطميون في إضعاف الأدارسة والقضاء عليهم في  
النهاية . فقد انتهز الزناتيون فرصة خروج جيوش المعز إلى مصر ، فثار في سنة  
٣٥٩ هـ أحد زعماء زناتة ، ويدعى أبا خزر الزناتي على المعز ، الذي خرج إليه  
بنفسه ، إلى أن وصل إلى «باغاية» ، ففر أبو خزر من وجهه ، فأرسل إليه المعز قائده  
زيري بن مناد ، فلم ير هذا التأثير بدا من التسليم . وفي شهر ربيع الثاني سنة ٣٥٩ هـ ،  
«وصل أبو خزر الخارجي (الزناتي) إلى المعز مستأمنا ، وطلب الدخول في طاعته ،  
فقبل منه المعز ذلك ، وفرح به ، وأجرى عليه رزقا كثيرا» (١) .

وليس هذا فقط بل إن محمد بن الحسن بن خزر المغراوي أشعل نار الثورة  
في بلاد المغرب ، واستغل المعز المنافسة الحادة التي كانت قائمة بين زناتة وصنهاجة  
لمصلحته ، وحال دون اتحادهما ، وأرسل يوسف بلكين بن زيري بن مناد لحرب  
ابن خزر الذي حلت به الهزيمة وقتل كثير من جنده ، وذلك قبيل رحيل  
المعز إلى مصر .

ولم يقف خطر زناتة عند ذلك الحد ؛ فقد اتحدوا مع صاحب المسيلة وأعمال  
الزاب ؛ وكان محمّد علي زيري بن مناد ، قائد المعز لدين الله ، وحارب الفريقان زيري  
وقتلوه ؛ وكان لذلك أثره في ازدياد المنافسة بين الصنهاجين والزناتيين . وانتقم يوسف  
لأبيه من زناتة شر انتقام ، فقتل منهم كثيرا وسبي كثيرا . حدث ذلك كله والمعز  
لا يزال بإفريقية ، فسر لهذا الصراع الذي تفاقم بين هاتين القبيلتين المغربيتين «وزاد  
في إقطاع بلكين المسيلة وأعمالها» (٢) .

وكانت بلاد المغرب كافة يسودها الاضطراب ؛ وليس أدل على ذلك مما قاله  
يوسف بن زيري بن مناد حين عزم المعز لدين الله على توليته بلاد المغرب :

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢١٥ .

(٢) المصدر نفسه ج ٨ ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

« يا مولانا أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله ﷺ ! ما صفنا لكم المغرب ؛ فكيف يصفو لي ، وأنا صنهاجي بربري ؟ » (١) .

وكاد انتقال المعز إلى مصر (من شوال سنة ٣٦١ إلى رمضان سنة ٣٦٢ هـ) يثير أهالي بلاد المغرب كافة على يوسف بن زيري بن مناد ، لولا ما أوتيه من صلابة وقوة . فقد انتهز أهالي باغاية وتاهرت خروج المعز ، واشتغال يوسف بالسياسة بن زيري بن مناد بتوديعه . وثاروا على والي كل منهما وطردوه . ولم تقف الحال عند ذلك الحد ، فقد هبت قبيلة زنانة وثارت في تلبسان ، ولكن أبا الفتوح يوسف بن زيري ، استطاع أن يخمد هذه الثورات .

## ٢ - عمارة المعز بالاندلس

لم تكن علاقة المعز بالأمويين في الأندلس على شيء من الصفاء . ولا غرو فإن العداء بين بني هاشم وبني أمية يرجع إلى أيام الجاهلية ، وتفاقم العداء بينهم في الإسلام كذلك . وقد استمر العداء بين الأمويين في الأندلس وبين العلويين في المغرب .

ومن عوامل الكراهة بينهم خوف الأمويين من الفاطميين على بلادهم . لهذا لا نعجب إذا رأينا عبد الرحمن الناصر الأموي يشجع أبا يزيد مخلد بن كيداد في ثورته على القائم والمنصور ويمده بالجيوش . كما اعترف له أبو يزيد بالسيادة الروحية على البلاد التي انتزعها من الفاطميين (٢) ، حتى إننا نرى أبا يزيد يرسل في سنة ٣٣٣ هـ ، إلى الناصر وفدا يخبره بتغلبه على القيروان وقرقنة وما جاورهما ، وهزيمة لجند أبي القاسم (القائم) الشيعي ، ويظهر خضوعه له واعترافه بولايته (٣) .

ولقد تضاعف الخوف حين قضى الفاطميون على ثورة أبي يزيد في أوائل عهد المنصور ، وزاد هذا الخوف حين تولى المعز لدين الله العرش ، وكان هذا الخليفة الجديد يمتلي حنقا على الأمويين ويتطلع إلى عرش قرطبة . والواقع أن جميع

(١) المقرئ : انماظ الحنقا ص ٦٤ ؛ والعنط ج ١ ص ٣٥٢ .

(٢) Altamira : Cambridge Mediaeval History, vol. iii. p. 423

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار المغرب ج ٢ ص ٢٢٨ .

شمالى إفريقية أصبح مجالا حيويا هاما للفاطميين ، ولذلك لم يكن بد من أن يصطدموا بالأمويين فى شمال إفريقية . وإذا علمنا أن المعز لدين الله كان يدرك سهولة فتح بلاد أسبانيا ، ويعتقد أن ما لديه من الجنود والعتاد أكثر مما كان لدى طارق بن زياد حين تم له فتح هذه البلاد . وأنه كان يرى أحقيته بملك أسبانيا من الأمويين وبزعامة العالم الإسلامى منهم ومن العباسيين وسواهم ، أدركنا خطر المعز الفاطمى على الناصر الأموى ، وسوء العلاقة بينهما .

وقد أشعل نار هذا العداء المستحکم بين الأمويين والفاطميين ، إثارة كل منهم رعايا الآخر؛ فنرى عبيد الله الفاطمى يثير ابن حفصون (١) على الأمويين ، فينادى بأحقيتهم ، ويعلن ولاءه لهم ، ويؤيد حقهم فى زعامة العالم الإسلامى ، ويتبنأ بامتلاكهم بلاد الأندلس والقسطنطينية . وقد شمر الأمويون ، وخصوصا فى عهد الناصر (٣٠٠هـ - ٣٥٠هـ) عن ساعد الجند فى مقاومة هذه النزعة السياسية الدينية الخطيرة ، فحاربوا الثائرين فى الأندلس فى عنف وشدة ، ووقف علماء هذه البلاد ينددون بأراء الفاطميين وأنصارهم . ولم يكتبف الأمويون بذلك ، بل حولوا وجوههم شطر إفريقية . ليجعلوا خط دفاعهم الأول عن بلاد الأندلس فى هذه البلاد ، فاستغلوا النزعة المذهبية القومية فى بعض قبائل المغرب الأقصى وأثاروهم على الحكم الفاطمى . يتبين ذلك من تشجيع عبد الرحمن الناصر موسى بن أبى العافية ، الذى انتزع أرجاء المغرب الأقصى تقريبا ، من الأدارسة باسم الفاطميين ، وإثارته على عبيد الله المهدي ثم على خلفائه من بعده . وبفضل تدخل الأمويين خطب للناصر على منابر بلاد ابن أبى العافية ، وأرسل أسرى الفاطميين وأنصارهم إلى قرطبة . فلم يكن بد إذن من أن يحارب الفاطميون عدوين ، عدوا فى الداخل ، وعدوا فى الخارج ؛ إلا أنهم أخذوا على عاتقهم محاربة العدو الداخلى أولا ، فشغلوا أنفسهم عن عدوهم الخارجى الأساسى ، وهم الأمويون . وهكذا احتفظ الأمويون ببلادهم بعيدة عن التطاحن الحربى ، بفضل بعد نظرهم فى السياسة . وهذا ما نراه اليوم فى نزعات كبار الساسة ؛ فاجتلترا مثلا تعمل دائما على أن تكون ميادين الحروب بعيدة عن بلادها الأصلية ؛ وكانت ألمانيا تسعى فى الحرب الماضية إلى ذلك . وتقلدهما اليوم الولايات المتحدة الأمريكية .

وعلى الرغم من أن الأمويين كانوا يفضون الأدارسة العلويين بعضهم  
الفاطميين ، كانوا يقربونهم إليهم ، ليستعينوا بهم على محاربة الفاطميين من جهة ،  
ومد نفوذهم في شمال إفريقية من جهة أخرى . وكان عبد الرحمن الناصر يرمى من  
وراء ذلك إلى تحقيق غرض مزدوج ، هو تثبيت نفوذه في شمال إفريقية ، وإشعار  
الأدارسة ببعيبتهم للأمويين ، وإثارة الخلاف بين الأدارسة وبين بني  
أعمامهم الفاطميين .

وليس هذا فقط ، بل إن عبد الرحمن الناصر أخذ على عاتقه تشجيع قواد  
الفاطميين على الثورة ؛ فضم إليه حميد بن يصال ، صاحب تاهرت ، وابن أخي  
مصالة بن جبوس ، قائد الفاطميين المشهور ، الذي لجأ إلى الأندلس ؛ كما  
استمال يعلى بن محمد الزناتي صاحب تاهرت . وبهذا أصبحت قرطبة مركزا للثورة  
على الفاطميين ، الذين لم يروا بدا من أن ينتقموا لأنفسهم من عبد الرحمن الناصر  
بإرسال الحملات التأديبية الإرهائية إلى بلاده .

وأخذ الأمويون في أسبانيا يلغنون الفاطميين على منابهم ، كما فعل  
آباؤهم في الشام من قبل ، وكانوا يرمون من وراء ذلك إلى إثارة الفاطميين ، إلا أن  
المعز أخذ يفض من شأن بني أمية ، فيقول فيهم : إنهم « طردوا رسول الله ﷺ ،  
لا يدفعون ذلك ولا ينكروونه هم ولا من انتصر لهم ؛ فهم أهل اللعنة من الله ومن  
رسوله ، ثم قال : والله إن في أنسابهم لمقالا واتساعا لاطعن ومجالا ، ولكنهم  
لو نسبوا إلى القردة والخنزير لكانوا أفضل ممن نسبوا إليه ، عبد الملك بن مروان ،  
اللعين ابن اللعين ، الطريد ابن الطريد ، لعن رسول الله ﷺ جده الحكم . . .  
ونفى رسول الله ﷺ جده لأمه معاوية بن مغيرة بن أبي العاص بن أمية فتخلف ،  
فأمر عليا ، صلوات الله عليه ، فضرب عنقه . فهذه أصولهم التي ادعواها ، وأنسابهم  
التي انتسبوا إليها ، فكسفاهم عارا وخزيا ونقيصة (١) .

ومن عوامل العداء بين الفاطميين والأمويين ما كان من اتخاذ عبد الرحمن الناصر  
في إفريقية الشمالية بعض المدن ذات الموقع الاستراتيجي ، الخطير ، ليجمعها

(١) النعمان : المجالس والمساربات ج ٢ ص ٨١ - ٨٢ .

مراكر يغير منها على قلب الدولة الفاطمية في بلاد تونس ، أو على الأقل يستطيع أن يدفع منها خطر الفاطميين إذا أغاروا على بلاده ؛ ولذلك استولى مدينة على سبتة في سنة ٣١٩ هـ ، وثني بطنجة بعد ذلك . وكان من أثر استيلائه على هذين الموقعين وغيرهما من المواقع أن زاد حنق الفاطميين على الأمويين .

ولى المعز لدين الله عرش الفاطميين في سنة ٣٤١ هـ ؛ وقد عم الاضطراب شمالي إفريقية ، وتعاقم هذا الاضطراب بتدخل الأمويين في شتونه . ولذلك عمل على طرد الأمويين من هذه البلاد ، فأرسل حملتين كبيرتين لإخضاع جميع بلاد إفريقية الشمالية لسلطانه ؛ ولكنه رأى استحالة إخراج الأمويين من سبتة وطنجة لقربهما من أسبانيا ، فاتجه بعد ذلك نحو مصر .

ونستطيع أن نجمل الحوادث التي وقعت بين المعز والأمويين فيما يلي : في سنة ٣٤٣ هـ استولى عبدالرحمن الناصر على إحدى مدن شمال إفريقية ، وأخذ ينشر منها الدعوة إلى الأمويين ، وأدرك رغبة المعز لدين الله في فتح بلاده ، فعمل على الصراع معه . ولما يجرب قوته البحرية هاجمت إحدى سفنه فاطمية في البحر على مقربة من صقلية . ويخيل إلينا أن سفينة الأمويين كانت من نوع السفن الاستطلاعية . وقد استولت على رسالة كان قد بعث بها إلى الفاطميين بصقلية إلى الخليفة المعز لدين الله ، وأغرقت السفينة الفاطمية وهرب من كان بها .

ومن حسن الحظ أنا عثرنا على تفصيل واف لهذه الحوادث في مصدر إسماعيلي قيم ؛ فقد تناولها النعمان المغربي في الجزء الأول من كتابه ، والمجالس والمسائرات (١) . ومع أن هذا الحادث لا يعد من الحوادث الخطيرة في حد نفسه ، رأى المعز أن يبرهن للناصر على مدى قوته البحرية ، ورأى في الوقت نفسه أن يلقى الرعب في قلوب رجاله ، حتى لا تحدتهم أنفسهم بالاقتراب من سواحل الفاطميين . لذلك أمد المعز الحسن بن علي ، عامله على صقلية ، بأسطول يلحق بسفينة الأمويين ، ويتموم بمظاهرة بحرية مفاجئة على السواحل الأسبانية . ومن الغريب أن أسطول الفاطميين برغم صغره استطاع في سنة ٣٤٤ هـ أن يصل إلى المرية ، قاعدة أسطول الناصر ،

وألحق به هزيمة مشكورة ، وألقى الرعب في قلوب أهالي هذه البلاد ، فنزل من الأساطيل من رجال البر ، واستولوا على المرية ، وانهمز عنها جمع الأموي ، فأحرقوا جميع ما بها من المراكب والخزائن والعود (١) والعدد ، وانهبوا جميع ذخائرهما ، وهرب من استطاع الهرب من أهلها (٢) . وبم نعال هذا النصر ؟ وهل كان راجعا إلى مهارة رجال الأسطول الفاطمي في المعارك البحرية ؟ أو إلى عنصر المفاجأة وحده ؟ يبدو أنه كان لهذين العاملين معا دخل كبير في الخسارة الفادحة التي لحقت بالأمويين .

وكان رد الناصر على جرأة المعز بطيئا ، فلم يقدم على الانتقام كما أقدم المعز ، بل قام في العام التالي (٥٣٤٥ هـ) بمظاهرة بحرية على سواحل إفريقية ، وعمل في الوقت نفسه على الاستعانة بالروم ، فتحالف معهم . ولم تشر المراجع السنوية بوجه عام إلى تحالف الناصر مع قسطنطين الثامن إمبراطور الدولة البيزنطية (٣٣٣-٣٤٨ هـ = ٩٤٤-٩٥٩ م) في سنة ٣٤٤ هـ . حقيقة استغل الأمويون عداوة البيزنطيين للفاطميين ، فاتفق الناصر مع قسطنطين الثامن قبل ذلك الوقت بست سنوات (٣٣٨ هـ) ، وعقدت معاهدة بين الفريقين . على أنه لا يبعد أن تكون هذه المعاهدة قد اشتملت على نص يتعلق بموقف كل من هاتين الدولتين من الدولة الفاطمية ، بدليل أن الروم قد لبوا نداء الناصر وعملوا معا على أن يحصروا الفاطميين : هؤلاء من الغرب وأولئك من الشرق . وفي ذلك يقول النعمان (٣) : « بعد أن كتب (الناصر) إلى طاغية الروم يسأله النصر ، وأهدى إليه هدايا ، وأرسل إليه رسلا من قبله ، فأجابته إلى ذلك . وجاءت أساطيل الروم من القسطنطينية . ومراكب بني أمية من الأندلس » .

وقد ذهب ابن عذارى إلى القول بأن الناصر استطاع أن يخرب إحدى موانئ شمالي إفريقية ، وأمر بلعن الفاطميين من منابر الأندلس ، وكتب بذلك إلى جميع عماله (٤) . أما المراجع الإسماعيلية فتري أن الهزيمة قد حلت بالناصر ، وأن المعز

(١) يقصد بالعود قلاع السفن وسراياتها .

(٢) النعمان : المجالس والمسائرات ج ١ ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٢٦ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٢٦ .

« أمر بأن يكون العساكر في كل مرسى بطريق الأندلس ، وأنه قصد ناحية غير أهلة بالسكان خالية من الجند في شمال إفريقيا . ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يحقق ما كان يرمى إليه ، إذ خرج إليهم أهل تلك الناحية ، فقتلوا منهم بشرا كثيرا وهزموهم ، فمات في البحر منهم أكثر ممن قتلوه ، وغنموا ما كان معهم من السلاح ، ووجهوا برموس من قتلوه وبما غنموا ،<sup>(١)</sup> إلى المعز .

وكذلك أخفق البيزنطيون في صراعهم مع الفاطميين . وقد صور النعمان<sup>(٢)</sup> هذه الحروب في هذه العبارة فقال : « وأقبل أسطول الروم فلقى أسطول أمير المؤمنين دون صقلية . . . ففتح الله لوليه على الروم ، فهزمهم في البحر ، وقتل رجاله منهم خلقا عظيما ، وولوا هاربن بين يدي أسطوله إلى مجازية ،<sup>(٣)</sup> ليحموا بلدهم . واتبعهم إلى ما هنالك ، فلقوه في البحر فهزمهم ، فنزل عسكر البر بأرضهم ، فأنكى بالقتل فيهم ، وأحرق مدائنهم وأخرب كنائسهم ، وبلغ غاية الأمل من النكاية . . . وأرسل ملك الروم إلى أمير المؤمنين - عم - بأموال عظيمة ، وهدايا جلييلة ، ورغب في التوقف عن بقى من الروم بأرض قلورية ، على ما قطعته على نفسه يؤديه عنهم ، وأسرى من أسارى أهل المشرق ، ليطلقهم في كل عام لمدة يسيرة يسأل الهدنة فيها .

وهكذا كان مصير ذلك الصراع أن أخفق الناصر الأموي من الناحيتين البحرية والسياسية ، ولذلك لجأ كما تقدم إلى الحط من شأن الفاطميين في بلاده ؛ وسبهم من فوق المنابر ، حتى لا تضعيب هيئته أمام سلطان المعز ونفوذه . وليس هذا كل ما قام به الخليفة الأموي الناصر في سبيل مناوأة الفاطميين ، بل عمل على مهادنة مسيحيي الشمال ومصالحة ملك ليون ، حتى يتفرغ للصراع مع الفاطميين . ولما كان الناصر يعلم أن الغلبة تقررها القوات البحرية وحدها ، بذل جهودا جبارة في إعداد أسطول ضخم ، وذلك في سنتي ٦٠٣٤-٥٣٤ هـ ، ومن ثم لم يجد - كما يقول دوزي<sup>(٤)</sup> -

(١) النعمان : المجالس والمعارف ج ١ ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٣) يقصد به الخليج الذي يفصل بين صقلية وإيطاليا .

(٤) Hist. des Musulmans d'Espagne, vol. ii, pp. 165-6.

عمال دور الصناعة وقتنا للراحة ، وبذلك استطاع أن يشحن جميع موانئ بلاده بالسفن الحربية .

وبينا كانت المعدات قائمة على ساق وقدم في شبه جزيرة أيبيريا ، كانت رسل الناصر تغدو وتروح في حاضرة الفاطميين ، يستميلونهم تارة ويهددونهم أخرى . ولم يشأ عبد الرحمن الناصر أن يصارح الفاطميين برغبته في الصلح ، بل لجأ إلى المداورة . وقد أوضح النعمان (١) المغربي ذلك بقوله : إن الناصر حين رأى هزيمة الروم وما حصل به هو من نكبات ، وخاف الواقعة به ؛ دس رسولا من قبله ، وكتب كتابا على لسان بعض رجاله إلى بعض رجال أمير المؤمنين في الموادعة والصلح وكف الحرب . ويذكر ما يتوقع في ذلك من سفك دماء المسلمين ، واشتغال بعضهم ببعض عن غزو المشركين . وجاء الرسول بالكتاب ، وأدى بلسانه عن الخائن ما لم يؤد الكتاب به من طلب الصلح والألفة ، وكف الحرب والفتنة ، وذكر ذلك لأمير المؤمنين - صلوات الله عليه - شفاهما .

وكان رد المعز ، على ما نرى في قسم الملاحق ، غاية في الروعة من الثقة بالنفس وتقنيد مزاعم عبد الرحمن الناصر ، فقد قال المعز لدين الله للرسول : إن الناصر استعان عليه بالروم المسيحيين ، وافتخر (المعز) بما أحرزه من نصر على الأمويين والروم . ورأى أن في اتخاذ الناصر لقب أمير المؤمنين ، تعديا على حق من حقوقه ، فيقول : إنا أهل ذلك دونه ودون من سواه ، ونرى أن فرض الله علينا محاربة من انتحل ذلك دوننا وادعاه (٢) .

ويؤكد المعز في الوقت نفسه ذلك العداء القديم بين الأمويين والعلويين ، ويرى استحالة الاتفاق بين البيتين ، ويعقد العزم على مواصلة الصراع مع الأمويين . ومن ثم نراه يماطل الرسول ، ولا يجيبه إلى الموادعة والصلح . بل يبعث في نفسه وفي نفوس الأمويين جميعا الفزع والخوف ، فيقول له : وما أنا بالمداهن في دين الله ، ولا بالراكن بالموادة إلى أعداء الله ، ولا بالمخادع في أمر من أمور الله عز وجل . ارجع بجوابي هذا إليه فما له عندي سواه ، ومالي من الأمر من شيء . إن الأمر كله لله ، عليه توكلت

(١) المجالس والمساربات ج ١ ص ٢٢٠ .

(٢) النعمان : المجالس والمساربات ج ١ ص ٢٢٢



وإليه أنيب . فإن حركني الله إليه ، وقذف في قلبي حربيه وغزوه ، فلا أشك أن الله عز وجل أراد قطع دابره ، واستئصال شأفته ، وتطهير الأرض من رجسه ، وحسم أيامه ومدته ، (١) .

ويظهر أن تعذر الصلح بين البيتين قد ألم الناصر الأموي ، فتوالت رسله ورسائله على الفاطميين . من ذلك أنه أرسل أحد رسله إلى المعز يحمل إليه رسالة يستعطفه فيها ويتوعده ، وأرسل إلى أحد كبار رجال الدولة الفاطمية كتابا آخر ، أكثر استجداء ، وأتبع ذلك كله برسالة مלאها بالوعد والوعيد ، وتنصل فيها من جميع الرسائل السابقة . وكان يرى من وراء ذلك - كما يقول النعمان - إلى تخدير أعصاب المعز ، حتى يعد العدة لقتاله . ويظهر أن المعز قد أدرك ذلك فقال : وإنما أراد هذا الفاسق أن يقطع الزمان بهذه المراسلة والمكاتبة بيننا وبينه ، (٢) .

شحن عبد الرحمن الناصر موانيه بالسفن والعتاد الحربي والجنود (٣) ، وقضى على مقاومة ملك ليون الجديد (٥٣٤٦ هـ) الذي نقض الصلح الذي عقده أبوه مع الخليفة الأموي ، ورفض تنفيذ شروطه . وقد أخذ الناصر يتطلع إلى إفريقية ، فأرسل إليها حملة بحرية . وكان القسم الغربي من ساحلها الشمالي تقريبا خاضعا له ، كما استطاع أن يستميل إليه يعلى بن محمد الزناتي ، صاحب تاهرت ، حاضرة المغرب الأوسط ، وأن يضم إلى صفوفه كثيرا من أدارسة الريف الذين ولوا وجوههم شطر قرطبة وموانئ أسبانيا ، كما كان بيت ابن أبي العافية على وفائه للأمويين ، ولذلك لم يجد عبد الرحمن الناصر بدا من إيقاع الرعب في قلب المعز لدين الله ، بالهجوم عليه في عقر داره .

وقد أمّر الناصر حاجبه أحمد بن سعيد على جيش كبير وأسطول ضخمة ، واستطاع الأمويون أن يأخذوا الفاطميين على غرة (٥٣٤٦ هـ) وأن يحلوا الهزيمة بأمر البحر الفاطمي وبوالى صقلية الحسن بن علي ، وتوغلوا في القسم الشرقي من مملكة المعز ، وحاصروا مدينة تونس القريبة من المهديّة ، وأرغموا أهلها ، وكان

(١) النعمان : المجالس والمساربات ج ١ ص ٢٣٨

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٣٨

(٣) Dozy : Hist. des Musulmans d' Espagne. vol. ii. p. 166

أكثرهم من اليهود ، على أن يدفعوا إلى القائد الأموي مبلغا كبيرا من المال .

هذا ما ذهبت إليه المراجع السنينة التي أشادت بجهود الخليفة الناصر الأموي .  
على أننا لم نجد ما يؤيد هذه المعلومات في مراجعنا الإسماعيلية ، التي لا نشك في أنها  
توخي الصدق في كثير من الأحيان ، مما يشير في نفوسنا الشك ، إذ كيف تستطيع  
جيوش الأمويين أن تغير على تونس القريبة من المهديّة ، فلا يحرك المعز ساكنا  
لينتقم لنفسه وشرفه العسكري ، وهو الذي آلمه أن يعتدى الأمويون على إحدى  
سفنه الصغيرة ؟ ويظهر أن الخليفة الناصر أرسل حملة بحرية الإغارة على بعض موانئ  
إفريقية البعيدة عن تونس . وأنه غنم بعض الغنائم .

وسواء كان هجوم الأمويين على تونس أو على الجزائر أو مراكش ، أو  
أن هذه الحملة الأموية قد حققت الغرض الذي كان يرمى إليه الأمويون ، وهو  
الانتصار على الفاطميين أو لم تحقق ، فإنها قد نجحت في إنارة سخط أهالي المغرب  
الأقصى على الفاطميين ، وأدت إلى جذب بعض أمراء الفاطميين إلى الناصر ،  
وكانت من الأسباب التي أدت إلى إرسال حملة جوهر الكبرى إلى بلاد المغرب في  
سنة ٣٤٧ هـ . ولذلك كانت مهمة جوهر الصقلي متشعبة النواحي ، فقد كان عليه  
أن يعاقب ولاية الفاطميين الذين ماثوا الأمويين ، كيعلّي الزناتي صاحب تاهرت ،  
وغيره ، وأن يسترد جميع البلاد التي استقلت عن الفاطميين كسجلماسة ، والتي كانت  
تخضع اسميا للناصر كبلاد ابن أبي العافية ، وأدارة الريف . وقد نجح جوهر في  
تحقيق هذا كله - كما رأينا . وأخيرا ، كان عليه أن يطرد الأمويين من سبتة وطنجة ،  
وبذلك يقضى على نفوذهم في هذه البلاد . وقد أدرك الخليفة الأموي ذلك  
كله ، فعين على سبتة في سنة ٣٤٦ هـ واليا اشتهر بالشجاعة ، وأمره بتحصينها وتجديد  
سورها (١) . غير أن جوهر عجز عن الاستيلاء عليها .

وكان جوهر يرمى من وراء اصطدامه بالأمويين في سبتة وطنجة ، إلى الوقوف  
على قوتهم ، حتى إذا تم له النصر ، استطاع أن يخطو الخطوة التالية ، وهي  
محاولة فتح بلاد الأندلس نفسها ، وبذلك يتمكن الخليفة الفاطمي من قطع دابره

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ٢٣١

(الناصر) ، واستنصال شأفته ، وحسم أيامه ومدته .

وكان المعز يرى أنه إذا تعذر عليه الانتصار على الناصر في إفريقية ، عدل عن فتح بلاد الأندلس ، وعمل على الاحتفاظ بما فتحه جوهر الصقلي ، وبلكين ابن زيري بن مناد في شمال إفريقية ، وحال دون توغل جيوش الناصر في هذه البلاد ، ثم تفرغ بعد ذلك لتوجيه نشاطه نحو المشرق لفتح مصر ، واتخاذها قاعدة يوجه منها حملاته إلى العباسيين .

والواقع أن المعز لدين الله رأى باعتباره خليفة علويا أن يقضى على خلافتين سنتين ، فحاول القضاء على الخلافة الأموية بالأندلس ، ولكنه وجدها قوية نشيطة ، كما حاول القضاء على الخلافة العباسية ، فولى وجهه شطر مصر ، حتى إذا تم له فتحها ، استطاع أن يحقق ما عجز عنه آباؤه وأسلافه من قبل ، فيضم بلاد الشام والحجاز ويمد نفوذه إلى بغداد . ومن ثم نرى المعز يأمر أئمة المساجد والمؤذنين ، ألا يؤذنوا إلا ويقولوا فيه : حى على خير العمل ، وأن يقرءوا بسم الله الرحمن الرحيم في أول كل سورة تسليمتين ، ويكبروا على الجنائز خمساً ، ولا يؤخروا العصر ، ولا يبكروا بالعشاء ، ولا تصيح امرأة وراء جنازة ، ولا يقرأ العميان على القبور إلا عند الدفن<sup>(١)</sup> .

والواقع أن الحروب التي شنها المعز في بلاد المغرب قد أثارت مخاوف الأمويين في الأندلس ، الذين لم يعد لهم نفوذ في إفريقية . ومما يدل على خوف الأمويين من الفاطميين ما جاء على لسان المعز نفسه من أن الناصر الأموي : لما أحس بالعساكر التي أولجناها المغرب ، اشتد خوفه ، واستولى عليه ذعره ، فأرسل أوثق قواده عنده بعسكر أوعب فيه إلى ناحية المرية ، فضرب على ساحل البحر مضاربه ، وأتاخ به عسكره ، إلى أن وافى به بعض أهل يعلى اللعين (صاحب تاهرت) يخبرونه بقتله وقتل أهل بيته ، واستيلاء العساكر (الفاطمية) في ساعة واحدة على مدينته وقياطينته<sup>(٢)</sup> . وجاء في مركب آخر يخبر يخبر عن هرب صاحب سجلماسة ، ولم يكن علم بأسره . فما هو إلا أن بث ذلك في العسكر ، فنفروا نفرة واحدة ، فما

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ١ ، ص ٢٣١

(٢) العدد والأسلحة والمبيد وما إلى ذلك .

اجتمع منهم اثنان ، وما بقي بالمناخ إلا مضرب القائد (١) . وإن دل ذلك على شيء ، فإنما يدل على اهتمام الأمويين بكل ما يحدث في بلاد المغرب ، وخوفهم من إغارة الفاطميين على بلادهم .

ومن أهم الحوادث التي وقعت بعد الحملة الفاطمية الكبرى في المغرب سنة (٣٤٧ هـ) وفاة الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن إدريس بمدينة قرطبة سنة ٣٥٩ هـ ، وكان عبد الرحمن الناصر قد اتخذ رهينة ، ليضمن ولاء أتباعه وأنصاره الأمويين ، وكان معه في سجته بقرطبة ابنه محمد والحسين وظلا إلى خلافة الحكم الثاني ، حيث عادا إلى المغرب في شهر رجب سنة ٣٥٤ هـ (٢) . وإنما فعل الأمويون ذلك لينفثوا نفوذهم في إفريقية ، وعلى هذا النحو استمر الصراع السياسي بين الأمويين والفاطميين .

### ٣ — عمارة المعز بمجزيرة إقريطش :

كانت جزيرة إقريطش ( كريت ) في قبضة العباسيين ، ولقرتها من مصر كان يشرف عليها وإلى هذه البلاد . وقد استوطنها منذ أوائل القرن الثالث إلى منتصف القرن الرابع الهجري ، جماعة من مهاجري الأندلس ، يعرفون بأهل الريض (٣) . وكان هؤلاء الريضيون قد ثاروا على الحكم بن هشام الأموي حول سنة ٢٠٤ هـ ، وحاصروه في قصره بقرطبة ، ولكنه انتصر عليهم في واقعة الريض المشهورة ، وقتل منهم عددا كبيرا ، وأجلى البقية الباقية منهم عن الأندلس ، فقصده بعضهم مدينة فاس بالمغرب الأقصى ، وقصد بعض آخر مدينة الإسكندرية .

ويظهر أن هذا الفريق كان يميل إلى إثارة الشعب ، فأثاروا الرعب في قلوب أهالي الإسكندرية ، في عهد ولاية عبيد الله بن طاهر ( ٢١١ - ٢١٣ هـ ) ، واعتصموا بهذه المدينة ، وطرّدوا أهلها منها ، وولوا عليهم واحدا منهم يعرف بأبي حفص عمر بن شعيب البلوطي . ولكن وإلى مصر استطاع أن يهزمهم ، ويجليهم عن الإسكندرية ، ويمثل معهم الدور الذي قام به الحكم الأموي من قبل ، فطردهم

(١) النعمان : المجالس والمساربات ج ١ ص ٣٢٦

(٢) ابن هزاري : البيان المغرب ج ١ ص ٢٣١

(٣) الريض بفتحين للمدينة ، ما حولها ، وجمها أرباض أى ضواحي .

عن مصر ، وطاردهم إلى جزيرة إقريطش ، فعمروها ، وتولى أمرهم جميعا هذا الثائر الخطير أبو حفص عمر بن شعيب .

وظل الربضيون بجزيرة إقريطش زهاء قرن ونصف قرن ، في أمن ودعة . حتى طمع الروم في بلاد الدولة العباسية ، وبدءوا في منتصف القرن الرابع الهجري يوجهون ضرباتهم المتتالية إليها من كل ناحية ، فهاجموا شمالي العراق ، وشمالي الشام . ولم يكتفوا بذلك ، بل هاجموا جزيرة إقريطش في أواخر حكم الدولة الإخشيدية ؛ فطلب الربضيون النجدة من خلفاء بغداد ، ومن سيف الدولة الحمداني الذي اشتهر بحروبه مع الروم ومن ولاية مصر ؛ فلم يسعفهم هؤلاء . ولا أولئك ، فولوا وجوههم شطر المنصورية ، يطلبون النجدة من المعز لدين الله ، فهم بمساعدتهم ، وبعث إليهم أساطيله ، واتصل بالإخشيديين في مصر وحثهم على إنجادهم ، كما اتصل في الوقت نفسه بالروم وحذرهم مغبة التعرض لهؤلاء الربضيين .

وبدل اتصال المعز بالربضيين على مهارته السياسية ، لأنه كان يعلم أنهم يتبعون العباسيين السنيين ، ومن ثم رغب في أن يفصل بين هؤلاء وأولئك ، وأن يجعلهم من رعاياه المواليين له . ويبدو أن المعز أراد بذلك أن يبين للعالم الإسلامي أنه وحده هو الذي يستطيع أن يأخذ بناصر الربضيين دون العباسيين الذين ضعف أمرهم في ذلك الحين . كما عول على أن يلتقي الرعب في قلوب الروم ، ويبين لهم أنه يستطيع أن يقف في وجههم ، ويقضي على جيوشهم إذا حاولوا أخذ إقريطش .

وكان المعز لدين الله قد أحل الهزيمة بإمبراطور الروم ، وبخلفائه الأمويين في الأندلس ، وعقد معه هدنة أمدها خمس سنين . وقد هاله أن يغير الروم على جزيرة إقريطش ، بقيادة الدمستق<sup>(١)</sup> ، ويهددوا بهجومهم هذا جناح المعز الأيمن من جهة ، ويحولوا بذلك بينه وبين فتح مصر والقضاء على العباسيين من جهة أخرى . لذلك عمل الخليفة الفاطمي على نقض هذه الهدنة ، والوقوف في وجه مطامع الروم ، وما كاد أهالي جزيرة إقريطش يرسلون إلى المعز مركبا فيه رجال من قباهم مع وجه من وجوههم ... يستغيثون به ، ويسألونه استنقاذهم وإعانتهم ، حتى أمر المعز

(١) يقول الثعالب ( ٢٣٠ ص ٤١٢ ) هو أقرب القواد إلى إمبراطور الروم وأخصمهم به .

يقول فورنيل ( Fournel : La Conquête de l'Afrique par les Arabes , p. 332 )

إن الروم حاصروا هذه الجزيرة بقيادة نغفور فوكاس ، الذي حاصر حاضرتها ، كاندي ، أكثر من سبعة أشهر ، ثم فتح الجزيرة كلها .

بالأخذ في الأبهة والعدة ، ليكون نفوذ الأساطيل إليهم في أول زمان الإمكان .  
واقترن المعز أثر الرسول ﷺ حين نبذ عهد المشركين من العرب إذ خانوه ،  
فنزله قوله تعالى : « ولما تخافن من قوم خيانة فأنذرتهم على سواء » (١) .

أرسل المعز رسالتين تعدان من خير الوثائق في تاريخ العلاقة بين المعز  
والإخشيديين ، ثم بينه وبين الروم . كما أسهب القول مع رسول الإقريطشيين ،  
فأوضح لنا بهذا كله سداد رأيه ومهارته السياسية . كما تدلنا محادثته مع رسول  
الربضيين على أهمية جزيرة إقريطش للمعز نفسه ، وعلى أن أهلها كانوا على علم تام برغبة  
المعز في فتح مصر . فقد أوضح الرسول للخليفة الفاطمي أهمية هذه الجزيرة من الناحية  
الاستراتيجية ، وبين له أن من يستولى عليها يستطيع أن يستولى على مصر والقسطنطينية ،  
وأنه يجد من مراقبتها ملاذاً لأساطيله ، ومن معادنها خير معين لتقدم صناعته .  
وهكذا جعل الرسول ، يذكر له قدر البلد وموضعه من بلد الروم ومن مصر ،  
وأنه فرضة لها ، وأن الله تعالى إن أقدره على دفع المشركين عنه وملسكه إياه ، كان  
سبب فتح القسطنطينية والمشرق عليه إن شاء الله . وعدد ما فيه من الآلات  
والمعادن ، وما يتبها به من إنشاء الأساطيل وقربه من القسطنطينية ومصر (٢) .  
والحق أن رد المعز على رسول الربضيين ليدل على ما كان يجيش في نفسه من  
آمال لفتح هذه الجزيرة وصد الروم عنها . ولذلك نراه يلوم الرسول وأهل إقريطش ،  
لأنهم لم يتصلوا به قبل أن يستفحل خطر الروم ، ويظهر له أنه سيقوم بهذه  
المساعدة ، لأنه كرجل من سلالة محمد ﷺ ، يجب عليه أن ينظر إلى جميع المسلمين  
على أنهم رعاياه . ويدل رده على الرسول على أنه جاد في إعداد العدة لصد الروم .  
وقد أبقى المعز الرسول ليكون في صحبة الأسطول الفاطمي ، وأرسل إلى أهل  
إقريطش يخبرهم ، « بما عزم عليه من إغاثتهم ونصرتهم في أول وقت الإمكان  
من الزمان » (٣) .

وكان المعز يجد في تلبية مطالب أهل إقريطش ما يحقق آماله الواسعة في مد  
نفوذه إلى الشرق ، لأن من يستولى على هذه الجزيرة يسهل عليه فتح مصر والبلاد الواقعة

(١) النعمان : المجالس والمساربات ج ٢ ص ٤١٢

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٢٨

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٢٣

على ساحل البحر الأبيض الشرقي . وهذا يفسر لنا إقدام الألمانين والإيطاليين في الحرب العالمية الثانية على الاستيلاء على هذه الجزيرة وما يتبع ذلك من انتصاراتهم في ميدان البحر الأبيض المتوسط .

وأما اتصال المعز بالإخشيديين في عهد وصاية كافر على ، صاحب مصر ، كما أطلق عليه المعز ، فإن مسلمي هذه الجزيرة كانوا قد اتصلوا به قبل أن يتصلوا بالمعز ، لأنهم كانوا من أهل دعوته ، تجمعهم دعوة آل العباس ، . أضف إلى ذلك أن جزيرة إقريطش كانت مستودعا هاما لتموين مصر في ذلك الحين ، حتى كانت سفن أهل هذه الجزيرة ، ومراكبهم بخيرات بلدهم وأطعمتها تدير أهل مصر ، وهداياهم تصل إلى عمالها ، . ومع ذلك عجز هؤلاء الإخشيديون أن يمددوا يد المعونة لأتباعهم ورعاياهم من المسلمين في إقريطش ، ولكنهم أرسلوا في الوقت نفسه إلى المعز سرا ، عن طريق بعض كبار الشخصيات المصرية ، يستحثونه لنجدة الربضيين ، وتظاهر الإخشيديون بالاستعداد للعمل على طرد الروم ، فأنزّلوا بعض سفنهم إلى البحر الأبيض .

وقد عمل المعز لدين الله على الاستعانة بالسفن المصرية ، واستحث الإخشيديين على الإسراع لنجدة المسلمين في إقريطش ، فذكر لهم أنه قد عقد العزم على صد الروم عن الجزيرة ، وتعهّد بأن يتعاون كل من الأسطولين المصري والفاطمي على طرد العدو ، وأن توزع الغنائم والأسلاب بين هؤلاء وأولئك بالعدل . وإنما فعل المعز ذلك ليجذب إليه قلوب الإخشيديين خاصة ، والمصريين عامة ، ويقضي على مقاومة الروم قبل أن يستفحل خطرهم . وفي ذلك يقول المعز لكافور ، الذي آلت إليه الوصاية على أولاد الإخشيد :

و لا تخش على مراكبك منا ، فلك علينا عهد الله وميثاقه أنا لا نكون معهم إلا بسبيل خير ، وإنا نحلهم محل رجالنا ، ونجعل أيديهم مع أيدينا ، ونشركهم فيما آفأ الله علينا ، ونقيمهم في ذلك وغيره مقام رجالنا ، ومراكبك مقام أساطيلنا ، حتى يفتح لنا إن شاء الله ، ثم ينصرفوا إليك<sup>(١)</sup> .

وقد وضع المعز خطة العمل المشترك مع الإخشيديين ، وهي تقضى بأن

(١) التعمان : المجالس والماريات ج ٢ ص ٤١٨ - ٤١٩

يرسلوا رجالهم وسفنهم إلى إحدى الموانئ الفاطمية في برقة القريبة من إقريطش ، وأن يكون ذلك في شهر ربيع الآخر من سنة ٥٣٥ هـ ، ثم يؤكد للإخشيديين أنه قد عقد العزم على مهاجمة الروم . سواء اشتركوا معه في ذلك الهجوم أو تقاعدوا عن معونة أهل هذه الجزيرة . وهكذا اتخذ المعز لدين الله من موانئ برقة مراكز أساسية لمهاجمة الروم في إقريطش ، كما اتخذ الحلفاء في الحرب العالمية الثانية ، تلك الموانئ لطرد الألمان منها .

وأما موقف المعز العدائي من الروم ، فنقف عليه من رسالته التي أرسل بها إلى إمبراطور القسطنطينية ، يهدده فيها بنقض الهدنة التي بينهما ، ويحتج عليه لهجومه على المسلمين في إقريطش ، ويبين له أن العالم الإسلامي ملك للفاطميين ، لا للعباسيين الذين اغتصبوا الأمر منهم .

« فإقريطش وغيرها من جميع الأرض لنا ، بما خولنا الله منها ، وأقامنا له فيها ، أطاعتنا منها من أطاعنا ، وعصانا من عصا ، وليس بطاعتهم يجب أن نملك ، ولا بعصيانهم يحق علينا أن نترك<sup>(١)</sup> . »

وهذا القول لا يترك مجالاً للشك في أن المعز لدين الله قد عقد العزم على أن يخل العالم الإسلامي في حوزته ، كما أنه قد أعلن للروم أنه لن يترك لهم شيئاً من هذه البلاد ، لأن الاعتداء على أي جزء منها يتطوى على التحدي للفاطميين أنفسهم .

ولم يقف المعز في إثارة مخاوف الروم عند ذلك الحد ، فقد كشف لإمبراطورهم عن ضرورة تنجيه عن إقريطش التي هاجمها قائده « الدمستق » ، وإلا قطعت الهدنة ، وحلت محلها الحروب<sup>(٢)</sup> .

وهكذا تتضح سياسة المعز نحو إقريطش ومن بها من المسلمين ، فلم يقر للعباسيين بملكيتها ، أو للروم بالعبث بها ، حتى لا تصبح عقبة في سبيل مد نفوذه إلى الشرق . والحق أن تدخل المعز في شؤون هذه الجزيرة لون من المظاهرات السياسية التي

(١) النعمان : المجالس والمساربات ج ٢ ص ٤١٤

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤١٦



استغلها لإظهار قوته للعالم الإسلامي ، وللروم أنفسهم ، ولون من الدهاء السياسي الذي يتطوى على ذلك البرنامج الواسع النطاق ، الذي كان يرمى من ورائه إلى ضم سائر العالم الإسلامي إلى أملاكه .

لذلك لا تعجب إذا رأينا المعز لدين الله يتوودد إلى أهل إقريطش وإلى كافور الإخشيدي . ويرجع تودده إلى أهل إقريطش إلى إثارة كراهيتهم العباسيين الذين تركوهم تحت رحمة الروم ، دون أن يبذلوا جهدا في سبيل تخليصهم . كما يرجع تودده إلى صاحب مصر إلى تلك السياسة التي درج عليها آباؤه وأجداده ، حتى يتم للفاطميين إخضاع هذه البلاد دون إراقة كثير من الدماء . وقد حفظ لنا التاريخ بعض الرسائل الودية التي أرسلها الفاطميون إلى الإخشيديين يستميلونهم إليهم ، فقد حاول الخليفة القائم بأمر الله الفاطمي ( ٣٢٢ — ٣٣٤ هـ ) أن يستميل إليه محمد بن طغج الإخشيدي . ولم يكن خلفاؤه أقل منه في ذلك ، فقد كان المعز خاصة دائم الاتصال بكافور الإخشيدي الذي آلت إليه السلطة بعد وفاة محمد بن طغج الإخشيدي ، حتى أصبح كافور شديد الميل إلى العلويين ، وبذلك عمل المعز على عدم إثارة الشكوك في نفس كافور<sup>(١)</sup> حتى يضمن انقياده له ، واطمئنانه إليه .

ولم تمدنا المراجع التاريخية بشيء عما كان للجهود التي بذلها المعز لمساعدة المسلمين في إقريطش من أثر . فهل انضم أسطول مصر إلى أسطوله ؟ أو تم إخراج الروم من هذه الجزيرة ؟ هذا ما لم تذكره المراجع الإسماعيلية . غير أن ابن خلدون<sup>(٢)</sup> يؤكد احتلال الروم هذه الجزيرة في سنة ٣٥١ هـ فيقول : إن الربضيين من مهاجري الأندلس استقروا بهذه الجزيرة منسئا أخرجهم إليها عبد الله بن طاهر الذي كان واليا على مصر في سنة ٥٢١ هـ ، فكان خروجهم من هذه البلاد وقصدهم إقريطش كان في هذه السنة .

استقر الربضيون في إقريطش مائة وأربعين سنة ، ثم غزاهم الروم وطردهم منها في عهد أريانوس بن قسطنطين الثامن ، إمبراطور الدولة البيزنطية في سنة ٣٥١ هـ<sup>(٣)</sup> .

(١) انظر ملحق رقم (١)

(٢) العبر ٣ ص ٤١١

(٣) ورد في العبر لابن خلدون ( ٣ ص ٤١١ ) أن ذلك كان في سنة خمس وثمانية ، وهو =

ومهما يكن من شيء فإن احتلال الروم هذه الجزيرة قد تم في الوقت الذي كان المعز لا يزال في بلاد المغرب . ويظهر أن اهتمام المعز بفتح مصر ، وإعداد العدة لذلك الفتح ، واشتغاله بعد ذلك بفتح الشام ، وصراعه مع منافسيه القرامطة هنالك ، كل ذلك قد حال دون استرداده هذه الجزيرة من الروم ، واستغلال موقعها الاستراتيجي لمصلحته الحربية .

### ٤ — عمارة المعز بجزيرة صقلية :

سن الخليفة المهدي لمن خلفه من الفاطميين نظاما جديدا يقضى بأن يكون إلى جانب والى هذه الجزيرة جيش احتلال فاطمي قوى يدفع خطر الأعداء عنها ، وكون بعض الولاة لأنفسهم على مر الزمن عصبية قوية ، وتمتعوا بشيء غير قليل من الاستقلال . وخير مثال لذلك الأسرة الكلبية ؛ فولى الخليفة المنصور ، الحسن بن علي الكلي ، في سنة ٣٣٦ هـ ، وأصبح حكم هذه الجزيرة مقصورا على هذه الأسرة . فلما ولي المعز لدين الله الخلافة أقر الحسن في ولايته ، واستطاع هذا الخليفة أن ينتصر بمساعدة ولاة هذه الجزيرة من الكليين على أعدائه من الأمويين أولا ، ثم على الروم ثانيا . كما استطاع أن يهدد إيطاليا ، وأن يلقي الفزع في قلوب أهالي الجزر الغربي من البحر الأبيض المتوسط .

ولما ولي المعز الخلافة في سنة ٣٤١ هـ ، كان الحسن الكلي بلى جزيرة صقلية ، وقد عمل منذ تقلد ولاية هذه الجزيرة في عهد الخليفة المنصور الفاطمي على إخضاع جميع الروم فيها إلى نفوذ الفاطميين ، ولكن النزاع قد تفاقم بينه وبين الأهالي . ولم ير مسيحيو صقلية وقلورية بدا من الالتجاء إلى أباطرة الدولة البيزنطية ، الذين استجابوا إلى نداءهم ، لأنهم كانوا يعملون على مناصبة العباسيين في المشرق ، وشغل المسلمين في المغرب والأندلس بحاربة الفاطميين في صقلية ، لذلك أرسل الإمبراطور قسطنطين

---

خطأ مطبعي بالعلم ، لأن ابن خلدون ذكر قبل ذلك أن خروج الرعيين كان في عهد عبد الله بن طاهر (٢١١ - ٢١٣ هـ) ، وأنهم استقروا بجزيرة إفريطش مائة وأربعين عاما ، فيكون خروجهم منها في سنة ٣٥١ هـ . أو في سنة ٣٥٠ هـ . وإذن فإن عبارة « خمس وثلاثمائة » يجب أن تكون « خمسين وثلاثمائة » أو إحدى وخمسين وثلاثمائة . . .

الثامن (٣٠٧-٥٣٣ = ٩١٩-٩٤٤ م) جيوشه إلى هذه الجزيرة، واشتبكوا مع جيوش الحسن الكلبي الصقلية وجيوش الخليفة المنصور المغربية، وكان قد أمد بها الحسن في أواخر حياته، فاستولت على كثير من أمهات مدن قلورية وصقلية الموالية للروم مثل جراتشي Geraci<sup>(١)</sup> حيث حلت الهزيمة بالجيش البيزنطي وقتل قائده، وأرغم الإمبراطور على طلب الصلح، وتعهد للحسن الكلبي، بأن يدفع أهل قلورية الجزيرة للفاطميين، وأن يحترموا الشريعة الإسلامية. واستطاع والي الفاطمي — كما يقول ابن خلدون<sup>(٢)</sup> — أن يبني المساجد في المدن الرومية. وإن قرب صقلية من إيطاليا قد أتاح له الفرصة للإغارة على جنوبها، وفتح قلورية، وإخضاع هذه الجزيرة للفاطميين، ولذلك اصطدم مع أباطرة الدولة الرومانية الشرقية. وعلى الرغم من مهادة أباطرة الروم في أواخر حكم المنصور، الحسن الكلبي، ظل الصراع عنيفا بين الحسن والمعز من ناحية، وبينه وبين الروم من ناحية أخرى<sup>(٣)</sup>.

وفي عهد المعز لدين الله، لم يحترم الإمبراطور قسطنطين الثامن شروط الهدنة التي عقدها مع الحسن الكلبي؛ وشجعه على ذلك ما أحرزه من الانتصارات الباهرة على العباسيين والحمدانيين في المشرق، وطمع في أن يحرز في المغرب ما أحرزه من الانتصارات في المشرق. وقد عول على أن يشغل المعز بهذه الحروب حتى تتاح له الفرصة للقضاء على الدولة العباسية المتداعية. ولذلك أرسل في سنة ٥٣٤٥ (٩٥٦ م) حملة برية بحرية، وركز الروم جهودهم في فتح بلرمو، وكانت موالية للمسلمين، ففتحوها بعد حصار طويل شاق. وأخذت انتصارات الروم تتوالى في قلورية التي عجزت عن صد جيوش الفاطميين، واستطاع الروم بعد هذه الانتصارات أن يرسلوا جيوشهم إلى صقلية نفسها، ويستولوا على مدينة ترميني Termini التي تبعد عن بلرمو بأربعة عشر ميلا. غير أن الروم لم يتمتعوا بثمار هذه الانتصارات الرائعة في صقلية، وعادوا أدراجهم إلى قلورية.

ونستطيع أن نصور في إيجاز موقف الفاطميين في صقلية في خلال هذه الحروب

(١) ويسمى ابن الأثير (ج ٨ ص ١٧٨) «جراجة».

(٢) «المعز» ص ٢٠٩.

(٣) ابن الأثير: ج ٨ ص ١٧٨.

التي استمرت قرابة خمس سنين . فقد كان الحسن الكلبي في صقلية على رأس جيش قوى ، وكان أخوه عمار على رأس جيش فاطمي آخر في قلورية ؛ إلا أن الحسن كان أكثر حرية في العمل من أخيه ؛ فقد تخلص بإخراجه الروم من « ترمينى » من الخطر الذي كان يهدده في صقلية . أما أخوه عمار فقد كانت جيوش الروم تطارده من مكان إلى مكان ، ولم يخلصه إلا انضمام أخيه الحسن إليه ( سنة ٣٤٧ هـ ) . فقد استطاع أن يعبر خليج مسيني بين صقلية وقلورية ، وينضم إلى جيوش الفاطميين بقيادة أخيه عمار ، وما زال الحسن وأخوه يغزوان مدن قلورية واحدة إثر أخرى ، وإمدادات الفاطميين تتوالى عليهم ، حتى اضطر الإمبراطور البيزنطى أن يرسل إلى الفاطميين في سنة ٣٥٠ هـ رسولا من قبله يسمى « سقراط » ، يطلب عقد هدنة بمائة لتلك الهدنة التي أبرمت في عهد الخليفة المنصور الفاطمي ، وتقضى بأن تدفع قلورية الجزية للمسلمين .

وهكذا انتهى الدور الأول من هذه الحروب التي شنها المعز لدين الله على الروم في صقلية وقلورية إلى هذا النصر المؤزر ، وزال خطر الروم عن هذه البلاد إلى حين ، وذلك بفضل جهود الحسن وأخيه عمار ، وغيرهما من أفراد الأسرة الكلبية . على أن الإمبراطور قسطنطين لم يقف مكتوف الأيدي أمام المعز والكلبيين ، فاتفق مع عبد الرحمن الناصر الأموى على محاربة الفاطميين في صقلية - على ما رأينا - وعلى مهاجمة إفريقية نفسها من الشرق ، في الوقت الذي يهاجمها منه عبد الرحمن الناصر الأموى في الغرب ؛ ولكن جيوش المعز استطاعت أن تحبط هذا المشروع الخطر ، وانتصرت على الروم في البحر الأبيض <sup>(١)</sup> ، كما انتصرت على الأمويين . واضطر الإمبراطور البيزنطى إلى طلب الصلح بعد أن حلت به هذه الهزائم المتتالية ، وعقدت بينه وبين الخليفة الفاطمي المعز هدنة أمدها خمس سنين .

وقد أفاض المؤرخون في ذكر الحرب التي قامت بين أنصار الفاطميين وأنصار البيزنطيين في صقلية ؛ فقد استطاع أحمد بن الحسن بن أحمد الكلبي أن يستولى في سنة ٣٥١ هـ ، على قلعة طبرمين - وكانت من أمنع القلاع في صقلية -

(١) انظر ص ٤٠ — ٤٣ من هذا الكتاب .

بعد مقاومة عنيفة . وطلب أهلها ، أن يؤمنوا على دمانهم ، ويكونوا رقيقا للمسلمين .  
وأموالهم فينا (١) . . وقد أقام أحمد بن الحسن السكلي في هذه المدينة جماعة من  
المسلمين ، وطرده أهلها عنها ؛ ولم يكتف بذلك بل سماها - كما قال ابن الأثير - (٢) :  
« المعزية » ، تيمنا باسم المعز لدين الله . وكان لسقوط هذه المدينة أثره في المدن  
الأخرى المعادية للفاطميين ، فقد أخذت تفتح أبوابها للجيوش الفاطمية التي أخذت  
في احتلالها ؛ إلا أن مدينة « رمطة » ، أبت أن تستسلم للفاطميين الذين حاصروها  
بقيادة الحسن بن عمار في رجب سنة ٣٥٢ هـ ، وأرغم أهلها على طلب النجدة من  
الإمبراطور « نقفور فوكاس » ، ( ٣٥٢ - ٣٥٩ = ٩٦٣ - ٩٦٩ م ) ، وكان  
قد انتصر على العباسيين والحمدانيين ثم على الرضيين بجزيرة إقريطش . وقد عمل  
هذا الإمبراطور على أن يتشبه بمن سبقه من الأباطرة البيزنطيين في الاتجاه نحو  
الغرب ، لينال فيها ما ناله من شرف الانتصار في الشرق ، وليشغل الفاطميين خاصة  
عن التطلع إلى بلاد المشرق .

وقد بلغ من اهتمام الإمبراطور نقفور فوكاس بمحاربة الفاطميين ، أنه أعد  
أسطولا ضخما ملاءه بالمؤن والذخيرة ، واختار له مشهورى قواده ، وأعد جيشا  
يقرب من خمسين ألف رجل مجهزين بأحسن آلات الحرب ، وأمر عليه رجلين ،  
أحدهما مانويل Manuel ، وكان يمت إليه بصلة القرابة . وكان الروم يعتقدون أن  
النصر معقود لهم ، ولا عجب فإن صقلية لم يدخلها من قبل جيش بلغت قوته قوة  
هذا الجيش البيزنطى ، على ما ذكره ابن الأثير .

أما جهود المعز لدين الله وأنصاره في صراعهم مع نقفور فوكاس وأنصاره من  
أهل صقلية ، فتجلى في إعداد أحمد بن الحسن السكلي ، والى صقلية ، الأسطول الصقلي لإعداد  
كاملا ، وفي إعداد جيوشه البرية وتوزيعها على موانئ صقلية الشمالية الشرقية ، وفي  
ذلك المدد الذى أمد به المعز واليه على هذه الجزيرة . وقد وصل أسطول الفاطميين  
إلى هذه الجزيرة في منتصف سنة ٣٥٣ هـ ( ٩٦٤ م ) . وقسم الحسن السكلي  
وابنه أحمد الجيوش الفاطمية الرئيسة قسمين : قسما بقيادة الحسن بن عمار ، وقد

(١) ابن الأثير ٨٣ ص ١٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ٨٣ ص ٢٩ .

عهد إليه بحصار مدينة رمطة Rametto ، والقسم الأكبر برياسة الحسن السكلي نفسه ،  
وقد عسكر في بلرمو .

ومهما يكن من شيء فإن وصول المسدد الإفريقي إلى صقلية قد تم قبل وصول  
الروم إليها . ويرجع ذلك إلى قرب المسافة بين تونس وصقلية ، وحسن إعداد  
الجيوش والأساطيل المعزية . أضف إلى ذلك أن المعز لدين الله أصبح بعد إخضاع  
جميع بلاد المغرب تقريبا ، على يد جوهر الصقلي ، آمنا على نفسه من خطر الحروب  
الداخلية في المغربين الأقصى والأوسط ، ولم يعد يخشى أموي الأندلس أنفسهم ،  
ولذلك ألقى بكثير من قواته البرية والبحرية في المعركة . وعلى الرغم مما بذله  
الفاطميون من جهود في هذه السبيل ، استطاع الروم أن يستولوا على مسينا التي  
تبعد عن رمطة بتسعة أميال ، وذلك في شهر شوال من سنة ٣٥٣ هـ (٩٦٤ م) ، كما  
استولوا على ترميني Termini وغيرها ، وحالوا دون وصول المدد الفاطمي إلى الحسن  
ابن عمار الذي كان يحاصر رمطة .

وكان اهتمام الحملة البيزنطية يتركز حول إنقاذ مدينة رمطة ، والقضاء على  
جيوش الحسن بن عمار التي كانت على حصارها . ولذلك اندفعوا إلى هذه المدينة  
كالسيل المنهمر ، وأدرك الحسن بن عمار ، كما أدرك سائر قواد الفاطميين ، خطر  
اندفاع الروم إلى رمطة ، فاتجه أحمد بن الحسن السكلي من بلرمو إلى رمطة ، لإنقاذ  
ابن عمه الحسن بن عمار ، ولكنه لم يستطع أن يسبق الروم إليها ، واشتغل باسترداد  
ترميني .

أما الحسن بن عمار فلم يعبأ بكثرة الروم ، وقسم جيشه الصغير أربعة أقسام :  
جعل قسما منها على حصار رمطة نفسها ، لينبع أهلها من الاتصال بالجيش البيزنطي  
المهاجم ؛ ووضع قسمين آخرين على رأس الواديين اللذين يوصلان إلى المدينة ،  
وكان العدو يستطيع التسلل منهما إليها ، واتجه على رأس البقية الباقية من جنده  
لمقابلة جيوش مانويل الرئيسة . وقد تمكنت جيوش الحسن المحاصرة لمدينة  
رمطة من منع أهالي هذه المدينة من الاتصال بالروم ، وأدرك الحسن ومن معه من  
الجنود أنهم دون العدو عددا وعددا ، فاستماتوا في القتال ، وتعاقدوا فيما بينهم على

أن يموتوا كراما . وهكذا ، تقدم الروم إلى القتال ، وهم مدللون (١) بكثرتهم ،  
وبما معهم من العدد وغيرها . والتحم القتال ، وعظم الأمر على المسلمين ، وأحقهم  
العدو بخيامهم ، وأيقن الروم بالظفر ؛ فلما رأى المسلمون عظم ما نزل بهم اختاروا  
الموت ، ورأوا أنه أسلم لهم ، وأخذوا بقول الشاعر :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما  
فلسنا على الأعداء (٢) تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما (٣)

ويظهر أن ثبات المسلمين أمام الروم ، واندفاعهم نحوهم على الرغم من قتلهم ،  
كان مفاجأة تامة لهؤلاء الروم ، الذين كانوا يوقنون أنهم سيحيطون بجيوش ابن  
عمار ، ويبيدونها في ساعات قليلة ، ومن ثم أخذ الهلع يدب إلى نفوسهم . ولما أدرك  
قائدهم مانويل حرج مركزه ، تقدم صفوف جنده ، وجعل يثير الخماس في نفوسهم  
ويحذرهم مغبة الهزيمة أمام فئة قليلة من المسلمين .

أما الحسن بن عمار فقد قابل هذا التحدي بمثله ، وأعمل هو ورجاله السيف  
في رقاب الروم ، وأحاطوا بقائدهم مانويل ، وعقروا فرسه وقتلوه . وكان ذلك  
الظفر ضربة قاضية على الروم الذين عز عليهم قتل قائدهم ، فولوا لا يلوون على  
شئ ، وحالت الأمطار والعواصف بينهم وبين النجاة ، ووقع سوادهم الأعظم في  
الأسر ، وقتل جماعة من البطارقة ، وانهزم الروم ، وتبعهم المسلمون بالقتل ، وامتلات  
أيديهم من الغنائم والأسرى والسبي . (٤) فكان هذا النصر انتقاما من البيزنطيين .

(١) أي غيورون

(٢) أي لا تزيد على أعقابنا

(٣) ابن الأثير : ج ٨ ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٤٠٩ . ويصف ابن الأثير ( ج ٨ ص ٢٠٠ ) هذه الهزيمة  
بقوله : « انهزم الروم أقيح هزيمة ، وأكثر المسلمون فيهم القتل ، ووصل المهزومون إلى جرف خندق  
عظيم كالحفرة ، فسقطوا فيه من خوف السيف ، فقتل بعضهم بعضا ، حتى امتلات . وكانت الحرب  
من بكره (الصباح) إلى العصر . وبات المسلمون يقاتلونهم في كل ناحية ، وغنموا من السلاح والخيل  
وصنوف الأموال ما لا يحصى ، وكان في جملة الغنيمة سيف هندي عليه مكتوب : هذا سيف هندي وزنه  
مائة وسبعون مثقالا ، طالما ضرب به بين يدي رسول الله ، صل الله عليه وسلم ، فأرسل إلى المزمع  
الأسرى والزموس .

الذين عبثوا بجزيرة اقربطش (١)

وهكذا تلقى الحسن بن عمار سيول الروم وحده ، ونال شرف الانتصار عليهم وحده ، وغنم منهم مالم يكن يدور بخلده . حتى كان الأسرى يعدون بالآلوف . أما الغنائم فلم تكن تقع تحت حصر . أضف إلى ذلك أن تلك الموقعة قد قررت مصير رمطة ، بل قررت مصير صقلية نفسها ؛ فقد كانت هذه المدينة مركز المقاومة الرئيس في وجه الحكم الفاطمي في الجزيرة ، ومن ثم اندفعت فلول الروم نحو الساحل لاجئين إلى أسطولهم . تاركين حماة رمطة يلاقون حتفهم وحدهم ، ويجنون ثمار ماقدمته أيديهم من الاتصال بالروم ؛ فقد ضيق المسلمون عليهم الحصار ، حتى اضطروا إلى إخراج نسائهم وأطفالهم إلى المسلمين ، فلم يشأ ابن عمار أن يغدر بهم وأبقى عليهم . وعلى الرغم مما وصل إليه أهالي رمطة من بؤس وشقاء ، لم يشاءوا أن يلقوا سلاحهم ، واستمروا يقاومون إلى أن تسلق المسلمون الأسوار ، واقتحموا مدينتهم واستولوا عليها عنوة . وغنموا ما فيها (٢) ، ثم عمل المسلمون على تعمیرها وسكنها طائفة منهم . وهكذا سلبت تلك المدينة الحصينة للفاطميين ، بعد حصار دام ثمانية أشهر ، ولو انتصر أهل رمطة وحلفاؤهم الروم ، لتغير تاريخ الفاطميين في صقلية .

وما كاد أحمد بن الحسن الكلبي ، ابن عم الحسن بن عمار ، يعلم بهزيمة الروم في رمطة ، حتى اندفع نحو مسينا ، ليقطع على فلولهم خط الرجعة ؛ ولكنه علم أنهم هربوا إلى جزيرة ريو Riggio وقصدوا القسطنطينية ، فلاحق بهم ، وانتصر عليهم في موقعة تعرف بموقعة « المجاز » ، التي لا تقل خطرا عن موقعة « رمطة » ؛ فقد زحف إليهم أحمد بن الحسن في الماء ، وقاتلهم ، واشتد القتال بينهم ، وألقي جماعة من المسلمين بأنفسهم في الماء ، وخرقوا كثيرا من المراكب التي للروم فغرقت ، وكثر القتل في الروم ، فانهزموا ، لا يلوى أحد على أحد ، وأسرفاتهم (٣) وهوناني اثنين من قواد هذه الحملة ، وأرسل إلى سيجن المهديّة بإفريقية .

Fournel : La Conquête de l'Afrique par les Arabes, (١)  
pp. 336-7.

(٢) ابن الأثير : ج ٨ ص ٢٠٠ .

(٣) المصدر نفسه .



وكان من أثر انتصار الفاطميين في هاتين الموقعتين أن أخذت المدن النائرة في صقلية تسلم الواحدة تلو الأخرى ، ولم يقف أثر هاتين الموقعتين عند ذلك الحد ، فقد ساد الخوف من المسلمين في «قلورية» ، واستولى الفزع على أهلها ، فعدوا الهدنة مع أحمد بن الحسن الكلبي ، وأقروا على أنفسهم بدفع جزية للفاطميين . فكان هذا نصرا مؤزرا للمعز لدين الله الفاطمي . ودليلا قاطعا على قوة الخلافة الفاطمية ، حتى لقد شعر أباطرة الروم بأنها ليست سهلة المنال كاخلافة العباسية ، التي أخذت طريقها إلى الانهيار .

وكان لهذه الانتصارات المتتالية التي أحرزها أحمد بن الحسن ، والحسن بن عمار أثرها في نفس عاهل تلك الجزيرة الأكبر ، وهو الحسن بن أحمد الكلبي ؛ فقد سره تدفق الأسرى والغنائم الرومانية ، كما سره قدوم الجيوش الفاطمية المظفرة في بلرمو ، حاضرة هذه الجزيرة . وقد أجهد الحسن الكلبي نفسه في الحفاوة بالجند الفاطميين بمصاحفتهم ومعانفتهم ، حتى إنه خر صريعا تحت تأثير نشوة الفرح ، في أواخر سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) <sup>(١)</sup> .

هكذا مات الحسن الكلبي بعد أن أسس لابنائه ملكا قوى الدعائم في صقلية ، ومد نفوذ المنصور والمعز في صقلية وقلورية ، وسامم مساهمة فعالة في هزيمة الروم برا وبحرا غير مرة ، وهزم أسطول الأمويين في عقر داره . إلا أن الدور الذي قام به في عهد المعز كان أبلغ أثرا .

تخوف إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية من ناحية الفاطميين ، فعمل على تحسين العلاقة بينه وبينهم ، لأن ذلك قد يؤدي إلى بقاء ممتلكاته في قلورية ، ويحول دون القضاء على نفوذ دولته في إيطاليا . وإذا علمنا أن الإمبراطور جستنيان قد وضع سياسة الاستقرار في إيطاليا ، وأن أباطرة الدولة البيزنطية كانوا يعتقدون أنهم الورثة الحقيقيون لهذه البلاد ، أدركنا سبب تشبث هؤلاء الأباطرة بالبقاء في كالابريا ومحاولتهم طرد المسلمين من صقلية . على أن هؤلاء الأباطرة لما وجدوا أنه لا قبل لهم بطرد جيوش الفاطميين من هذه الجزيرة ، اتجهت سياستهم ، وبخاصة سياسة تقفون فوكاس ، إلى أن يحتفظوا بالبقية الباقية من أملاكهم في إيطاليا ولاسيا في كالابريا .

(١) ابن خلدون : العبر ١ ص ٣٠٩

على أن هناك خطرا جديدا قد حدا البيزنطيين على مخالفة الخليفة المعز لدين الله الفاطمي بعد أن حلت بهم الهزيمة في رمطة والمجاز، ذلك الخطر هو رغبة الإمبراطور أوتو الأكبر في توحيد إيطاليا، والقضاء على النفوذ البيزنطي والفاطمي فيها؛ فقد كاد يقضى على النفوذ البيزنطي هناك بانتصاره على ملك إيطاليا الروماني في سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) ، ونال بذلك إعجاب البابا ، فعينه إمبراطورا مقدسا .

وقد بدأ أوتو يتطلع إلى ممتلكات البيزنطيين وخاصة في قلورية ، وأصبح يهدد الدولة البيزنطية والخلافة الفاطمية معا ، فعمل نقفور فوكاس ، على الاستعانة بالفاطميين في دفع الخطر الجرمانى عن ممتلكاته البعيدة في إيطاليا .

وصل نيقولا سفير إمبراطور الدولة البيزنطية إلى إفريقية ( سنة ٣٥٧ هـ ) في الوقت الذى كانت جيوش الفاطميين تتأهب لغزو مصر . وقد هاله ما رأى من عظمة المعز ، وما شاهده في قصره من مظاهر الأبهة ، وعلم أن الروم قد أخطئوا حين أطلقوا عليه « ملك المتبررين » ، وأيقن أن هذا الخليفة الفاطمي سوف يخلف العباسيين في إمبراطوريتهم ، كما يتبين ذلك من هذه العبارة التى وردت على لسان ذلك السفير ، الذى بهره ذلك الاستقبال الذى استعد له المعز أحسن استعداد : فقال : « بعنى إليك الملك (١) ذلك العام ، فرأيت من عظمتك فى عيني وكثرة أصحابك ما كدت أموت منه ، ووصلت إلى قصرك ، فرأيت عليه نورا عظيما ، غطى بصرى ؛ ثم دخلت عليك فرأيتك على سريرك ، فظننتك خالقا ، فلو قلت لى إنك تخرج إلى السماء لتحقق ذلك (٢) . »

وقد أفاد هذا الاتفاق الخليفة المعز ، فلم يعد يخشى خطر هجوم الروم على بلاده فى المغرب ، فى الوقت الذى بعث فيه بجيشه الضخم إلى مصر . ولو لم يكن المعز قد اتفق فى ذلك الوقت مع الروم ، لما استطاع أن يعي كل قواه البرية والبحرية إلى الشرق ، ولا أن يبعث بذلك العتاد الحربى مع جوهر . وهكذا استغل المعز هذا الاتفاق ، وضاعفت جهوده فى الهجوم على مصر والشام . ثم اتجه إلى تنظيم الحكم فى جزيرة صقلية نفسها .

(١) هر نقفور فوكاس (٣٥٢ — ٣٥٩ هـ = ٩٦٣ — ٩٦٩ م)

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٩

وأما أثر صقلية في تاريخ العلاقة بين المعز لدين الله ، وبين عبد الرحمن الناصر الأموي ، فتراها في استعانة المعز بالحسن بن علي الكلي ، للانتقام من الأمويين الذين عبثوا بإحدى السفن الصقلية الفاطمية . وقد انتصر الحسن بأسطوله الصغير انتصارا باهرا على أسطول الأمويين الضخم في ميناء المرية الأسبانية في سنة ٣٤٤ هـ ، وبرهن بعمله هذا على قدرته الحربية ، وإتقانه عنصر المفاجأة والحرب الخاطفة . وبهذا نرى أسطول صقلية وولاتها ورجالها يساهمون في القضاء على خطر الروم والأمويين ، وعلى خطر الثوار من أهل الجزيرة الذين ناوموا الحكم الفاطمي .

### أشهر ولاية المعز بصقلية :

تقلد هذه الجزيرة في عهد المعز أربعة من الولاة ، أولهم الحسن بن أحمد الكلي الذي تقلد ولاية هذه الجزيرة في عهد المنصور على ما رأينا . فلما ولي المعز الخلافة أقره في ولايته ، وليكثه استدعاه إلى المنصورية ، وأتاب عنه في حكم هذه الجزيرة ابنه أحمد بن الحسن ، وكان المعز يستعين في حروبه في صقلية بكبار الكليين ، مثل عمار الكلي أخى الحسن ، وابن الحسن بن عمار بطل موقعة « رمطة » .

وقد أحدث موت الحسن بن أحمد الكلي في سنة ٣٥٤ هـ ( ٩٦٥ م ) اضطرابا كبيرا في هذه الجزيرة ، فمن قائل إن المعز عمل على إقصاء هذا البيت القوي عن الحكم ، حتى لا يستبد أفراده بالأمور دونه (١) . وألحق أن هذه كانت سياسة المعز ، فإنه لم يشأ أن يبقى الحسن بن أحمد وحده هناك ، بل أشرك معه في الأعمال الحربية أخاه عمار بن أحمد ، كما أنه لم يشأ أن يترك الحسن مع ابنه أحمد في هذه الجزيرة ، حتى لا يستبد بشؤونها . ولذلك استدعاه إلى إفريقية ، وترك أحمد نائبا عنه فيها ، وعمل في الوقت نفسه على ألا يترك فيها أحمد بن الحسن الكلي وحده ، بل أشرك معه في الشؤون الحربية خاصة ابن عمه الحسن بن عمار .

والواقع أن المعز لدين الله أبقى أحمد بن الحسن الكلي واليا على صقلية بعد وفاة أبيه الحسن حتى سنة ٣٥٨ هـ ، حيث ولي « يعيش » ، مولى الحسن الكلي مكانه ،

واستدعى أحمد وسائر أفراد الأسرة الكلبيّة إلى إفريقية في هذه السنة نفسها . وقد خضع أحمد لأوامر مولاة المعز ، وجمع أهله وعشيرته ومواليه ، وقصد المنصورية . وقد ذكر ابن خلدون (١) أن المعز لدين الله ولى يعيش بعد موت الحسن الكلبي سنة ٣٥٤ هـ ، وذكر ابن الأثير (٢) أن تعيين « يعيش » مولى الحسن كان في سنة ٣٥٩ هـ .

ويظهر أن ما ذكره ابن الأثير أقرب إلى الصواب ، لأن المعز لجأ إلى إخراج الكلبيين من هذه الجزيرة لأسباب منها : أنه لم يعد بعد تحالفه مع الروم في سنة ٣٥٧ هـ يخشى خطر البيزنطيين ، كما لم يعد بحاجة إلى هذه الأسرة التي تعتمد على عصبيتها في الجزيرة ، لكنه أتى أحمد بعد موت أبيه من سنة ٣٥٤ إلى سنة ٣٥٨ هـ . ولا يبعد أن يكون المعز قد لمس فيه ميلا إلى الاستبداد بالأمور ، وخشى أن يستقل بصقلية ، ولا سيما بعد أن خرج جوهر الصقلي إلى مصر ، فعمل على إقصاء الأسرة الكلبيّة كافة عن صقلية ، حتى لا يكونوا مصدر قلق له .

على أن المعز لدين الله قد برر ما عمله هذا بأنه يريد أن يصحب رجال هذه الأسرة معه إلى القاهرة ، لينالوا المناصب العالية فيها ، تقديرا لما أسدوه للفاطمين من خدمات . وفي الحق أن المعز صرح بذلك عقب ثورة صقلية على الوالي الفاطمي الجديد ، وما تهامس به الناس في المهديّة والمنصورية وغيرهما ، ليزيل الأثر السيء الذي تركته تولية « يعيش » مولى الكلبيين (٣) . ولما أدرك المعز استحالة بقاء « يعيش » في هذه الجزيرة ولى الكلبيين عليها ، وأسند إليهم المناصب العالية في

(١) العبر ج ٤ ص ٢٩

(٢) الكامل ٨ ج ٣ ص ١١٩

(٣) بما ذكره ابن الأثير ( ج ٨ ص ٢١٩ ) نرى أن يعيش مولى الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي لما ولى هذه الجزيرة ، وقع الشر بين موالى كاتامة والقبائل ، فقتل من كاتامة كثير ، ومن الموالى جماعة ، وازداد الشر بينهم ، وتمسكت العداوة ، وسمى « يعيش » في الصلح ، فلم يرافقه ، وتناول أهل الشر من كل ناحية ، ونهبوا وأفسدوا ، واستطالوا على أهل المراسي ، واستطالوا على أهل الفلاح المستأنة ؛ فبلغ الخسر إلى المعز ، فعزل يعيش ، واستعمل أبا القاسم بن الحسين بن علي بن أبي الحسين نياية عن أخيه أحمد ، فسار إليها ، فلما وصل فرح به الناس ، وزال الشر من بينهم ، وانفقوا على طاعته . بما يدل على أن مبعث ثورتهم هو عدم الرضا عن نفى الكلبيين من جزيرة صقلية .

الدولة ؛ فعين أحمد بن الحسن قائدا عاما على الأسطول الفاطمي ، وأقره على حكم صقلية ، وأتاب عنه أخاه أبا القاسم بن الحسن . وأبقى المعز في الوقت نفسه محمد بن الحسن أحد أمراء السككيين في قصره بالمنصورية والقاهرة ، حيث نعم بمرکز ممتاز . ويقول المؤرخون إن محمد بن الحسن هذا كانت له عند المعز مكانة سامية لا تقل عن مكانة النعمان المغربي ، فقيه الإسماعيلية المشهور . ومهما يكن من شيء فقد أصلح المعز ما أفسده باستدعائه الأسرة السككية ، ونفيها عن صقلية ، ولكنه أعادهم إليها بعد أن علمته الحوادث درسا قاسيا . ووضع لحكم هذه الجزيرة نظاما سنقف عليه عند الكلام على نظام الحكم في الولايات الفاطمية .

وقد عاد الهدوء والسكينة إلى صقلية بتولية أبي القاسم بن الحسن السككي إياها ، فدخلها في منتصف سنة ٣٥٩ هـ ، وبقي بها حتى مات سنة ٣٧٢ هـ ، وذلك في عهد العزيز بالله الفاطمي . وقد زار ابن حوقل صقلية في عهد أبي القاسم الذي ولاه المعز على هذه الجزيرة ، وأتاه في الوقت نفسه الخبر بموت أخيه أحمد بن الحسن في طرابلس . ومن أهم أعمال هذا الوالي في عهد المعز أنه أخذ يرقب أوتو - إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة - وتم على يد أبي القاسم هذا توحيد صفوف الجيوش الفاطمية والجيوش البيزنطية أمام الخطر الجرمانى .

غير أن هذه السياسة الحكيمة التي لجأ إليها نفقور فوكاس ، من محاولته الوقوف جنبا إلى جنب مع الفاطميين لصد الخطر الجرمانى ، سرعان ما أصابها الضعف على يد الإمبراطور زيمسكس Zimiscès ( ٣٥٩ - ٣٦٦ هـ = ٩٦٩ - ٩٧٦ م ) ، فقد قبل مارفضه نفقور فوكاس ، وتحالف مع أوتو الأول ، حتى يستطيع أن يكيل الضربات للفاطميين في الشرق والغرب . ويظهر أن زيمسكس كان يعتقد استحالة بقاء الصلح بينه وبين الفاطميين ، ولا سيما بعد أن يمموا شطر مصر ، وأغاروا على بلاد الشام التي كان يعدها الروم في ذلك الحين . مجالا حيويا ، لإمبراطوريتهم . ولذلك حارب زيمسكس الفاطميين في شمال الشام وفي دمشق نفسها ، وتحالف مع أوتو الجرمانى ؛ ومن ثم بدأ أبو القاسم الكلابى يحصن حدود ولايته الشمالية ويهجم على ممتلكات الروم في قلورية ( كالابريا ) . ولم تتطور الحرب بين الروم والفاطميين إلا في سنة ٣٧١ هـ في عهد العزيز بالله .

وبذلك نرى أن المعز لدين الله استطاع أن يستغل موقع صقلية الاستراتيجية ، ويصد جميع الحملات التي كان يوجهها الأمويون والبيزنطيون نحو إفريقية ، كما استطاع أن يستغل هذا الموقع ليمد نفوذه في إيطاليا نفسها . وهكذا تم لهذا الخليفة النشيط تنظيم القسم الغربي من دولته ؛ ثم بدأ يفكر في المسير نحو الشرق ، ليتخذ من القاهرة قاعدة لدولته الشاسعة الأرجاء ، ويوجه منها ضرباته إلى العباسيين والروم .

ولم ير المعز بدا من قصد مصر ، لأنه تبين له استحالة تحقيق آماله كافة لو بقي في بلاد المغرب ، لأنه من السهل عليه أن يسير من مصر إلى بغداد وإلى سائر بلاد المشرق ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى رأى المعز ضرورة فتح مصر لتأديب القرامطة على ما سيأتي ، ولهذا عقد العزم ، واتجه نحو بلاد المشرق ، وذلك في أواخر سنة ٣٦١ هـ .

وبدل اختيار المعز لبلدكين بن زيري بن مناد الصنهاجي لينوب عنه في حكم بلاد المغرب على بعد نظره ، فقد كان يعلم ماساد بين الصنهاجيين والزناتيين من كراهية ، ورأى أن يضرب هؤلاء بأولئك ، حتى لا يستقلوا بالأمر دون الفاطميين . أضف إلى ذلك أن المعز لم يسر إلى مصر إلا بعد أن بذر بذور الشقاق بين الصنهاجيين والزناتيين من جهة ، وبين أمراء الصنهاجيين أنفسهم من جهة أخرى ، حيث أمر بلدكين ألا يمنح إخوته أو أعمامه شيئا من السلطان ، ووضع له البرنامج الذي يسير عليه في هذه العبارة القصيرة : « لاتنس ثلاثة أشياء : إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية ، ولا ترفع السيف عن البربر ، ولا تول أحدا من إخوتك وبنى عمك ، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك » (١) . وفي عهده زاد نفوذ الصنهاجيين زيادة

(١) وفي ذلك يقول المقرئ (خطوط ج ١ ص ٢٥٢ - ٢٥٣) : « لما عزم المعز على المسير إلى مصر اجال فكره فبينما يتخلفه في بلاد المغرب ، فوقع اختياره على جعفر بن علي الأمير ، فاستدعاه ، وأمر إليه أنه يريد استخلافه بالمغرب ، فقال : تترك معي أحد أولادك أو إخوتك تجلس في القصر ، وأنا أدبر ، ولا تسألني عن شيء من الأموال ، لأن ما أجيبه يكون بازا . ما أنفق من الأموال ؛ وإذا أردت أمرا فعلته من غير أن أنتظر ورود أمرك فيه ، لبعده ما بين مصر والمغرب ، ويكون تقليد القضاء والحراج وغيره إلى . فغضب المعز وقال : يا جعفر عزلتني عن ملكي ، وأردت أن تجعل لي فيه شريكا في أمري واستبددت بالأعمال والأموال دوني . قم ؛ أخطأت حظك ، وما أصبت رشداك ، فخرج منه . »

كبيرة ، فكان بداية انتصار القبائل المغربية على الفاطميين (١) .

وليس هذا كل ما قام به المعز ، فقد أراد أن يستوثق من السكتاميين ، ليعرف مدى خضوعهم لمن يتولى شئونهم نيابة عنه ، فلم يغادر بلاد المغرب إلا بعد أن يتيقن أن المغاربة لا ينضمون حول شخص لا يرضى عنه الخليفة . يقول المقرئ (٢) :  
 ولما أنفذ المعز جوهرًا إلى مصر ، وبرز يريد المسير إلى مصر ، بعث خفيقا الصقلي ، صاحب الستر . إلى شيوخ كتامة يقول : يا إخواننا ! قد رأينا أن ننفذ رجالا من قبلنا إلى بلدان كتامة يقيمون بينهم ، ويأخذون صدقاتهم ومراعيتهم ، ويحفظونها علينا في بلادهم . فإذا احتجنا إليها أنفذنا خلفها ، فاستعنا بها على ما نحن بسبيله . فقال بعض شيوخهم لحفيص ، وقد بلغهم ذلك : قل لمولانا : والله لا فعلنا هذا أبدا . كيف تؤدي كتامة الجزية ، ويصير عليها في الديوان ضريبة ؟ وقد أعزها الله قديما بالإسلام ، وحديثا معكم بالأمان ، وسيوفنا بطاعتكم في المشرق والمغرب ؟ فعاد خفيص بذلك إلى المعز فأمر بإحضار جماعة كتامة ، فدخلوا عليه وهو راكب فرسه ، فقال : ما هذا الجواب الذي صدر عنكم ؟ فقالوا : نعم ! هو جواب جماعتنا . ما كنا يا مولاي بالذي يؤدي جزية تبقى علينا . فقام في ركابه

== ثم استدعى يوسف بن زيري الصنهاجي ، وقال له : تأعب الحلافة المغرب ، فأكبر ذلك وقال : يا مولانا ! أنت وآبائك الأئمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما صفا لكم المغرب ، فكيف يصفون ؟ وأنا صنهاجي برى ؟ فتلقني يا مولاي بغير سيف ولا ربح . فإزال به المعز حتى أجاب ، بشرط أن يولى المعز القضاء والخراج لمن يراه ويختاره ، ويجعل الخير لمن يشق به ، ويجعله قاتنا بين أيدي هؤلاء . فن استصحب عليهم بأمره هؤلاء . به حق يعمل به ما يجب ، ويكون الأمر لهم ، ويصير كالخادم بين أولئك . فأحب المعز ما قال ، وشكره . فلما انصرف قال أبو طالب بن القائم بأمر الله للمعز : يا مولانا ! وتثق بهذا القول من يوسف ؟ وأنه يقوم بوفاء ما ذكر ؟ فقال المعز يا عمنا ! كم بين قول يوسف وقول جعفر ! فاعلم يا عم أن الأمر الذي طلبه جعفر ابتداء هو آخر ما يصير إليه أمر يوسف . وإذا تطاولت المدة سيفرد بالأمر ، واسكن هذا أولا أحسن وأجود عند ذوى العقل ، وهو نهاية ما يفعله .

Goutier : Les Siècles Obscurs, p. 376 (١)

(٢) اتعاظ الخفاص ص ٦٢ - ٦٣ .

وقال : بارك الله فيكم ! فهكذا أريد أن تكونوا ؛ وإنما أردت أن أجربكم .  
فانظروا كيف أنتم بعدى إذا سرنا عنكم إلى مصر ، هل تقولون هذا وتفعلونه ،  
وتدخلون تحته بمن يرومه ؟ والآن سررتموني . بارك الله فيكم ! .

وبذلك نرى أن المعز وضع أساس سياسة التفرقة بين العناصر في بلاد المغرب ،  
حتى لا يستبد بلسكين بالأمر ، أو يحاول جذب الناس ، وخاصة الكستامين ، إليه .  
كان خروج المعز من المغرب في شوال سنة ٣٦١ هـ . وقد حمل معه أموالا  
طائلة ، كما حمل جثث آبائه وأجداده ، مما يبين مدى اهتمامه بمصر ورغبته في البقاء  
بها . ويظهر أن هذه كانت عادة الخلفاء الفاطميين ، إذ كانوا يحملون جثث آبائهم  
عند خروجهم في الحملات الحربية . وكان لتلك الأموال الضخمة التي حملها معه  
أثرها في تسيير دفة الحروب في مصر والشام . وبذلك أصبحت إفريقية دار إمارة ،  
بعد أن كانت دار خلافة ، وأصبحت مصر دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة .  
والحق أن المعز لم يغادر بلاد المغرب إلا بعد أن نظمها تنظيما دقيقا ؛ فترك  
جزيرة صقلية في يد الأسرة الكلبية ، وجعل الاتصال بينها وبين قاعدة خلافته بمصر  
مباشرا ، كما جعل من طرابلس وبرقة ولايتين مستقلتين ، متصلان بمصر رأسا دون  
أن يكون لنوابه الصنهاجيين في إفريقية عليهم شيء من النفوذ ، حتى لا يستطيع  
بلسكين الاستقلال ببلاد المغرب . ولذلك نرى الصنهاجيين يحاولون الاستقلال  
بجميع بلاد المغرب ، بعد أن وضع العزيز طرابلس وغيرها تحت نفوذهم ، وخالف  
تلك السياسة الرشيدة التي وضعها المعز ، ومهما يكن من شيء فقد ترك المعز لبلسكين  
ابن زيري بن مناد بلاد تونس والجزائر ومراكش ، وترك له مهمة الصراع مع  
الثوار من أهل هذه البلاد ، ولا سيما الزناتيين ، ومع أنصار الأمويين فيها ، بل مع  
الأمويين أنفسهم .



## الباب الثالث

### المعز لدين الله وفتح مصر

تمهيد :

ولى المعز لدين الله الخلافة فى سنة ٣٤١ هـ ، بعد أن مهد له أبوه المنصور الأمور فى المغرب ، فقتضى على ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد ، وأسس حاضرة جديدة أسماها المنصورية نسبة إليه . فلما ولى المعز الخلافة ، جذب إليه جماعة من مشهورى القواد من أمثال جوهر الصقلى ، وزيرى بن مناد الصنهاجى ، وابنه بلكين ، وملأ ولاياته بكثير من المخلصين له . وبفضل هؤلاء جميعا استطاع المعز أن يحد من نفوذ الأمراء المستقلين ببلادهم فى المغرب ، وكاد يقضى على الأدارسة وآل ابن أبى العافية ، كما استطاع أن يحد من نفوذ الأمويين فى المغرب .

ولم يقنع المعز بأنه أصبح الحاكم المطلق فى كافة أرجاء شمالى إفريقيا ، كما يقول ابن أبى دينار<sup>(١)</sup> ، بل عمل كل ما فى استطاعته على أن يرث الأمويين فى الأندلس ، ولكن حال دون ذلك قرب هذه البلاد من المغرب الأقصى ، وبعد حاضرتى خلافته ، المهديّة والمنصورية ، عن هذه البلاد التى استطاع الأمويون التأثير فيها . هذا إلى أن المعز كان فى حاجة ماسّة إلى أسطول ضخم يستطيع أن يحقق به غرضين اثنين : أولهما القضاء على الأسطول الأموى الكبير ، الذى كانت تزخر به موانئ أسبانيا المشرفة على البحر الأبيض ، وثانيهما نقل جيشه البرى على سفن هذا الأسطول . كى يستطيع التغلب على تلك الدولة التى كانت رابضة فى وديان شبه جزيرة إيبيريا . وقد أدرك المعز بثاقب رأيه أن هذه التجربة غير مأمونة العواقب ، وأن عدم نجاحه فيها قد يطيح بعرشه إلى الأبد ، وأنه من الخير له أن يقنع بما حصل عليه

(١) المونس فى أخبار إفريقية وتونس ص ١١ .

في شمال إفريقيا الغربي ، ثم بوجه نشاطه إلى مصر . كما أدرك المعز أن الدعاية لمذهبه ودولته ، تستطيع أن تنجح في بلاد المشرق بقدر ما أخفقت في بلاد المغرب . فقد رأى كيف بدأ المهدي روج الدعاية له في أسبانيا على يد ابن حفصون ، وإن كانت هذه المحاولة قد باءت بالفشل ، حتى لقد عجز القائم والمنصور عن تحقيق هذه السياسة ، وهي صبغ أسبانيا بالمذهب الإسماعيلي ، وبعبارة أخرى أدرك المعز عجز مدرسة ابن مسرة التي أسسها المهدي في أسبانيا عن تحقيق آمال الفاطميين العريضة فيها<sup>(١)</sup> ، مما أضعف آماله في الاعتماد الجدي على أهالي هذه البلاد لتحقيق تلك النبوءة التي كانت تقول « إن المهدي<sup>(٢)</sup> يحدد الإسلام ، ويظهر العدل . ويفتح الأندلس ورومة والقسطنطينية ، ويملك الأرض ، ولذلك كان من الخير له ولدعوته ومذهبه ودولته أن توجه نشاطها جميعا نحو المشرق ، الذي درجت فيه الدعوة ، ونشأ فيه المذهب الإسماعيلي .

ويخيل إلينا أن الخلفاء الفاطميين الأوائل أدركوا خطر بقائهم منعزلين في بلاد المغرب ، كما أدركوا خطر اعتمادهم على المغاربة في حفظ دولتهم . وقد أدرك هؤلاء الخلفاء ما بذله أبو يزيد مخلد بن كيداد من جهود للقضاء على الدولة الفاطمية ، حتى إننا نرى المنصور يؤسس حاضرة ملكه الجديدة في الشرق لا في الغرب ، كما أدرك ابنه المعز أن نهاية الفاطميين ستكون كنهاية الأدارسة إذا لم يتجهوا نحو المشرق .

لهذا كله رأى المعز أنه من الضروري أن يوالى جهوده السلبية والحربية لتحقيق أمنيته الكبرى ، بل أمنية الفاطميين جميعا ، في الاتجاه نحو المشرق ، ثم توجيه ضرباته للدولة العباسية ، وتكوين دولة شيعية فاطمية ترأس العالم الإسلامي . هذا هو الحلم الجميل ، والأمنية الكبرى التي كانت تستهوى قلوب الخلفاء الفاطميين في المغرب . وقد حاول المهدي تحقيقها فعجز ، ثم حاول المعز ذلك فأحرز بعض النجاح باستيلائه على مصر ، ومد نفوذه في بلاد الشام والحجاز ، وأخفق في مد نفوذه إلى بغداد ، بسبب نزاعه مع أتباعه القرامطة .

(١) انظر « عبيد الله المهدي » ، المؤلفين ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٢) يقصد بالمهدي الخليفة الفاطمي إطلاقا .

### العوامل التي ساعدت المعز على فتح مصر :

كانت حالة المشرق عامة ، وحالة مصر خاصة ، تشجع الفاطميين على الاتجاه شرقا ؛ ولا غرو ، فقد كان للدعاية الفاطمية الإسماعيلية أثرها في زعزعة الأفكار السنية بالمشرق ، كما كان لضعف العباسيين في الداخل والخارج أثره في تشجيع المعز على فتح بلاد المشرق . أضف إلى ذلك ضعف مصر نفسها مع ضخامة ثروتها . كل هذا شجع الفاطميين على تحقيق حلمهم في الاستقرار في بلاد غنية كمصر . وقد سهل على الفاطميين فتح مصر عوامل كثيرة نذكر منها :

#### (١) نجاح الدعوة الفاطمية في مصر والمشرق :

كان للدعاية الإسماعيلية أثر كبير في قيام الدولة الفاطمية ؛ فقد قامت هذه الدولة في بلاد المغرب في الوقت الذي كانت فيه الدعوة الإسماعيلية تنتشر في مصر واليمن ، وبلاد البحرين ، وفي فارس وخراسان ، بل في بلاد العراق نفسها وبعبارة أخرى ، وجدت هذه الدعوة مكانا في قلوب كثير من رعايا العباسيين . وقد استعان الخلفاء الفاطميون الأولون ، وخاصة المهدي والقائم ، على نشر الدعوة لأنفسهم في المشرق وخاصة في مصر ، وحاولوا غزو هذه البلاد عن طريق الدعاية والسيف . ولما أخفق السيف عولوا على الدعاية لتحقيق آمالهم وأمانهم . والحق أن الفاطميين في عهد المهدي والقائم كانوا يدبحون في صفوف جندهم دعاة عهد إليهم أن يختلطوا بالناس ، ويعلموهم عقائد المذهب الإسماعيلي ؛ فلم يلبث أن صار في مصر ، قبل فتح هذه البلاد بزمان طويل ، عدد غير قليل يعتقد المذهب الشيعي ويرجو نجاحه<sup>(١)</sup> . على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل إن الدولة الفاطمية عثت عناية فائقة بذلك التنظيم الدقيق الذي تميز به دور استتار الأئمة ، منذ نشأة المذهب الإسماعيلي حتى قيام الدولة الفاطمية ، من إقامة دعاة مستقرين في الأقاليم ذات المواقع الاستراتيجية المذهبية . وكانت مصر من أهم هذه المواقع ؛ فقد كان فيها ، حين حرب المهدي إلى المغرب في سنة ٢٩١ هـ ، أبو علي ، الداعي المقيم ؛ وكان له

( ) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ٨٩ .

أثر كبير في مساعدة المهدي على الإفلات من مصر .

ويظهر أن أبا علي هذا أسس في مصر مدرسة عرفت بإخلاصها للفاطميين والإشادة بفضلهم ، وقد شجع تلامذة هذه المدرسة الخليفة المهدي على غزو هذه البلاد . وبفضل هؤلاء الدعاة أصبح في مصر عدد غير قليل من الأنصار الذين شجعوا الفاطميين على فتحها . وإلى هؤلاء الأنصار يشير أحد شعراء مصر في عهد عيد الله المهدي :

وقد حشدوا لمصر ودون مصر      له خرط القتاد وأي خرط  
وأقبل جاهلا حتى تخطى      وجاز بجهله حد التخطى  
بكتب جماعة قد كاتبوه      من اقباط بمصر وغير قبلى  
وكل كاتبوه وناقوننا      وكل في البلاد له موطن<sup>(١)</sup>

أضف إلى ذلك أن المصريين كانوا أكثر استعدادا لقبول المذاهب الشيعية ، بسبب ميلهم إلى علي بن أبي طالب ، والتفافهم حول واليه محمد بن أبي بكر . ومن العوامل التي أدت إلى انتشار نفوذ الفاطميين في مصر قبيل الفتح الفاطمي ، ما كان يسلكه الخلفاء الفاطميون مع ولاية مصر ؛ فقد اشتهر عن القائم ( ٣٢٢ - ٣٣٤ هـ ) أنه اتصل بمحمد بن طنج الإخشيد غير مرة ، وحاول جذب به إليه وإثارة سخطه على العباسيين . وقد أورد ابن سعيد<sup>(٢)</sup> ذلك الكتاب القيم الذي بعث به القائم إلى الإخشيد . وعلى الرغم من مماطلة الإخشيد في الرد على الخليفة الفاطمي ، فإن حسن لقائه للرسول يبين تقديره للخليفة الفاطمي والدولة الفاطمية . وقد برهنت الأيام للإخشيد على صدق ما ذكره القائم الفاطمي من أن العباسيين لا يؤمن جانبهم ؛ فقد أرسل الخليفة الراضي قائده ابن رائق ليستولى على مصر من الإخشيد ، ونارت بسبب ذلك نائرة هذا الوالي ، فأبطل الخطبة للعباسيين ، وذكر اسم الخليفة الفاطمي القائم محل اسم الخليفة العباسي ، حتى لقد أثر عنه أنه كان يقول : « قد تأذبت بالراضي ، وبهذا الصبي ابن رائق . وقد أمرت الخطيب أن يدعوا لابني القاسم صاحب المغرب ، فقال له محدثه : « وفق الله للإخشيد ! فلقد وضعت الضيعة في موضعها . ولقد

(١) السكندی : كتاب الولاية وكتاب القضاة ص ٢١٢ .

(٢) المغرب في حل المغرب ص ٢٥ - ٢٦ .

أخبرت أنه في الحزن على أبيه (١) إلى الساعة ، وما جلس في مرتبته إلا حزينا  
 كاتباً ، ولا جرد سيفاً ، وهو من الشرف والملك على ما سمعت . فالحمد لله الذي جعل  
 رجوع هذا الأمر إلى أهله على يدك وبك . . فاستبشر الإخشيد وأسفر وجهه ، (٢) .  
 على أن إقامة الخطبة للفاطميين لم تتحقق ، لأن نصحاء الإخشيد خوفوه مغبة  
 هذه السياسة ، وينوألوه أن إقامة الخطبة للفاطميين ستمد ابن رائق بسلاح خطر  
 يشهره في وجهه ، وتزيد من سخط الخليفة الراضى عليه . وليس معنى عدم إقامة  
 الإخشيد الخطبة للقائم الفاطمي يرجع إلى بغضه للفاطميين ، بل إنه كان يخشى على  
 سلطانه ونفوذه منهم ومن العباسيين أنفسهم . وإذن فإن السياسة هي التي حتمت  
 عليه ألا يلبى نداء عاطفته . على أنه لا يبعد أن يكون الإخشيد قد خشى على مركزه  
 السياسي ، كما خاف البرهيميون من بعده ، لأنه يستطيع أن يحقق آماله وطموحه في  
 ظل خليفة ضعيف كالخليفة العباسي ، ويعجز عن تحقيق ذلك في ظل خليفة نشيط  
 قوى كالخليفة الفاطمي . وكأن الإخشيد كان يريد أن يظل على حبه للفاطميين دون  
 أن يسمح لهم بالتدخل في شئونه الخاصة .

يدل على ذلك ماذهب إليه ابن سعيد من أن الخليفة القائم تسلم ذات يوم من  
 الإخشيد كتاباً يعرض فيه عليه أن يزوج ابنته من المنصور بن القائم ، ولي عهده  
 حينذاك ، وأن القائم لما قرأ كتاب الإخشيد على أعوانه وحاشيته ، أشاروا عليه  
 بالقبول . ولا غرابة في ذلك ، فإن هذا الزواج السياسي سيكون عظيم النفع للفاطميين ،  
 غير أن الزواج لم يتم ، لأن القائم بعث إلى الإخشيد بصدق ابنته ، ومقداره مائة  
 ألف دينار ، فاستقله الإخشيد ، وكأنه كان يريد أن ينافس بابنته قطر الندى ابنة  
 خنارويه بن أحمد بن طولون . ويرى ابن سعيد أن العلاقة قد توترت بين الإخشيد  
 والفاطميين بسبب ذلك .

عما تقدم نستطيع أن نقول ، إن الدعوة الفاطمية راجت في مصر رواجاً كبيراً  
 قبل قيام الدولة الفاطمية وبعد قيامها . ولولا ما ساد الدولة الفاطمية من الاضطراب  
 بسبب ثورة أبي يزيد ، التي شغلت الفاطميين طول عهد القائم وشطرا من عهد

(١) يقصد بكلمة « أبيه » ، عبيد الله المهدي ، أبيه من الناحية الروحية .

(٢) ابن سعيد : المغرب و حل المغرب ص ٢٦ ، ٢٧ .

المنصور ، ظهرت آثار تلك الدعاية في وقت مبكر ، وتم فتح مصر قبل سنة ٣٥٨ هـ  
بزمن طويل .

على أن المعز لدين الله أخذ يغزو هذه البلاد عن طريق جيوشه ودعاته ،  
فأرسل إحدى كتائبه التي احتلت بعض الواحات المصرية في عهد وصاية كافور ،  
كما بعث نفرا من الدعاة للتأثير في عقول أبنائها ولكن الحملة الحربية ، وإن كانت قد  
باعت بالخذلان ، فإن الحملة الكلامية صادفت شيئا غير قليل من النجاح ، ولاسيما بين  
الكافورية والإخشيديية وغيرهم ، حتى إن كافورا نفسه قد تأثر بهذه الدعاية الفاطمية .

يقول المقرئى (١) : « وقد مدت عليه ( أى على كافور ) دعاة المعز لدين الله  
من بلاد المغرب يدعونه إلى طاعته ، فلاطفهم . وكان أكثر الإخشيديية والكافورية  
وسائر الأولياء والكتاب قد أخذت عليهم البيعة بالمعز . وفى الحق أن كافورا  
كان يولى العلويين احترامه وعطفه وتقديره . لكنه مع ذلك لم يكن يرضى زوال  
نفوذه . لأن فى ذلك استقرارا لنفوذ الفاطميين . وقد صور لنا أبو المحاسن حقيقة  
موقف كافور من المعز لدين الله الفاطمى ، وبرهن فى جلاء على أن كافورا رأى من  
حسن السياسة ألا يدين بالطاعة للفاطميين حتى لا يزول سلطانه ، ويذهب نفوذه .  
أمام سلطانهم ونفوذهم فيقول : إن الشيعيين فى مصر أرسلوا إلى المعز كتباً يقولون  
فيها ، إذا زال الحجر الأسود يعنون كافورا ، ملك مولانا المعز الدنيا كلها (٢) .

ومن هذا يتضح لنا مدى تأثير الدعاية الفاطمية فى مصر حكومة وشعباً ، كما  
يتضح صدق مقاله المعز لأصحابه قبل أن يرسل جيوشه لفتح هذه البلاد بقليل :  
« إني مشغول بكتب ترد على من المشرق والمغرب أجيب عليها بخطى . » (٣) وقد  
صدق ابن خلكان (٤) فيما ذهب إليه من أن فتح الفاطميين مصر كان متوقفاً لدى  
الخاص والعام ، وأن العساكر وكبار الموظفين كانوا على علم بذلك ، بل إنهم كتبوا

(١) خياط ج ٢ ص ٢٧ .

(٢) المقرئى : اتعاظ الخنقا ص ٦١ .

(٣) أبو المحاسن ( طبعة جرنبول ) : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٤٤٣ .

(٤) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٤٨ .

إلى المعز يطلبون إليه أن يرسل جيوشه لفتح هذه البلاد .

لم يكن هذا كل ما فعله المعز في المشرق لإعداد العدة لفتح مصر ، بل نراه يتدخل ، على ماسنرى ، في شئون القرامطة . وذلك أنه بعد موت أبي طاهر القرمطي (١) في سنة ٣٣٢ هـ ، تولى زعامة القرامطة جماعة من المعتدلين ، الذين يهتمون بشئونهم الخاصة ، لا بشئون المذهب الإسماعيلي والدعوة الإسماعيلية . وقد استمر الحكم في أيديهم حتى ولى المعز الخلافة ، فأقر هذا الوضع مرغما . على أن أحدا منا حدثت فبدلت من سياسة المعز ؛ فمن هذه الأحداث :

أولا : حارب القرامطة الإخشيديين في الشام في سنة ٣٥٣ هـ ، وانتصروا عليهم . وهنا نسأل : أكان ذلك الغزو بوحى من الفاطميين ؟ أم أن القرامطة اعتبروا تلك البلاد مجالا حيويا لهم ؟ يظهر أن القرامطة لم يعلنوا بعداهم للفاطميين حتى ذلك الحين ؛ إلا أن هؤلاء شعروا بميل زعماء القرامطة إلى الاستيلاء بالأمور في المشرق دون الفاطميين .

ثانيا : انتصر القرامطة في سنة ٣٥٧ هـ على الحسن بن عبيد الله بن طنج ، صاحب الشام ، فتمهد لهم بدفع إناوة سنوية كبيرة ، من غير أن يرجعوا في ذلك إلى زعيمهم الديني وهو الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ، مما يدل على أن القرامطة أصبحوا يعملون مستقلين عن الفاطميين .

ثالثا : حاول الفاطميون منذ ولى كافور مصر سنة ٣٥٥ هـ ، استمالة الموالين إليهم ، كما عزموا على غزو هذه البلاد بعد وفاته سنة ٣٥٧ هـ . فهل دار بخلد القرامطة أن يقوموا بنفس الدور الذي قام به أبو طاهر مع المهدي ، ثم مع القائم ، فيتعاونون مع المعز على فتح مصر ، وتوجيه ضرباتهم إلى العباسيين في العراق ؟ والذي يظهر لنا أن المعز لا بد أن يكون قد أدرك استحالة الاعتماد على البيت القرمطي ، برئاسة أحمد بن أبي سعيد الجنابي ، فعمل على التخلص منه ، وتدخل في شئونهم الداخلية ، وناصر أبناء أبي طاهر ؛ واستطاع الفريق الموالي للفاطميين إقصاء الفريق المعادي لهم عن الحكم في سنة ٣٥٨ هـ ، وتولى شئون القرامطة . وقد تم ذلك بفضل تدخل المعز لدين الله . لسكن هذا الفريق الموالي لم يستطع الاحتفاظ بالحكم طويلا ، لأن

(١) ولى أبو طاهر الأمر سنة ٣٠٥ هـ ، وتوفي سنة ٣٣٢ هـ .

الفريق المعادى للفاطميين أذكى نار الثورة، واسترد الحكم، وقتل زعماء بيت أبي طاهر في هذه السنة نفسها، وطرده البقية الباقية منهم عن البلاد، ونفاهم إلى إحدى جزائر الخليج الفارسي. وإذن كان لتدخل المعز في شئون القرامطة أثر في وقوع الاضطراب في صفوفهم. وليس من شك في أن المعز كان يريد أن يجعل القرامطة في قبضة يده، ليستعين بهم في تنفيذ مآربه في الشرق. ولو نجح في سياسته هذه، وبقي أبناء أبي طاهر على العرش، لما أحجم هؤلاء عن مساعدته في فتح مصر والعراق.

وليس من شك أيضا في أن رغبة المعز كانت في ذلك الحين تنحصر في احتلال بلاد المشرق. ولذلك نجده يمتني أنصاره باحتلال سلبية، ودخول بلاد الشام. يقول النعمان<sup>(١)</sup>: «وأخرج إلينا، نحن وجماعة من الأولياء، رسول الإمام المعز لدين الله عليه السلام، طبقا فيه تفاح جليل، فقال (المعز): هذا تفاح جاءنا من المشرق، من البلد الذي خرج منه المهدي والقائم، صلوات الله عليهما! ومن الضياع التي كانت لهما. ودفع إلى كل واحد منا شيئا منه، وقال: تبركوا به، فإننا نرجو إن شاء الله أن تجنوه من شجرة معنا بأيديكم. وقد أنجز الله لنا وعده، وأهلك عدونا بفضلته». وإنا لا نعلم أكان المعز قد اتصل بأتباعه في خراسان وفارس والشام، أو في بلاد اليمن. ويظهر أنه أدرك عبث الاتصال بأتباعه في فارس وخراسان، لأن هؤلاء لم يكونوا، كالقرامطة، قد استقروا كدولة إسماعيلية. بل كانوا متفرقين، أو بالحري كانوا لا يزالون يكوّنون أقلية إسماعيلية وسط أكتريية من السنيين، لذلك لم يستطع المعز أن يعتمد عليهم.

وأما إسماعيلية اليمن فقد دب الضعف إلى صفوفهم، منذ أوائل القرن الثالث. ولم يعودوا جماعة تعمل في وصح النهار، بل أضحووا جماعات سرية قليلة العدد. تعمل في الخفاء وتملق السنيين. وإذن ظهر لهذا الخليفة أن الفريق الذي يجب أن يعتمد عليه في المشرق هم القرامطة وحدهم؛ ولذلك تدخل في شئونهم الداخلية عسى أن يجذبهم إليه، ولكن تدخله كان ضرره أكثر من نفعه.

(١) المجالس والمساربات ٢ ص ٩٤ - ٩٥.



وكان من أثر هذا التدخل أن أعلن القرامطة الحرب على مولاهم المعز بدلا من أن يعاونوه ، بل لقد حاولوا طرده من مصر ، مع أن القرامطة والفاطميين كانوا يهدفون في الأصل إلى غرض واحد ، هو القضاء على العباسيين .

ويجب ألا يعزب عن بالنا تأثير الدعاية إلى الفاطمية في بغداد نفسها ، وأن هذه الدعاية قد وجدت أذنا مصغية من البويهيين أنفسهم . ولا غرو ؛ فإن هؤلاء كانوا يدينون بعقائد المذاهب الشيعية ، ويودون القضاء على خلافة بغداد السنية ، وقيام خلافة شيعية على أنقاضها . وكان بنو بويه يعتقدون أن العباسيين اغتصبوا الخلافة من العلويين ، لذلك لا نعجب إذا رأينا معز الدولة بن بويه ( ٣٣٤ — ٣٥٦ هـ ) يعمل على تحويل الخلافة العباسية إلى العلويين ؛ ولولا خوف البويهيين على نفوذهم السياسي ، لما عدلوا عن تنفيذ هذه السياسة .

يدل على صحة هذا القول هذه العبارة التي ذكرها ابن الأثير (١) : « وصارت الوزارة لمعز الدولة بن بويه ، يستوزر لنفسه من يريده . وكان من أعظم الأسباب في ذلك أن الديلم كانوا يتشيعون ويعالون في التشيع ، ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة ، وأخذوها من مستحقيها ؛ فلم يكن عندهم باعث ديني يحثهم على الطاعة . حتى لقد بلغني أن معز الدولة استشار جماعة من خواص أصحابه في إخراج الخلافة من العباسيين ، والبيعة للعهز لدين الله العلوي ، أو لغيره من العلويين ؛ فكلهم أشار عليه بذلك ، ما عدا بعض خواصه ، فإنه قال : ليس هذا برأى . فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ؛ ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلبين دمه . ومتى أجلست بعض العلويين خليفة ، كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لقتلوه ؛ فأعرض عن ذلك » .

وفي الحق أن هذه العقيدة السياسية ، هي التي أوحى إلى البويهيين أن يتجهوا خطة العدا مع الفاطميين عند فتحهم مصر ؛ فقد عاونوا القرامطة المعادين للمعز بالمال والرجال والسلاح ، وحارب أمراؤهم في صفوف أفتككين التركي في حروبه مع المعز والعزب ، بما يدل على أن سياسة البويهيين مع الفاطميين كانت تقوم على اعتبارات سياسية أكثر منها عاطفية أو مذهبية . وقد سار البويهيون على هذه السياسية إلى عهد

المستنصر ، فترى أبا كالجار البويهي (٤٣٥ - ٥٤٤٠) يحاول استمالة الفاطميين ،  
ليمثل معهم الدور الذي مثله أبائوه البويهيون مع العباسيين ، وينقل الخلافة إلى العلويين  
الفاطميين ، دون العباسيين السنيين ، ولكن السلاجقة حالوا دون تحقيق هذه السياسة .  
ولسنا نشك في أن رغبة الفاطميين الحقيقية كانت تتجه إلى القضاء على الخلافة  
العباسية ، وإحلال بغداد محل المنصورية ، وذلك لا يتحقق إلا بفتح مصر والعراق .  
يدل على ذلك هذا الحديث الطريف الذي دار بين المعز في مصر ، ورسول  
الإمبراطور البيزنطي ، الذي خاطبه المعز في هذه العبارة ، فقال : « أتذكر إذ أتيتني  
رسولا وأنا بالمهدية ، فقلت لك : لتدخلن عليّ وأنا بمصر مالكا لها ، وأنا أقول لك :  
لتدخلن عليّ بغداد وأنا خليفة ! » (١) .

### ( ب ) ضعف الرونة العباسية :

أخذ الضعف يدب إلى جسم الدولة العباسية منذ العصر العباسي الثاني ، فتدخل  
الأتراك في شئون الخلفاء الذين أصبحوا أشبه بالأعيب في أيديهم . وأصبح الخليفة  
معهم كما قال الشاعر :

خليفة في قمص بين وصيف وبغا  
يقول ما قال له كما تقول البيغا

ومن ثم كثرت الثورات على العباسيين ، وتلقفهم سيوف الثوار من كل جانب ؛  
فقام صاحب الزنج في وجه العباسيين في إقليم البصرة وجنوبي فارس الغربي بثورة  
عنيفة استمرت خمس عشرة سنة (٢٥٥ - ٥٢٧) ، كما قام القرامطة في وجههم ،  
وأضعفوا هيبة الخلافة ، بما ألقوه من الذعر في قلوب أهالي بلاد الشام وباديتها ،  
ومن إغاراتهم المتكررة على الحجاج في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع  
الهجري ، كما أغاروا على بلاد العراق ، حتى كادت بغداد أن تسقط في يد أبي طاهر  
الجنابي (٣١٥ - ٥٣١٦) ؛ واستطاع ابن فضل وابن حوشب ، داعيا الفاطميين ،  
أن يخرجوا اليمن عن حوزة العباسيين حينئذ من الزمن .

(١) ابن الأثير: ج ٨ ، ص ٢٢٩ .

أضف إلى ذلك قيام الدويلات المستقلة ، كالدولة الصفارية (٢٥٤ - ٢٩٠ هـ) والدولة السامانية (٢٦١-٢٨٩ هـ) ، اللتين انتزعتا خير بلاد العباسيين في أقصى المشرق ، ولاسيا في خراسان وبلاد ما وراء النهر. ونرى الدولتين الطولونية (٢٥٤-٢٩٢ هـ) والإخشيدية (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ) تنزعان مصر والشام من العباسيين . ناهيك عن الدولة الفاطمية ، التي استولت على جميع شمال إفريقيا ، وكادت تتحرك شرقا لانتزاع الخلافة من العباسيين ، الذين كان يحز في نفوسهم استقلال الأمويين بأسبانيا ، واحتلالهم خير بقاع إمبراطوريتهم . ولم يقف الأمر عند ذلك الحد ، بل لقد شارك العباسيين في قلب بلاد العراق دولة الحمدانيين الذين امتد نفوذهم في أقصى الشمال ، ولا سيما في نواحي الموصل وحلب ، وكثيرا ما حاولوا الاستيلاء على بغداد نفسها . كما استبد بنو بويه بالسلطة في سنة ٣٣٤ هـ ، وأصبحت أمور الدولة كافة في أيديهم ، حتى غدا تنصيب الخلفاء وعزلهم وقلعهم طوع رغبتهم . أو قل : « إن الدولة والملك قد انتقل من آل العباس إلى آل بويه ، والذي بقي في أيدي الدولة العباسية إنما هو أمر ديني اعتقادي ، لا ملكي دنيوي » (١) . ولا غرو ، فقد موّه البويهيون على السنين بذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة ، ونقش اسمه على السكة ، ولم يكن ذلك إلا « لأغراض سياسية غايتها احتفاظ هؤلاء الحكام بمراكمهم أمام الجمهور » (٢) . وقد أجاد المعز لدين الله الفاطمي في وصف حال العباسيين مع البويهيين الدليل ، فبين أنهم كانوا مع الأتراك أكثر نفوذا وأعظم سلطانا منهم مع البويهيين ، الذين تسلطوا على ما بأيديهم ، ولم يبقوا لهم شيئا من النفوذ ، « وملكهم وأذلهم ، ووطنوا أرضهم ، وتغلبوا على ما بأيديهم ، وصاروا عيلة عندهم » (٣) .

وقد وصف جبون حالة العباسيين في ذلك الحين في هذه العبارة فقال :  
« لم تكن حالة الضعف التي وصلت إليها الخلافة العباسية راجعة إلى السياسة فحسب ، بل تعدتها إلى الدين أيضا . فقد نشأت من المذهب الشيعي على مر الزمن مذاهب متعددة ، أهمها المذهب الفاطمي ، والمذهب الدرزي (٤) في لبنان ... وكذلك ظهرت

(١) البيروني : الآثار الباقية ، ص ١٣٢ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ، ص ٩٨ .

(٣) الثعالب : المجالس والمنابرات ، ص ٢٣٠ - ٤٧٩ .

(٤) لم يفهم جبون أن المذهب الدرزي هو نفسه المذهب الفاطمي .

الاختلافات الدينية في بغداد؛ فقام أنصار ابن حنبل، وانقضوا على بيوت الأمراء وذوى اليسار، وكسروا أواني الخمر، وحطموا الآلات الموسيقية، وضربوا المغنين وأهانوا الفتيان والفتيات، وأسأوا بهم الظنون. ولم يكن من سبيل للقضاء على هذه الفئة إلا بقوة حريسة. ولكن من ذا الذى يمكنه أن يسد جشع طائفة المرتزقة، أو يؤيد النظام بالقوة بين أفرادها؟ هذا إلى ما كان من سل الحرس من الأتراك وأهل إفريقية السيوف كل في وجه الآخر. وأصبح في يد أمير الأمراء (١) حبس الخليفة وخلعه وقتله؛ فكان هذا تعديا على سلطة الخليفة الدينية وماله من حرمة في النفوس. ولم يكن عند الخليفة من سبيل يأمن به على نفسه الأذى، إلا هربه إلى معسكر أحد الأمراء. فكان إنقاذه تحولا عما كان فيه من مذلة إلى مذلة أخرى، حتى دفعه اليأس إلى دعوة بنى بويه لمعاونته وتخليصه مما هو فيه. فإذا وقع تحت رحمتهم صار العوبة في أيديهم (٢).

من هذا نرى ما وصلت إليه الدولة العباسية من ضعف ووهن. والواقع أن عوامل هذا الضعف في الداخل لم تكن أقل خطرا منها في الخارج؛ فقد أخذت الدولة البيزنطية تعمل على القضاء على العباسيين. وذلك أن الدولة البيزنطية حين شعرت بتفكك العالم الإسلامى، عملت منذ عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦—٢٧٩ هـ) على التوغل في بلاد الدولة العباسية.

وقد تفاقم خطر الروم على الحمدانيين والعباسيين حول منتصف القرن الرابع الهجرى، حين هددوا شمالى العراق وبلاد الشام، واستولوا على حلب سنة ٣٥١ هـ في عهد نقفور فوكاس. ولم يكتفوا بذلك، بل استولوا على مدينتى المصيصة وطرسموس في سنة ٣٥٥ هـ، واستولى نقفور فوكاس على أنطاكية. وهكذا حقق الروم ما كانوا يصبون إليه. فانتزعوا إقليم كليكميا، وجزءا من بلاد سورية، كما أرغم الروم أهالى هذه البلاد على الاعتراف لهم بالتبعية.

ولم يقف خطر الروم عند ذلك الحد، فقد توغلا في هذه البلاد في عهد

(١) اول من لقب بذلك هارون بن غريب الخال من سنة ٣١٦ هـ، كما قد الراسى بن رائق إمرة

الأمراء (مسكويه: كتاب تجارب الأمم ج ١ ص ١٥٠ - ١٥١).

(٢) حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر ص ٩٨ - ٩٩.

الامبراطور زيسكس (٣٥٨ - ٣٦٦ هـ = ٩٦٩ - ٩٧٦ م) ، واستولوا على الرها، وديار بكر، وميافارقين، ونصيبين، وأعلنوا أنهم يريدون قصد بغداد نفسها. من هذا كله نرى أن الدولة العباسية لم تستطع أن تصد هجمات الروم المتتالية ، لضعفها وقلة مواردها ، وتنازع البويهيين على السلطة فيها . وإن هذه الحالة السيئة كانت تبعث الأمل في نفس المعز الفاطمي، لأنه وجد من السهل عليه أن يحقق سياسته التي كانت ترمى إلى مد نفوذه إلى المشرق ، وفتح سائر البلاد التي كانت تابعة للدولة العباسية المتداعية . ومن ثم فكر في فتح مصر .

### (ج) ضعف الدولة الإخشيدية في مصر

لو أن مصر في سنة ٣٥٨ هـ كانت من القوة كما كانت في عهد أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠ هـ) ، أو في عهد محمد بن طغج الإخشيد (٣٢٣ - ٣٣٤ هـ) ، لما استطاع الفاطميون فتحها على يد جوهر الصقلي . والواقع أن الضعف قد بدأ ، منذ وفاة الإخشيد في سنة ٣٣٤ هـ ، بتطرق إلى الدولة الإخشيدية ؛ فقد استبد كافور بالأمور دون ولدي الإخشيد ، أبي القاسم أنوجور (٣٣٤ - ٣٤٩ هـ) ، وأبي الحسن علي (٣٤٩ - ٣٥٥ هـ) . ومع ذلك استطاع كافور أن يقضى على الثورات التي قامت في ذلك العهد (٣٣٤ - ٣٥٥ هـ) ، كما انتصر على الحمدانيين في الشام .

ولم يسكد كافور يستقل بحكم مصر وما يلبها من البلاد في سنة ٣٥٥ هـ ، حتى أخذ المعز لدين الله الفاطمي يعد العدة لفتح مصر . وساعده على ذلك ما ساد هذه البلاد من الاضطراب ، فانقسم الجند على أنفسهم إلى فريقين : فريق الإخشيدية ، الذين يناصرون بيت الإخشيد ؛ وفريق الكافورية ، الذين يتشيعون لكافور ؛ فأرسل المعز ، وعسكره من المغرب إلى الواحات ، فجيز ( كافور ) إليه جيشا أخرجوا العسكر . وقتلوا منهم (١) . كما اجتاحت المجاعة مصر ، وطمع القرامطة في بلاد الشام ، فهاجموها مرتين ( في سنتي ٣٥٣ هـ ، ٣٥٧ هـ ) . وقد أدرك كافور قبل موته ( جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ ) ، ما أصاب البلاد من نكبات ؛ فقد « اشتد الغلاء وفشا الموت في الناس ، حتى عجزوا عن تكفينهم ومواراتهم . وأرجف بمسير

(١) المقرئى : خطوط ، ٢٣ ، ص ٢٧ .

القرامطة إلى الشام ، وبدأت غلبانه تنكرك له (١) ، لعدم دفع رواتبهم ، وطمع أحد أمراء الثوبية في مصر الجنوبية فغزاها ، حتى وصل إلى إنخيم ، ولم يجد من يقف في وجهه ، وعاد إلى بلاده ، محملاً بالأسلاب والغنائم .

وقد استمرت هذه الحالة السيئة بعد وفاة كافور ، واضطربت أحوال مصر السياسية ؛ فلم يكن الخليفة العباسي المطيع ( ٣٣٤ - ٣٦٣ هـ ) من القوة بحيث يستطيع أن يولي على مصر من يشاء . « لذلك اجتمع رجال البلاط الإخشيدى لاختيار شخص تتفق ميوله مع مشاربهم ، فوقع الاختيار ، كما يقول المقرئ (٢) ، على أبي الفوارس أحمد بن علي الإخشيد ، ولم يكن قد تجاوز الحادية عشرة من عمره ، وجعل الحسن بن عبيد الله بن طنجج ولي عهده وخليفته .

غير أن الحسن بن عبيد الله لم يبق بمصر طويلاً ، وعاد إلى بلاد الشام بعد أن حاول الاستبداد بالأمور ، وقبض على الوزير جعفر بن الفرات (٣) ، وترك مصر تمنى أهلها ، وتنتابها المصائب ؛ فقد ظلت بعد خروجه منها مسرحاً للقوضى مدة خمسة شهور ، حيث وضعت إدارتها في قبضة الوزير ابن الفرات ، فلم يستطع أن يخفف المصائب عنها ، وعجز عن دفع رواتب الجند ، وتفاقت الثورات ، وتمنى الأهالي الخلاص مما هم فيه . « ومن ثم سنحت الفرصة للخليفة المعز ، لضعف الجنود المصرية ، وانقسامهم على أنفسهم ، وقيامهم في وجه حكاهم ، وخاصة الوزير ابن الفرات ، وميل كثير منهم إلى المبادئ الشيعية الفاطمية . واعتقد الخليفة الفاطمي أن أهالي هذه البلاد لن يقاوموه ، بسبب البؤس الذي أصبحوا فيه . هذا إلى أن العباسيين كانوا في حالة من الضعف والاضطراب ، بحيث لا يستطيعون إنقاذ مصر ، أو إمدادها بالرجال والمال . لهذا لا نعجب إذا نجح جوهر في فتح مصر نجاحاً منقطع النظير ، فلم يفقد كثيراً من رجاله ، أو تعترضه أية عقبات . وقد أدرك المعز سوء هذه الحال ، فعبّر عنها خير تعبير ، في هذه العبارة التي

(١) المقرئ : خطب ج ٢ ص ٢٧ . وقد ظل انخفاض النيل من سنة ٣٥١ إلى سنة ٣٦٠ هـ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٣ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٥ ، ٥٦ .

وجهها إلى زعماء المغرب ، فقال : « والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر ؛  
ولتدخلن مصر بالأردية من غير حرب ، ولتنزلن في خرابات ابن طولون ، وتبنى  
مدينة تسمى القاهرة ، تقهر الدنيا (١) » . ولا بد أن يكون عيون المعز قد أخبروه بهذه  
الحالة السيئة التي كانت سائدة في مصر . أضف إلى ذلك أن المعز كان يعنى كثيرا  
بفتح مصر ، ويستطلع أخبارها . يدل على ذلك تلك القصة الممتعة التي أوردتها  
المقريزي (٢) ، ومنها نرى مدى شغف هذا الخليفة الفاطمي باستطلاع أحوال مصر ،  
وما وصلت إليه من فساد اجتماعي : « ووجهت أم الأمراء ( زوجة المعز )  
من المغرب بصيدة ربها لتباع في مصر ، فطلب الوكيل فيها ألف دينار . فجاءت  
امرأة شابة على حمار ، فلم تزل حتى اشترتها بستائة دينار . وقيل له : يا مغربي !  
بنت الإخشيد اشترت الجارية تتمتع بها ، وهي ست كافور . فلما عاد أخبر المعز  
بذلك ؛ فأمر بإحضار الشيوخ والرجل ، فحدثهم بخبر الجارية ، ثم قال : يا إخواننا !  
انهضوا إليهم ، فلن يحول بينكم وبينهم شيء ، وإذا كان القوم قد بلغهم الترف إلى أن  
صارت امرأة من بنات ملوكهم تخرج وتشتري لنفسها جارية تتمتع بها ، فقد  
ضعفت نفوس رجالهم ، وذهبت الغيرة منهم ؛ فانهضوا بنا إليهم ، فقالوا : السمع  
والطاعة ! فقال : خذوا حوائجكم ، فنحن نقدم الاختيار لمسيركم إن شاء الله » .  
وفي الحق أن أهل مصر ، لم يكونوا يبغضون المذاهب الشيعية ، بل كانوا  
يرحبون بالفاطميين ، أبناء علي وفاطمة ، ترحيبا حارا ، ويؤثرونهم على العباسيين ،  
كما أن حالتهم الاقتصادية والإدارية كانت تتطلب تغييرا شاملا . ولذلك زعم كثير  
من المصريين أنهم قد يجدون تحت حكم الفاطميين ما لم يجدوه في عهد العباسيين .

### (٥) قوة الدولة الفاطمية :

أفاد المعز لدين الله من تجارب الماضي ، فعمل على أن لا يرتكب ما وقع فيه  
آباؤه من أخطاء حين حاولوا فتح مصر . ولذلك نراه يغمز البلاد المصرية بخيرة

(١) المقريزي : خطط ج ١ ص ٣٧٨ .

(٢) اتعاظ الخنفا من ٦٤ - ٦٥ .

دعائه وجواسيسه ، ويستميل إليه أصحاب الجاه والنفوذ ، فيها . ولما كان يدرك بعد الشقة بين بلاد المغرب ومصر ، أعد للأمر عدته ، وبدأ في إعداد حملته منذ ٣٥٦ هـ ( ٩٦٧ م ) ، فأقام الطرق وعيدها بين تونس ومصر ، وحفر الآبار ، وأنشأ النزل على طول الطريق . كما أعد الأموال الضخمة للإفناق على حملته ، وأجزل العطايا والمنح للمغاربة ، ولا سيما الكتاميين الذين كونوا العنصر الرئيس في هذه الحملة (١) .

ولم تكن الحملة التي سيرها المعز إلى مصر في سنة ٣٥٦ هـ ، والتي استولت على واحة سيوة المصرية ، ترمى إلى فتح مصر نفسها ، وإنما كانت بمثابة حملة استطلاعية ، لارتياح هذا الطريق ، والوقوف على مدى صلاحيته لمسير حملة جوهر الكبرى . التي عول المعز على إرسالها بعد قليل ، أي في سنة ٣٥٧ هـ .

وقد رغب المعز في أن يبعث في نفوس أشياعه من البربر الأمل ، ويبين لهم الطرق القويمة التي يجب أن يسلكوها ليحققوا آمالهم كاملة ، وبرهن لهم على أنه يصل ليله بنهاره لتحقيق أمنية تملك عليه نفسه ، هي نشر نفوذه المذهبي والسياسي في بلاد المشرق . ومن ثم جعل يحثهم على النظام والتكاتف في نصرة الدين والدولة ، حتى ينشر السلام أوطيه على ربوع بلاده ، وجعل يبين لهم أنه مشغول بشئون المشرق ، بقدر ما هو مشغول بشئون المغرب .

وهكذا أعد المعز أشياعه المغاربة لملته على مصر ، وأمرهم بالتزام الهدوء بعد خروج جيشه إلى هذه البلاد ، وبشرهم بفتح المشرق . يتضح ذلك من هذه الوثيقة التي أمدنا بها المقرئ : « واستدعى ( أي المعز ) ، وهو بالمتصورية ، في يرمشات ، بارد الريح ، عدة شيوخ من شيوخ كتامة ، وأمر بإدخالهم إليه ، من غير الباب الذي جرى الرسم به . فإذا هوفي مجلس مربع كبير ، مفروش باللبود على مطارح ، وحوله كساء ، وعليه جبة ، وحواليه أبواب مفتحة تفضى إلى خزائن كتب ، وبين يديه مرفع ودواة ، وكتب حواليه . فقال : يا إخواننا ! أصبحت اليوم في مثل هذا الشتاء والبرد ، فقلت لأم الأمراء ، وإنها الآن بحيث تسمع كلامي : أترى إخواننا يظنون أنا في مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ، وتتقلب في المثقل والديباج والحريز والفنك والسمور والمسك والعنبر والغناء ، كما يفعل أرباب الدنيا ؟ ثم

(١) ابن أبي ديار : المونس في أخبار إفريقية وتونس من ٦٢ .



رأيت أن أنفذ إليكم فأحضركم ، لتشاهدوا حالي إذا خلوت دونكم ، واحتجبت عنكم .  
وإني لا أفضلكم في أحوالكم إلا فيما لا بد لي منه من دنياكم ، وبما خصني الله به من  
إمامتكم . وإني مشغول بكتب ترد علي من المشرق والمغرب ، أوجب عنها بخطي .  
وإني لا أشتغل بشئ . من ملاذ الدنيا ، إلا بما صان أرواحكم وعمر بلادكم ، وأذل  
أعداءكم ، ووقع أضدادكم . فافعلوا يا شيوخ في خلوتكم مثل ما أفعله ، ولا تظهروا  
التكبر والتجبر ، فيزع الله النعمة عنكم ، وينقلها إلى غيركم . وتحنوا علي من  
وراءكم بمن لا يصل إلي ، كتحسني عليكم ، ليتصل الجميل ، ويكثر الخير ، وينتشر  
العدل . وأقبلوا بعدها على نسائكم ، والزمو الواحدة التي تكون لكم ، ولا تشرها  
إلى التكثير ممن والرغبة فيهن ، فينقص عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ، وتهكوا  
أبدانكم ، وتذهب قوتكم ، ويضعف تمايزكم . فحسب الرجل الواحد ، الواحدة .  
ونحن محتاجون إلى نصرتم بأبدانكم وعقولكم . واعلموا أنكم إذا لزمتم ما أمركم به ،  
رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق ، كما قرب أمر المغرب بكم . انهضوا رحمكم  
الله ونصركم ! (١) . وهكذا ختم المعز نصيحته بإعدادهم لإخضاع بلاد المشرق ،  
كما أخضعوا المغرب من قبل علي يد جوهر وزيرى بن مناد بن بلكين .

وقد رأى المعز أن لا تسير جيوشه إلى المشرق إلا بعد أن يقضى على جميع  
الأخطار التي تهدده في المغرب ، فكانت حملته المغربية الكبرى ، التي سيرها في سنة ٥٤٧ هـ ،  
وما تبعها من حملات ، تهدف إلى إقرار الأمور في بلاد المغرب . واستطاع  
أن يقضى على الحركات التي قام بها أمراء المغاربة الذين ثاروا عليه ، ويحد من  
نفوذ أنصار الأمويين في بلاد المغرب ، ويضعف جماعة الإدارة . وعلى الرغم  
من عجزه عن فتح الأندلس وطرد الأمويين منها ، استطاع أن يقف في وجه  
مطامعهم الاستعمارية في شمال إفريقيا .

ومن عوامل نجاح المعز ، أنه أضفى على قائده جوهر هالة من الاحترام والتقدير ،  
حتى لقد أمر أولاده وإخوته ، وولى عهده ، وكبار رجال دولته بالترجل بين يدي  
جوهر ، « وأن يمشوا في خدمته وهو راكب ، وكتب إلى سائر عماله بأمرهم إذا  
قدم عليهم جوهر ، أن يترجلوا مشاة في خدمته . فلما قدم بركة اقتدى صاحبها من

(١) القرظي : اتماظ الخفا ص ٦٠ - ٦١ .

ترجله ومشيه في ركابه بخمسين ألف دينار ذهباً، فأبى جوهر إلا أن يمشى في ركابه .  
ورد المال ، فمشى . . وكان لعمل المعز هذا أثره في احترام الجند وقوادهم لجوهر  
الصقلي ، وأدى ذلك إلى انتصاره .

## ٢ - جهود المعز في فتح مصر

### (١) مسير جوهر الى مصر

سارت حملة جوهر الصقلي من بلاد المغرب إلى مصر في اليوم الرابع عشر من شهر  
ربيع الثاني سنة ٣٥٨ هـ ، كما سارت بعدها جيوش نابليون سنة ١٧٩٨ م ، والجيوش  
الإنجليزية بقيادة فريزر سنة ١٨٠٧ م ، وجيوش والسلي سنة ١٨٨٢ م ، وروميل في الحرب  
العظمى الثانية . وكانت جيوش الفاطميين منظمة تنظيمًا دقيقًا ، وقد زودها المعز  
بالأموال الضخمة والرجال والعتاد والمؤن ، حتى لا يتطرق إليها الضعف . ولا غرو  
فقد أنفق الخليفة الفاطمي على إعداد هذه الجيوش أربعة وعشرين مليون دينار ،  
عدا ما حمله ألف جمل من الذهب الذي رصد للإفناق على هذه الحملة .

وتجلى ضخامة هذه الحملة الفاطمية مما ورد على لسان أحد المصريين ، الذي قال  
فيها : إنها « مثل جمع عرفات كثيرة وعدة » (١) ، حتى إن جنود جوهر كانت تربو  
على مائة ألف . وقد وصفها ابن هاني الأندلسي (٢) شاعر المعز خير وصف فقال :

رأيتُ بعيني فوق ما كنت أسمع      وقد راعني يومٌ من الحشر أروعُ  
غداةً كأن الأفق سُدَّ بمثله      فعاد غروب الشمس من حيث تطلع (٣)  
فلم أدر إذْ ودَّعت كيف أودع      ولم أدر إذْ شيعتُ كيف أشيع  
ألا إن هذا حشد من لم يذق له      غرار السكرى جفن ولا بات يهجع  
إذا حل في أرض بناها مدائننا      وإن سار عن أرض غدت وهي بلقع  
تحل بيوت المال حيث محله      وجم العطايا والرواق المرفع

(١) المقرئى : اتعاظ الحنفا ص ٧١

(٢) ديوان ابن هاني ص ١٦ وما يليها .

(٣) إشارة إلى كثرة الجند بحيث أظلمت الدنيا بسبب تحركهم نحو الشرق .

وكبرت الفرسان لله إذ بدا وظل السلاح المنتضى يتفجع  
وعبَّ عُبَابُ الموكب الفخيم حوله ورقَّ كما رق الصباح الملبع  
رحلتُ إلى القسطنطين أول رحلة بأيمن فال بالذي أنت تجمع

لم يكن هذا الجيش برياً وحسب، بل كان يصحبه بعض القطع الحربية البحرية. وكانت مدينة الإسكندرية هدف جوهر، كما كانت هدف نابليون وفريزر وولسلي وروميل. ولكن هناك فرق بين حملة المعز وهذه الحملات الحديثة؛ فإن جوهر أقي لينتقد المصريين من ظلم العباسيين وعبث الحكام والولاة، ويبعد عنهم خطر القرامطة والروم، على ما ذكره في منشوره، وليعمل أيضاً على تكوين دولة مستقلة في هذه البلاد. تناقض العباسيين، وتقف في وجه مطامع الروم وسواهم.

أما هذه الحملات الحديثة على مصر، فإن القائمين بها لم يكونوا يرمون من ورائها إلا إلى اغتصاب حرية أهلها، وانتزاع وطنهم من أيديهم، تحت ستار الترميم والادعاءات السكاذبة، التي برهنت الأيام على بطلانها، وكانت آثارها لا تزال ماثلة بيننا، بل لا تزال تقف عقبة كأداء في طريق تقدمنا.

ولم يجد جوهر في الإسكندرية مقاومة تذكر. وقد أدرك حسن نيات الأهالي نحوه، فأمر جنده بعدم التعرض لهم بسوء. واستطاع بفضل حنكته وتجاربه، أن يغمر المصريين بعطفه وودده، ويتألف قلوب جنده بما أجزله لهم من المال؛ فرضى الفريقان عنه وعن سياسته. والحق أن جوهر ومولاه المعز كانا يعلمان مدى تعلق المصريين بهم. يدل على ذلك أن دعاة المعز وجواسيسه بمصر، حين أرسلوا إليه بأن المصريين على هواه، أنفذ إليهم أعلاماً وقال: «فرقوها على من يبايع من الجنود، وأمرهم إذا قربت العساكر (المعزية) ينشرونها» (١). فلما قربت العساكر من الإسكندرية فعلوا ذلك.

### (ب) فتح مصر

أدرك المسئولون في مصر، وعلى رأسهم الوزير جعفر بن الفرات، أنه لا طاقة لهم بمقاومة هذه الجيوش الكثيفة، وأنه يجب أن يسالموا الفاطميين. حقيقة

(١) المقرئ: انماط الحفا ص ٦٦.

اضطرب أهل القسطنطينية قاعدة مصر في ذلك الحين . وقد حملهم ذلك الاضطراب على الانفاق مع جوهر ، ولذلك عملوا على اختيار الوزير جعفر بن الفرات وبعض العلويين من ذوى المكانة في مصر ، للتفاوض مع جوهر بشأن الصلح . وقد دل اختيارهم أحد كبار العلويين لرياسة وفدهم على الحنكة السياسية ، لأن ذلك كان من العوامل التى أدت إلى إجابة القائد جوهر جميع مطالبهم .

ويظهر أن الوفد الذى خرج من القسطنطينية لمقابلة جوهر فى « تروجة » القريبة من الإسكندرية ( فى ١٨ من رجب سنة ٥٣٥٨ ) ، إنما خرج تلبية لرغبة إجماعية من أهل مدينة القسطنطينية إذ ذلك ؛ فلم نسمع أن أحدا من الجنود أو سواهم امتنع عليهم ، فكانوا جميعا متفقين فيما بينهم على أن يلتمسوا من القائد الفاطمى أمانا على أنفسهم وأموالهم وبلادهم . وإن فكرة المقاومة من جانب المصريين لجيوش الفاطميين لم تنبت فى أذهان بعض إلا لتموت سريعا . ومهما يكن من شئ ، فإن جوهر كان على اتصال سرى مع ابن الفرات ، وإن أعضاء الوفد حين خرجوا من الجزيرة ، لم يتأخر عن تشجيعهم قائد ولا كاتب ولا عالم ، ولا شاهد ولا تاجر<sup>(١)</sup> . وكان معنى ذلك أن جوهر كاد يفتح مصر دون إراقة شئ من الدماء ، فكان هذا انتصارا مؤزرا له . ولذلك أجاب جوهر مطالب المصريين<sup>(٢)</sup> التى تلخص فيما يلى :

أولا : اعترف جوهر فى العهد الذى قطعه لوفد مصر بأن يؤمن جميع المصريين : جنودا ومدنيين ، مسلمين ومسيحيين ، على أنفسهم وأموالهم وبلادهم . وأنهى إليهم أن الوفد الذى نديوه لمفاوضته قد طلب منه هذا الأمان . وأنه أقرهم على جميع مطالبهم ، وتعهد للمصريين بأنه سوف يأخذ على عاتقه نشر العدل والسلام والطمأنينة بين الناس .

ثانيا : ذكر جوهر بأن مولاه المعز قد نديه لإنقاذ المصريين مما وصلوا إليه تحت حكم العباسيين ، وأن يدرأ عنهم الأخطار الخارجية من ناحية القرامطة ، الذين غزوا بلاد الشام فى سبقتى ٣٥٣ ، ٣٥٧ ، ومنعوا الحجاج عن أداء فريضة

(١) المقربرى : اتعاظ الحنفا ص ٦٧ .

(٢) انظر ملحق رقم ٢ .

الحج. ولذلك تعهد لهم بأن يصد عنهم الروم، الذين غزوا شمالى بلاد الشام، واستولوا على كثير من مدنه، كما غزوا شمالى بلاد العراق وعبروا نهر دجلة. وأخيرا قال جوهر على لسان المعز إن الفاطميين إنما جاءوا لنجدة العالم الإسلامى عامة، والمصريين خاصة من هذه الأخطار، كما يتبين من هذه العبارة: «إنه (أى المعز) صلوات الله عليه! لم يكن إخراج العساكر المنصورة، والجيوش المظفرة، إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم، والجهاد عنكم؛ إذ قد تخطفتمكم الأبدى، واستطال المستذل، والممغنة نفسه<sup>(١)</sup>، بالافتقار على بلدكم فى هذه السنة (يشير بذلك إلى الروم)، والتغلب عليه، وأسّر من فيه، والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسبا فعله مع غيركم من أهل بلدان المشرق. وتؤكد عزمه، واشتد كلبه، فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين، صلوات الله عليه! بإخراج العساكر المنصورة، وبإداره بإفناذ الجيوش المظفرة دونكم، وبمجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق<sup>(٢)</sup>».

ثالثا: أخذ جوهر على نفسه فى ذلك العهد، تحقيق هذه السياسة الدينية الحكيمة، فاعترف للمصريين بالحرية الدينية، وترك كل فرد منهم يقيم شعائره التى ألفها؛ وتعهد للمصريين بأن يقوم بإصلاح دينى شامل، فيعمل على تعمیر المساجد وإصلاحها. ومع ذلك لم يتوان جوهر فى انتهاز الفرصة للإشادة بالأئمة العلويين وتمجيدهم، وأنهم أحق بالخلافة من سواهم. ويخيل إلينا أن جوهر اندرع بهذا القول لنشر المذهب الإسماعيلى، مذهب الفاطميين، فى هذه البلاد.

كما عمل جوهر على نحو فكرة الغلو المذهبي، التى رعى بها السنيون جماعة الإسماعيلية. ويظهر أن السنيين كانوا يرمون الفاطميين بأنهم يؤدون القرائض على غير ما ألفه المسلمون السنيون. ومن ثم عمل جوهر على نحو تلك العقيدة من الأذهان، فخطب المصريون بقوله: «الإسلام سنة واحدة، وشريعة متبعة، وهى إقامة على مذهبكم، وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم والاجتماع عليه فى جوارعكم ومساجدكم، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة، رضى الله عنهم! والتأبين بعدهم، وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفقواهم».

(١) أى الهاربة المولية. يقال: أمن الرجل: هرب وتباعد.

(٢) المقرئى: انماط الحنفا ص ٦٧.

وأن يجرى الأذان والصلاة ، وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه ، والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله في كتابه ، ونصه نبيه صلى الله عليه وسلم في سنته ، وأجرى أهل البذمة على ما كانوا عليه <sup>(١)</sup> .

رابعا : أخذ جوهر على نفسه في ذلك العهد أن يقوم بإصلاح شامل في إدارة البلاد ، بالضرب على أيدي العابثين من قطاع الطرق . وضبط السكة بعدم غشها أو زيفها ، ونشر العدل بين الرعية ، وإعانة المظلوم على الظالم ، « مع الشفقة والإحسان ، وجميل النظر ، وكرم الصحبة ، ولطف العشرة . وانتقاد الأحوال ، وحيطة أهل البلد في ليلهم ونهارهم ، وحين تصرفهم في أوان ابتغاء معاشهم ، حتى لا تجرى أمورهم إلا على ما لمّ شعهم » <sup>(٢)</sup> .

خامسا : كما لم يترك جوهر الوفد الذي ندبه المصريون للاتفاق معه ، دون أن يقيده بقيود ، يستطيع بها أن يدخل حاضرة البلاد آمنا مطمئنا ؛ فأخذ عليهم العهد والميثاق ، أن يذيعوا نصوص هذا الاتفاق بين الخاص والعام ، وأن يضمّنوا عبور جيوش المعز من الجزيرة إلى الفسطاط بالخروج إليه ، ويسيروا في ركابه ، حتى يعبر الجسر ، وينزل الفسطاط والمناخ المبارك ، كما عبر عنه جوهر بذلك . فقال لهم : « وتحفظون وتحافظون من بعد على الطاعة ، وتثابرون عليها ، وتسارعون إلى فروضها ، ولا تتخذون وليا لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه ! وتلزّمون ما أمرتم به . » <sup>(٣)</sup> وكان ذلك في شهر شعبان سنة ٣٥٨ هـ .

من ذلك نستطيع أن نقول ، إن هذا العهد الذي أعطاه جوهر للمصريين ، كان على شيء كبير من الاعتدال والحكمة ؛ فقد خلا من المبالغات التي تجعل مثل هذه المنشورات عديمة الجدوى ، فلم يغال في تقربه إلى المصريين . وقد بيّن لهم ما كان يحقدق بهم من أخطار . ولم يكن مغاليا في الناحية الدينية ، كما لم يكن مبالغا في تصوير مأسوف يبذله من جهد ، في سبيل نشر ألوية العدل والطمأنينة في البلاد . ولقد حقق كل

(١) المقرئى : اتعاظ الخفا ص ٦٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٦٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ٧٠ .

معاهدهم عليه ، وساس البلاد أحسن سياسة ، الأمر الذى يحملنا على أن نضعه بين كبار أعلام القواد والساسة والحكام .

على أن جماعة من الجنود الإخشيدية والكافورية قد عز عليهم أن يستولى جوهر على مصر بهذه السهولة ، وأن يزول نفوذهم بين عشية وضحاها ، بدخول الجيوش الشيعية المغربية هذه البلاد . ولما كانت الجندية مصدر رزقهم ونفوذهم وهيبتهم . عولوا على الوقوف في وجه الفاطميين ، وامتنعوا عن طاعة كل ما جاء في عهد جوهر . وهذا يدل على أن الذين ناووا الحكم الفاطمى لم يكونوا من المصريين الذين حنقوا على الكافورية والإخشيدية ، وأفتوا بقتالهم وقتلهم .

وقد أدرك جوهر خطر هذه الحالة ، فعول على استرداد عهده ، ليكون حرا فيما يعمل . إلا أن أعضاء هذا الوفد التمسوا من جوهر أن يعدل عن هذا رأى ، ولكنه بين لهم أنه قد عول على قتال من يقف في وجهه ، لأنه إنما جاء إلى مصر ليحول دون استيلاء الروم والقرامطة عليها ، وأن وقوفهم في وجهه يساعد الروم على تحقيق مآربهم . وفى ذلك يقول جوهر مخاطبا أبا الطاهر ، قاضى مصر السنى : « ما تقول يا قاضى فى هذه المسألة ؟ فقال : ماهى ؟ قال : ما تقول فيمن أراد العبور إلى مصر ليضى إلى الجهاد لقتال الروم فمنع ؟ أليس له قتالهم ؟ فقال له القاضى : نعم ! فقال : وحلال قتالهم ؟ قال : نعم ! » (١) .

وأما الجهود التى بذلها أعضاء هذا الوفد فتناخص فى أن الوزير ابن الفرات وصحبه ، قد التف حولهم الرعية . وقاموا بمظاهرة حماسية يؤيدون فيها هذا النظام الجديد . ولم يشذ أحد من المصريين ، اللهم إلا هذه الفئة من الجند ؛ فقد قال واحد من قوادهم لأحد أعضاء وفد مصر ، وكان علويا من سلالة الحسن : « لو جاءنا جدك بهذا ضربنا وجهه بالسيف » . وعاب ابن الفرات على المنتقذين سلوكهم ، لأنهم هم الذين طلبوا ذلك من الوفد الذى ندبوه لمفاوضة جوهر ، وأنهم بعملهم هذا قد خرجوا على أمر طلبوه بأنفسهم .

وهكذا لم يستطع هؤلاء الزعماء أن يفلوا شوكة الإخشيدية والكافورية ،

(١) المقرئى : اتماظ المنفا ص ٧١ .

الذين اتفقت كتبهم على أن السيف وحده هو الذي يفصل بينهم وبين جوهر . ومن ثم نصبوا واحدا منهم قائدا ، وتحمسوا للحرب جوهر ، ووقفوا بذلك في وجه الفاطميين وزعماء المصريين أنفسهم .

أما جوهر فإنه لما وصل إلى الجيزة حول منتصف شهر شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، وجد الإخشيدية والكافورية معسكرين في جزيرة الروضة ، وعلى شاطئ النيل الشرقى ، من ناحية القسطنطينية . فاتبع جوهر طريقين ، يدل كلاهما على الحيطه والحذر : الأول ، أنه بذل جهودا كبيرة في سبيل الاستيلاء على مخاضة في منية شلقان شمال الجيزة ، يستطيع أن يعبر منها إلى القسطنطينية . والثانية ، أنه استعان بالسفن على حصار الإخشيدية والكافورية ، والعبور إليهم . « فاستقبل المراكب الواردة من تنيس ودمياط وأسفل الأرض فأخذها ، (١) . وعبر إليهم إلى جهة القسطنطينية ، قائده المشهور جعفر بن فلاح الكتامي ، فأوقع بهم . ولذلك اضطرت الجنود الذين عسكروا في جزيرة الروضة إلى التقهقر نحو القسطنطينية ، وخصوصا حين عبر إليهم جوهر ورجاله ، وفر كثير منهم إلى بلاد الشام بعد أن فقدوا زعماءهم .

وقد أيقن جوهر أن الشعب المصري لم يشترك مع الجنود الثائرين في قتال الفاطميين ، بل إن المصريين لجئوا إلى زعمائهم ، وإلى العلويين منهم بوجه خاص ، وما زالوا بهم حتى استخلصوا من جوهر أمانا آخر ، يقين منه مدى تسامح ذلك القائد الفاطمي وعطفه على المصريين . ولا غرو ، فإن جوهر كان يريد أن يتخذها جسرا يعبر منه الفاطميون إلى بغداد ، حاضرة العباسيين في ذلك الحين .

لذلك أرسل جوهر مع صاحب الشرطة في القسطنطينية رسولا ، معه بند عليه اسم المعز لدين الله ، وبين أيديهما الأجراس بأن لا متونة ولا كلفة ، وأمن الناس . وفرقت البنود ، فنشر كل من عنده بند بنده في درب حارته ، (٢) . وبذلك تم استيلاء جوهر على مصر ، دون أن يجد معارضة تذكر .

وقد أرسل جوهر الصقلي إلى الشريف أبي جعفر مسلم بن محمد ، عهدا ثانيا

(١) المقرئى : اتماظ الحنفا ص ٧٢ .

(٢) المصدر نفسه .



جاء فيه : « وصل كتاب الشريف الجليل ، أطال الله بقاءه ، وأدام عزه وتأييده وعلاؤه ، وهو المهتم بما هنا من الفتح الميمون . فوقفت على ما سأل من إعادة الأمان الأول . وقد أعدته على حاله ، وجعلت إلى الشريف ، أيده الله ! أن يؤمن كيف رأى وكيف أحب . ويريد على ما كتبه كيف يشاء ، فهو أمانى وعن إذنى وإذن مولانا وسيدنا أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه . وقد كتبت إلى الوزير أيده الله بالاحتياط على دور الهاربين إلى أن يرجعوا إلى الطاعة ، ويدخلوا فيما دخلت فيه الجماعة ، ويعمّل الشريف ، أيده الله ! على لقائى يوم الثلاثاء لسبع عشر تخلو من شعبان ، (١) .

عبر جوهر الجسر المقام على النيل بين الجيزة والقسطاط . فى يوم ١٧ من شعبان سنة ٥٣٥٨ هـ ، وعسكر بجنوده شمالى مدينة القطائع التى أسسها أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠ هـ) ، ووضع أساس مدينة القاهرة إثر وصوله . وكان لهذا النصر رنة فرح بالغ فى بلاد المغرب ، وقد أخذ الفرح من نفس المعز كل مأخذ ، لأنه أصبح إمبراطورا على جميع شمال إفريقيا ، وعلى بعض جزائر البحر الأبيض المتوسط . كما أتاح له هذا الفتح ، الفرصة لاختبار جيوشه التى عول على الاستعانة بها فى فتح بلاد الشام والحجاز . ويتجلى ذلك الفرح من قصيدة ابن هانئ الأندلسى ، التى تقتطف منها هذين البيتين :

تقول بنو العباس قد فتحت مصر      فقل لبنى العباس قد قضى الأمر  
وقد جاوز الإسكندرية جوهر      تصاحبه البشرى ويقدمه النصر (٢)

### ٣ - المعز لدين الله وفتح بلاد الشام

(١) عوامل فتح بلاد الشام :

لم يكتف جوهر الصقلى بفتح مصر ، بل عمل على مد نفوذ الفاطميين إلى بلاد

(١) المقرئى : انماظ الخفاص ص ٧٢ .

(٢) ديوان ابن هانئ ص ٨٦ .

الشام . ويرجع فتح هذه البلاد إلى عوامل منها :

أولا : لا يبعد أن يكون الفاطميون قد خشوا انتقام العباسيين بسبب فتحهم أخصب وأغنى بلادهم ، وهي مصر . ولهذا عمل جوهر على أن تكون بلاد الشام خط الدفاع الأول عن مصر ، وبذلك يكون قد سبق محمد على باشا ، الذي كان يرى أن خط الدفاع عن مصر ، يجب أن يكون في سورية ، لا في مصر نفسها . ولو أدركنا أن العباسيين والبهيميين كانوا قد تألموا أشد الألم لزوال نفوذهم في مصر ، حتى ساعدوا القرامطة ، وتآمروا معهم على طرد الفاطميين - لو أدركنا ذلك رأينا بعد نظر جوهر في الناحيتين الحرية والسياسية . هذا إلى أن الدولة الفاطمية تستطيع بأسطولها الضخم أن تتحكم في معظم البلاد الإفريقية والشامية ، التي تشرف على البحر الأبيض المتوسط .

ثانيا : ولا يبعد كذلك أن يكون استيلاء الفاطميين على بلاد الشام خطة درهما هؤلاء للقضاء على القرامطة ، الذين بدءوا يناوئون سادتهم الفاطميين ؛ فقد أدرك المعز زوال نفوذه عليهم ، وازدياد نفوذ منافسيه من أبناء أبي سعيد الجنابي ، وحرز في نفسه احتلال القرامطة دمشق في سنة ٣٥٧ هـ ، بعد أن كان القرامطة لا يحاربون إلا بوحي من الفاطميين . فكان فتح جوهر بلاد الشام لون من التحدى للقرامطة . ولو علمنا أن جوهر الصقلي كان يشيد بالمعز لدين الله ، ويفض من شأن من يقف في وجه الحجاج في أثناء تأديتهم فريضة الحج ، أدركنا أن ذلك الفتح إنما كان مبعثه رغبة الفاطميين في أن يحققوا للمصريين خاصة ، وللمسلمين عامة ، ما جهروا به من محاولة القضاء على الثوار الدينيين كالقرامطة .

ثالثا : ويظهر أن المعز أدرك رغبة الروم في أن يرثوا الدولة العباسية التي دب إليها الوهن ، فقد عبروا الفرات ، واستولوا على بعض مدن الشام كما رأينا ، فعمل المعز على فتح هذه البلاد لتحول دون تقدم الروم جنوبا ، وهم ( أى الفاطميون ) إذ يقومون بذلك إنما يثيرون عاطفة عامة المسلمين ، إذ ليس هناك شيء أنبل من إعلان الجهاد على الروم . فكان المعز وجوهر أرادا أن يحققا من وراء فتح بلاد الشام غرضين ، أما أولهما فهو جذب قلوب المسلمين ، وخاصة المصريين إليه .

ويؤيد هذا القول ، الحديث الذي دار بين جوهر الصقلي وأبي الطاهر قاضي مصر ، يبرر فيه قتاله جند الإخشيديين والكافوريين ، واعتماده في ذلك التبرير على رغبة الفاطميين في قتال الروم ، ووقوف هؤلاء الجنود في طريق تحقيق هذا الغرض ، كما يدل ذلك أيضا ما أورده جوهر في عهده للمصريين ، من أنه إنما أتى لتخليصهم من الروم .

وأما الغرض الثاني فيرجع إلى رغبة الفاطميين في الوقوف في وجه الروم ؛ حتى لا تمود بلاد الشرق الأدنى وجميع شمالي إفريقيا إلى حوزة الروم ، كما كان ذلك من قبل . ولا نغلو إذا قلنا إن الروم الذين اتحدوا مع الأمويين في الأندلس ، وأخفقوا في هجومهم على بلاد المغرب في عهد المعز (سنة ٥٣٤٤ هـ) ، رأوا أنهم يستطيعون القضاء عليه بفتح بلاد الشام ، واتخاذها جسرا يعبرون منه إلى المغرب . وهذا العمل من جانب المعز يدل على بعد نظره في السياسة ، لأنه يجعله يحرص على نفوذه في بلاد المغرب ومصر ، ويحول دون تقدم الروم في بلاد الشام ؛ وبذلك أمّن المعز حدود مصر من ناحية الشمال . وقد سار على هذا النهج الطولونيون والإخشيديون من قبل ، ثم صلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس ومحمد علي باشا فيما بعد ، حين عول كل من هؤلاء على فتح بلاد الشام ، ليؤمن حدود مصر من ناحية الشمال الشرقي .

رابعا : كانت بلاد الشام تابعة للدولة الإخشيدية . ولما آلت مصر إلى الفاطميين ، كان من الطبيعي أن يحتل هؤلاء البلاد التابعة لها ، وخصوصا أن من يحتل دمشق يستطيع أن يتخذها مركزا يوجه منه حملاته إلى بلاد العراق . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان من الواجب أن يظل نفوذ مصر قويا في بلاد الحجاز ، كما كان في أيام الإخشيديين والطولونيين قبلهم .

### (ب) جعفر بن فروع وفتح بلاد الشام :

وسواء أكان فتح المعز بلاد الشام تحديا للعباسيين والقرامطة والروم ، أم أنه ميراث آل إليه عن الإخشيديين ، فإن جوهر الصقلي بعث إليها قائده المشهور

جعفر بن فلاح ، الذي قضى على مقاومة جند الإخشيدية والكافورية ، في دفاعهم عن القسطنطين في شهر شعبان سنة ٣٥٨ هـ . ولا نستطيع أن نأخذ بما ذكره بعض من أن جوهر راغب في إبعاد جعفر بن فلاح عن مصر ، بسبب غروره بنفسه . ولكن الواقع أن الحملة التي سار على رأسها جعفر بن فلاح كانت تنفيذا لخطة مرسومة ، تهدف إلى فتح بلاد الشام ، لتأمين حدود مصر من ناحية الشمال ، كما ذكرنا ، والوصول إلى بغداد نفسها ، خاضرة الدولة العباسية .

وقد أعد الإخشيدون في بلاد الشام عدتهم لملاقاة جعفر بن فلاح ، فخرج الحسن بن عبيد الله بن طغج صاحب الشام من مدينة دمشق ، وقصد مدينة الرملة ، وترك القائد شمولا الإخشيدى نائبا له على دمشق . وكان شمول الإخشيدى يحق على الحسن بن عبيد الله ، حتى إنه اتهم بمكاتبة جوهر الصقلي ، واستدعائه ليسلم إليه هذه المدينة . وبما يدل على نفاق شمول هذا ، تقاعده عن نصرة مولاة الحسن بن عبيد الله ، حين طلب منه القدوم عليه بمن معه من الجيوش لصد الجيوش الفاطمية .

حارب جعفر بن فلاح الإخشيديين في ثلاث معارك كتب له النصر فيها جميعا . وقد دارت المعركة الأولى في مدينة الرملة ، في شهر ذي القعدة من سنة ٣٥٨ هـ . وكان الحسن الإخشيدى على رأس جيوش المقاومة . فقد طلب النجدة من عماله على دمشق وطبرية وسواهما ، فلم يسمعوا أحد ، وتحمل وحده ضغط جيوش جعفر ابن فلاح ، الذي كان قد استطاع أن يغرر بولاية الشام ، ودعاهم إلى طاعة المعز لدين الله . ومن ثم وقع الحسن أسيرا في قبضة المغاربة ، وبُعث به إلى القسطنطين حيث سيق إلى بلاد المغرب ، وظل بها حتى مات في خلافة العزيز بالله الفاطمي سنة ٣٧١ هـ . وكان من أثر ذلك الانتصار أن أصبحت فلسطين عامة تابعة للفاطميين ، كما أثارته هذه الانتصارات مخاوف عمال الإخشيدى في سائر بلاد الشام .

وقد تتابعت انتصارات الفاطميين بعد ذلك ، ففتحت طبرية ، وكان يليها القائد « فاتك » ، غلام ملهم منذ عهد كافور الإخشيدى . وأعد جعفر بن فلاح لفتح طبرية عدته ، فبنى قصرا على الجسر الذي يشرف منه على المدينة . وقعد فاتك عن محاربه ، وخافه ملهم الذي تأمر فاتك مع جعفر بن فلاح على قتله ليخلو لها الجو .

ولم يقاوم أهل طبرية جيوش الفاطميين مقاومة تذكر ، ولا سبياً بعد ما أحرزه جعفر بن فلاح من نصر مؤزر على الحسن بن عبيد الله بن طنج في الرملة . وبقبح طبرية ، انتهى الدور الثاني من فتح بلاد الشام على يد جعفر بن فلاح .

وتركز المرحلة الثالثة من مراحل استيلاء الفاطميين على بلاد الشام في دمشق . وترجع أهميتها إلى اتخاذها قاعدة حربية توجه الجيوش منها . وفي هذه المرحلة التقى جعفر بقوات القبائل العربية ، التي كان لها نفوذ كبير في بلاد الشام ، كبنى عَـقِيل وعلى رأسهم ظالم بن موهوب العُـقَيْلي ، وبنى فزارة ومرة وسواهم ، وكانوا جميعاً يخضعون للإخشيديين . وقد استطاع جعفر أن يضرب هذه القبائل بعضها ببعض ، فتقرب إلى فزارة ومرة ، وتظاهر معهم على بنى عَـقِيل .

ومن ميزات هذه المرحلة تلك المقاومة الشعبية الرائعة ، التي قام بها أهل دمشق في وجه الفاطميين . فقد فرّ واليها شمول الإخشيدي ، وقصد جعفر بن فلاح في طبرية ، وترك دمشق تملج بأهلها . ولما هزم حلفاء الفاطميين من بنى فزارة ومرة قبائل بنى عَـقِيل ، وقصدوا هم وبعض جيوش جعفر مدينة دمشق ، وثار عليهم أهل البلد وقتلواهم ، وقتلوا منهم كثيراً من العرب ، فانهزموا عنها ،<sup>(١)</sup> وذلك في أواخر شهر ذي الحجة من سنة ٣٥٨ هـ . واستطاع الدمشقيون ، ومعهم جنود الإخشيديين ، أن يصمدوا في وجه جعفر بن فلاح وأنصروه من العرب أياً ما ، وقتلوا كثيرين من المغاربة ، وهذا ما يدل على أن مهمة جعفر بن فلاح في بلاد الشام لم تكن كهمة جوهر في مصر ، بل كانت أكثر عنفاً منها .

غير أننا نلاحظ عبث الجنود المغاربة ، واحتكاكهم بأهالي هذه البلاد ، مما أثار سخط الشاميين عليهم . يدل على هذا أن زعماء دمشق حين قصدوا جعفراً في طبرية للاتفاق معه ، أهانهم جنوده ، وسلبوهم ما عليهم ، فعادوا إلى دمشق وهم غير شاكرين ولا راضين ، فبسطوا ألسنتهم بدم المغاربة ، حتى استوحش أهل دمشق<sup>(٢)</sup> . وكذلك نرى المغاربة يسلبون سكان البلاد المجاورة لدمشق حين هاجموا أولاً مع

(١) المقرئى : انماظ الحنفا ص ٨١ .

(٢) المصدر نفسه .

قبائل فزارة ومرة ، مما جعل الدمشقيين يتظاهرون في الدفاع عن أنفسهم ، ويتفانون في صدمهم . ولما قصد بعض الأهلين جعفر بن فلاح ، بعد أن أحاط بهم في دمشق ، نرى جنود المغاربة أيضا يسلبونهم ثيابهم ويقتلون بعضهم ، فيذيع الدمشقيون هذه الفظائع من فوق منابرهم .

ولكن ما السبب الذي حدا هؤلاء الجند على الوقوع في هذه الأخطاء ؟ يظهر أن جعفر بن فلاح لم ينهج مع جنده هذه السياسة التي نهجها جوهر الصقلي ، الذي كان يعمرهم بإحسانه ، ويذيع عليهم منشوراته وأوامره التي ترمي إلى حسن معاملة الأهلين ، وعدم التعرض لهم بسوء ، مما جعله موضع تقدير هؤلاء الجند وخوفهم منه . ولا يبعد أن يكون ذلك راجعا إلى أن جعفرا لم يكن معه من المال ما كان مع جوهر ؛ لكن القائد الماهر هو الذي يأمر جنده فيطيعونه ويخشون بأسه ؛ لذلك لانعفى جعفرا من اللوم ، وتحمل تبعه سلوك جنده الطائش .

ومما أثار سخط الناس على جعفر ما ارتكبه من الأخطاء ، فلم يكن هذا القائد في سلوكه مع الأهالي ، ولا مع القواد المعارضين له ، على شيء من الحكمة ، كما كان جوهر الصقلي ، مما أثار الناس عليه ، وأدى إلى عدم استقرار الأمور في بلاد الشام . فنراه حين يهجم على طبرية ، ويستسلم له واليها ، يتأمر عليه جعفر سرا ويقتله ، كما نراه يعامل الدمشقيين معاملة تنطوي على كثير من العنف ؛ وطالما طلبوا منه العفو ، وتضرعوا إليه ، فلم يأبه لهم . ويظهر ذلك واضحا جليا في هذه العبارة التي خاطب بها جعفر أهل دمشق ، فقال لهم : « ما أعفو عنكم حتى تخرجوا إلى ومعكم نساؤكم مكشوفات الشعور ، فيتمرغن في التراب بين يدي لطلب العفو ، فيقولون له : « نفعنا ما يقول القائد (١) . »

ويظهر أن سلوك جعفر أدى إلى فرار عدد كبير من أعلام دمشق ، وتشجيعهم على الفاطميين والمغاربة ، حتى إن الزعيم العربي ظالم بن موهوب العسقلبي وغيره لجئوا إلى القرامطة ، وأوغروا صدورهم على الفاطميين ، كما لجأ كثير من الإخشيدية والكافورية وزعمائهم إلى الحمدانيين وغيرهم ، وأصبحوا جميعا خطرا يهدد نفوذ جعفر في بلاد الشام . أضف إلى ذلك أنه أساء معاملة زعماء بلاد الشام ، وخاصة

زعما دمشق ، فقتل بعضا ، وعلق ره وسهم على أبواب المدينة ، وصلب بعضا ،  
وشهر ببعض آخر ، مما يدل على قلة خبرته السياسية .

ومهما يكن من شيء ، فقد أقيمت الخطبة للخليفة الفاطمي ، المعز لدين الله ، في  
دمشق أول جمعة من شهر المحرم سنة ٣٥٩ هـ ، وحذف اسم الخليفة العباسي المطيع  
( ٣٣٤ - ٣٦٣ هـ ) ، فكان هذا إيذانا بزوال نفوذ العباسيين من هذه البلاد .  
والذي نلاحظه في فتح الفاطميين مصر والشام ، أن الجنود الإخشيديين وحدهم ، هم  
الذين تحملوا ضغط الجيوش الفاطمية ، وأن الدولة العباسية تركت هؤلاء الجنود  
وبعض أهالي الشام ، يلاقون مصيرهم المحتوم ، دون أن تمد لهم يد المساعدة ، بخلاف  
ما كانت عليه الحال في عهد عبيد الله المهدي ، الذي لم تستطع جيوشه الفاطمية فتح  
مصر بسبب إرسال الإمدادات من بغداد ، ويرجع ذلك إلى ضعف الخلفاء العباسيين  
مع بني بويه ، مما أطمع الأعداء في الدولة العباسية ، فرامها الروم ، على ما رأينا ،  
وانتزع الفاطميون منهم أعز ممتلكاتهم ، دون أن يحركوا لذلك ساكنا .

ومما يلفت النظر أيضا أن الفاطميين اتخذوا دمشق قاعدة يوجهون منها ضرباتهم  
إلى الروم ، عملا بسياستهم التي كشفت عنها جوهر الصقلي في منشوراته التي أذاعها  
بين المصريين . وهذا جعفر بن فلاح يقوم بتنفيذها ، فتراه يعمل على استرداد  
أنطاكية ، التي كانت قد وقعت في أيدي الروم منذ سنتين أو ثلاث ، على ما رأينا .  
ولكنه أخطأ في اختيار الوقت الذي يشن فيه غارته على هذه المدينة ، ولذلك لم  
يستطع جنده الاستيلاء عليها في الشتاء ، وانهمزوا أمام الروم ، وأرغم جعفر بن  
فلاح على استدعائهم لمواجهة الخطر الذي كان يهدده من ناحية القرامطة .

والواقع أن جعفر بن فلاح كان يهدده في بلاد الشام خطران : خطر الروم  
الذين انحدروا من جبال طوروس ، واحتلوا مدينة أنطاكية ، فأضحوا شوكة في  
ظهر من يحكم بلاد الشام ، وشعر بنفس الخطر الذي يشعر به السوريون اليوم من  
جراه احتلال تركيا لواء الإسكندرونة . ومن ثم اندفعت جيوش الفاطميين للرد  
ذلك الخطر من ناحية الشمال ، حتى تكون جبال طوروس الحد الذي يفصل بينهم  
وبين الروم ، وهذا ما فعله محمد علي باشا في العصور الحديثة . هنا من ناحية ، ومن  
ناحية أخرى استغل جعفر هجومه نحو الشمال لتخدير أعصاب المسلمين السنيين ،

حتى يقلل من ثوراتهم على الحكم الفاطمي في بلاد الشام ، ويشغلهم بقتال الروم ، ويجعلهم يعتقدون أن الفاطميين لا يقفون عن العباسيين تحمسا للإسلام .

وأما الخطر الثاني الذي تعرض له جعفر بن فلاح في بلاد الشام ، فقد أتى من ناحية القرامطة ، الذين كانوا يعدونها منذ سنة ٣٥٣ هـ منطقة نفوذ قرمطي ، ويعتقدون أن أية قوة لا تستطيع الاستيلاء عليها . أضف إلى ذلك سوء العلاقة بين رئاسة الإسماعيلية التي تركز في شخص الخليفة المعز ، وبين زعماء القرامطة وحكامهم من بيت أحمد بن أبي سعيد الجنابي . كل أولئك جعل مركز الفاطميين في بلاد الشام محفوا بالمخاطر .

على أن هناك خطرا ثالثا حال دون استقرار الحكم الفاطمي في بلاد الشام : ذلك هو كثرة الثورات التي قام بها أهالي هذه البلاد في وجه المغاربة . فإن جعفر ابن فلاح حكم هذه البلاد أكثر من سنة انتشرت فيها الثورات . فهل يرجع ذلك إلى غطرسة جعفر ، ونعسفه في معاملة الأهالي ؟ أو يرجع إلى ميلهم ، وخاصة أهالي دمشق ، إلى الأمويين ، الذين كانوا قد اتخذوا من بلادهم قاعدة يحكمون منها العالم الإسلامي ؟ وهل كان من أثر ذلك الميل أن أضمر الشاميون الكراهة والبغضاء لهؤلاء الفاطميين العلويين ، فعملوا على الإيقاع بهم ؟ أو أن ذلك يرجع إلى كثرة الدسائس والمؤامرات التي كان يحوكمها الأمراء الذين فروا من وجه الفاطميين ، كظالم بن موهوب العسقلبي وغيره ؟ يظهر أن هذه العوامل مجتمعة هي التي أثارت القلق في نفوس أهالي هذه البلاد الشامية على الحكم الفاطمي ، ولا سيما في عهد ولاية جعفر بن فلاح ( ٣٥٨ - ٣٦٠ هـ ) .

#### ٤ — النزاع بين المعز والقرامطة

(١) عمارة المعز بالقرامطة قبل ثورة الحسين الأعصم :

زيد أن ندين هنا موقف القرامطة من الفاطميين . الذين تولوا زعامة جميع طوائف الإسماعيلية . وقد ذكرنا من قبل أن عبيد الله المهدي تدخل في شؤون القرامطة منذ أوائل القرن الرابع الهجري ، حتى لقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأنه قتل



أبا سعيد الجنابي في سنة (٣٠١ هـ) . ومن الثابت أن عبيد الله المهدي قام بدور كبير في عزل سعيد بن أبي سعيد ، وساهم لحد كبير في الثورة التي انتهت بعزله ، فعين عبيد الله أبا طاهر الجنابي في سنة ٣٠٥ هـ على رأس القرامطة ، فكان له أطوع من بسانه . وقد استمر هذا الزعيم على إخلاصه للفاطميين : للبهدي ثم للقائم حتى توفي سنة ٣٣٢ هـ (١) .

وبموت أبي طاهر (٣٣٢ هـ) ، وجد الفريق المناهض للفاطميين السبيل مهيبة أمامه ؛ فقد مات هذا الزعيم ولم يترك من الأبناء ، مع كثرتهم ، من يصلح للحكم بعده . فقد كان سابور بن أبي طاهر ، أكبر أبنائه العشرة ، لا يزال طفلا لا يمكن الاعتماد عليه ؛ ومن ثم هب سعيد بن أبي سعيد الذي كان أخوه أبو طاهر وأنصار الفاطميين من القرامطة قد تحسوه عن العرش منذ سنة ٣٠٥ هـ . ولم ير الخليفة القائم إقراره في الحكم ، وعين أخاه أحمد بن أبي سعيد في حكم القرامطة ، وجعل سابور بن أبي طاهر ولي عهده .

وبذلك انقسم القرامطة إلى معسكرين: أما الأول فيميل إلى الفاطميين ، ويتطلع إلى الحكم في الوقت نفسه ، وعلى رأس هذا الفريق أبناء أبي طاهر ، ومعهم عدد غير قليل من كبار القرامطة ووجوههم وذوى النفوذ فيهم ، وهم المعروفون بالعقدانية . ويرى هذا الفريق أن تنضوى طائفة القرامطة في سياستها الخارجية والمذهبية تحت لواء الفاطميين ، كما كانوا في عهد أبي طاهر بن أبي سعيد (٣٠٥ - ٣٣٢ هـ) .

وأما المعسكر الثاني ، فهم الطبقة العليا الحاكمة من القرامطة ، وتمثل في أحمد ابن أبي سعيد وإخوته ، ومن انضم إليهم من القرامطة . ويرى هؤلاء الاحتفاظ برياسة ، دولتهم القرمطية الإسماعيلية ، وتوجيهها التوجيه الذي يعود بالنفع على القرامطة أنفسهم ، رضى رؤسائهم الفاطميون بذلك أم لم يرضوا ، وافقت سياستهم سياسة الفاطميين أم خالفتها . فقد كان هذا الفريق الحاكم ينظر إلى الأمر من

(١) انظر كتاب .. عبيد الله المهدي .. للثقلين ص ٢١١ وما بعدها .

ناحية المصلحة الخاصة ، لا من ناحية المصلحة العامة ، التي يشترك فيها القرامطة والفاطميون على سوا (١).

وقد ظلت تلك الحال منذ مات أبو طاهر في سنة ٣٣٢ هـ ، حتى سنة ٣٥٨ هـ ، وتم في خلال تلك الفترة تحقيق وجهة نظر القرامطة الحكوميين ، فتم التقرب بين هؤلاء وبين غير الإسماعيليين ، وأصبح القرامطة من جنود الخلفاء العباسيين وأمرائهم ، كابن رائق والبريديين وغيرهم ، كما أصبحوا من أعوان البويهيين ، و الفوا مع الحمدانيين .

ونحن نعتقد أن هذه السياسة غير المذهبية تناقض في كثير من النواحي سياسة الفاطميين ، الذين كانوا يرغبون رغبة صادقة في اتخاذ هؤلاء القرامطة معاول لهدم السنيين ، عباسيين كانوا أم حمدانيين . ومن ثم وجد فريق أبي طاهر الموالي للفاطميين ، السبيل ممهدة أمامه للطعن في سياسة الحكومة القرمطية ، ووجد المعز لدين الله من بين القرامطة من يستطيع الاعتماد عليهم ، في ثورتهم على النظم الحكومية القرمطية ، فاستعان بحزب سابور بن أبي طاهر هذا ، في محاولته القضاء على سلطان القرامطة الحكوميين ، الذين اندفعوا في سياستهم إلى طريق غير مأمون العواقب .

وقد شعر سابور بن أبي طاهر ، أن عمه أحمد بن سعيد قد اندفع في سياسة إقرار شتون القرامطة في بيته هو ، ضاربا ببيت سابور عرض الحائط . ولذلك أسند أحمد هذا إلى ابنه الحسن الأعصم ، قيادة حملة هامة على بلاد عمان ، ثم أسند إليه في سنة ٣٥٣ هـ حملة أخرى تعرف بحملة طبرية . وقد انتصر فيها الحسن الأعصم ، بمساعدة الحمدانيين ، على الحسن بن عبيد الله بن طنج الإخشيد ، صاحب الشام وقتئذ ، فرماه سابور بن أبي طاهر وأنصاره باتهامات خطيرة ، كاختصاب قدر كبير من الغنائم والأسلاب . ولا يبعد أن يكون سابور قد آتمم الأعصم أيضا بمالأة السنيين ، كالحمدانيين . ويظهر أن الحملات الكلامية التي قام بها سابور وأنصاره من حزب الفاطميين ، كانت من العنف والشدة بحيث حالت دون مسير الحسن

الأعصم في الحملة الثانية في بلاد الشام (سنة ٣٥٧ هـ) . ويقول ابن حوقل (١) : ولما صار أبو علي بن المنصور إلى الشام (٢) ، وعاد عنها ، ظنت به خيانة فيما صار إليه من الغنائم . ورد إليها في الثانية (٣٥٧ هـ) كسرى بن أبي القاسم ، وصخر بن إسحاق ؛ فكان منهم مع الحسن بن عبيد الله (بن طعيج الإخشيد) ما كان . وبهذا حقد أحمد ابن أبي سعيد وابنه الحسن الأعصم ، على سابور بن أبي طاهر وأنصاره .

وكان من أثر ذلك أن اشتد ساعد فريق سابور من أنصار الفاطميين ، وطالبوا بالحكم لأنفسهم ، وتمكنوا من عزل أحمد بن أبي سعيد في سنة ٣٥٨ هـ . ولكن سابورا لم يتمتع بالحكم طويلا ، فقتل ، واستبد بيت أحمد بن أبي سعيد بحكم القرامطة من جديد . وبعبارة أخرى وقبض سابور على عمه أبي منصور (أحمد) ، فاعتقله بموافقة إخوته له على هذا ، وذلك في سنة ثمان وخمسين وثلثمائة . ثم ثار بهم أخوه (٣) ، فأخرجه من الاعتقال ، وقتل سابورا ، ونفى إخوته وأشياعه إلى جزيرة أوال (٤) .

وقد أدى قتل سابور إلى ضعف الفريق الذي يعتمد عليه الفاطميون ، وتغلب الفريق الذي يحقد عليه الفاطميون ، مما أدى إلى قيام النزاع بين الفريقين . ويرى دى غوية (٥) أن الحكم بين القرامطة انتقل بعد موت أبي طاهر إلى أيدي جماعة كان من سياستها التآني والتروى . والعمل على الاتفاقات الدبلوماسية ، والابتعاد عن الغلو المذهبي ، الذي اشتهر به القرامطة في عهد أبي طاهر . وكان من أثر هذه السياسة أن وقع الاصطدام مع الفاطميين .

وفي الحق أن ريع قرن (٣٣٢ — ٣٥٨ هـ) يكفي في تكوين جماعة من القرامطة تعمل شيئا فشيئا على تكوين دولة قمرطية ، يكون عرضها الأول أن تعيش في وسط

(١) المسالك والممالك ج ٢ ص ٢٢ .

(٢) كان ذلك في سنة ٣٥٣ هـ .

(٣) يظهر أنه يقصد أبا القاسم سعيدا أيضا أحمد بن أبي سعيد الذي ولي حكم القرامطة من سنة ٣٠١ إلى سنة ٣٠٥ هـ ، ثم عزله أنصار عبيد الله المهدي . انظر ص ٢١٤ من كتاب عبيد الله المهدي للزولفري .

(٤) جزيرة بالخليج الفارسي ، في مقابل بلاد البحرين . انظر المسالك والممالك ج ٢ ص ٢٢

(٥) Memoires sur les Carmathes, vol. ii. p. 188. (٥)

جيرانها في سلام ووثام . وبعبارة أخرى عمل القائمون على شئون القرامطة منذ وفاة أبي طاهر على تكوين دولة تنهج في سياستها نهج الفاطميين أنفسهم ، فتصل بالسنيين بوصفها دولة شيعية مسلمة ، تعمل على النهوض بالعالم الإسلامي وبالإسماعيلية ، على أنها دولة إسماعيلية مستقلة . فلم ترق تلك السياسة نظر كثير من القرامطة أنفسهم ، وعلى رأسهم سابور بن أبي طاهر ، الذي أخذ يعمل على الوصول إلى الحكم ، وينادى بوجوب طاعة الإمام الفاطمي ، صاحب الزمان (١) .

وقد نسال عن السبب الحقيقي الذي حدا بالقرامطة إلى فتح بلاد الشام منذ سنة ٣٥٣ هـ ، أكان ذلك تظاهرا منهم بالرغبة في مساعدة الفاطميين ، شأنهم في ذلك شأن أبي طاهر من قبل ؟ أم أنهم كانوا يرمون من وراء هذا الفتح إلى مساعدة حلفائهم وأنصارهم الحمدانيين على الإخشيديين ؟ أم أنهم كانوا يعملون لمصلحة أنفسهم دون سواهم ؟ يذهب دي غوية إلى القول بأن القرامطة كانوا يعملون في ذلك الوقت بوحى من الفاطميين ، لتزريق شمل الدولة الإخشيدية في الشام ، ثم الإطباق عليهم من الغرب بمعونة جيوش الفاطميين المغاربة . غير أن الهيئة الحاكمة في القرامطة ، هي التي بادرت إلى الاتفاق مع الحسن بن عبيد الله بن ططيج ، والي الشام ، على أن يدفع للقرامطة ثلثمائة ألف دينار كل سنة ، بما أغضب سابور بن أبي طاهر (٢) .

ولا نستطيع أن نوافق دي غوية على كل ما ذكره ؛ إذ لا يبعد أن تكون حملات القرامطة على بلاد الشام بدافع من أنفسهم ، بدليل أنهم استعانوا في هذه الحروب بالحمدانيين ، وهم من غير الإسماعيلية (٣) . ولا يبعد أن يكون القرامطة قد رغبوا في وضع بلاد الشام في قبضتهم ، ولذلك فرضوا هذه الضريبة على الإخشيديين ؛ وكان الأولى أن يخضعوا هذه البلاد ، ويفرضوا عليها الضرائب باسم زعمائهم وسادتهم الفاطميين .

وليس هناك ما يمنع من وجود علاقة طيبة بين المعز لدين الله ، وسابور بن أبي طاهر ، وأن يكون المعز قد وعده الملك كفاء تعهده بأن يسير على نهج سياسة

(١) طه أحمد شرف : تاريخ الإسماعيلية السيامي ، ج ١ ، ورقة ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٢) De Goeje : Memoires sur les Carmathes, vol. ii. p. 186

(٣) طه أحمد شرف : تاريخ الإسماعيلية السيامي ، ج ١ ، ورقة ٢٢٩ .

أبيه أبي طاهر ، في التقرب من الفاطميين والانتداب بأوامرهم ، ولم يعد المعز يعتمد على بيت أحمد بن أبي سعيد الجنابي اعتماداً جديداً في فتح مصر ، والقضاء على الخلافة العباسية . وبذلك يكون طلب سابور الملك قائماً على وعد من الفاطميين ، ويكون قتله على يد عمه سعيد بن أبي سعيد وأنصاره ثورة على الفاطميين في الواقع .

وهنا نلاحظ أن ما أضمره القرامطة من عداوة صريح للفاطميين لم يظهر إلا بعد مقتل سابور سنة ٣٥٨ هـ ، بل إنهم كانوا لا يزالون على ولائهم ، ولو في الظاهر ، للفاطميين . وكان العداوة يزداد بين الفاطميين والقرامطة على مر الزمن ؛ ولذلك فإن زعيم القرامطة أحمد بن أبي سعيد لما مات في سنة ٣٥٩ هـ ، تولى بعده ابنه الحسن المعروف بالأعصم . وكان أول ما قام به أن أضعف من نفوذ حزب أبي طاهر الموالي للفاطميين ، فنفق كثيرين منهم من بلاد البحرين ، وواصل العمل بمعاودة أبي طاهر مع العباسيين ، في عدم التعرض لحاج المسلمين . ويقول ابن خلدون (١) : « ثم هلك أبو منصور (أحمد بن أبي سعيد) ، ويقال مسموماً على يد شيعة سابور . وولى ابنه أبو علي الحسن بن أحمد ، ويلقب بالأعصم ، وقيل الأغم ، فطالت مدته (٥٠ سنة ٣٥٩ هـ إلى سنة ٣٩٧ هـ) ، وكثرت وقائعه ، ونفى جمعا كبيرا من ولد أبي طاهر . يقال : اجتمع منهم بجزيرة أوال نحو من ثلثمائة . وحج الأعصم (٢) هذا بنفسه ، ولم يتعرض للحجاج ، ولا أنكر الخطبة للطبع . »

### ( ب ) العوامل التي أدت إلى قيام الحرب بين القرامطة والفاطميين في

#### مصر والشام

يرجع السبب المباشر للحرب بين القرامطة والفاطميين في سنة ٣٥٩ هـ ، إلى منع الفاطميين الضريبة التي كان يدفعها الحسن بن عبيد الله بن طنج إلى القرامطة . منذ سنة ٣٥٧ هـ . والواقع أن تدخل المعز لدين الله في شئون القرامطة الداخلية كان له أثر كبير في قيام تلك الحروب . يؤيد هذا ما ذكره ابن خلدون (٣) من

( ١ ) العبر ودوران المبتدأ والخبر ج ٤ ص ٩٠ .

( ٢ ) في الأصل هذا الأعصم .

( ٣ ) العبر ج ٤ ص ٩ .

أنه لما استولى جوهر على مصر ، وجعفر بن فلاح السكتامي على دمشق ، طالب الحسن (الأعصم) بالضربة التي كانت له على دمشق ، فنعوه وناذروه (١) ، وكتب له المعز من المغرب ، وأغلظ عليه . ودرس لشيعه أبي طاهر وبنيه أن الأمر لولده . واطلع الحسن على ذلك نخلع المعز سنة ستين (٢) ، وخطب للطبيع العباسي في منابرهم ، ولبس السواد .

وكذلك ترجع هذه الحروب إلى فرار كثير من زعماء الشام إلى الحسن الأعصم واستنجادهم به ، ومن هؤلاء ظالم بن موهوب العقيلي العربي ، الذي قام فيما بعد بدور كبير في تلك الحروب ؟ إلا أننا نسأل : لماذا قصد هؤلاء الزعماء الحسن الأعصم ، واستجدوا به على الفاطميين ؟ إنهم كانوا يعلمون ، كما كان يعلم جميع المعاصرين في ذلك الحين ، أن القرامطة والفاطميين يستمدون من معين واحد ، هو المذهب الإسماعيلي ، وإذن لو كان هؤلاء الزعماء يعلمون أن الفاطميين والقرامطة على شيء من الوفاق لما قصدوا الحسن الأعصم . ومن هنا نرى العداء المستحكم بين الأعصم القرظي والمعز الفاطمي ، ذلك العداء الذي أحسه أهل الشام ، فقصد زعماءهم القرامطة ، ليحتموا بهم من الفاطميين .

ونستطيع أن نقول في غير إسراف ، إن هذا العداء كان قائما قبل استيلاء الفاطميين على دمشق سنة ٣٥٩ هـ . والدليل على ذلك ما أشار به جوهر في ذلك المنشور الذي أذاعه على المصريين ، يعلن فيه سخط الفاطميين على القرامطة ، لاعتدائهم على الحجاج . هذا إلى تدخل الفاطميين في شؤون القرامطة الداخلية ؛ فقد أسندت رئاسة القرامطة إلى بيت أحمد بن أبي سعيد ، وكان يعز على ذلك البيت أن يتدخل الخليفة القائم الفاطمي ، فيولى بيت أبي طاهر العهد ، ويبقى الرئاسة في بيت أحمد هذا ، كما عز عليهم أن يروا المعز يثير الخلاف بينهم وبين أبناء أبي طاهر .

أضف إلى ذلك أن استبداد الأعصم بعرش القرامطة دون الرجوع إلى الفاطميين فيه معنى الثورة على هؤلاء الفاطميين ، وعلى النظام الذي وضعوه

(١) أي خالفوه .

(٢) في الأصل ثنتين .

لأنفسهم منذ عهد عبيد الله المهدي الفاطمي ، فقد كانت سياستهم ترمى إلى تعيين رؤساء القرامطة الموالين لهم . وقد رأينا كيف عزل القرامطة سعيدا بن أبي سعيد ، وولوا مكانه أبا طاهر في سنة ٣٠٥ هـ ، وعزلوا سعيدا بن أبي سعيد للمرة الثانية بعد موت أبي طاهر في سنة ٣٣٢ هـ ، وولوا مكانه أحمد بن أبي سعيد ، وقلدوا سابورا ابن أبي طاهر ولاية العهد من بعده كما تقدم . وكان هذا كله مما لا يطمئن إليه البيت القرمطي الحاكم .

ثم أليس في قتل سابور بن أبي طاهر على يد أحمد بن أبي سعيد معنى الثورة على الفاطميين الذين كانوا قد ولوه العهد ؟ وهل أقر الفاطميون تعيين الحسن الأعصم كما كانوا يقرون كل تعيين سابق ؟ لم نقف من المصادر التي بين أيدينا على أن الفاطميين هم الذين عينوا الأعصم ، أو أنهم أقروه على هذا التعيين . بل الذي نعلمه أن المعز لم يكن راضيا عن هذا التعيين ، وأنه كان يثير عداوة بيت أبي طاهر على الأعصم من حين إلى حين . وبهذا كله نستطيع أن نقول ، إن السبب الرئيس في قيام هذه الحروب الدامية بين القرامطة والفاطميين ، وهم جميعا من الإسماعيلية كما نعلم ، يرجع إلى تدخل الفاطميين في شؤون القرامطة (١) .

على أنه لا يبعد أن يكون للعباسيين والبويهيين أثر في إذكاء تلك الحروب . ولا عجب في ذلك ، فقد عجزوا عن صد الفاطميين ، والروم من قبلهم ، عن غزو بلادهم . فلا يبعد إذا أن يثيروا حكومة القرامطة على الفاطميين ، وخصوصا أن القرامطة كانوا يعتبرون بلاد الشام مجالا حيويا لهم منذ أوائل القرن الرابع الهجري . وزاد تعلقهم بهذه البلاد بعد انتصارهم على الإخشيديين في موقعي طبرية ( سنة ٣٥٣ هـ ) ودمشق ( سنة ٣٥٧ هـ ) . ولا يبعد أن يعتبر القرامطة سادتهم الفاطميين دخلاء عليهم في هذه البلاد . وسرى أن العباسيين والبويهيين بذلوا جهودا جبارة في إثارة المنافسة بين هؤلاء وأولئك ، مما يؤكد أن الحرب بين القرامطة والفاطميين كانت في حقيقة الأمر حربا بين السنيين والفاطميين .

وبهذا كله نستطيع أن نقول ، إن مطامع الفاطميين الإسماعيلية في الشرق اصطلحت بمطامع القرامطة ، وعلى الأخص بمطامع الطبقة الحاكمة منهم . فكان من

(١) طه أحمد شرف: تاريخ الإسماعيلية السياسي حتى سقوط بغداد ١٠٦٢ وورقة ٢٥٢ .

سياسة الفاطميين أن يبدؤوا بفتح مصر ، ثم التثنية بفتح بلاد الشام ، واتخاذها جسرا يعبرون منه لفتح بغداد نفسها . ولم يكن القرامطة يعتقدون أن كائنا من كان يستطيع أن يقف في سبيلهم ، أو أن يصددهم عن تحقيق سياستهم . وأما القرامطة فقد أصبحوا سادة على البلاد الممتدة على شاطئ الخليج الفارسي الغربي ، من عمان إلى مصب نهرى دجلة والفرات ، وعلى الصحراء ، وأصبح من حقهم أن يعترضوا في سنة ٣٤٦ هـ على معز الدولة بن بويه ، لاجتيازه هذه الصحراء دون الرجوع إليهم . وهؤلاء القرامطة قد أصبحوا سادة على بلاد الشام ، وأصبح حكامها من الإخشيديين يدفعون لهم جزية سنوية . وكان يغذى تصادم مطامع الفريقين ، كراهة الهيئة الحاكمة من القرامطة ، وتدخل الخلفاء الفاطميين في شئونهم ، والتجاء بعض زعماء الشام إليهم ، وإغراؤهم إياهم بحرب سادتهم الفاطميين ، كما كان لتدخل الخلفاء العباسيين بين الفريقين أثر كبير في هذه السيل . أضف إلى ذلك عاملا آخر هو الناحية المادية . فقد حُسرمت حكومة القرامطة ضريبة ضخمة كانوا يتمتعون بها . فهذه العوامل مجتمعة أذكت نيران الحرب بين طائفتي الإسماعيلية : الفاطميين والقرامطة .

### (ح) الصراع بين القرامطة والفاطميين إلى أن وصل المعز إلى مصر :

قامت الحرب بين الفريقين ؛ وكانت الشام ومصر ميدانا فسيحا لهذه الحرب . وقام قواد المعز قبل مجيئه إلى مصر بدور هام ؛ فاستطاع جوهر الصقلي أن يصد خطر القرامطة عن هذه البلاد ، ولكنه عجز عن صددهم عن بلاد الشام . وقد أحدث مجيء المعز انقلابا هائلا في مجرى هذه الحروب ، فأحالت انتصارات الأعصم هزائم متتالية .

### ١ - معفر بيه فروع والحسن الأعصم :

وقد أعد الحسن الأعصم لهذه الحروب عدتها ، فانتهاز فرصة تدخل المعز في شئون جماعته ، فأثار أبناء أبي طاهر على فريق القرامطة الذي آل إليه الحكم ، كما أثار عوامل الحقد في نفوس أنصاره ، بسبب تدخل الفاطميين في شئونهم . ولم يقنع الحسن بذلك ، بل طرد كل من اشتبه في إخلاصه لسياسته النفعية الانفصالية ؛



فطرد أبناء أبي سعيد وأنصارهم الذين يؤمنون بأحقية الفاطميين ، ويقرونهم على تدخلهم في شئونهم . وخيل إليه بعد ذلك أن المجتمع القرمطي أصبح على عقيدته السياسية الجديدة . على أن إعداده المجتمع القرمطي لصراع عنيف مع الفاطميين لم يكن كل ما اشتملت عليه خطته ، بل كان حتماً عليه أن يستمد المعونة من الخارج . ونحن نعلم أن جماعة من زعماء الشام ، وعلى رأسهم ظالم بن موهوب العقيلي كانوا قد لجئوا إليه ، كما نعلم أن العباسيين منذ سنة ٣٢٧ هـ كانوا على وفاق مع القرامطة ، وأن الخدانيين أصبحوا من أصدقائهم وحلفائهم ، وأن الإخشيدية والكافورية كانوا قد فروا إلى الخدانيين . لذلك رأى الحسن الأعصم ضرورة استعانته بهؤلاء جميعاً ، وقد نجح نجاحاً باهراً في هذه السبيل .

استعان الأعصم في سنة ٣٦٠ هـ بالخليفة المطيع ، واستمد منه ومن البويهيين المال والرجال ، ووعدهم باسترداد بلاد الشام ومصر من الفاطميين ، على أن يحل القرامطة محل الفاطميين في حكم هذه البلاد . وقد لبى العباسيون والبويهيون مطالبه ، فلم يمتنع المطيع كما يقول أبو المحاسن (١) : « وسار القرمطي . . . إلى بغداد وسأل الخليفة المطيع بالله العباسي ، على لسان عز الدولة بختيار (٢) ، أن يمدّه بمال ورجال ، ويوليه الشام ومصر ، ليخرج المعز منها . فامتنع الخليفة المطيع بالله عنها . وقال : كلهم قرامطة ، وعلى دين واحد . فأما المصريون ، يعني بني عبيد ، فأما تواسين ، وقتلوا العلماء ؛ وأما هؤلاء ، يعني القرامطة ، فقتلوا الحاج ، وقلعوا الحجر الأسود . »

من هذا يرى أن الشرط الأول مما ذكره أبو المحاسن صحيح في جملته . وأما الشرط الثاني فلا يكاد يصدق أحد ، لأننا لو صدقناه لكان معناه الرضا من جانب الخليفة المطيع ببقاء الفاطميين في مصر والشام بدلاً من القرامطة ، ولا سيما إذا علمنا أن الحسن الأعصم قد تعهد للخليفة المطيع بأنه سيحكم هذه البلاد باسمه ، فكيف يرفض المطيع تبعية بلاد الشام ومصر ، وعودتها إليه من جديد ، ويقر على نفسه بقاءها في أيدي الفاطميين أعدائه ومتافسيه ؟ ولا غرو ، فإن انضمام

(١) النجوم الزاهرة : ج ٤ ص ٧٤ .

(٢) هو ابن معز الدولة ، استمر حكمه من سنة ٣٥٦ إلى سنة ٣٦٧ هـ .

القرامطة إلى العباسيين قوة لا يستهان بها ، خصوصا في ذلك الوقت الذي خرجت فيه بلاد الشام ومصر من أيديهم .

ويؤيد هذا ما ذكره ابن القلانسي حيث قال : « وبعث القرامطة أبا طريف عدى بن محمد بن الغمر ، صاحبهم ، إلى عز الدولة بختيار ، يطلبون المساعدة على المغاربة بالمال والرجال . فاستقر الرأي أن يعطيهم عز الدولة ألف ألف درهم ، وألف جوسن ، وألف سيف ، وألف رخ ، وألف قوس ، وألف جعبة . وقال : إذا وصل الحسن أبو علي الجنابي إلى الكوفة حمل إليه جميع ذلك ، (١) .

ومهما يكن من شيء ، فإن بغداد رحبت بهذا التحالف الجديد . وأمدت القرامطة بالمال والسلاح والرجال ، فأمرت أتباعها الحمدانيين ، أصدقاء القرامطة ، أن يتعاونوا مع الحسن الأعصم . وقد رحب الحمدانيون (٢) بهذا التحالف الجديد لصدقاتهم القديمة مع القرامطة ، وخوفهم من قرب الفاطميين من بلادهم . ولذلك أمدوا الحسن بالمال والرجال ، وسمحوا لجنودهم بالتطوع في جيشه ، وشجعوا الذين فروا إليهم من الإخشيدية والكافورية على الانضمام تحت لوائه . كما أخذ الحسن الأعصم من جانبه في جمع الجيوش من الأعراب ، مستعينا في ذلك بما أخذه من أموال العباسيين . يقول النويري (٣) : « فسار الحسن بن أحمد إلى الكوفة ،

\* (١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١

(٢) والذي يلت نظر حقا وقوف الحمدانيين في وجه الفاطميين ، مع أنهم كانوا يدعون للتشيع ، ويراسلونهم ولفاطميين ، حتى لقد حذر المرز لدين الله قائده جوهر من الاعتماد عليهم ، ورامهم بالتقلب في حياتهم . ولذلك لا نستبعد عليهم أن يتصلوا بالفاطميين اليوم . ثم يجار بهم غدا .

يقول المقرئ ( انماط الحنفا ص ٦٣ ) : « وكتب المرز إلى جوهر وهو بمصر من المغرب : وأما ما ذكرت يا جوهر من أن جماعة من بني حمدان وصلت إليك كتبهم ، يدلون الطاعة ، ويددون بالمسارعة في السير إليك . فاسمع لما أذكره لك : احذر أن تبدي . أحدا من آل حمدان بمكاتبة ، ترهيا له ولا ترغيا . ومن كتب إليك منهم فأجهم بالحسن الجليل ، ولا تستدعه إليك . ومن ورد إليك منهم فأحسن إليه . ولا تمكن أحدا منهم من قيادة جيش ، ولا ملك طرف ، فبنو حمدان يتظاهرون بثلاثة أشياء عليها مدار العالم . وليس لهم فيها نصيب : يتظاهرون بالدين ، وليس لهم فيه نصيب ، ويتظاهرون بالكرم ، وليس لواحد منهم كرم في الله ، ويتظاهرون بالشجاعة ، وشجاعتهم للدنيا لا للأخرة . فاحذر كل الحذر من الاستئمان إلى أحد منهم . . . »

(٣) نهاية الأرب (عقارط) ج ٢٣ ورقة ٩٠ .

وراسل بختيار الديلمي ، أحد ملوك الدولة البويهية ، في طلب السلاح والمساعدة . فأنفذ بختيار إليه خزائن سلاح من بغداد ، وكتب له على أبي تغلب (١) بن ناصر الدولة بن حمدان بأربعمائة ألف درهم ، فرحل الحسن من الكوفة ، حتى أتى الرحبة (٢) ، وعليها أبو تغلب بن حمدان ، فعمل إليه المال المسبب له به عليه ، وحمل إليه العلوقة . وأرسل إليه يقول : هذا شيء كنت أردت أن أسير أنا فيه بنفسى ، وأنت تقوم مقامى فيه ، وأنا مقيم في هذا الموضع إلى أن يرد إلى خبرك ، فإن احتجت إلى مسيرى سرت إليك .

وهكذا تألب السنيون والشيعة البويهيون والحمدانيون على الفاطميين ، وآثر كل منهم المنفعة الشخصية : فالعباسيون يخشون على ملكهم ، وقد وجدوا في حركة الأعصم تفرجاً عما كرهتهم التي أوقعهم فيها الفاطميون ؛ والبويهيون يخشون على نفوذهم السياسى ، ويخافون أن يحل الفاطميون الأقوياء محل العباسيين الضعفاء ، فيزول ما كان لهم من هيبة ؛ والحمدانيون يخشون قرب الدولة الفاطمية الطموح من بلادهم ، ويعلمون أن فتح الشام سيتلوه فتح العراق ، وأن الفاطميين قد يطوحون بعرشهم . وبهذا نرى الحمدانيين ينتقمون لأنفسهم من جعفر بن فلاح ، الذى هدّد أبا تغلب بالمسير إليه ، إذ لم يتفق معه على إقامة الدعوة الإسماعيلية الفاطمية في بلاد الشام . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، ازدادت قوة الحسن الأعصم بانضمام الحمدانيين وفلول الإخشيدية والكافورية إلى جيوشه . وكان من أشد هؤلاء الجند بطشاً ، جند العقيليين ، بزعامة ظالم بن موهوب العقيلي .

وكان على الحسن الأعصم أن يحتل دمشق ، ليقتضى على نفود الفاطميين فى كل بلاد الشام ، كما كان عليه أن يحقق ما وعد به العباسيين من القضاء على دولة الفاطميين فى مصر نفسها . ولهذا تركت جهوده فى القضاء على قائدى الفاطميين : جعفر بن فلاح فى الشام ، وجوهر الصقلى فى مصر .

أما مسرح الحرب التى دارت بين الأعصم وجعفر بن فلاح الكتامى ، فقد كان على الدكة الواقعة على نهر يزيد ، على مقربة من دمشق ، حيث حلت الهزيمة بجعفر

(١) هو ابن ناصر الدولة بن حمدان ، تولى من سنة ٣٥٨ إلى سنة ٥٢٦٩ ، وعاصر حوادث عصرنا هذا

(٢) على نهر القفرات شمالاً .

في شهر ذي الحجة سنة ٣٦٠ هـ . ويظهر أن هجوم الأعصم كان من ذلك الهجوم المفاجيء . حقيقة استدعى جعفر بن فلاح قبل تلك الموقعة غلامه أبا الفتوح ، وبعث في طلب جيوشه التي كانت تهاجم أنطاكية ، لملاقاة الحسن الأعصم . ولكن جعفرا لم يكن يدرى أن هجوم القرامطة سيكون بهذه السرعة ، أو على الأقل لم يكن يعتقد أن جيوش الحسن الأعصم ستكون بهذه القوة . ولذلك استهان بخصمه العنيد ، كما استهان ابن أبي الساج ، القائد العباسي ( في سنة ٣١٥ هـ ) بخصمه أبي طاهر الجنابي ، عم الأعصم ؛ حُلت الهزيمة بجعفر ، كما حلت بابن أبي الساج من قبل (١) .

وقد عزا بعض المؤرخين هذه الهزيمة إلى سوء العلاقة بين جوهر الصقلي وجعفر بن فلاح ، وما كان من بحرية جعفر وترفعه على قائده الأعلى . يتضح ذلك من قول المقريري (٢) : فلما صارت الشام له شمخت نفسه عن مكاتبة جوهر ، فأنفذ كتبه من دمشق إلى المعز وهو بالمغرب ، سرا من جوهر ، يذكر فيها طاعته ، ويقع في جوهر ، ويصف ما فتح الله للمعز على يده ؛ فغضب المعز لذلك ، ورد كتبه محتومة ، وكتب إليه : قد أخطأك الرأي لنفسك ؛ نحن أنفذناك مع قائدنا جوهر ، فكتب إليه . فما وصل منك على يده قرأناه ، ولا تتجاوزه بعد . فلما فعل لك ذلك على الوجه الذي أردته ، وإن كنت أهله عندنا . ولكننا لا نستفسد جوهرنا مع طاعته لنا . فزاد غضب جعفر بن فلاح ، وانكشف ذلك لجوهر ؛ فلم يبعث ابن فلاح لجوهر يسأله نجدة ، خوفا ألا ينجده بعسكر ، وأقام مكانه لا يكاتب جوهرنا بشيء من أمره ، إلى أن قدم عليه الحسن بن أحمد القرمطي .

وإن دل ذلك على شيء ، فإنما يدل على أن القيادة الفاطمية العليا قد أخفقت ، وانقسمت على نفسها ؛ ولا نعرف أن شيئا من ذلك قد حدث . على أنه إذا صح أن جعفرا لم يطلب المدد من أستاذه جوهر ، فإن ذلك يرجع إلى ما ذكرناه من أن جعفرا كان يستخف بالحسن الأعصم ، ويثق بنفسه ، ويعتز بقوته ، ويعتقد أنه سوف يحل به الهزيمة . ولو صح أيضا أن المعز وبخ قائده جعفرا بسبب تخطيه رئيسه

(١) انظر كتاب .. عبيد الله المهدي .. المؤلفين ص ٢٢٦ — ٢٣٠

(٢) خطوط ج ١ ص ٢٧٨ .

المباشر جوهرًا ، فإن هذا لا يمنع جعفرًا من الاستعانة بأستاذه ، ليدرك الخطر  
المزدوج عن نفسه وعن جوهر ، بل عن الدولة الفاطمية نفسها .  
وصفوة القول أن جعفرًا لم يعبأ بالقرامطة ، واعتقد أنه كفيل بالقضاء عليهم .  
ولكنه أخطأ في تقديره ، فذهب ضحية سوء تديره .

وكان القرامطة في ذلك الدور يحاربون الفاطميين بسلاح الدعاية والسيف  
معًا ؛ فقد قصدوا الشام ، وهم يحملون الأعلام السود ، وأخذوا يحجرون بأن المطيع  
العباسي قد ولاهم شئون الشام ومصر ، وكتبوا اسم المطيع على أعلامهم ، ونقشوا  
عليها عبارة : « السادة الراجعين إلى الحق (١) » .

وهذا بلا شك يتطوى على خروج القرامطة ، أو على الأقل خروج حكومتهم ،  
على الفاطميين سادتهم في المذهب ، كما يتطوى على انضمام هؤلاء القرامطة إلى العباسيين  
السنين ، وتركهم المذهب الإسماعيلي . ولذلك « أقام القرامطة - كما يقول  
المقريزي (٢) - الدعوة للمطيع العباسي ، في كل بلد فتحوه ، وسودوا أعلامهم ،  
ورجعوا عما كانوا يخرقون به ، وأظهروا أنهم كأمراء النواحي الذين من قبل  
الخليفة العباسي » .

وكان انتصار القرامطة سريعًا جدًا ، أو خاطفًا كما يقولون ، فقتلوا جعفر بن  
فلاح في شهر ذي الحجة من سنة ٣٦٠ هـ ، واستولوا على دمشق ، وأصبح شمالي  
الشام في قبضتهم ، أو قل عاد معظم بلاد الشام إلى حوزة العباسيين ، على يد الحسن  
الأعصم وأنصاره ، ولم يكن بد من الاستيلاء على مدينة الرملة ، لفتح بلاد  
الشام ، حتى يزول سلطان الفاطميين عنها .

وكان سعادة بن حيان ، القائد الفاطمي ، يلي مدينة الرملة . فلما أدرك أنه  
لا طاقة له بالحسن الأعصم ، ترك الرملة وفر إلى يافا ، ليكون على اتصال بمصر عن طريق  
البحر . وكان الأعصم يعتمد على الحرب الخاطفة ، ويعمد إلى التويه لجذب الأهالي  
السنين إليه . فجعل يدعي في كل مكان ، أنه أصبح واليا على هذه البلاد من قبل

(١) أبو الحسن : فتوح الزاهرة ج ٤ ص ٧٤ .

(٢) المقريزي : اتعاظ الخفاص ١٣٣ .

العباسيين . وبذلك استطاع أن يجمع حوله عرب الشام وغيرهم من الحائقين على الحكم الفاطمي .

وبما يدل على جرأة الحسن الأعصم ، أنه لما فر سعادة بن حيان القائد الفاطمي من الرملة وقصد يافا ، ورأى الحسن أن الطريق إلى مصر قد أصبح ممهدا أمامه ، لم يكتف باستيلائه على الشام ، بل عزم على تحقيق ما وعده العباسيين من الاستيلاء على مصر نفسها ، ومن ثم ترك بعض رجاله يحاصرون الفاطميين في يافا وقصد مصر .

والواقع أن الفاطميين في مصر كانوا يخشون هجوم القرامطة على بلاد الشام ؛ ولذلك ولي جوهر سعادة بن حيان مدينة الرملة ، ليكون حلقة الاتصال بينه وبين بلاد الشام . ولكن هذه البلاد صفت للقرامطة ، أو بالأحرى للعباسيين ، اللهم إلا مدينة يافا ، التي لجأ إليها الفاطميون بقيادة سعادة بن حيان ، ولم تخضع للقرامطة بعد .

والذي نلاحظه في فتح بلاد الشام على أيدي القرامطة إبطال الخطبة للفاطميين ، وإقامتها للعباسيين . ولم يكن هذا كل ما حدث ، بل إن الحسن الأعصم أمر بلعن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ، على منابر دمشق .

ويقول أبو ليري دى ليسى<sup>(١)</sup> : « كان القرامطة يقولون بتقديس الإمام الفاطمي ، ولذلك يبدو غريبا أن يلعن الحسن الأعصم المعز لدين الله من فوق المنابر . ولا يبعد أن يكون ذلك راجعا إلى أن أهل دمشق كانوا من السنين المغالين في عدائهم للشيعة والعلويين ، أو أن ذلك راجع إلى بعض القرامطة ، الذين أصبحوا لا يهتمون كثيرا بشرف انتباههم إلى العلويين ، ولا يهتمون في قليل ولا كثير بالاعتبارات الدينية مهما كان نوعها . »

وبهذا نرى أن بلاد الشام ، باستثناء يافا ، كانت في أوائل سنة ٣٦٠ هـ في قبضة القرامطة وحلفائهم ، وأن الفاطميين فقدوا قائدا من خيرة قوادهم ، هو جعفر ابن فلاح ، وحوصر سعادة بن حيان في يافا .

## (٢) موهب الصقلي والحسن الأعصم إلى أن وصل المعز إلى مصر

ترك الحسن الأعصم قائده أبا المنجا وحليفه ظالما بن موهوب العقيلي على حصار

(١) A Short Hist. of the Fatimid Khalifate, p. 108. (١)

يافا ، وقد تحمل جند الفاطميين فيها شيئا غير قليل من المصاعب والأهوال ، حتى  
أكل أهلها الميتة ، وهلك أكثرهم جوعا (١) . أما الحسن نفسه فقد قصد مصر  
في أواخر سنة ٣٦٠ هـ وأوائل سنة ٣٦١ هـ ، ليقتضى على الحكم الفاطمي الذي لم يكن  
قد استقر بعد .

وهذه خطة حربية جريئة ، نلاحظ فيها الإقدام والتصميم ، والمهارة الحربية والثقة  
بالنفس التي لا تحد . ولذلك يرى الحسن يهاجم مصر من الناحية الشرقية ، فيستولى  
على القرما ، مفتاح الديار المصرية ، ثم يهاجم القلزم (٢) ويستولى عليها ، ويأسر  
عاملها الإخشيدى عبد العزيز بن يوسف (٣) .

وكان من أثر هذا الهجوم المفاجيء على مصر من الشمال والجنوب ، أن اعترف  
بعض البلاد الأخرى بسطان الأعصم ، وثار تيس على واليها الفاطمي ، ونادت  
بطاعة القرامطة . ثم أخذ الأعصم يتقدم في البلاد المصرية ، حتى حط رحاله أمام  
القاهرة المنصورية (٤) ، التي بناها جوهر بعد أن فتح مصر في سنة ٣٥٨ هـ ؛  
واستطاع أنصار الأعصم أن يلقوا بمنشوراتهم الثورية في جامع عمرو بالفسطاط ،  
يحتضون فيها المصريين على إذكاء نار الثورة على جوهر الصقلي . وكان هجوم  
الأعصم على القلزم في شهر ذي الحجة سنة ٣٦٠ هـ ، واستيلائه على القرما ثم وصوله إلى  
عين شمس في شهر المحرم من سنة ٣٦١ هـ . ثم واصل القرامطة إعداد جيوشهم ، ونشر  
الدعوة لأنفسهم في مصر إلى شهر ربيع الأول من سنة ٣٦١ هـ .

والواقع أن جوهر الصقلي لم يقف مكتوف اليدين أمام القرامطة ، فأرسل  
اليهم عيونهم في أواخر سنة ٣٦٠ هـ ولما هاجموا السويس أدرك جوهر خطر موقفه ،  
لحقفر حول مدينة القاهرة خندقا ضخما ، استطاع به أن يبعد خطر الأعصم عن  
حاضرة ولايته الجديدة .

وكانت الحرب سجالا بين الفريقين ، منذ أواخر صفر إلى أن حلت الهزيمة  
بالقرامطة في شهر ربيع الأول من السنة نفسها .

(١) المقرئى : اتعاظ الخفاص ١٣٢ .

(٢) هي مدينة السويس الآن .

(٣) على إبراهيم حسن : جوهر الصقلي ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٤) بهذا كانت تسمى القاهرة قبل أن يصل إليها المعز ، ثم سميت القاهرة المعزية .

يقول المقرئى (١) : وفى مستهل ربيع الأول (سنة ٣٦١ هـ) التحم القتال مع القرامطة ، على باب مدينة القاهرة ، وكان يوم الجمعة ، فقتل من الفريقين جماعة ، وأسر جماعة ؛ وأصبحوا يوم السبت متكافئين . ثم غدوا يوم الأحد للقتال ، وسار الحسن الأعصم بجميع عساكره ، ومشى للقتال على الخندق ، والباب مغلق . فلما زالت الشمس ، فتح جوهر الباب ، واقتتلوا قتالا شديدا ، وقتل خلق كثير ؛ ثم ولى الأعصم منهزما ، ولم يتبعه القائد جوهر ، ونهب سواد الأعصم بالجلب ، ووجدت صناديقه وكتبه ، وانصرف فى الليل على طريق القازم ، . وكان للثورة التى شنها الحسن الأعصم على الفاطميين أثرها ؛ فقد حدثت هذه الثورة فى بلاد الشام ومصر فى سنتى ٣٦٠ ، ٣٦١ هـ ، فى الوقت الذى قامت فيه الثورات فى بلاد المغرب على المعز ، مما جعل مركزه محفوفا بالمخاطر (٢) .

والحق أن جوهر استخدم سلاح الدعاية الخطر ضد الأعصم ، وأساليب الحرب التى تنطوى على المسكر والدهاء ؛ فأرسل فريقا اندجوا فى جند الأعصم ، وتظاهروا بالسخط عليه وعلى الفاطميين ، كما تظاهروا بالرغبة الملحة فى نقل الحكم من الفاطميين إلى القرامطة ؛ ولكنهم استطاعوا أن يوقفوا الفتنة ، وينشروا الفوضى بين أتباع الأعصم . يدل على ذلك أنه فى الوقت الذى كان يحارب فيه جوهر على أبواب القاهرة ، كان أنصاره من بنى عسقل وطى يهبون سواده . وبهذا كان جميع ماجرى على القرمطى بتدبير جوهر ، وجوائز أنفذها ، . هذا إلى أن جوهر استطاع أن يحبط أعمال الجاسوسية التى مهر فيها القرامطة ، فقبض على أربعة من الجنود المصريين كانوا عيوننا لهم عليه فى القاهرة ، وصلهم ، وأسكن الوزير ابن الفرات مدينة القاهرة ، وساق الزعماء إلى معسكره ، حتى لا يكونوا طابورا خامسا ، فى أثناء الحرب ، واستغل جاسوسيته المنظمة التى اندست بين القرامطة وأثارت روح الشعب والعصيان فى صفر فهم (٣) .

وأما ما ذهب إليه بعض من أن سبب انتصار جوهر على القرامطة يرجع إلى الإمدادات الضخمة التى أمده بها المعز ، فقول بعيد عن التصديق ، لأن المدد الذى

(١) خطط ج ٢ ص ١٢٨

(٢) Fournel : La Conquête de l'Afrique, p. 350

(٣) المقرئى : انعاظ الحنفا ص ٨٦ .



أرسله هذا الخليفة إلى جوهر، بقيادة أبي محمد الحسن بن عمار المغربي، وصل إلى القاهرة بعد انتصار جوهر على الأعصم بيوم واحد.

وكان لهذا النصر نتائج بعيدة المدى؛ فقد قضى على الروابط التي تربط الأعصم بالأخشيدية والكافورية؛ فانفضوا من حوله، ودخل بعضهم في طاعة الفاطميين، وقبض على بعض آخر. واسترد جوهر مدينته الفرما، وكان عليها أحد كبار القرامطة (ويدعى الغمر). وأما أهل تنيس في شمال الدلتا، وكانوا لم يوافقوا على الاستسلام للفاطميين، ونادوا بشعار العباسيين والقرامطة، فقد أرغم وإلهم، وكان مواليا للقرامطة، على الهرب. وأقيمت فيها الدعوة للفاطميين من جديد<sup>(١)</sup>.

وهذا تخلصت مصر من حملات القرامطة إلى حين. وقد بلغ اهتمام جوهر بالقضاء على الحسن الأعصم حده، حتى إنه خصص جائزة ضخمة لمن يأتيه برأسه<sup>(٢)</sup>. وكان لانتصار جوهر رنة فرح شامل يتجلى في وصف أحد الشعراء:

كأن طراز النصر فوق جبينه يلوح وأرواح الورى ييمينه<sup>(٣)</sup>

ولم تقف جهود جوهر عند ذلك الحد، فقد حاول إنقاذ جنده في يافا، فسير إليها أسطولا يتألف من خمسة عشر مركبا. غير أن أسطول القرامطة انتصر عليه، ولم ينج من هذه السفن إلا قليل.

ولكن ارتداد الحسن الأعصم عن مصر، لم يكن ينطوي على انتصار حاسم للفاطميين، فقد كانت بلاد الشام كلها لا تزال في قبضة يده. على أننا لا نستبعد أن يكون ارتداده عن مصر راجعا إلى عامل آخر، لا يمت إلى هذه المسكيدة بصلة، بل يرجع إلى المعز نفسه الذي كان يكيد الأعصم منذ تقلد هذا القرمطي زعامة القرامطة في سنة ٣٥٩ هـ، إلى أن طرده المعز من مصر.

### (٥) النزاع بين المعز والحسن الأعصم.

لم يكن المعز راضيا عن تولية الحسن الأعصم أمور القرامطة، وكان يعمل على

(١) التويري: نهاية الأرب ج ٢٣ ص ٤٢

(٢) قدر المؤرخون هذه الجائزة بثلاثمائة ألف درهم، وحمين خلع، وحمين مرجا محلاة على ادونها، وثلاث جوات أخرى.

(٣) المقرئ: خطط ج ٢ ص ١٣٨.

التخلص منه ، وقد حز في نفسه انضمامه إلى العباسيين ووقوفه من الفاطميين ذلك الموقف العدائي ، كما آلمه مقتل جعفر بن فلاح والهجوم على مصر . ولذلك أخذ على عاتقه إذكاء الثورة على الحسن في بلاد البحرين .

ولكن عامة القرامطة كانوا يميلون إلى الفاطميين ، فإن المعز لدين الله لم يكذب يدعي سخطه على الأعصم وعلى سياسته وحكومته ، وينادي بوجوب خلعها وتنصيب غيره ، ممن يرضى عنه الفاطميون من جديد ، حتى قام أعوان أبي طاهر الجنابي بثورة بائسة ، كادت تؤدي بعرش الأعصم .

ولولا تدخل الخليفة العباسي المطيع لزال نفوذ الحسن الأعصم منذ ٣٦١ هـ . واتحد القرامطة والفاطميون من جديد وأزالوا الدولة العباسية ؛ ولكن السياسة التي انتهجها المعز أخفقت أمام سياسة العباسيين .

ويشير ابن خلدون (١) إلى ذلك بقوله : « وكتب إليه ، أي إلى الأعصم ، المعز سنة إحدى وستين وثلثمائة . بالنفي والتوبيخ . وعزله عن القرامطة ، وولى بني أبي طاهر . نخر جوا من ( جزيرة ) أوال ، وانتهبوا الأحساء في غيبته ، وكتب إليهم المطيع بالتزام الطاعة ، وأن يصلحوا ابن عمهم ، ويقموا بجزيرة أوال ، وبعث من أقام بينهم الصلح . »

وقال ابن حوقل (٢) ، وكان يميل إلى الفاطميين : « ثم إن المطيع استل سخائمهم (٣) ، وسعى في تأليف قلوبهم ، وجمع كلمتهم في سنة ستين وثلثمائة ، وعلى ما بلغني سنة إحدى وستين وثلثمائة ، من مشافهه أبي الحسن عدى بن محمد بن الغمر ، وكان من أمراء القرامطة ، الذين عاشوا في زمن ابن حوقل . »

وكان لهذه الثورة التي أذكى نيرانها المعز بين القرامطة أثر كبير في ارتداد الأعصم عن مصر في ربيع الأول سنة ٣٦١ هـ . لإخماد الثورة التي قام بها أبناء عمه أبي طاهر الجنابي .

وقد جهد الحسن الأعصم في توطيد نفوذ العباسيين بعد أن أقره الخليفة المطيع العباسي

(١) العبر ج ٤ ص ٩٠ .

(١) المالک والمالک ج ٢ ص ٢٢

(٢) السخائم : جمع سخيمة وهي الضفيرة .

على العرش ، فأخذ يلعن سادته الفاطميين الإسماعيلية فوق المنابر ، وينفى نسبهم إلى علي بن أبي طالب ، ويبرهن أن الفاطميين جماعة من النفعيين ، همهم الملك والسلطان ، وأنهم يرجعون في الأصل إلى ميمون القداح لا إلى سواه . وهكذا كان الأعصم يقول على منابر دمشق : هؤلاء من ولد القداح ، كذابون مخرقون ، أعداء الإسلام ، ونحن أعلم بهم ، ومن عندنا خرج جدكم القداح . ثم أقام القرمطى الدعوة لبني العباس (١) .

وفي الحق أن الأعصم كتب على نفسه وعلى جماعته صك الفناء ، بحمله شعار العباسيين ، وإبطاله شعار العلويين الفاطميين ، ثم إعلانه من فوق المنابر بطلان المذهب الإسماعيلي ، الذي أخذ الفاطميون على عاتقهم النهوض به . وذلك بلا ريب ينطوى على هدم القرامطة أنفسهم وغيرهم من طوائف الإسماعيلية .

وقد استغل القائد الفاطمي ، جوهر الصقلي . رحيل الأعصم إلى بلاد البحرين ، فشدد هجومه على القرامطة الذين كانوا على حصار يافا ، وأرغمهم على الارتداد إلى دمشق ، وأعاد إلى الفاطميين معظم بلاد فلسطين ، ولم يبق للقرامطة وأنصارهم في الشام سوى دمشق وأرباضها . وقد أسند الأعصم حكم هذه المدينة إلى أبي المنجاء القرمطى . وإلى ظالم بن موهوب العقيلي ؛ إلا أنهما سرعان ما دب التنافس بينهما ، تسامت العلاقة بين أبي المنجاء القرمطى ، وظالم بن موهوب العقيلي . فلما عاد الأعصم من بلاد البحرين ، اشتد في معاملته ظالم بن موهوب ، وقبض عليه وأهانته ، فكان ذلك أول ما أصاب القرامطة في الشام من ضعف ووهن (٢) .

أخذ الحسن الأعصم ، بعد أن أخذ ثورة أبناء عمه في البحرين بمساعدة العباسيين في سنة ٣٦٢ هـ ، يد العدة للهجوم على مصر ، واسترداد هيئته ونفوذه في بلاد الشام ، فأفسد على المعزسياسة ، واستطاع في هذه السنة أن يسترد جميع بلاد الشام ، واحتل بعض جهات الوجه البحري ، وحاصر مدينة القاهرة . واعتمد في هذه الحملة الكبيرة على العرب الذين أغراهم بالمال ، مما يدل على أن هؤلاء كانوا يحاربون سعيًا وراء

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٤ .

(٢) المقرئى : انعاظ الحنفا ص ١٢٣ .

المال ، لا تحقيقا لمبدأ ديني . أضف إلى ذلك أن كثيرين من العرب كانوا يحقون على الأعصم ، لتشكله بظالم بن موهوب العربي .

ويرى بعض أن الأعصم حط رحاله حول مدينة القاهرة ، وحاصرها حصارا شديدا ، وأن جوهر لما شعر بخطر مركزه ، طلب إلى مولا المعز أن يحضر إلى مصر ، لتخليصه مما وقع فيه . وكأنه كان يرى أن وجود المعز في مصر يضاعف هم أنصاره المغاربة ، ويضع حدا لتعدى الحسن الأعصم على مصر . وبهذا نرى أن المعز إنما جاء إلى مصر في سنة ٣٦٣ هـ لإنقاذ ملكه من خطر القرامطة .

وهكذا جعل جوهر يكتب إلى المعز لدين الله . . . بما جرى على عسكريه من القتال والحصار والقتل ، وأن الحسن بن أحمد (الأعصم) أخذ يقاتلهم على خندق عسكريهم ، وقد أشرف على أخذ مصر ، فقلق من ذلك قلقا شديدا ، وجمع من يقدر عليه ، وسار إلى مصر ، وهو يظن أنها تؤخذ قبل أن يصل إليها ، (١) أى أن المعز لم يأت ليتسلم زمام الأمور في بلاده ، وإنما أتى للدفاع عنها .

ويخيل إلينا أن الحسن الأعصم لم يكن حين وصل المعز إلى مصر (شعبان سنة ٣٦٢ هـ) على أبواب القاهرة ، بدليل أنه أجاب على رسالة المعز بما يدل على أنه كان بعيدا عن هذه المدينة ، إن لم يكن بعيدا عن مصر نفسها . فقد أجاب المعز بقوله : « وصل كتابك الذي قل تحصيله ، وكثر تفصيله ، ونحن سائرون إليك في إثره والسلام » (٢) . بل يؤكد ابن الأثير أن الأعصم لم يقصد مصر إلا بعد أن وصل إليه هذا الكتاب من المعز .

وفي الحق أن المعز لما رأى إخفاق سياسته في إحداث اضطراب عام بين القرامطة ، عمل على أن يهيج نهجا آخر ، فرأى أن يتبع مع الأعصم طريقة التهيب والترغيب ، فكتب إليه كتابا يذكرنا بما كان بين القرامطة والفاطميين من وشائج القرابة المذهبية والعلاقات السياسية القديمة .

وكان المعز يرى من وراء هذا الكتاب الطويل الذي بعث به إلى الأعصم حين

(١) التويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٩٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٢٢٩ .

وصل إلى مصر، إلى إلقاء الرعب في قلب زعيم القرامطة، وإلقاء بذور الشقاق بينهم. كما كان المعز يرمى من وراء إرسال هذا الكتاب إلى إدراك ما في نفس الأعصم، وهل كان لانتقاله من المنصورية إلى القاهرة أثر في نفس هذا الثائر، أم أنه كان لا يزال عند رأيه من غزو مصر والشام وإخراج الفاطميين منها. وفي ذلك يقول أخو محسن: وكان (المعز) شديد الخوف من الحسن بن أحمد (الأعصم): فلما نزل مصر (١) عزم أن يكتب إلى الحسن بن أحمد كتابا يعرفه فيه أن المذهب واحد، وأنهم منهم استمدوا، وأنهم ساداتهم في هذا الأمر، وبهم وصلوا إلى هذه المرتبة. وكان غرض المعز لدين الله من ذلك، أنه يعلم من جواب القرمطي ما في نفسه، وهل خافه لما وافى مصر أم لا، (٢).

إذن كان هناك بين الفاطميين والقرامطة مجال اشتبكت فيه الألسنة والأقلام، كما أن سياسة المعز كان لها أثر بالغ في تطور العلاقة بين الأعصم وبين الفاطميين في مصر، حتى أصبح من العسير لإصلاح ذات البين بين هؤلاء وأولئك. وظهر زعماء القرامطة بمظهر أعداء الفاطميين الألداء، بعد أن كانوا من أخلص أتباعهم. وقد حدث هذا كله، وبعد أن كان القرامطة أولا يمتشقون بالمهدى، ويوهمون أنه صاحب المغرب، وأن دعوتهم إليه (٣). ويراسلون الإمام المنصور إسماعيل بن محمد بن القائم بن عبيد الله المهدي، ويخرجون إلى أكابر أصحابهم أنهم من أصحابه، إلى أن افتضح كذبهم بمحاربة القائد جوهر. وقتله كثيرا منهم، وكسره القبة التي كانت لهم (٤).

وقد امتلأت بطون السكتب بتلك الرسالة الممتعة (٥)، وترجع أهميتها إلى أمور منها:

أولا: أنها توضح هذه العلاقة القديمة التي كانت تقوم على أساس المودة بين

(١) كان ذلك في ١٣ رمضان سنة ٣٦٢ هـ.

(٢) الثوري: نهاية الأرب ج ٢٣ ص ٩٦.

(٣) كان ذلك أيام أبي طاهر الجنابي (٣٠٥ - ٣٢٢ هـ) عامرة.

(٤) المقرئ: اتعاظ الخفا ص ١٣٣.

(٥) انظر ملحق رقم ٣.

القرامطة والفاطميين ، وبعبارة أخرى تؤكد النظرية القائلة : إن الفاطميين أصل الإسماعيلية ، والقرامطة فرع منهم ؛ فها هو ذا المعز يلوم الأعصم لخروجه على هذه السياسة التقليدية ، التي سار عليها جده أبو سعيد وعمه أبو طاهر ، تلك السياسة التي كان قوامها التودد إلى الفاطميين والتقرب إليهم ، فيقول له : «فأما أنت أيها الغادر الناكث ، البائن عن هدى آبائه وأجداده ، المنسلخ عن دين أسلافه وأنداده ، والموقف لنار الفتنة ، والخارج عن الجماعة والسنة ، فلم أغفل أمرك ، ولا خفي عنى خبرك . . . وما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ، (١) .

« ففرقنا على أي رأى أصّلت ، وأي طريق سلكت ؟ أما كان لك بجدك أبي سعيد أسوة ؟ وبعمل (عمك) أبي طاهر قدوة ؟ أما نظرت في كتبهم وأخبارهم ، ولا قرأت وصاياهم وأشعارهم ؟ أكننت غائبا عن ديارهم ، وما كان من آثارهم ؟ ألم تعلم أنهم كانوا عبادا لنا أولى بأس وعزم شديد ، وأمر رشيد ، وفضل حميد ؟ تفيض عليهم موادنا ، ونشر عليهم بركاتنا ، حتى ظهروا على الأعمال ، ودان لهم كل أمير ووال ؟ ولقبوا بالسادة ، فسادوا ، منحة منا ، وإسما من أسمائنا ، فعلت أسماؤهم ، واستعلت مسممهم ، واشتد عزمهم . فسارت إليهم وفود الآفاق ، وامتدت نحوهم الأحداق ، وخضعت لهيبتهم الأعناق ، وخيف منهم الفساد والعناد ، وأن يكونوا لبني العباس أصدادا ، فعبئت الجيوش ، وسار إليهم كل خميس بالرجال المنتخبة ، والعدد المهذبة ، والعساكر الموكبة . فلم يلقهم جيش إلا كروه ، ولا رئيس إلا أسروه ، ولا عسكري إلا كسروه ، وأحاطنا ترمقهم ، ونصرنا يلحقهم ، كما قال الله عز وجل : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا (٢) ، وإن جنودنا لهم الغالبون ، (٣) » وإن حزبنا لهم المنصورون .

« فلم يزل ذلك دأبهم ، وعين الله ترمقهم ، إلى أن اختار لهم ما اختاروه من نقلهم من دار الفناء إلى دار البقاء ، ومن نعيم يزول إلى نعيم لا يزول ، فعاشوا محمودين ، وانتقلوا مفقودين إلى «روح وريحان وجنة نعيم ، (٤) .

(١) سورة مريم آية ٢٨

(٢) سورة غافر آية ٥١ .

(٣) سورة الصافات آية ١٧٣ .

(٤) سورة الواقعة آية ٨٨ ، في الأصل وجنات قنيم

وإن ما ذكره المعز لدين الله ، ليصور لنا بجلاء علاقة القرامطة والفاطميين بعضهم ببعض ، منذ قيام الدولة الفاطمية إلى عهده ؛ فقد ذكر كيف أخلص أبو سعيد الجنابي المتوفى سنة ٣٠١ هـ للعرش الفاطمي ، وظل على إخلاصه للذهب الإسماعيلي ، كارها العباسيين وأنصارهم ، وكيف حذا حذوه ابنه أبو طاهر ، فأضحى من جنس الفاطميين المخلصين لهم ، حتى كان يدهم الباطشة . ولاغرو ، فقد اعتمد عليه عبيد الله المهدي في تحقيق سياسته التي رسمها للقضاء على أعدائه العباسيين ، وساعده مساعدة فعالة في هجومه على مصر ( ٣٠٧ ، ٣٢١ هـ ) (١)

ثانيا : وفي هذا الكتاب نرى الخليفة المعز يشيد بالفاطميين ، ويرد على الأعصم الذي انضوى تحت لواء العباسيين وسب الفاطميين على المنابر ، ويفخر المعز بالانتماء إلى الرسول عن طريق علي وفاطمة ، كما يتبين من هذه العبارة التي جاءت على لسان هذا الخليفة .

« فما من ناطق نطق ، ولا نبي بعث ، ولا وصي ظهر ، إلا وقد أشار إلينا ، ولوح بنا ، ودل علينا في كتابه وخطابه ، ومنار أعلامه . ومرموز كلامه ، » (٢) .

كذلك نرى المعز يشيد في هذا الكتاب بنفسه وبالفاطميين ، وينسجى باللائمة على العباسيين الذين انضم إليهم الأعصم ، ويؤكد في الوقت نفسه أن الفاطميين سيرثون العباسيين ، ويحولون العالم الإسلامي إلى عالم إسماعيلي بحت . فانظر كيف يخاطب الأعصم يتهدده ويتوعده ، ويفض من شأن العباسيين ، فيقول :

« وانقلبت على الأدبار ، وتحملت عظيم الأوزار ، لتقيم دعوة قد درست ، ودولة قد طمست . إنك لمن الغاوين ، وإنك لمني ضلال مبين . . . أما علمت أن المطيع آخر ولد العباس . وآخر المترئس في الناس ؟ أما تراهم كأنهم أعجاز نخل خاوية ؟ فهل ترى لهم من باقية ؟ ختم والله الحساب . . . ووقعت الواقعة ، وقرعت القارعة ، وطلعت الشمس من مغربها ، والآية من موطنها ، » (٣) .

ثالثا : وتعد هذه الرسالة وثيقة تاريخية هامة ، تصور لنا مراحل الحرب التي

(١) انظر كتاب « عبيد الله المهدي » المؤلفين ص ٢١٨ وما بعدها .

(٢) المقرئ : انماط الخنفا ص ١٣٦ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٤٠ - ١٤١ .

دارت بين الحسن الأعصم وأنصار المعز لدين الله ، كجعفر بن فلاح ، الذي قتله الأعصم ، وسعادة بن حيان الذي حاصره في يافا (١) . ومن هذه الرسالة ندرك أن المعز أرسلها من مصر ، لا من المغرب على ما ذهب إليه بعض ، كما يظهر من هذه العبارة : « وكتابتنا هذا من فسطاط مصر : وقد جئناها على قدر مقدور ، ووقت المذكور » (٢) . وكذلك تبين لنا هذه الرسالة كيف ارتبط الحسن الأعصم بالعباسيين ، وترك الفاطميين في عهد الخليفة العباسي المطيع .

وتعتبر هذه الرسالة وثيقة هامة في تاريخ المذهب الإسماعيلي ، فقد ذكر فيها المعز شيئا غير قليل عن نظرية تقديس الأئمة ، ووجود عنصر إلهي فيهم . ويدل على صحة هذا القول هذه العبارة :

« مامن ناطق نطق ، ولا نبي بعث ، ولا وصي ظهر ، إلا وقد أشار إلينا . إنا كلمات الله الأزليات ، وأسماؤه التامات ، وأنواره الشعشعانيات ، وأعلامه النيرات ، وبدائعه المنشآت ، وآياته الباهرات ، وأقداره النافذات ؛ لا يخرج منا أمر ، ولا يخلو منا عصر . وإنا لكما قال الله سبحانه وتعالى : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم » (٣) ... فاستشعروا النظر ، فقد نقر في النافور ، وفار التنور ، وأنى النذير بين يدي عذاب شديد . فمن شاء فليُنظر ، ومن شاء فليُنذر ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين » (٤)

ومهما يكن من أمر ، فإن هذه الرسالة تعدد آية في الدبلوماسية السياسية ، والدبلوماسية المذهبية ، فقد استطاع المعز بفضلها أن يجذب إليه كثيرين من كبار القرامطة الساخطين على الأعصم ، فثاروا ، وسخطوا على العباسيين ، وانهزوا الفرصة للوقوف في وجه هؤلاء جميعا . وكذلك أثبت المعز للسنيين في هذه الرسالة ارتباط القرامطة بالفاطميين ، ليثبت لهم أن الأعصم على غير عقيدتهم .

(١) القرظي : اتعاظ الخفا ص ١٤٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٨ .

(٣) سورة المجادلة آية ٧ .

(٤) القرظي : اتعاظ الخفا ص ١٣٧ - ١٣٨ .



أى أنه يدين بالمشهد الإسماعيلى . ولا يبعد أن يكون انفضاض الاعراب من حوله  
أثرا من آثار هذه الوثيقة الهامة .

رابعا : وتمتاز رسالة المعز بهذه الشروط التى تدل على التحدى ، وتنطوى  
على الترهيب والتخويف . والواقع أن المعز رى من وراء هذه الشروط ، أن  
يظهر الحسن الأعصم أمام رعاياه بمظهر المعتسدى على المشهد الإسماعيلى  
وأنصاره . ولذلك نرى المعز يخير الأعصم بين أمور يستحيل عليه تحقيقها :  
كأن يفتدى نفسه بجمعفر بن فلاح ، ويفدى من قتله من جنود القاطميين رجال  
من القرامطة ؛ كما نرى المعز يسخر من الأعصم حين يطلب إليه أن يرد جمعفر بن  
فلاح ورجال القاطميين الذين قتلوا على يد الأعصم أحياء ، أو يقدم نفسه أسير  
حرب ليرى فيه رأيه ، فيقتص منه ، أو يمن عليه ، أو يفتدى نفسه بمال كثير .  
وقد أراد المعز بهذه الرسالة أن يثير القرامطة المعتدلين وغيرهم من أنصار  
القاطميين ، على الحسن وأنصاره ، فيرميهم بأنهم ليسوا إسماعيلية أو سنيين . بل  
هم مذنبون لا ينتمون إلى هؤلاء . ولا إلى أولئك ، ويخوفهم سوء العاقبة ، كما  
يتجلى ذلك فى قوله : « فلا ملجأ لكم من الله يومئذ ، ولا منجى منه ، وحنود الله فى  
طلبك قافية ، لا يزال ذو أحقاد (كذا فى الأصل) وثوار أهجاد ، وزجال أنجاد . فلا  
تجد فى السماء مصعدا . ولا فى الأرض مقعدا ، ولا فى الأرض ولا فى البحر منهجا ،  
ولا فى الجبال مسلكا ، ولا إلى الهواء سلبا ، ولا إلى مخلوق ملجأ . حينئذ يفارقك  
أصحابك . ويتخلى عنك أحبائك ، ويتخذك أترابك ، فتبقى وحيدا فريدا ، وغائفا  
طريدا ، وهائما شريدا . » (١)

كانت هذه الرسالة بعيدة الأثر فى نفوس القرامطة ؛ فقد اتحد جماعة من أنصار  
أبى طاهر وأنصار القاطميين ، على ذلك الرئيس الذى اجترأ على إمام الزمان ،  
كما انفض أنصاره السنيون من حوله ، وأدى ذلك إلى إضعاف الحراسة بين جنوده .  
ولكن هذه الرسالة لم توهن من عزيمة الأعصم ، الذى عول على الهجوم على  
مصر ، قبل أن تعمل الرسالة عملها بين القرامطة الإسماعيلية فى البحرين .

(١) المقرئى : اتعاظ المنفا ص ١٤٣ .

وسرعان ما بعث إليه بهذا الكتاب القصير ، الذى يتهدده ويتوعده فيه حيث يقول : « وصل خطابك ... ونحن سائرون فى إثره والسلام » . فتح الحسن بلاد الشام من جديد ، ثم قصد مصر ، وحاصر مدينة القاهرة ، بعد أن عسكر بعين شمس ، وبت السرايا فى البلاد ينهبونها ، فكثرت جموعه (١) ؛ وانتشرت جنوده فى كثير من نواحي مصر ، وأرسل عماله إلى الصعيد لجباية الأموال . وهذا يدل على حرج مركز المعز الذى شاركه الحسن القرمطى فى حكم مصر وإدارتها ، وانتزع جزءا كبيرا من ماليتها ، وكاد ينزع من قلوب أهلها احترامهم للخليفة الفاطمى ودولته .

ولم يكتمف الأعصم بهذا ، بل شدد النكير على المعز وجوهر ، واستطاع أن يخرق الخندق الذى حفر للدفاع عن القاهرة . ولم يحل بينه وبين هذه المدينة نفسها سوى السور الذى بناه جوهر . لهذا لانعجب إذا زاد قلق المعز (٢) ، ودافع عن حاضرة خلافته وهو فى داخل سورها .

ولكن المعز كان داهية بعيد النظر واسع الحيلة . فإنه لم يلبث أن اتخذ لهذا الأمر الجليل أهبة ، وعمل على إزالة شبح هذه الهزيمة الخيف ، والقضاء على الزعيم القرمطى ؛ فعمل على جذب العرب الذين كانوا قد انضوا تحت لواء القرامطة ، وعلى رأسهم حسان بن الجراح الطائى ، وتمهده لحسان بأن يدفع إليه مائة ألف دينار ، كفاء تظاهرة بالهزيمة أمام جند المعز . وقد تغانى حسان فى الوفاء بوعده وتقدم أمام جيوش المغاربة ، الذين خرجوا من القاهرة ، وعلى رأسهم عبد الله بن المعز ، الذى ولى الخلافة بعد أبيه المعز ، وتلقب بلقب العزيز بالله .

وبذلك وضع حسان بن الجراح الطائى حليفه الأعصم فى مركز حرج ، ولكن هذا الزعيم القرمطى دافع عن نفسه وعن جنوده دفاعا مجيدا ، وانقض العزيز ومن معه من الجنود عليه ، وأحاطوا به من كل جانب ، وأرغموه على التقهقر (٣) . وأسر الفاطميون من القرامطة أكثر من ألف وخمسمائة (٤) ، وعاملوهم معاملة المرتدين عن دينهم ، وهو المذهب الإسماعيلى .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٢٩ .

(٢) التويرى : نهاية الأرب (مخطوط) ج ٢٣ ص ٩٦ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢٣ ورقة ٦٧ .

(٤) ابن الأثير : ج ٨ ص ٢٣٠ .

وعلى الرغم من هزيمته وفراره ، وطد الحسن الأعصم العزم على مواصلة القتال ، والاستيلاء على مصر ، وطرد الفاطميين منها . يؤيد ذلك هذان البيتان اللذان أنشدهما بعد فراره من مصر :

زعمت رجال الغرب<sup>(١)</sup> أنى هبتها فدمى إذن ما بينهم مطلول<sup>(٢)</sup>  
يا مصر إن لم أروء ماك من دم يروى ثراك ، فلا سقاني النيل

رأى المعز لدين الله ضرورة القضاء على الحسن الأعصم بعد هذه الهزيمة التي حلت به ، فأرسل جيوشه المغربية لمطاردة في الشام ، فلحقوا به في أذرع<sup>(٣)</sup> . ولم ير الحسن ورجاله بدا من العودة إلى بلادهم في البحرين ، تاركين بلاد الشام لبعض أسراء القرامطة ، وعلى رأسهم أبو المنجا القرمطي .

وكان جيش الفاطميين الذي عهد إليه بمطاردة الحسن الأعصم ، بقيادة أبي محمود ابن جعفر بن فلاح ؛ وقد استعان المعز بقبائل طيء على تنفيذ مآربه في بلاد الشام والقضاء على الأعصم<sup>(٤)</sup> ، وبظالم بن موهوب العقيلي ، الذي فترت العلاقة بينه وبين الأعصم ، فتلده ولاية دمشق . وكان ظالم يحنق على واليها القرمطي ( أبي المنجا ) ، فقبض عليه وعلى ابنه ومن معهما من القرامطة ، وسلمهم للقائد الفاطمي ، واستخلص دمشق من القرامطة ، وأصبح ظالم بن موهوب واليسا عليها من قبل الفاطميين ، من شهر رمضان سنة ٣٦٣ هـ .

وبهذا انتزع الفاطميون بلاد الشام من القرامطة ، بعد أن صادفوا أشد المناعب ، التي وقفت في سبيلهم بعد فتح مصر . بيد أن ثورة القرامطة ، قد حزت في نفوس الفاطميين ، وكانوا يعتبرونهم إخوانهم في المذهب الديني . ولو ظل هؤلاء القرامطة على ولائهم للمذهب الإسماعيلي ، مذهب الفاطميين ، مقتفين في ذلك أثر أبي طاهر الجنابي ، لأصبحوا جميعا قوة هائلة تستطيع أن تحقق الغرض الأول الذي كان يرمى

(١) رجال الغرب : أي الفاطميين ومن معهم من المغاربة .

(٢) مطلول : أي مسفوك .

(٣) على مقربة من عمان في شرق الأردن .

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٩٠ .

إليه الإسماعيلية ، وهو القضاء على الخلافة العباسية (١) . وعلى الجملة إن نفوذ المعز لدين الله قد زاد بسبب ما أحرزه على القرامطة من نصر . وقويت شوكة أنصار الدعوة الإسماعيلية ، فأقيمت الدعوة في مصر وديارها ، والشام والحجاز ، مع إفريقية والمغرب ، (٢) باسم المعز لدين الله .

« وفي الحق أن صراع الأعصم مع مولا المعز ، كان صراعا عنيفا بين معتدلي الإسماعيلية وهم الفاطميون ، وبين متطرفيهم وهم القرامطة . كما أثرت في هذا الصراع عوامل خارجية ؛ فاتخذ العباسيون والبوهبيون والحمدانيون وبقايا جيوش الدولة الإخشيدية من هذا العداء المذهبي الذي استحكمت بين هؤلاء وأولئك ، فرصة لاستخدام قوى ذلك الفريق الإسماعيلي الذي ظهر بعدائه للفاطميين وسيلة لإزالة نفوذ هؤلاء الفاطميين عن مصر ، قبل أن تتوطد أركانه . وقد برهنت بغداد بعملها هذا على أنها مازالت محتفظة ببعض تقاليدھا في السياسة الخارجية .

ولم يكن المعز لدين الله أقل مهارة وحنكة في السياسة من العباسيين في هذه السبيل . فقد آلى على نفسه أن يقل شوكة الحسن الأعصم ، لا بالسيف وحده ، بل بالسياسة كذلك . نعم ! استطاع هذا الخليفة أن يثير الشقاق في صفوف أنصار الأعصم من العرب ، كظالم بن موهوب العُقيلي ، وحسان بن الجراح الطائي وغيرهما ، كما استطاع أن يثير في نفوس القرامطة بغض الأعصم . ومن ثم قامت الخلافات المذهبية ، وخرج أبناء أبي طاهر وأعاونهم عليه .

ولم يكن قرامطة البحرين الذين انضوا تحت لواء الحسن الأعصم في حروبه مع الخليفة العزيز الفاطمي ، على شيء من الحماسة الحربية ، بسبب تأثير سياسة المعز فيهم . ولا غرو ، فقد كانوا يعتبرون قتال السنين جهادا في سبيل الله . أما قتال جيوش المعز ، « صاحب الزمان » و « رأس الإسماعيلية » ، فقد كان كثير منهم يعتقد أنه خروج على المذهب الديني الذي يدينون بعقائده ، وهو المذهب الإسماعيلي . وتعتقد أن هذا الروح كان له أثر بعيد فيما أحرزه المعز من انتصار ، وأنه لم يبق إلى جانب ذلك الزعيم القرمطي الشائر إلا فئة قليلة من النفعيين ، سوف يقضى عليهم العزيز

(١) طه شرف : تاريخ الإسماعيلية السيامي ١٣ ورقة ٢٦٠ .

(٢) ابن حماد : تاريخ بني عبيد وسيرهم ص ٤٦ .

باتتصاره على الحسن الأعصم في سنة ٣٦٧ هـ (١) .

### ( ٥ ) أفتكبين التركي والمعز لدين الله الفاطمي

على أن تقهر الحسن الأعصم القرمطي عن مصر في سنة ٣٦٣ هـ ، لم يكن معناه نهاية الصراع بين القرامطة والفاطميين ، فإنه على الرغم من عودة الحسن إلى بلاده ، واستيلاء الفاطميين على الشام ، وتولييتهم عليها عمالا من قبلهم ، عاد الخطر القرمطي من جديد ؛ وذلك أن بلاد الشام تعرضت في أخريات عهد المعز لدين الله لأخطار ثلاثة : الأول من ناحية الروم الذين هددوا الفاطميين في الشام ، والثاني من الثورات التي قامت في وجه الحكم الفاطمي بسبب تمسك أهالي البلاد بعقائد المذهب السني ، الذي يختلف عن المذهب الشيعي مذهب الفاطميين . وأما الخطر الثالث فيظهر في حركات أفتكبين التركي ، وصراعه مع الفاطميين ، واستعانته بأعدائهم القرامطة . ولا نستطيع أن نفهم الدور الذي قام به المعز مع أفتكبين التركي ، من غير أن نصور حالة بلاد الشام بعد أن حلت الهزيمة بالأعصم على أبواب القاهرة سنة ٣٦٣ هـ . والواقع أن هذه الهزيمة كان معناها زوال نفوذ الأعصم من بلاد الشام ؛ فقد استغل المعز لدين الله ، العداء الذي قام بين الزعيم العربي ظالم بن موهوب العقيلي ، وبين الحسن الأعصم وأبي المنجا نائبه في الشام ، فعين هذا الخليفة ظلما على دمشق . ولما حلت الهزيمة بالحسن الأعصم في سنة ٣٦٢ هـ اضطر إلى مغادرة بلاد الشام إلى البحرين على عجل ، حتى لا يترك السبيل ممهدة أمام عيون المعز ودعايته ، فيثور عليه القرامطة في هذه البلاد . ولذلك أصبح مركز نائبه القرمطي في دمشق محفوفا بالأخطار . ولا غرو ، فقد قام ظالم بن موهوب ، خصمه ومنافسه ، على رأس جيش من العرب يساعده الفاطميون ، وقصدوا إلى دمشق . ولهذا لم يستطع أبو المنجا القرمطي أن يتصل بالقرامطة في البحرين ، ولا خلفائه العباسيين والبويهيين ، أو بالخذائنين . ولم يلبث أن قبض عليه ، وسجن هو وابنه في دمشق . وكان ذلك انتصارا جديدا للمعز ، لا يقل عن انتصاره على الحسن الأعصم أمام أسوار القاهرة ؛ فقد اعتقد

(١) طه شرف : تاريخ الاسماعيلية السياسي ١٣ ورقة ٢٦٠ وما يقابلها .

المعز بعد طرد أبي المنجا ، أن بلاد الشام قد خلصت جميعها له ، وأن القرامطة لن يعودوا إليها ، وأن سلطانه سوف يستقر في هذه البلاد كما استقر في مصر ، وبذلك يستطيع أن يخطو الخطوة التالية ، فيستولى على بغداد نفسها .

لذلك لم يكتف المعز بتولية ظالم بن موهوب على دمشق ، بل عمل على إرسال جيش كبير يحفظ الأمن ويقر السلام في ربوع هذه البلاد ، أو قل لينشر نفوذ الفاطميين هناك ، ويبث الرعب في قلوب من تحدتهم أنفسهم بشق عصا الطاعة في وجه الفاطميين ، وأخيرا يستطيع الفاطميون أن يثبوا من الشام إلى العراق ، أو إلى بلاد الروم أو الحمدانيين .

وقد سن المعز لنفسه سنة إرسال الولاة إلى هذه البلاد ، تصحبهم الجيوش لحمايتهم وتهديد الأعداء وإثارة مخاوفهم . ومع أن الغرض الذي كان يهدف إليه المعز هو محاولة إقرار الأمن والنظام في هذه البلاد ، على يد ولاة الفاطميين والجيوش الفاطمية ، خاب ظنه ، وأصبحت الجيوش الفاطمية مثار القلاقل في هذه البلاد ، كما أصبح مركز الولاة محفوفا بالمخاطر .

وقد أرسل المعز قائده أبا محمود بن جعفر ، على رأس جيش من المغاربة لمعاونة ظالم بن موهوب . وعلى الرغم من إخلاص ظالم لأبي محمود ، وسروره لمقدمه ، لم يكن مركز الفاطميين في هذه البلاد مما يحسدون عليه ، فإن الرعايا السنين كانوا يحقنون على جيوش الفاطميين من المغاربة ، لميلهم إلى العبث والفساد ، كما كانوا يحقنون على الفاطميين أنفسهم ، لاختلافهم وإياهم في المذهب الديني . أضف إلى ذلك أن هذه البلاد قد دب إليها الضعف منذ النصف الثاني من القرن الثالث الهجري . فقد أثار فيها القرامطة الاضطراب في أواخر القرن الثالث الهجري ، وساعدوا على إسقاط الدولة الطولونية ، كما هاجموا ، وانتصروا على الإخشيديين في موقعة طبرية في سنتي ٣٥٣ ، ٣٥٧ هـ ، ثم انتصروا عليهم في دمشق .

وكانت هذه البلاد تضطرم بالحروب بين سنتي ٣٥٨ ، ٣٦٣ هـ ، مما كان له أسوأ الأثر من الناحية الاقتصادية ؛ لذلك ضاق الشاميون في دمشق ذرعا بظالم بن موهوب ومن معه من العرب ، وبأبي محمود ومن معه من المغاربة ، وبالفاطميين لاختلافهم

وإيهاً في المذهب الديني كما تقدم ، وهبوا في وجه المغاربة ، فأقلت زمام الأمر من يد ظالم بن موهوب ، وأبى محمود بن جعفر .

ومن الغريب أن ظلماً اضطر إلى أن يشهر السيف في وجه المغاربة لإقرار النظام ، ولكنه لم يستطع إقراره . وفي ذلك يقول ابن القلانسي<sup>(١)</sup> : « وكان ظالم يأخذ مال السلطان الذي يستخرج من البلد ؛ وقد عرف ظلم أن الرعية تكره المغاربة للفساد وقطع الطريق على أهالي الصدور والوراد . . . فلما شاهد انهزام الناس والمغاربة في إثرهم ، استدعى ربحه ، وعبر الجسر ، ومعه فرقة من أصحابه ، وحمل على أوائل المغاربة ، فردهم عن أحداث البلد . »

وكانت مهمة الفاطميين في بلاد الشام شاقة عسيرة ، فلم تكن حالهم فيها كحالهم في مصر ؛ فقد تأججت نيران الثورة بين أهالي دمشق وجند الفاطميين من المغاربة . وكان موقف ظالم بن موهوب في دمشق أشبه بموقف رجان البوليس في حفظ الأمن ، بيد أنه لم يستطع تهدئة الدمشقيين أو قمع المغاربة ، فحمل السيف ضد حلفائه المغاربة أنفسهم ، فقابلوه بالمثل ، وحلت به الهزيمة ، وأحرق المغاربة دمشق ونهبوها . واستمرت الفتنة نصف سنة أو أكثر (شوال - ربيع الآخر سنة ٣٦٣ هـ) . وعلى الرغم من تظاهر ظالم بن موهوب بحبه للعامة ، نحى عن حكم دمشق ، وولى أبو محمود على شرطتها رجلين من أنصاره المغاربة . وهذا يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن الفاطميين لم يعودوا يحفلون بظالم بن موهوب ، إذ تراءى لهم ضرورة الاعتماد على المغاربة وحدهم في بلاد الشام .

لذلك نرى القائد أبا محمود الكنتامي يسير على هذه السياسة ، فيعزل ظالم بن موهوب عن دمشق في ربيع الآخر سنة ٣٦٣ هـ ، ويولي مكانه ابن اخته جيش بن الصمصامة ، ويتعاون هذا الوالي المغربي الجديد مع خاله في العمل على حفظ الأمن واستتباب النظام في دمشق ، وكادا ينجحان في هذه السبيل ، لولا أن أهل هذه المدينة كانوا يحنقون على المغاربة ، ويتوجسون شراً منهم . ومن ثم عادت الثورة سيرتها الأولى في وجه هذا الوالي وخاله أبي محمود بعد شهر واحد .

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٦١٥ .

كان على المعز أن يتدارك الأمر بحكمته وبعد نظره ، فقد اتصلت بمسامحه أنباء دمشق واضطراب الأمر فيها ، وأدرك استحالة استقرار حكمه ، وتوطيد نفوذه في هذه البلاد . ولذلك استعان بريان الخادم ، واليه على طرابلس ، وعهد إليه باستطلاع حال دمشق ، ومعالجة موقف الفاطميين فيها . وعاد القائد أبو محمود إلى مدينة الرملة ، وتقلد ريان الخادم أعمال دمشق ، واستطاع أن يهدئ من روع الأهاليين ، ويحد من ميول المغاربة التي كانت تنطوي على الشر والفساد .

وعلى الرغم من هذا كله ، كانت هناك عناصر استمرت حياة الفوضى ، وأثارت الاضطرابات ، وأفسدت على هذا الوالي النشيط سياسته . واستمرت الحال على هذا النحو إلى أن استولى أفتكين التركي على دمشق بعد قليل (١) .

وكان أهل دمشق يضمرون للفاطميين الكراهية والبغضاء كما نعلم : لأنهم كانوا لا يزالون على حبهام لبني أمية السنين ، وبغضهم للفاطميين الشيعة . فقد ذكر ابن الجوزي (٢) أن القائد أبو محمود لما دخل دمشق في سنة ٣٦٣ هـ ، قبض على أحد الزهاد من أهل الشام ، بمساعدة ظالم بن موهوب وأرسله مكبلا إلى المعز لأنه كان يصرح بعدائه للفاطميين . ولا يبعد أن يكون كثير من أهالي هذه البلاد على هذه العقيدة .. وقد وصف ابن الجوزي المعز فقال : إنه كان بطاشا ، أحضر يوما أبا بكر الثابلسي الزاهد ، وكان ينزل الأكوخ من أرض دمشق ، فقال له : بلغنا أنك قلت : إذا كان مع الرجل المسلم عشرة أسهم ، وجب أن يرمى الروم منها واحدا ، وفيينا تسعة . فقال : ما قلت هكذا ، فظن أنه رجع عن قوله ، فقال : كيف قلت ؟ قال : قلت : إذا كان معه عشرة وجب أن يرمى تسعة ، ويرمى العاشر فيكم أيضا ، فإنكم غيرتم الملة ، وقتلتم الصالحين ، وادعيت نور الإلهية . وبهذا نرى أن الظروف والأحوال كانت في بلاد الشام على غير ما يحب الفاطميون ، كما كانت موالية لأفتكين ، وأن أقدام الفاطميين لم تكن قد استقرت بعد في هذه البلاد .

أما أفتكين ، فهو من قواد الأتراك ، الذين كانوا في خدمة البويهيين ، ثم ثاروا

(١) ابن الأثير : ج ٨ ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٢) ابن القلائسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٤ ( هامش رقم ١ )



على اختيار بن معز الدولة، بعد أن انتصر الديلم على الأتراك . وقد ثار هؤلاء الأتراك بزعامة أفتكين ؛ ولكن بختيار استعان عليهم بأبن عمه عضد الدولة بن ركن الدولة ، وحلت الهزيمة بالأتراك ، فساروا إلى بلاد الشام ، واستقروا بها ، وساعدتهم على ذلك ماساد هذه البلاد من الفوضى والاضطراب .

وقد قام أفتكين بدور هام في تاريخ الشام قرابة ثلاث سنين ( ٣٦٤ — ٣٦٧ هـ ) وذلك في أواخر عهد المعز وأوائل عهد العزيز . وقد وجد ثلاث قوات تتنازع سبيل الاستقرار في بلاد الشام ، هي الروم والفاطميون والثوار الخانقون على الحكم الفاطمي ؛ واستطاع بدهائه أن يستغل هؤلاء الثوار الشاميين ، وأن ينشر نفوذه في بلاد الشام ، واتخذ مدينة دمشق قاعدة له .

وذلك أن ظالم بن موهوب العُقيلي ، الذي كان يلي إقليم بعلبك من قبل الفاطميين ، استعان بأبي محمود بن جعفر بن فلاح ، وإلى الفاطميين على الرملة ، وسارت جيوشهما لصد أفتكين عن بلاد الشام . ولكن ذلك القائد الذكي كان قد تمكن من الاستعانة بالحمدانيين ، فأمدّه أبو المعالي بن حمدان بجند كثير ، واستطاع بذلك أن يحرز النصر على ظالم بن موهوب ، ويدخل بلاد الشام ، في الوقت الذي كان الصراع بين جيوش الروم والفاطميين على أشده ، في شمال الشام بوجه خاص . وقد سارت جيوش المعز لدين الله ، بقيادة ظالم بن موهوب ، وأبي محمود بن جعفر ، لصد الروم عن إقليم طرابلس ؛ وانتَهز الثوار الشّاميون في دمشق هذه الفرصة ، واستنجدوا بأفتكين على الفاطميين ، « فبعثوا إليه من دمشق إلى حمص يستدعونه ، ووعدوه بالقيام معه على عساكر المعز ، وإخراجهم من دمشق (١) » . وبذلك زال نفوذ الفاطميين من دمشق في شهر شعبان من سنة ٣٦٤ هـ ، وخطب فيها للخليفة العباسي الطائع . ولم يقف نشاط أفتكين عند ذلك الحد ، فقد هاجم ظالم بن موهوب في بعلبك ، في نفس الوقت الذي كان الروم يهاجمونه فيها ، واضطر ظالم إلى التقهقر ، وفَسَّحَ هذا

(١) المقرئ خطب : ج ٢ ص ٩ . ويقول ابن الأثير ( ج ٨ ص ٢٢٧ ) : « خرج أنصارها وشيوخها إليه ، وأظهروا له المرور بقدمه ، وسألوه أن يقيم عندهم ، وبك ذلك بدم ، وبزبل عنهم سمّة المصريين ، فانهم بكرهتهم لخفاة الاعتقاد ، ولظلم عاملهم ، وبكف عنهم شر الأحداث ، فأجابهم إلى ذلك ، واستحلفهم على الطاعة والمساعدة ، وحلف لهم على الحماية وكف الأذى عنهم منه ومن غيره » .

الطريق لأفتكين ، الذي استطاع أن يدهن الروم ، ويدفع لهم قسطا من المال ، وتركت دمشق في يد هذا القائد التركي ، وأخذ الفاطميون يعملون على استرداد نفوذهم في هذه البلاد .

ومما يدل على دهاء أفتكين ، أنه استعان بالروم للقضاء على زعماء الثورة في دمشق ، ليصفو له الجو . وبمساعدة الروم خلصت له دمشق ، وتخلص بذكائه من الثوار ومن الروم ثم من الفاطميين ، وأخذ يتقرب إلى العباسيين ؛ فخطب لهم على منابر دمشق ، وطلب النجدة منهم لدرء خطر الفاطميين .

وقد أيقن أفتكين أن الفاطميين لن يسكتوا عن هذه الهزائم ؛ فمالأ أهالي دمشق ، وتقرب إليهم ، وهدأ من روعهم بالقضاء على الثوار والمتلصقة ، وكتب إلى الفاطميين يستميلهم . يقول ابن الفلانسى (١) : « وكان هفتكين المعز مكاتبة على سبيل المداجاة والمغالطة والمداجمة والتويبه ، والافتقار له ، والطاعة لأوامره ؛ فأجابته بالإحسان له ، والارتضاء لمذهبه ، والاستدعاء له إلى حضرته ، ليشاهده ويصطفيه لنفسه ، ويعيده إلى ولايته بعد ذلك مكرما مولى مشرفا ؛ فلم يثق إلى ذلك ، ولا سكنت نفسه إليه ، وامتنع من الإجابة إلى ما بعثه عليه » (٢) .

وتصور هذه المراسلات التي تبودلت بين أفتكين والمعز جرة هذا القائد وتماديته في التفرير بالفاطميين ؛ فإنه كان يعلم أنه حارب عمالهم على حمص وانتصر عليهم ، وأنه طرد ولاتهم على دمشق ، وتحالف مع أعدائهم السنيين في هذه البلاد ، بل تحالف معهم مع الروم . ولا بد أنه كان يدرك أن هذه الحيل لا تجوز على المعز ، ولذلك لم يأمن جانبه ، ولم يثق بوعوده .

ولا نعرف على وجه التحقيق أ كان المعز مخلصا لأفتكين ، أو كان يريد أن يوليّه على الشام بعد لقائه . على أن ذلك لا يتبعنا من القول إن المعز ما كان ينسى الإساءة للبيس ، ولا الإحسان للحسن ؛ فهل كان في نيته أن يتغاضى عن مئاوأة أفتكين للحكم الفاطمي في حمص وبعليك ودمشق ؟

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ١٢ .

(٢) انظر أيضا ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٧ .

ومهما يكن من شيء ، فإن المعز لدين الله مات وبلاد الشام كالبركان المضطرم ،  
يلقى بحممته على الفاطميين ، وأنه لم يستطع أن يقضى على هذه الصعاب قبل وفاته .  
ونحن إذ نعترف للمعز بالمقدرة الحربية الفائقة ، نرى أنه استطاع أن يدير هذه  
الحروب بمهارة في الغرب والشرق ، حتى إن أتباعه المخلصين له . اعتقدوا أنه سيرث  
العباسيين في زعامة العالم الإسلامي كافة .

## الباب الرابع

### نظم الحكم في عهد المعز لدين الله

١ - النظام السياسي :

تمهيد

أصبح عبيد الله المهدي خليفة منذ تربع على عرش الدولة الفاطمية في أواخر سنة ٢٩٦ هـ ؛ ولم يحفل بغير هذا اللقب وبلقب الإمام الذي اتخذته وسيلة يتحدى بها العباسيين ، لأنه كان يرى أنه أحق بالخلافة منهم ، لأنه رأس العلويين الذين ينتسبون إلى الرسول ويعتقدون أنهم أحق من سواهم بزعامة المسلمين . ومن ثم سار خلفاؤه الفاطميون على نهجه ، فسموا باسم « الخلفاء » ، و« الأئمة » ، وتركزت فيهم صفتا « الخلافة » و« الإمامة » ؛ أو قل : جمع هؤلاء الخلفاء بين الزعامتين الدينية والزمنية . فكان المهدي خليفة وإماما مستودعا ،<sup>(١)</sup> وتمتع بهاتين الصفتين من بعده الخليفة القائم ( ٣٢٢ - ٣٣٤ هـ ) ، ثم المنصور ( ٣٣٤ - ٣٤١ هـ ) ، ثم المعز لدين الله ( ٣٤١ - ٣٦٥ هـ ) .

وكان الخليفة الفاطمي يجمع في يده جميع السلطات ؛ لكن حكومته كانت حكومة مستنيرة ، تعمل على إصلاح المجتمع الفاطمي والنهوض به ، إذ أن نظام الحكم الفاطمي في عهد المعز كان يرمى إلى جعل هذا الخليفة في مركز يستطيع منه الإشراف على جميع نواحي النشاط في الدولة . وليس معنى ذلك أن الخليفة المعز الفاطمي كان يضطلع بكل شيء ويستبد بجميع الأمور ، بل كان يستعين بأصحاب الدواوين وكبار الموظفين ، كالمحتسب وصاحب بيت المال ، والقاضي وغيرهم . ولم تكن رتبة

(١) الإمام المستودع : هو الذي نقل الإمامة إليه ، فيتمتع بها حيناً ، ثم يردّها لمستحقها ، مثل الحسن بن علي بن أبي طالب ، الذي يعتبره الإسماعيلية إماما مستودعا لأخيه الحسين وأبنائه ، وروى الكاظم بالقصة لأخيه إسماعيل . ومحمد بن الحنفية الذي كان إماما مستودعا لعلي زين العابدين ، وعبيد الله المهدي الذي كان إماما مستودعا للإمام القائم ، الخليفة الفاطمي الثاني .

الوزارة قد ظهرت في عهد المعز؛ ومع ذلك كان يستعين بجماعة يعملون عمل الوزراء. وإن لم يطلق على كل منهم اسم الوزير.

وقد أحدث انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر في عهد المعز تطورا كبيرا في نظام الحكم، حيث استعان بالوزير ابن الفرات، وزير الإخشيديين، وأبقى نظم الحكم التي كانت في مصر قبل الفتح الفاطمي، وأسندت شئون الدولة الجديدة إلى المصريين، واشترك معهم المغاربة، الذين مروا على إدارة البلاد بعد قليل. وقد نجح المعز في هذه السياسة نجاحا مزدوجا، لأنه بعمله هذا استطاع أن يدير دولاب الأعمال الحكومية، وأن يدرب المغاربة، وعلى رأسهم الكتاميون، على الأعمال الإدارية في البلاد.

وكانت المناصب العالية في الدولة الفاطمية في عهد المعز، تتركز في أيدي الخليفة الذي كان يستعين بمن يثق بهم، ويكل إليهم أمور دولته. وكان أهم هذه المناصب السياسية، منصب الخليفة، ويلاه منصب الوزير.

### (١) الخليفة:

كانت الخلافة مقصورة على أمراء البيت الفاطمي. ويشترط فيمن يليها أن يكون إماما إسماعيليا، مستودعا كان أو مستقرا؛ فلا يليها أئمة علويون من غير سلالة إسماعيل بن جعفر: الجسامين والروحانيين؛ كما لا تنتقل إليه الخلافة إلا بنص من الإمام السابق، والإمام لا يستطيع أن يعهد لأكثر من واحد. وبعبارة أخرى لا يقع النص بالخلافة إلا على إمام واحد؛ وهذا ما يميز ولاية العهد عند الفاطميين عن ولاية العهد عند غيرهم كالأمويين والعباسيين. فإن الأمويين كانوا يعهدون بالخلافة لأكثر من واحد. وقد أسرف العباسيون في ذلك، فعهدوا بالخلافة من بعدهم إلى ثلاثة أشخاص، مما أدى إلى قيام المنافسة بين أفراد البيت المبالك، كما أدى إلى ضعف كل من البيتين الأموي والعباسي في النهاية.

وكان المعز يجلس على عرش الدعوة والدولة معا، بمعنى أنه كان يجمع بين السلطتين الروحية والزمنية، شأنه في ذلك شأن الرسول ﷺ. إذ كان الرئيس الأعلى للمسلمين بنا وسياسيا، وشأن الخلفاء الراشدين والأمويين ثم العباسيين. إلا

أن الخليفة الفاطمي كان يمتاز عن الخلفاء السنيين ، بأن الناحية الروحية كانت تتركز في إحياء عقائد مذهبية ، ترمي إلى سيادة المذهب الإسماعيلي ، على حين كان الخلفاء السنيون يوجهون سياستهم الدينية لتقوية مبادئ الإسلام على أساس كتاب الله وسنة الرسول ، أو على وفق المذاهب السنية التي ظهرت في العصر العباسي الأول . وإذا لاحظنا أن المذاهب السنية كانت منتشرة في جميع أنحاء الدول الإسلامية متأصلة فيها ، أدركنا عدم ميل كثير من الناس إلى المذهب الإسماعيلي ، وطعنهم في عقائد الفاطميين ونسبهم .

وكان المعز لدين الله يستمد نفوذه كخليفة من انتسابه لعلي وفاطمة ؛ وبفضل هذا قامت الدولة الفاطمية ، بعد أن بذل أنصارها جهودا جبارة ، بالسيف تارة والدعاية أخرى . ولا غرو ، فقد كانت الدعوة للأئمة من أبناء إسماعيل على شيء كبير من الدقة والنظام ، منذ منتصف القرن الثالث الهجري . وقد وجد الدعاة ذور الطموح فيها كل ما يبتغون ، واستطاعوا أن يضعوا إلى صفوفهم عددا كبيرا من هؤلاء الذين يؤمنون بحب علي وأبنائه . أضف إلى ذلك أن المعز وغيره من الخلفاء الفاطميين اتخذوا هذا النسب سلاحا يشهرونه في وجه أبناء عمهم العباسيين ، لاعتقادهم أن أبناء علي وفاطمة أحق بالزعامة من أبناء العباس . لذلك لم يكن بد من أن يتشبث الفاطميون بهذا النسب إلى الرسول ، ليحوظوا أنفسهم بهالة من التقديس والتقدير .

وقد أدى ذلك إلى تفاقم العداء بين المعز وعبد الرحمن الناصر الأموي الذي ادعى زعامة المسلمين ؛ فزاعم على الناصر ، لأنه تلقب بلقب خليفة وأمير المؤمنين ، وشاركه في هذا . ولذلك رماه الفاطميون بالفحش وقالوا عنه : الأموي اللعين ابن اللعين ، المتغلب في الأندلس . وكان حقيق المعز على ابن واسول صاحب سجلماسة شديدا ، لأنه تلقب بلقب أمير المؤمنين ، الشاكر بالله ، وعده نائرا على الدولة الفاطمية ، من الناحية السياسية . لمحاولة الاستقلال ببلاد المغرب الأقصى ، كما عده نائرا على الدعوة الفاطمية من الناحية الروحية ، لتشبهه بالأئمة الفاطميين ، وتلقيبه نفسه بألقابهم . وهكذا كانت حجة المعز عليه ، فيما ادعاه من الإمارة بغير عقد إمام ، وما تعدى إليه بعد ذلك من ادعائه الإمامة ، وتسميه بأمير المؤمنين ، وتلقبه

بالشكر بالله (١) .

لذلك نرى المعز لدين الله يخاطب ابن واسول وهو في أسره بجفاء ، لادعائه الإمامة بسجلماسة ، كما يظهر ذلك من هذه العبارة التي خاطب بها ابن واسول : « لو كنت رغبت عن نية منك في أن تأتم بنا لنتك فضل ذلك وثوابه ، وأنت وادع في مكانك ، آمن في سلطانك ، بإقامتنا ذلك لك ، وإذ قد أنكرت إمامتنا ، وادعيت الإمامة دوننا ، إلى أن أظفرنا الله بك وأقدرنا عليك » (٢) .

ونستطع أن نقول في غير إسراف : إن الصراع الذي قام بين المعز والعباسيين من ناحية ، وبينه وبين الأمويين وغيرهم من ناحية أخرى ، كان في الواقع صراعا على زعامة المسلمين الروحية والسياسية ، تلك الزعامة التي أراد المعز أن يتمتع بها وحده دون سواه .

وكان من أثر رغبة المعز في الاحتفاظ بهذه الزعامة ، أنه أخذ يحوط نفسه بهالة من التقديس ، حتى يتميز بذلك عن الخلفاء الأمويين والعباسيين ، ويجذب إليه قلوب الرعايا والأشياء . وكان مبدأ التعليم من أهم الأسلحة التي تدرع بها هذا الخليفة ، فجعل ينادى بأن الأئمة مصدر العلم والعرفان ، وأنهم يعدون ما كان وما سيكون وما سيكون ، ويؤول الأحاديث في سبيل إقرار هذا المبدأ ، حتى يحوط مركزه في الخلافة بهالات التقديس . من ذلك قول المعز للنعمان : « أليس قد قال رسول الله ﷺ في القرآن : فيه نبأ من قبلكم ، وخبر من بعدكم ؟ قلت (أى النعمان) : نعم ! قال : فأين تجدون في الكتاب خبر من بعدكم ؟ قلت : من عند جدكم صلح نجهده . قال : من عندنا والله تجدونه ، وكل ما تطلبون ، ما سلمتم لأمرنا ، وتمسكتم بجبلنا ، وودتم بإمامتنا » (٣) . ولا غرو ، فإن الإسماعيلية يعتقدون أن علي بن أبي طالب ، جد المعز لدين الله ، كان يقول : « سلوني قبل أن تفقدوني ، فوالذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة لا تسألوني عن علم ما كان وما يكون ، وعن علم ما لا تعلمون ، إلا أخبرتكم به ؛ علمه النبي الصادق ، عن الروح الأمين ، عن رب العالمين . » . ويعتقدون أيضا أن

(١) النعمان : المجالس والمساربات (مخطوط مصور) ج ٢ ص ٣٤٥ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٤٨ - ٣٤٩ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٥٥ - ٥٦ .

جعفر الصادق كان يقول : « إن العلم الذي نزل به عليه السلام لم يرفع ، وأنه يُتوارث ، وهو فينا توارثه ، (١) . وكان المعز يقول لأصحابه : « أسألوا عما لا تعملون ، تجدوا عندنا جواب ما تريدون ، إن انصرفكم عنا بلا فائدة منا ، خسارة عليكم ، ونقص بكم ، (٢) .

وليس هذا وحده ، بل إن المعز كان يقرر في أذهان أتباعه أنه لسمو مكانته هو وغيره من الأئمة الإسماعيلية الخلفاء ، يستطيعون أن يكونوا واسطة بين الله وبين أشياعهم . وفي ذلك يقول : « ما توصل بنا إلى الله عز وجل متوسل إلا كنا له خير وسيلة لديه ، لما ترسل بنا فيه ، من أمر دينه أو دنياه ، إذا صححت نيته ، وصدقت طوبته . والله لو أتانا الجذماء والبرصاء والعميان يتشفعون الله بنا ، وقد أحسنوا ظنهم ، وصدقت في ذلك نياتهم ، ولم يشبههم في ذلك شك ، لشفوا (٣) . لذلك كان هؤلاء الذين يلتقون هذه التعاليم من خلفائهم ، يجهدون في طاعتهم وطاعة من يمت إليهم بسبب . وهذا ما جعل جماعة الإسماعيلية متحدن متساندين ، يشد بعضهم أزر بعض . وقد بذ المعز لدين الله العباسيين والأمويين من هذه الناحية ، لأن هؤلاء كانوا يحملون الرعايا على طاعتهم طوعا أو كرها .

ولكى يثير المعز في نفوس أتباعه الحماسة والإخلاص في طاعته ، جعل يثير في نفوسهم الأمل ، ويشعرهم أن الله يبيهم بقدر طاعتهم وإخلاصهم لخليفتهم . ومن ثم كان يتمثل بقول جعفر الصادق : « إن لدينا من خزائن علم الله وفوائده حكمته ، ما يحمل منه كل امرئ بمقدار طاقته ، ويعطاه بحسب استحقاقه ، ولا يخس (٤) إلا من يخس نفسه ؛ وما يقبض لنا أن نعطي أحدا من أمانة الله عندنا ما لا يستحقه . والله ما نفعل ذلك لأبنائنا ، وما نعطي من نرضيه منهم إلا قدر حقه فيه ، لا نزيده فلامه ظفر ، (٥) . وكان كجده جعفر الصادق ، يؤول قول الله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر إن

(١) العنان : المجالس والمساربات ج ٢ ص ٥٨ - ٥٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٧٩ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٥٨ .

(٤) وردت ينخس في الأصل .

(٥) العنان : المجالس والمساربات ج ٢ ص ١٢٢ .



كنتم لا تعلمون ، بأن أهل الذكر هم الخليفة الفاطمي ، المعز ، والأئمة الإسماعيلية . وبهذه الوسائل وغيرها أصبح المعز موضع تقدير أتباعه ورعاياه .

لذلك لبست شخصية المعز لدين الله ثوبا قشيبا من التقديس والإجلال . ولم يكن الخليفة الفاطمي ، كمنافسه الأموي أو العباسي ، مستبدا بأموار الدولة ، أو مسرفا في العبث والمجون . وقد أصبح رعاياه وأنصاره ينظرون إليه على أنه شخص واجب الطاعة ، باعتباره من سلالة الرسول . وكان المعز يروى الأحاديث التي تحت هؤلاء الرعايا والأنصار على وجوب طاعته والالتفاف حوله ، وتبين لهم أن الله سينجز على يديه وعده ، وأن أئمة الإسماعيلية من العلويين سيملكون الأرض قاطبة ؛ ومن ثم يصبح هؤلاء الرعايا « جند الله » ، الذين تقوم « دولة الله » على أيديهم . وهذا وحده يفسر تلك الانتصارات الرائعة ، التي أحرزها الفاطميون في عهد المعز في المغرب والشرق ، وفي البر والبحر ، كما يفسر كيف أن الخلفاء الفاطميين كانوا ينظرون إلى « الخلافة » نظرة جدية ، ويعتبرون أنفسهم هداة الناس ، ومعقد رجاؤهم ، ومحط آمالهم . ومن ثم لم يجلس على عرش تلك الخلافة الفاطمية إلا الأمراء ، الذين يلبون بمبادئ الإسماعيلية ، ويجدون في نشرها ، وينذلون جهودهم لجذب الناس إليهم ؛ لذلك كانوا المثل الأعلى للحاكم المسلم .

ولسكى يقوى المعز مركزه باعتباره خليفة مسلما ، نراه يعنى عناية تامة بإثبات نسبه إلى علي وفاطمة ، والإشادة بهما ، حتى تستطيع الدولة الفاطمية أن تعمر طويلا ، ويستطيع هو في الوقت نفسه أن يتفوق على منافسيه العباسيين . لأن الفاطميين العلويين أقرب إلى الرسول من أبناء عمهم العباسيين ، ومن الأمويين الذين اغتصب آباؤهم الخلافة من علي وأبنائه . وهذا ما حدا المعز على أن يشيد بانتمائه إلى علي وفاطمة في كل حين .

ولم يكن المعز حين نسب نفسه إلى علي وفاطمة ، متجنبا على الحق والواقع ، فإنه أصبح من الثابت أن من ينكر نسب الفاطميين إلى علي وفاطمة ، متجاوز للحق ، مسرف في الباطل ؛ لأن إمامة الاستقرار ، أي انتقال الإمامة إلى إمام آخر بنص من الإمام السابق ، لم تنقض بموت علي بن أبي طالب .

وقد أوردنا في كتابنا « عيد الله المهدي » (١) أن الخليفة الفاطمي القائم (٣٢٢ — ٣٣٤ هـ) كان يعتبر الابن التعليمي أو الروحي للخليفة المهدي ، كما أن المهدي نفسه كان الابن الروحي ، لا الجسماني ، للإمام الإسماعيلي المستور ، وهو الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل . وبهذا نستطيع أن نقول إن دفاع المعز عن نسبه ، دفاع يقوم على أساس تاريخي صحيح . ولاغرو ، فهو ابن المنصور بن القائم بن الحسين كما تقدم .

وقد صرح المعز نفسه بما يؤكده أن المهدي من غير تلك الشجرة التي أنجبت القائم ، فيقص على أبي حنيفة النعمان ، قاضي قضائه ، كيف أن زوجة المهدي ( ولم يقل جدته أو امرأة جده ) « كانت تقول لولد المهدي ونسأله بعد وفاته : والله لقد خرج هذا الأمر ( أى الإمامة ) من هذا القصر ، يعنى قصر المهدي بالله ﷺ ، فلا يعود إليه أبدا ، وصار إلى ذلك القصر ، يعنى قصر القائم بأمر الله ص ، فلا يزال فى ذرية صاحبه ما بقيت الدنيا » .

وإن فى هذا التصريح ما يدل على أن قصر المهدي غير قصر القائم ، وأن ذرية المهدي غير ذرية القائم . ولو أن القائم كان ابن المهدي حقا ، لما قالت زوجة المهدي « فلا يزال هذا الأمر ( أى الإمامة ) فى ذرية صاحبه ، أى القائم ، لأن ذرية القائم يجب أن تكون ذرية المهدي إذا كان أبا القائم حقا ، وهو ما لم تقصد إليه زوجة المهدي . ومن هنا تتبين بطلان ما ذهب إليه بعض العلماء السنيين الذين يقولون ، إن المعز لدين الله لما وصل إلى مصر ، عجز عن أن يثبت لبعض الأشراف صحة نسبه إلى عليّ وفاطمة . فيذكر ابن خلكان (٢) أن جماعة من أهل مصر طعنوا فى هذا النسب ، حتى إن المعز لما وصل إلى مصر اجتمع به بعض الأشراف ، فسأله أحدهم ، وهو ابن طباطبا : « إلى من ينتسب مولانا » ؟ فأجابته المعز بأنه سيعقد مجمعا يضم كافة الأشراف ، ويسرد عليهم نسبه ؛ حتى إذا ما انعقد المجلس فى القصر ، سلّ المعز سيفه إلى النصف ، وقال : هذا نسبي ، ثم غمرهم بالذهب الكثير . وقال : هذا حسي . ومن هنا نشأ القول المأثور وسيف المعز وذوبه ، إشارة إلى بطلان الشيء . أو إلى

(١) ص ١٦٩ .

(٢) وفات الأعيان ج ٢ ص ٢٠٠ .

أنه مأخوذ كرها ، (١) . ونستطيع أن نتبين بطلان هذا الرأي مما يلي :

أولاً: أن ابن طباطبا ، على ما ذكره دى سلان (٢) ، كان قدماء في سنة ٣٤٨ هـ ، أى قبل وصول المعز نفسه إلى مصر في سنة ٣٦٢ هـ بأربع عشرة سنة .

ثانياً: إن سياسة المعز لدين الله في بلاد المغرب ، منذ جلس على العرش في سنة ٣٤١ هـ إلى أن جاء مصر في سنة ٣٦٢ هـ ، كانت تقوم على التصريح بصحة نسبه إلى علي وفاطمة ، حتى يستطيع أن يوجه ضرباته إلى منافسيه السنيين ، عباسيين كانوا أو أمويين ، كما يستطيع أن يجذب إليه الرعايا والأتباع الذين يحوِّطون دولته بسياج من المنعة والقوة . وكان المعز أشد احتياجاً إلى هذه المنعة في مصر .

ثالثاً: إذا كانت هذه العبارة قد جاءت على لسان المعز ، كان ذلك كافياً لإسقاط دولته وإزالة خلافته . وإذا علمنا أنه قد جاء مصر ليصد عنها جيوش القرامطة ، الذين أعلنوا من منابر الشام أنه ينتسب إلى أبناء القداح ، فكيف يصرح مثل هذا التصريح الذي يتخذ منه خصومه سلاحاً يشهرونه في وجهه في مصر نفسها؟ أضف إلى ذلك أن هذه العبارة تتعارض مع ما ذكره المعز نفسه في رسالته التي بعث بها إلى الأعصم ، وفيها يقول: « ونحن ننتقل في الأصلاب الزكية ، والأرحام الطاهرة المرضية ؛ كل ما ضمنا صلب ورحم وأظهر منا قدرة وعلم ، وهلم جرا ، إلى آخر الجد الأول ، والأب الأفاضل ، سيد المرسلين ، وإمام النبيين ، أحمد ومحمد ، صلوات الله عليه وعلى آله (٣) » . فكيف يصرح المعز بهذا في رسالته هذه ، ثم يعجز عن إثبات نسبه إلى علي ، ويلجأ إلى سيفه وماله يحمي بهما ، ويقر على نفسه التهم التي رماه بها أعداؤه ؟ ولستنا بصدد بحث نسب المعز ، فإن فيما ذكرناه في كتابنا « عبيد الله المهدي » (٤) عن نسب الفاطميين ما يكفي .

ولما كانت الخلافة ، وهي السلطة العليا للدولة ، تقوم على الدعاية التي يعتمد عليها الفاطميون في نشر المذهب الإسماعيلي ، حرص الفاطميون ، ومنهم المعز ، على أن

(١) حمد إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ٦٩

(٢) Ibn Khallikan's Biographical Dictionary, vol. ii. p. 49.

(٣) المقرئى : اتعاظ الخفاص ص ١٢٥ .

(٤) ص ١٤٤ - ١٦٩ .

يختاروا لها أكثر أبنائهم كفاية في هذه السبيل . ومن ثم نراه ينصون على إمامة هؤلاء الأبناء الأكفاء ، ويجعلونهم أولياء عهودهم ، ويشركونهم في الأعمال السياسية والحربية : فعل ذلك المهدي مع القائم الذي كان ساعده الأيمن ، والقائم مع المنصور والمعز نفسه ، والمعز مع ابنه عبد الله زار ، الذي ولي الخلافة من بعده وتلقب بلقب العزيز بالله . وكان الخلفاء يُعنون بتثقيف أولياء عهودهم عناية فائقة ، حتى يكونوا أقدر على حكم الرعية .

وقد كشف المعز عن الخطة التي رسمها الخلفاء الفاطميون لينهضوا بشئون الرعية ، وكيف كان هؤلاء الخلفاء يسهرون على راحة رعاياهم ، وحمايتهم من أعدائهم ، فيقول : وللتناس شغل بديناهم وما يتلذذون به منها ؛ وشغلنا إقامة أودهم ، وصلاح أحوالهم ، والنظر فيما يعود عليهم ، ويحمي حماهم ، ويدفع عن بضعهم ، ويحقق دماءهم ، ويحصن حريمهم وأموالهم ، ويكف أيدي المتطاولين إليهم بذلك . نقطع ليلنا ونهارنا ، وهم عن ذلك بمعزل ، ومنه في غفلة ، بما هم فيه متشاغلون ؛ فمتى أردنا منهم أمرا لا بد لنا منه ، رفعوا رموسهم كما ترفع الغنم رموسها عند زجرة الراعي من مرعاها ، وتكلم المتكلم منهم بما لا يعنيه ، وأنكر الجاهل بما لا يدريه . والله المستعان على ما قلناه من أمورهم ، وافترضه علينا من القيام بأسبابهم ، وزغب إليه في إصلاحهم وهدايتهم إلى ما فيه حظهم ونجاتهم ، في دنياهم وأخراهم ، (١) .

هكذا كانت الخلافة ، وهكذا كان الخلفاء : يشقون لصلاح الرعية . وهذا يفسر مدى ازدياد نفوذ المعز ، وما ناله من نصر وظفر في فتوحه شرقا وغربا . وهكذا كان الخلفاء الفاطميون يعتقدون أن الخلافة منصب تحف به المتاعب ؛ لكن الله قلدهم إياه ، وفرضه عليهم ؛ لأنهم من سلالة الرسول . وقد وصف المعز مركز الخلفاء الفاطميين من رعاياهم في هذه العبارة ، فقال : والله ما ننال من الدنيا إلا دون ما يناله كثير من سائر الناس فيها ؛ وإن أكثرهم لياكل ويشرب منها فوق ما نأكل ونشرب ، وإنا لنلبس ويلبسون ، ونركب ويركبون . وإنا مع ذلك لتتعب لصلاح أحوالهم ، ودفع الضراء عنهم وهم وادعون . وقليل من يعرف لنا ذلك منهم فيشكره ، بل أكثرهم يحمل ذلك ويكفره . ولو كان ذلك منا لهم لتركتناه ،

(١) الثمان : المجالس والمساربات - ١ - من ١٤٣ - ١٤٤ .

ولكنه شيء اقترضه الله تعالى علينا وأزمنناه . (١) .

وليس من شك في أن المعز لدين الله ، باعتباره خليفة علويا ، كان يجمع في يده كافة السلطات ؛ فكان المحرك لجميع أعمال الدولة : يقلد الولاية على الأقاليم ، ويزودهم بنصائحه . ولم يعتمد على غيره في تعيين هؤلاء الولاة ، بل كان يختارهم بنفسه من يثق بهم . ويعتمد عليهم ، ويعمل في الوقت نفسه على أن تصل إليه أخبارهم من حين إلى حين ، حتى لا ينحرفوا عن جادة الصواب . وكذلك كان المعز لدين الله الرئيس الاعلى للجيش ؛ يعين كبار قواده الذين مهروا في الفنون الحربية ، وعرفوا بإخلاصهم . وكثيرا ما كان يضع لقواده خطط الهجوم ، كما رأينا في حملات جوهر على بلاد المغرب ومصر ، ويشرف بنفسه على القضاء والشرطة ، ويعتمد في ذلك على رجال يقومون بتنفيذ أوامره ، من أمثال أبي حنيفة النعمان المغربي قاضي قضائه .

وكثيرا ما كان المعز ينظر في المظالم بنفسه ، وينصف المظلومين . فمن عدله ما حكى عنه ، أن زوجة الإخشيد الذي كان ملك مصر ، لما زالت دولتهم ، أودعت عند يهودى ببغلقا (٢) كله جوهر . ثم فيها بعد طالبته فأنكر ؛ فقالت : خذ كم البغلقاق وأعطني ما فضل ، فأبى . فلم تزل به حتى قالت : هات الكم وخذ الجميع ، فلم يفعل . وكان في البغلقاق بضع عشر درة ؛ فأنت المرأة إلى قصر المعز ، فأذن لها ، فأخبرته بأمرها ، فأحضره وقرره فلم يقر . فبعث إلى داره من خرب حيطانها ، فظهرت جرة فيها البغلقاق . فلما رآه المعز تحير من حسنه ، ووجد اليهودى قد أخذ من صدره درتين ، فاعترف أنه باعهما بألف وستمائة دينار ؛ فسلبه المعز بكماله للمرأة . فاجتهدت أن يأخذها المعز هدية أو بشمن ، فلم يفعل ؛ فقالت : يا مولاي ! هذا كان يصلح لي وأنا صاحبة مصر ، وأما اليوم فلا . فلم يقبله المعز ، وأخذته وانصرفت (٣) .

ولم يكتف المعز بذلك ، بل اتخذ من جوهر الصقلي مستشارا أو وزيرا يعاونه في إدارة البلاد . ولم يهمل شئون الدعوة ، بل كان يتعهدا في بلاده ، وعلى

(١) النعمان : المجالس والمسايرات ج ١ ص ١٧٧ .

(٢) البغلقاق يقبه المضربية (على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٥٢) .

(٣) أبو المحاسن : لنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٨ .

الأخص في المنصورية ثم في القاهرة ؛ فبعين كبار الدعاة ، ويزود هؤلاء الرؤساء الدينيين ببعض كتب الباطن يلقونها الأشياح . كما كان على اتصال دائم بدعائه في المشرق والمغرب ، وبخاصة بلاد اليمن وفارس ، حتى أصبح له بكل بلد كثير من الاتباع والانصار ؛ كما وجه همته إلى مصر والحجاز والشام تلبية لنداء أنصاره ورغبة في نشر دعوته . وكان لرواج هذه الدعوة في المشرق أثره ، حتى قال بعض خواص المعز ذات يوم : « ما يمنع أمير المؤمنين من المشرق ، ولا يحول دونه ، إلا أنه لم ير العزم في أمره ؛ فأما لو عزم على ذلك لما حال دونه حائل (١) » . ومن ثم نبغ في عهد المعز عدد غير قليل من كبار رجال الدعوة وأدائها ، من أمثال جعفر ابن منصور اليمن ، صاحب المؤلفات الرائعة في المذهب الإسماعيلي ، وأبي حنيفة النعمان المغربي ، الفقيه الإسماعيلي التابعه الذكر .

وكان المعز وهو بالمنصورية أكثر اتصالا برعاياه . ولا غرو ، فإنه كان يعيش بين أنصاره الذين نشأ بينهم ، واختلط بهم ، واختلف إليهم . وقد وصف النعمان كيف كان المعز ومن جاء قبله من الخلفاء الفاطميين يقضون يومهم في المغرب ، فقال : « إذا أصبح خرج من منزله وجلس في مجلسه ، ودخل إليه خاصة أوليائه وخدمه . فلا يزال جالسا إلى أن ينتصف النهار ويحضر وقت الغداء ، وهو يطيل ذلك في وجوه ما يأمر به ، ويحكمه من أمر المملكة ، والحديث في مثل هذا من العلم والحكمة . وإذا حضر وقت قيامه دخل فطعم ، وصلى ونام نومة ، ثم قام فصلى العصر ، وخرج إلى مثل ما كان عليه . ولا يزال كذلك إلى الليل ، ثم يدخل ، ويحضر خاصته ، وينظر في الكتب والعلوم ، ويؤلف الكتب أكثر ليله . فهذا دأبه ، إلا أن يخرج في بعض الأيام لما يخرج إليه من اطلاع الناس والتفرج ؛ فيركب في صدر النهار ، ثم يعود فيجلس في آخره (٢) » .

أما في القاهرة فلم يكن المعز يأنس إلى المصريين كما كان يأنس إلى المغاربة في بلاد المغرب . أضف إلى ذلك أن رجال كتامة وغيرهم من المغاربة في مصر ، كانوا رجال عمل : ففهم المحارب في الجيش ، والشرطي ، والمالي ، فلم يجد المعز في

(١) النعمان : المجالس والمسائرات ج ٢ ص ٤٧٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٠٩ — ٤١٠ .

هؤلاء ولا في رعاياه من المصريين ما يتيح له الظهور أمامهم، كما كانت الحال في بلاد المغرب. وهذا يفسر لنا سبب اتخاذ المعز السرايبي في قصوره، حيث يحتج عن أنظار الناس من حين إلى حين. ولا يبعد أن يكون ذلك الاحتجاب بقصد النسك والتعبد.

وهكذا كان المعز لدين الله يمثل، وهو في الخلافة، دور الحاكم المستنير، الذي يبذل جهده في النهوض ببلادها، ويشرف على صغير الأمور وكبيرها.

ويعد المعز لدين الله المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية، كما كان عبد الملك بن مروان في الدولة الأموية، وأبو جعفر المنصور في الدولة العباسية، لأنه وضع نظم الحكم التي سار عليها الخلفاء الفاطميون من بعده؛ وحذا حذوهم الأيوبيون والمماليك، كما انتشل هذه الدولة من الأخطار التي تعرضت لها في عهده.

#### (ب) الوزارة:

كانت الوزارة من أهم مناصب الدولة الفاطمية، إلا أن أهميتها الحقيقية لم تظهر تماما في عهد المعز لدين الله ولا في عهد من جاء قبله من الخلفاء؛ ويرجع ذلك إلى رغبة هذا الخليفة في جمع كل السلطة في يده. ولم يشأ الفاطميون في الدور المغربي (٢٩٦-٣٥٨ هـ) أن يعيروا رتبة الوزارة أي شيء من الأهمية. وكأنه عز عليهم أن يشاركون أحد في رئاسة الدولة. وليس معنى ذلك أن الفاطميين في الدور المغربي لم يستعينوا بغيرهم ليقوموا بعمل الوزراء، فقد اتخذ هؤلاء الخلفاء ممن يتقونهم من يقومون بعمل الوزير، وإن لم يتسم كل منهم باسم الوزير.

من ذلك ما نراه في عهد المهدي (٢٩٦-٣٢٢ هـ) الذي أمّن عبد الله بن القديم، أحد رجالات بني الأغلب، واستعان به في كثير من الأمور، فوكل «إليه النظر في جميع الدواوين والأعمال». وظل هذا الرجل على تلك الحال حتى اشترك مع الساخطين من أصحاب أبي عبد الله، وذهب ضحية اشتراكهم معهم. ومع ذلك لم نعرف أنه تلقب بلقب الوزير. وقد استعان المهدي والقائم والمنصور جميعا بأبي جعفر بن محمد بن أحمد البغدادي<sup>(١)</sup>؛ فوكلوا إليه تدبير الملك، والنظر في كبار الأمور وصغارها.

(١) كان أبو جعفر أحمد البغدادي من نواحي عصره، فكان شاعرا، كاتباً، ذكياً، لساناً. وقد سادت العلاقة بينه وبين الوزير العباسي، علي بن عيسى، وزير المقتدر. ولما عزم هذا الوزير

فكان ينظر في شئون الدواوين جميعها ، ويشرف على الموظفين ، أى أنه كان يعمل عمل الوزراء ، وإن لم يكن قد تسمى باسم «الوزير» ، وذلك على الرغم من أن المهدي امتحنه ، حتى عرف عقله وعلمه ، فوجده كاتباً كاملاً حسن الفهم والبيان ، ثابت العقل ، يصلح أن يكون وزيراً (١) .

أما جوهر الصقلي ، فإن المعز ، على ما قيل ، اتخذ وزيراً له في سنة ٣٤٧ هـ . والواقع أن هذا القائد كان موضع ثقة المعز الذي لقبه بلقب «جواهر الكاتب» ، في السنة التي ولي فيها الخلافة ، أى في سنة ٣٤١ هـ . ولا يعزب عن الأذهان أن الكتابة في ذلك الحين كانت لا تقل خطراً عن الوزارة ؛ فقد كان يعهد إلى جوهر الكاتب بالإشراف على جميع دواوين الدولة ، وعلى الموظفين كافة . ولذلك لما قلده المعز لدين الله الوزارة ، لم تزد اختصاصات وظيفته وهو وزير عما كانت عليه في عهد تقلده الكتابة . ومهما يكن من شيء ، فقد كانت الكلمة العليا للمعز أولاً ، ثم لجوهر الصقلي ثانياً ، حتى إننا نرى المعز يحيل النعمان قاضى قضائه وغيره من كبار موظفيه على جوهر الكاتب ، ثم على جوهر الوزير بعد ذلك .

وليس من شك في أن وزارة جوهر في عهد المعز لدين الله ، كانت وزارة تنفيذ ، لا وزارة تفويض ، بمعنى أن مهمته كانت مقصورة على تنفيذ أوامر الخليفة ، والالتزام بجميع أوامره ، وعدم الاستبداد بأمر من أمور الدولة دونه . فلم يكن جوهر في مركزه يتمتع بما يتمتع به وزير التفويض ، الذي يفوض إليه الخليفة النظر في جميع شئون دولته ، والتصرف فيها دون الرجوع إليه في شيء . ووزراء التفويض في وزاراتهم أشبه بالملوك المستبدين في دولهم . ويعتبر البرامكة في عهد الرشيد ، وبنو سهل في عهد المأمون ، من وزراء التفويض . وكذلك يعتبر وزراء

---

على قتله ، فر إلى بلاد المغرب ، ووصل إلى سجلماسة ، ومدح عبيد الله المهدي بقر القصاص ، وقال إيجابه . فأخذ العهد عليه ، وأمره بالهرب إلى الأندلس . ثم العود إلى إفريقية إذا ما قامت الدولة الفاطمية فيها . وقد لبى البغدادي أوامر المهدي وعاد إلى إفريقية ، حين رفع أبو عبد الله الشيعي علم الفاطميين في رقادة ، ولم يستطع أن يستد المهدي إليه النظر في الأمور كبيرها وصغيرها ، أو أن يترك له الأعمال في الدواوين ، لأن ابن القديم كان يقوم بها عند وصول البغدادي إليها .



بيت بدر الجمالي ، ومن خلفهم في الوزارة في الدولة الفاطمية . وبعبارة أخرى ، فإن الوزراء العظام كانوا منذ تقلد بدر الجمالي الوزارة إلى أن تقلدها أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي ، وزراء تفويض لا وزراء تنفيذ .

ويظهر أن المعز لدين الله ، على الرغم من استبداده بكافة شئون دولته ، رأى أن يقلد العباسيين الذين اهتموا بمنصب الوزارة منذ قيام دولتهم ؛ فاتخذ السفاح أبا سلة الخلال وزيرا ، وكذلك حاول المنصور أن يتخذ من خالد بن برمك وزيرا . وكأن المعز لدين الله قلد العباسيين في الاستعانة بوزير لم تعد اختصاصاته اختصاصات وزير التنفيذ في العصر العباسي الأول . ومعنى ذلك أن رتبة الوزير قد ظهرت في الدولة الفاطمية في الدور المغربي .

أما عن الوزارة في مصر في عهد المعز لدين الله ، فإن جوهر الصقلي لما فتح هذه البلاد ، لم يقلد الوزارة واحدا من المغاربة ، بل أقر الوزير جعفر بن الفرات ، الذي كان قد تقلد الوزارة في عهد الإخشيديين ، في منصبه . وقد ذكر المقرئ<sup>(١)</sup> أن جوهر أرسل الكاتب « إلى أبي الفضل جعفر بن الفرات الوزير ، وجماعة من وجوه الدولة ، وخطب ابن الفرات في كتابه بالوزير بعد مراجعة . وكان قد توقف في مخاطبته بالوزير ، وقال : ما كان وزير خليفة . »

وعلى الرغم من اعتراف جوهر بأن ابن الفرات لم يكن وزير خليفة ، وإنما كان وزيرا للأمراء الإخشيديين ، نظر إليه باعتباره سنيا مغاليا ، وأن مولاه المعز علوى . ومع ذلك شعر جوهر بالحاجة إلى خدمات هذا الوزير ، حتى يستطيع تدريب المغاربة على الأعمال الحكومية وحتى لا يحدث عزله اضطرابا في إدارة هذه الدولة الناشئة .

وقد نسأل عن السبب الذي حدا جوهر الصقلي على إبقاء الوزير ابن الفرات في وزارته دون أن يعزله ، أو يقلد الوزارة أحدا من المغاربة أو العلويين المصريين مكانه على الأقل . يظهر أن جوهر أدرك أنه في حاجة إلى الاستقرار من الناحية الحربية والإدارية والمذهبية . أما من الناحية الحربية فإن المنشور الذي أذاعه على المصريين وعلى الكافورية والإخشيدية ، قد ساعد كثيرا على استقرار نفوذ الفاطميين

(١) أمناظ الخنفا من ٧٠ .

في مصر . وأما من الناحية المذهبية ، فقد رأى جوهر أن يشعر المصريين ، وكان أكثرهم من أهل السنة ، أن الفاطميين قد وطدوا العزم على أن لا يتعرضوا لهم ولمذاهبهم السنية بسوء .

كما رأى جوهر أنه لو أقدم على عزل الوزير من منصبه ، وكذلك على عزل سائر الموظفين السنيين ، وإحلال المغاربة وغيرهم من أنصار الفاطميين محلهم ، فإن ذلك يحدث اضطرابا عاما في إدارة الأعمال الحكومية ، كما تقدم . أضف إلى ذلك أنه قد لا يكون هناك من بين المغاربة من يستطيعون أن يتحملوا أعباء الأعمال الإدارية في مصر . وإذا علمنا أن مصر كانت من قبل منظمة في إدارتها ، وأن العرب حين فتحوها على يد عمرو بن العاص ، لم يستطيعوا عزل القبط من وظائفهم ، بل أبقوهم فيها ، مع اختلافهم وإياهم في العقيدة الدينية ، وأن تلك الإدارة ظلت بعد ذلك على ما كانت عليه ، وبخاصة في عهد الطولونيين والإخشيديين - إذا علمنا ذلك ، أدركنا لماذا آثر جوهر أن يبقى النظام الإداري في مصر على ما كان عليه .

وقد رأى جوهر الصقلي أن يشق لنفسه طريقا وسطا بين الإدارة السنية والإدارة الشيعية . فبينما تظاهر بالإبقاء على الموظفين المصريين في وظائفهم ، إذا به يشرك مع كل موظف مصري موظفا آخر مغربيا ، ليدرب هؤلاء المغاربة على أعمال الدولة ؛ حتى إذا ما مرن أنصار الفاطميين على الإدارة ، أقرهم في وظائفهم . وكان أن جوهر كان يعمل على خاق جيل جديد من الموظفين ، يستطيع الفاطميون أن يعتمدوا عليه في تلك المرحلة الدقيقة من مراحل حياتهم السياسية . وإن هذه السياسة التي سلكها جوهر في إدارة البلاد المصرية كانت لونا من ألوان السياسة التي سار عليها الفاطميون ؛ فإن بقاء موظف مغربي مع موظف مصري يبعث دائما طائفة الموظفين على التقرب إلى الفاطميين ، باعتقاد مذهبهم وإظهار التودد إليهم ، وعدم معارضتهم في شيء . وهذا منتهى ما تصبو إليه نفس الحاكم . لذلك لا نغلو إذا قلنا ، إن هذه الطريقة قد صادفت كثيرا من النجاح في جذب كثير من الموظفين السنيين وغيرهم إلى المذهب الإسماعيلي ، مذهب الفاطميين .

وقد أدت سياسة جوهر الصقلي هذه إلى إضعاف سلطة الوزير ابن الفرات إلى حد بعيد ؛ فقد أشرك معه خادما يسير في ركابه أتى سار ، ويتبعه في غدواته

وروحاته ، ويتجسس عليه ، حتى لا يكون خطرا على هذه الدولة الناشئة . يقول المقرئى (١) : ووكل جوهر ، وابن الفرات خادما يبيت معه في داره ، ويركب معه حيث سار . وهذه العبارة التي أدلى بها المقرئى لا تترك مجالاً للشك في أن سلطة الوزير ابن الفرات قد زالت أو كادت ، وأنه إنما سمح له بالبقاء في مركزه لإرضاء شعور السنين لاغير (٢) .

وبهذا نرى أن رتبة الوزير قد استمرت في مصر في عهد المعز ، وأن ابن الفرات ، بعد أن كان وزيراً للأمرام أصبح وزيراً للخلفاء الحقيقيين ، كما ذهب إليه جوهر . إلا أنه كان وزير تنفيذ لا وزير تفويض ، لخلافة شيعية يدين أنصارها بعقائد المذهب الإسماعيلي التي تختلف مع عقائد المذاهب السنية التي يدين بها هذا الوزير . لذلك لم يستطع ابن الفرات أن يحتفظ بذلك النفوذ الذي كان يتمتع به في عهد الإخشيديين .

وقد حز في نفس ابن الفرات أن يرى نفسه مسلوب السلطة ، حتى إنه لم يبق له من الوزارة إلا اسمها . لذلك انتهز فرصة قدوم المعز لدين الله إلى مصر ، وعرض عليه استقالته من الوزارة . يقول ياقوت (٣) : إن المعز لدين الله حاول أن يثنيه عن عزمه فرفض ، واعتذر عن عودته إليها ثانية ، فلم ير المعز بدا من قبولها . وما يدل على أن الفاطميين لم يرغبوا في بقاء ابن الفرات في الوزارة إلا للاستفادة من خبرته وخدماته ، أن الخليفة المعز بعد أن قبل استقالته ، أظهر له ورغبته في ضرورة بقاءه في البلاد المصرية بعد اعتزاله ، ليستأنس برأيه في مهام الأمور ، فأجابه إلى ذلك (٤) . وهذه السياسة التي جرى عليها المعز تتفق تماماً مع السياسة التي جرى عليها جوهر مع الموظفين المصريين قبل وصول المعز إلى مصر بأربع سنين .

(١) اتعاظ الخفاص ص ٨٥ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٨٠ .

(٣) إرشاد الأريب ج ٣ ص ٤١١ .

(٤) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٨٠ .

ويظهر أن ابن الفرات كان يشعر بشيء من الغضاضة ، لاغتصاب السلطة من يده ، ويأنف بعض الأنفة من الحكم الفاطمي . وإلا فبم نفس تقاعده عن لقاء المعز لدين الله عند قدومه إلى مصر ، ورفضه بادية الأمر مقابلته في الإسكندرية مع غيره من السنين والشيعيين المصريين ، غير مكترث بما قد يجره هذا الامتناع عليه وعلى السنين جميعا في مصر من اضطهاد الفاطميين ؟ الواقع أن تدخل كبار السنين من المصريين ، ونصحهم للوزير بالعدول عن هذا العمل ، قد حال دون الوقوع فيما كانوا يخشونه من أعمال العنف والقوة . فقد أتوا إليه في الليلة السابقة ليوم وصول المعز إلى القاهرة . واتهموه بتعريض أرواح السنين للخطر ، وتهيشة الأسباب التي تحمل الفاطميين على الانتقام والتشفي . فلم يكن بد إذا من أن يذعن الوزير لهم . حتى إذا ما بزغ صبح اليوم التالي ، دخل فيمن دخلوا على الخليفة المعز . وقد حاول الخليفة أن يتلسس وسيلة للإيقاع به ، واتخاذ الشدة والعنف معه ، فسأله قائلا : أجمع الشيخ ؟ قال : نعم ! فقال الخليفة : وزرت قبر الشيخين ( أبي بكر وعمر ) ؟ وكان الوزير ذكي الفؤاد حاضر البديهة ، فأجابه على الفور : « شغلني عنهما رسول الله ﷺ ، كما شغلني أمير المؤمنين عن السلام على ولي العهد ، السلام عليك يا ولي عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته ! » (١)

لم يكن بد من أن يلغى المعز وزارة ابن الفرات ، إلا أنه لم يقبل استقالة هذا الوزير ليحل محله وزيرا آخر . فتراه في المحرم من سنة ٣٦٣ هـ . يسند إدارة شئون الدولة الحربية والمدنية إلى يعقوب بن كلثوم اليهودي الأصل ، وعسلوج بن الحسن المغربي . وكان في إسناد المعز هذه الأعمال إلى هذين الرجلين القضاء التام على ما كان لابن الفرات من سلطة ونفوذ .

وقد بقي هذا الوزير طول أيام المعز في مصر ( ٣٦٢ - ٣٦٥ هـ ) بعيدا عن الوزارة ؛ ولكنه ظل في الوقت نفسه على اتصال بـ يعقوب بن كلثوم ، الذي حل محله في أعمال الوزارة في عهد المعز ، ثم تقلد الوزارة نفسها في عهد العزيز . وترجع هذه العلاقة الطيبة التي قامت بين هذين الرجلين المتنافسين ، إلى زواج أبي العباس الفضل ابن الوزير جعفر بن الفرات من ابنة يعقوب بن كلثوم ، مما ساعد على تقوية أواصر

(١) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٨٤ - ١٨٥ .

الود والصداقة بين هذين الرجلين في عهد المعز ثم في عهد العزيز، حتى إن ابن الفرات كان يغدو ويروح إلى ابن كلس الذي أولاه ثقته ؛ وكثيرا ما كان يعول عليه في محاسبة العمال ويجالسه ، ويدعوه إلى تناول الطعام معه (١) .

وهكذا مرت حياة ابن الفرات في عهد المعز لدين الله في دورين : دور كان يتمتع فيه باسم الوزارة ، وذلك قبل حضور المعز لدين الله إلى مصر ، ودور ضعف فيه نفوذه ، فأصبح كعمامة السنين الذين أقصوا عن وظائفهم . ولكنه كان مع ذلك يتمتع برضاء ابن كلس وكبار موظفي الدولة الفاطمية .

على أن حياة ابن الفرات الإدارية ، لم تنته بموت المعز ، فقد تقلد الوزارة في عهد العزيز مرتين ، وشغل وظيفة صاحب الخراج ، ومات في سنة ٣٩١هـ (١٠٠١م) ، بعد أن قام بدور هام في تاريخ الوزارة في عهد الإخشيديين والفاطميين .

## ٢ - النظام الإداري

### (١) ولاية الأقاليم

#### ١ - في بلاد المغرب :

تكلمنا في شيء من الإسهاب على الحكومة المركزية ، التي كانت تتركز السلطة فيها في يد الخليفة ، باعتباره الرئيس الأعلى للدولة ، ثم في يد الوزير ، الذي كان يستمد سلطته من الخليفة . والآن نأخذ في الكلام على نظام الإدارة في الأقاليم الفاطمية .

وضع الفاطميون لحكم ولاياتهم نظاما يقوم على الاعتماد على أنصارهم المواليين لهم . وكان اهتمام المعز لدين الله بحكم هذه الولايات أكثر من اهتمامه بالحكم المركزي ، لأنه أدرك أن رفاهية دولته وعظمتها إنما تقوم على استتباب الأمن والنظام في الأقاليم . ومن مظاهر الحكم في هذه الولايات في عهد المعز ، أنه استعان بأبناء أنصار الدعوة الأوائل ، وأخذهم بالشدة إذا أهملوا أو أساموا ، وشجع

المحسن منهم بترقيته والإدرا له . وهذا استطاع المعز أن يشعر الولاة بالخرف منه ، ويملا نفوسهم بالرجاء فيه .

أما تقرب المعز إلى أبناء الأنصار ، فتراه في تعيين جماعة من الشبان في المناصب التي كان يشغلها آباؤهم . الذين كان لهم فضل في حكم بعض الولايات في عهد المهدي والقائم والمنصور ، ليحيي فيهم إخلاص هؤلاء الآباء لدعوته ودولته ، ويستغل ذلك الإخلاص في استتباب الأمن في بلاده . وقد زودهم المعز بنصائحه ، فقال لهم : ولما أردنا أن تصل عوارف آباتنا ( ص ) من أسلافكم فيكم ، ونحيي ذكرهم بكم ، ونلم شعتم ، ونرفع من حالكم . فكونوا حيث نريده منكم ، ونقدره من الخير فيكم ؛ فأعينونا على ما أردناه من الخير بكم ، بصالح أعمالكم ، وحسن نياتكم وطوبىاتكم . فإننا نقدر على تغيير حالكم ، وسد فقركم ، وأن نغنيكم ؛ ولا نقدر على صلاح ما تفسدونه من أنفسكم ، إذ أنتم لم تقبلوا على أمرنا إياكم . ووعظنا لكم . فما السعيد كل السعيد إلا من قبلنا ، وامثل أمرنا وأطاعنا ، ولا الشقي إلا من خالفنا ، وارتكب نهينا . وما نريد بكل ما نفعه فيكم مما تحبون . أو تكرهونه ، وتعرفونه أو تنكرونه ، إلا صلاحكم ، والخير لكم في دنياكم وأخرآكم . إن أحسننا إلى من نحسن إليه منكم ، ورفعنا من رفعه ، وأنعمنا على من نعم عليه ؛ فما نريد منه بذلك إلا أن يعرف فضلنا فيشكره ، ويعمل من صالح العمل ما يستدعيه ، ويمتري (١) منا المزيد عليه ، ويصل إلى رضوان الله ، ويرضى بنا عنه . وإن عاقبنا من نعاقبه ، فما نعاقبه إلا تأديبا له ، وليرجع عما أنكرناه عليه ونقمناه من أمره . إلى ما يرضى الله تعالى عنه ، ويرضينا منه ، فيسعد بذلك في الدنيا والآخرة . وإن قتلنا منكم من قتلته ممن يجب القتل عليه ، ولا يسعنا أن نقيه ، فما ذلك منا فيه إلا تطهيراً له ، وتمحيصاً لذنوبه . وكل ما تجرى به أمورنا فيكم ، فهو صلاح لعامتكم (٢) .

من هذا نرى أن المعز كان يعمل على إشعار عماله وموظفيه ، بالقوة واللين في وقت واحد ، ويدخل في روعهم أنه يرقب أعمالهم ، ويجعلهم يؤمنون بأنهم هم والخليفة إنما يعيشون لإسعاد العامة وحمايتهم . وأهم من ذلك أنه أراد أن يجعل العامل

(١) يمتري : يستدر .

(٢) الثعالب : المجالس والمساربات ٢٣ من ٤٣٥ — ٤٣٧ .

يشعر بتبعيته وخضوعه للدولة ، سواء أكان ذلك في حالة الرضا عنه أو السخط عليه .  
ولست هذه دكتاتورية ممقوتة ، وإنما هي القوة في الحق ؛ إذ كانت رغبته  
تركز في الإبقاء على العامل الصالح ، ونبت العامل الذي لا يجره التصحح ولا يردعه  
ترهيب أو تخويف . يدل على ذلك ما قاله بعض عمال المعز في حضرته ، وردده  
عليهم : « نحن يا أمير المؤمنين عبيدك وصنائعك ، والمعترفون بفضلك ؛ فما  
أصبنا بتقويمك وتأييدك ، وما أخطأنا فيه ، فنحن نرجو فيه رأفتك ورحمتك . »  
لقال لهم : « بعصمكم الله من الخطأ بتأديبنا وتقويمنا ، إذ لا نرى لأحد منكم زلة  
إلا نهناه ، ولا غفلة إلا أيقظناه ، ولا تخلفا إلا حركناه ، ولا تقصيرا إلا وعظناه .  
فليس يهلك مع هذا إلا الشقي الذي غلبت عليه شقوته ، والله يفيدكم بولايتنا وجميل  
رأينا فيكم (١) . »

ومما هو جدير بالملاحظة أن المعز لم يكن يعنى بمبدأ الوراثة في اختيار عماله ، بل  
كانت الكفاية هي المؤهل الوحيد لولاية الأقاليم . أضف إلى ذلك أنه لم يكن يترك  
انتخاب عماله لغيره ، بل كان يضطلع بذلك الأمر دون غيره . وإذا كان المعز قد عنى  
بأبناء أنصار الدعوة من كتامة وسواهم ، فإن ذلك يدل على الإمام هذا الخليفة بحال  
من يرشحهم من العمال قبل تعيينهم ، كما يدل في الوقت نفسه على أنه كان يستعين  
بجاسوسية منظمة ، تدم بصور صادقة عن رعاياه . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ،  
كان المعز يعزل عامله إذا أخفق ، وكان عماله يدبرون ولاياتهم بدافع الخوف منه ،  
فما يدل على مراقبة المعز التامة لحكومته المركزية وولاياته في الشرق والغرب .

انظره وقد قلد جماعة من رجال دولته الولايات المختلفة ، ولم يكن قد سبق لهم  
الإشراف عليها ، ومع ذلك كان يعلق نجاحهم على ميلهم إلى إرضائه ، وخوفهم  
من غضبه ، كما يتبين ذلك من هذه العبارة التي جاءت على لسان المعز : « ما نظرنا إلى  
أحد نظر خير إلا تبين ذلك فيه . . . فما دام يعلم فضل النعمة عليه ، ويعترف  
بفضلنا عنده ، ويتحرى رضانا ، ويحذر سخطنا ، لا يزال على خير ؛ وبقدر  
ما يعتقد من ذلك ويتحراه يرتقى في الدرجات ، (٢) . »

(١) الثمنان : المجالس والمساربات ج ٢ ص ٥٨٦—٥٨٧ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٧٣ .

على أن المعز كثيرا ما كان يعنى بمبدأ الوراثة عند تعيين عماله . إذا توسم الكفافية في أبناء الولاية . ومهما يكن من شيء ، فقد وضع المعز لحكام الولايات دستورا حافلا بالمبادئ التي تكفل حسن إدارة الولايات المختلفة . ومن أهم هذه المبادئ : إشعار العامل أنه وليد نعمة الفاطميين ، وريب أفضالهم ، ومنها الوعد والوعيد : يعد العامل بالترقية إن أحسن ، وبالعقاب ، بل القتل إن أساء ووقع فيما نهى الفاطميون عن الوقوع فيه . ومنها إشعار العامل أن الدولة تناصره مادام على حق ، وتخذله إذا ساد عن الطريق القويم . وليس هذا وحده ، بل كان المعز يطلب إلى العمال أن يطلعوه على أعمالهم ، ليزودهم بنصحه وإرشاده ، كما كان يحتم عليهم أن يقيموا العدل بين الرعية ، فيوحى إليهم أن يجعلوا الحق نبراسا ، والعدل متارا ، وأوامر الخليفة ونواهيه نصب أعينهم في كل حين (١) .

وعلى الرغم من هذه العناية الفائقة ، والرقابة المستمرة على العمال ، وجد المعز في النهاية عمالا يسرفون في ظلم الناس ، وانتحل لنفسه المعاذير في فساد هؤلاء العمال ، الذي عزاه إلى وجود جماعة تسمى "العامل" وتقتصر له ، وأخرى تسمى إلى سمعته عند الخليفة ، الذي لم يجد من سبيل للوقوف على حقيقة الحال في هذه الولايات ، إلا بإمهاهم وقتا يستطيع فيه أن يقف على مدى تقدم الولايات ، أو تأخرها في عهدهم . ثم يرى فيهم بعد ذلك رأيه ، فيقرهم أو يعزلهم .

ويقوم النظام الأساسي الذي سار عليه الفاطميون في بلاد المغرب ، على تقسيم هذه البلاد أقساما رئيسية ، يختار لإدارة كل منها شخص يتقون به ، ويجعلون مركزه مدينة كبيرة متوسطة ، بحيث يستطيع العامل الإشراف منها على سائر جهات الولاية . وقد قسم الفاطميون بلاد المغرب قسمين رئيسيين : يشمل أولهما إفريقية ، (وهي بلاد تونس الحالية) ، ويشمل الثاني سائر بلاد المغرب الخاضعة للفاطميين ، وينقسم إلى عدة ولايات . ولما ولى المعز لدين الله ، لم يحدث شيئا من التعديل في تقسيم الولايات الفاطمية في بلاد المغرب .

وكان أهم الولايات في عهد المعز من الشرق إلى الغرب : ولاية بركة ، وكان عليها ، كما رأينا ، غلام المعز ، أفلق ، ، الذي أبى أن يترجل لجوهر الصقلي عند رحيله إلى

(١) التعمان : المجالس والمسايرات - ٢ من ١٧٩ - ١٨٢ .



مصر . وكانت هذه الولاية عامل اتصال بين مصر والمغرب ، كما كان المعز يستخدم  
والها في حروبه ، بدليل ما فعله في استرداد جزيرة « إقريطش » . وبيلي ولاية برقة  
ولاية طرابلس . ومن أشهر ولائها « عبد الله بن يخلف الكتامي » . وكثيرا  
ما كانت هذه الولاية معقل الثوار في عهد المهدي والقائم . وكان اهتمام المعز بهاتين  
الولايتين عظيما ، حتى إن والي كل منهما كان يتصل به في مصر رأسا ، من غير الرجوع  
إلى نائبه في بلاد المغرب ، على ما سنرى .

وبيلي هاتين الولايتين ولاية المغربين الأقصى والأوسط ، ومقرها مدينة  
« تاهرت » ، في المغرب الأوسط . وقد تقلد ولايتها في عهد المعز زيري بن مناد  
الصنهاجي . وكان والي تاهرت يشرف على غيره من الولاة والحكام في لايته ، فيعين  
الولاة على إقليمي فاس ومجلماسة وسواهما ، ويقضى في الوقت نفسه على الثورات  
هنا وهناك .

وكانت صقلية تعتبر ولاية ممتازة بين ولايات الفاطميين ، واشتهر بيت الحسن  
الكلبي بحكمها والنهوض بها ، كما كانت أساطيلها خير معين للدفاع عن بلاد الفاطميين  
الأصيلة . وكانت هذه الولاية تكون خط الدفاع الأول عن البلاد الفاطمية .

وتنقسم كل ولاية من هذه الولايات إلى مدن أو أقسام رئيسة ، وكل من  
هذه المدن أو الأقسام ينقسم إلى قرى أو كفور ، وما إلى ذلك . وكانت رئاسة  
هذه الأقسام الصغيرة ، من القرية حتى المدينة ، تخضع للوالي في مقر ولايته .  
ويظهر أن الخليفة كان يعين الولاة بنفسه . وإلى جانب الوالي عامل الخراج ، والقاضي ،  
وصاحب الشرطة وغيرهم من كبار الموظفين . فكانت كل ولاية أشبه بالخلافة نفسها ،  
من حيث تمتع الوالي بكل ما يتمتع به الخليفة من نفوذ في إدارة شؤون دولته . على  
أن الخليفة المعز كثيرا ما كان يعين عمال المدن في الولايات المختلفة ، ويتصل بهم ،  
ويشرف على أعمالهم ، عن طريق عمال البريد وغيرهم ، ممن كانوا يطلعونه على كل  
ما يجري في هذه المدن . ولذلك كثيرا ما كان يثور بعض الولاة في مقر ولاياتهم  
على الحكم الفاطمي ، على حين يظل عمال المدن على ولائهم للخليفة الفاطمي . من ذلك أن  
والي تاهرت ، يعلى الزناتي ، لما ثار على المعز لدين الله ، ظل كثير من المدن التابعة  
لولايته على ولائها للخليفة .

وقد أحدث انتقال المعز من إفريقية إلى مصر في أواخر سنة ٣٦١ هـ شيئا غير قليل من الاضطراب في حكم بلاد المغرب ، فأصبحت هذه البلاد « دار إمارة » بعد أن كانت « دار خلافة » ، وانتقلت الرياسة العليا من الخليفة إلى شخص يقوم مقامه ، يشبه « نائب الملك » اليوم . وحل أبو الفتوح يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي في إفريقية محل المعز لدين الله ، وأصبح يتلقى أوامره من الخليفة الفاطمي في مصر ، وجمع حوله القبائل . واستقل البيت الصنهاجي على مر الزمن عن الأسرة الفاطمية الشيعية (١) ، وغدت إفريقية ولاية من الولايات الفاطمية ، بعد أن كانت قاعدة الخلافة .

غير أن المعز لدين الله لم يترك لنائبه في إفريقية السلطة المطلقة ، فنحى الرياسة على بعض الولايات ، ونزع منه الرياسة على الولايات الأخرى . من ذلك أنه لم يترك له شيئا من النفوذ على صقلية ، بل تركها لوالها أبي القاسم بن الحسن بن علي السكلي . وكان أبو القاسم يتصل به في القاهرة رأسا . كما انتزع المعز من بلكين ، الرياسة على إقليم طرابلس ، الذي أصبح كصقلية سواء بسواء . وجعل برقة تابعة لمصر ؛ ولم يكتف بذلك ، بل سلب من نائبه حكم أجداية وسرت . ومعنى ذلك أن صقلية وبرقة وطرابلس وبعض المدن أصبحت على اتصال بالخليفة نفسه لا بنائبه ، مما كان يحز في نفوس هؤلاء النواب ، كما حز في نفوسهم تعيين المعز « زيادة الله بن القديم » على جباية الأموال ، « وعبد الجبار الخراساني » ، و « حسين بن خلف » على الخراج . وعلى الرغم من أنه أمرهم جميعا بالانقياد ليوسف بلكين بن زيري بن مناد ، كان نفوذهم يعلو نفوذ نائب المعز (٢) .

وكان من أثر تقليد بلكين بن زيري بن مناد بلاد المغرب نيابة عن الخليفة ، أن أصبح يعين من يشاء ويعزل من يشاء في ولايته ، كما أصبح عمال الأقاليم مسئولين أمامه مباشرة . وقد عمل بلكين على ضبط البلاد ، وقبض عليها بيد من حديد ، وعين على أعمالها المختلفة رجلا موالين له ؛ فجعل على إفريقية ( تونس )

(١) A. Sanhoury : Le Califat, pp. 280—281.

(٢) ابن الأثير : ج ٨ ص ٢٢٣ .

عبد الله بن محمد الكاتب ، الذي اتخذ المنصورية والمهدية قاعدتين لولايته ، واتخذ المنصورية مقرا رئيسا لحكمه . كما كان ينتقل في كل سنة إلى المهدية ، ويستخلف غيره على المنصورية . وأما يوسف بلكين بن زيري بن مناد ، فكان كثير التنقل ، دائم القتال مع زناتة وغيرهم من أنصار الأمويين في أقصى المغرب ، حتى كاد أن يتخذ من مدن المغرب الأقصى مقرا له . وقد أطلق المعز على يوسف بلكين اسم « سيف الدولة » ، و « أبي الفتوح » ، تشجيعا له (١) .

وليس معنى ذلك أن المكاتبات الرسمية كانت تفد إلى المنصورية أو المهدية ، بل كانت السجلات ترد عليه من مصر ، فتصله على البريد في فاس وغيرها . ثم يرجع بها إلى عامل إفريقية ( عبد الله الكاتب ) ، فتقرأ بعد مدة من تاريخها (٢) . وقد عمل بلكين بن زيري بن مناد « نائب الخليفة » ، على أن تكون ولايته من القوة بحيث تستطيع أن تصد الأمويين والروم وغيرهم ؛ ولذلك قوّى أسطوله حتى أصبحت بلاده أمنع من العقاب ، كما عمل في الوقت نفسه على توطيد سلطانه في هذه البلاد ، فخارب من عصاه ، وقبض على بعض إخوته الذين كان يتوجس منهم خيفة ، وحبسهم ، حتى هربوا من السجن إلى مصر في عهد العزيز ، الذي تدخل بينهم وبين أخيه ، وأصلح بينهم ، فعفا عنهم (٣) .

غير أن إقرار المعز ابن القديم ، على جباية المال حز في نفس أبي الفتوح يوسف بن زيري . ولذلك نراه يشارك في هذه الحرب التي شنها نائبه عبد الله الكاتب على زيادة الله بن القديم ، وبذلك رجحت كفتهما ، وقبض على زيادة الله بن القديم ، واستبد الكاتب بجباية المال وحده . ثم قبض يوسف على أنصار ابن القديم في سنة ٣٦٤ هـ ، وبعث إلى القيروان بزموس سبعة آلاف منهم .

ومع ذلك نرى أن يوسف بلكين إنما كان ينفذ السياسة التي رسمها له المعز لابن الله ، حين قال له عند خروجه إلى مصر : « إن نسيت ما وصيناك به ، فلا تنس ثلاثة أشياء : إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية ، ولا ترفع السيف عن البربر ، ولا

(١) Fournel : La Coquête de l'Afrique, p. 350.

(٢) ابن عذارى : لبيان المغرب في أخبار المغرب (لیدن سنة ١٨٤٨) ج ١ ص ٢٤٦ .

(٣) المصدر نفسه .

تولّ أحدا من إخوانك وبنى عمك ، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك (١) .  
وكان الفاطميون يعدون صقلية إقليمًا ممتازا ، يختار له الخليفة أشخاصا ممتازين .  
وقد انتهت رياسة هذه الجزيرة في عهد المعز ، كما تقدم ، إلى أسرة الحسن السكلي ،  
التي بلغت من القوة في عهده وعهد خالفائه درجة جعلت بعض الرحالة المعاصرين  
يلقبونهم بالملوك .

والواقع أن الخليفة المنصور هو الذي عين الحسن السكلي ؛ ولما ولي المعز خشي  
على صقلية من استبداده ، فأشرك معه أخاه عمارا كي يتنافس في الزعامة إذا حدثت  
نفسه بالاستقلال . ثم استعان بالحسن وابنيهما في حروبه مع الروم والأمويين .  
ولشدة خوفه من الحسن السكلي ، عين ابنه أحمد نائبا عنه في الجزيرة ، وأبقى الحسن  
بجانبيه في حاضرة الخلافة . كل هذا يدل على خوف المعز من والي صقلية ، كما يدل  
على تقديره له في الوقت نفسه . وعلى الرغم من هذا كله ، كان الحسن وابنه أحمد  
يجمعان الجزية والخراج ، ويستوليان على أسلاب الحرب ، ويبعثانها إلى المعز الذي  
لم يشك يوما واحدا في إخلاص هذا البيت لعرشه .

وقد رغب المعز في أن يشعر هذه الأسرة بنفوذه وسلطانه ، فأقر أحمد بن  
الحسن على ما كان يبدأ به ( ٣٥٤ — ٣٥٨ هـ ) . ولكن المعز بدأ يشعره بتدخله  
الفعل في شئون هذه الجزيرة ، وجعل يرسم له الخطوط الرئيسة التي يسير على  
هدايا ؛ فأمره بأن يبذل قصارى جهده ، في تحصين أسوار بعض المدن ،  
وبخاصة مدينة الرم وبأن يقوم بتعداد السكان في المدن الأخرى ، وأن يبقى في  
كل منها عددا من الرعايا الذين يثق بهم ، للدفاع عنها ، وليكونوا أداة اتصال بينه  
وبينهم . كما أمره بالحيطرة والحذر من هجوم البيزنطيين المفاجئ ، وألزمه وجوب  
المحافظة على عدد معين من المسلمين في المدن المختلفة ، حتى لا يضعف نفوذ الإسلام  
في هذه الجزيرة .

كما تدخل المعز في نظام الشرطة في هذه الجزيرة ، فوضع لرجالها طريقة خاصة  
لدفع أرزاقهم ، كما وضع نظاما آخر للجباية ، فجعلها في بعض المقاطعات عينا  
وفي البعض الآخر نقدا . وبما يدل على دقة نظام الحكم في صقلية ، أن المعز أمر

(١) المقرئ : اتعاظ المنفا ص ٦٥ .

أحمد بن الحسن الكلبي أن يعين في كل من أقاليمها موظفا كبيرا يشرف على جباية الأموال ، وتوزيعها على مستحقها بالقسطاس المستقيم ، ويرسل ما بقى منها إلى دار الخلافة في إفريقية أو في مصر . وكان يحتم على الخطباء أن يذكروا اسم الخليفة الفاطمي على المنابر .

وإن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على دقة النظام الإداري في صقلية ، كما يدل على رغبة المعز في الإشراف على نواحي النشاط فيها .

وما يدل على تدخل المعز في شئون صقلية الداخلية ، أنه أمر الأمير أحمد بن الحسن الكلبي في سنة ٣٥٧ هـ بهدم مدينتي طبرمين ورمطة ، مع أن الفاطميين أصلحوهما قبل ذلك بقليل . فلما تباطأ هذا الوالي في تنفيذ أوامره ، أرسل المعز أخاه أبا القاسم بن الحسن الكلبي ، وعمه جعفر بن علي ، للإشراف على إتمام هدم هاتين المدينتين . وكان المعز قد عز عليه أن يطعمه واليه في تنفيذ أوامره ، أو أنه رغب في إقصائه المقربين إليه عن حكم صقلية . ولذلك أرسل في سنة ٣٥٨ هـ كتابا بأمر فيه أحمد بن الحسن بأن يغادر هذه الجزيرة مع سائر أسرته . ولا يبعد أن يكون ذلك راجعا إلى خوف المعز من استبداد الأسرة الكلبية بهذه الجزيرة .

ولكني يشعر المعز موظفيه عامة ، وأسرة الكليبيين خاصة بأنه لا يعبا بمبدأ الوراثة عند تعيين الولاة ، عزل أحمد عن صقلية ، وولى مكانه أحد عماليك أبيه . ولكن هذه التجربة لم تنجح كما كان يؤمل ، فاندلعت الثورات في كافة أرجاء الجزيرة ، واضطر المعز إلى أن يعيد أسرة الكليبيين إلى الحكم ، فعين علي صقلية أبا القاسم علي بن الحسن الكلبي نائبا عن أخيه أحمد ، ولكنه استقل بحكمها بعد موت أخيه . وهكذا دعت الظروف القاسية المعز لدين الله أن يعترف بمبدأ الوراثة في حكم صقلية .

ومع ذلك ظل المعز الحاكم المطلق يصدر أوامره من المنصورية ، ثم من القاهرة ، فيقوم على تنفيذها أبو القاسم علي بن الحسن الكلبي . ولما انتقل المعز إلى مصر لم يشأ أن يترك لبلدك بن زيري بن مناد شيئا من النفوذ على هذه الجزيرة ، حتى لا يضع بين يديه قوة برية وبحرية عظيمة ، قد يستغلها في وجه الخلافة الفاطمية نفسها ، وقد دل بعمله هذا على بعد نظره السياسي والحربي معا .

## ٢ - في مصر والسام .

### (١) في مصر :

وضع جوهر الصقلي نظام الحكم بعد أن فتح هذه البلاد في سنة ٣٥٨ هـ . وكانت مصر قبل الفتح الفاطمي مقسمة إلى ولايات منظمة تنظيما دقيقا ، فلم يشأ جوهر أن يحدث في نظم الحكم تغييرا كبيرا . وكل ما حدث أن ولايته حلت محل ولاية أخرى ، وأنه حل محل أمراء الإخشيديين في حكم هذه البلاد ، وحل المغاربة محل المصريين ، أو شاركهم في وظائفهم .

وكان لمبدأ اشتراك المغاربة في الحكم أثره في نظام حكم مصر ، فأسندت المناصب إلى بعض المغاربة والمصريين ، وجعل جوهر في كل ولاية من الولايات التابعة لمصر ، دواوين يشرف عليها موظفون ، ينوبون عن أصحاب الدواوين في مصر . وإلى جانب الوالي نرى صاحب الخراج ، وصاحب الشرطة ، وقاضي القضاة ، والمحاسب ، وصاحب المظالم ، وغيرهم . وبهذا استطاع الفاطميون في عهد المعز الإمام بالأمور كافة في الولايات المصرية .

ونستطيع أن نقول ، إن جوهر والمعز هما اللذان وضعوا أساس نظام الحكم الفاطمي في مصر ، فكانت تنقسم إلى أربع ولايات كبيرة أو أربعة أقاليم : الولاية الأولى ، أو الإقليم الأول ، هي ولاية قوص ، ويقصد به الصعيد . وبلى هذا الإقليم حاتم كبير ، لا بد أنه كان من المغاربة ، أو على الأقل لا بد أنه كان على رأسها وال مغربي ، يعاونه موظف آخر من غير المغاربة . أما الإقليم الثاني ، فكان أقل اتساعا من إقليم قوص ، ويقصد به «الشرقية» ، ويشمل الأراضي الواقعة شرقي فرع دمياط تقريبا . ومن أشهر مدنه قلوب وبلبيس . أما الإقليم الثالث ، فهو «الغربية» ، وينتظم جميع البلاد الواقعة بين فرعي رشيد ودمياط ، من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب . ومن أشهر مدنه متوف وأبيار والمحلة الكبرى . أما الإقليم الرابع ، فهو إقليم الإسكندرية ، ويضاف إليه البحيرة ، ومن أشهر مدنه دمنهور والإسكندرية (١) .

(١) المقرئى : ختلط ج ٢ ص ٢٤٣ .

وبما هو جدير بالملاحظة ، أن كلا من هذه الأقاليم الأربعة كان مستقلا عن الآخر ، ولكنه كان يتصل اتصالا مباشرا بالقائد جوهر ، ثم بالمعز بعد ذلك ، وأن الحكومة المركزية في القاهرة منحت كلا من ولاية هذه الأقاليم الأربعة الحرية في تعيين العمال على المدن والنواحي والقرى في ولايته ، كما منحت الحكومة المصرية في القاهرة كل ولاية الحق في أن تقوم بالأعمال التي تهمها ، وأن تعنى بمراقب إقاييمها دون الرجوع إليها ؛ وعلى كل ولاية أن تعمل على شق الترع وصيانتها ، وإقامة الجسور المحلية . أما الجسور العامة فكانت الحكومة المركزية تعهد بالإشراف عليها إلى أحد كبار المهندسين ، يعاونه طائفة كبيرة من الخبراء بشئون الجسور . وعلى الحكومة المحلية أن تحافظ على الأمن ، وتضرب على أيدي العابثين .

ويجب ألا ننسى أنه كان على القاهرة وال يشبه المحافظ اليوم ، كما كان على القسطنطينية وال آخر . وفي الحق أن هذين الولايتين كانا تابعين للحكومة المركزية في القاهرة ، لا لولاية الأقاليم ، وكان كل منهما يتمتع بمكانة سامية عند الخليفة ، ويسير في موكبه . إلا أن رتبة والى القاهرة كانت أعلى من رتبة والى القسطنطينية ، على الرغم من أنهما يتساويان في الراتب .

وليس من شك في أن جوهر والمعز من بعده أقرا هذا التقسيم الإداري في مصر ، فكانت الولاية مقسمة إلى ما يسمى « الكور » ؛ والكورة تشبه المديرية اليوم ، وتشتمل على مدن وقرى . ويشرف عليها رئيس الكورة ، ويعد بمثابة المدير أو المحافظ اليوم ، وله نائب ، يعتبر بمثابة وكيل المديرية أو المأمور . ويرأس القرية رئيس أشبه بالعمدة .

ولهذا يجب ألا نخلط بين الولايات والكور . فإن مصر كانت مقسمة إلى أكثر من عشرين كورة في عهد المعز ، ولكنها كانت تنقسم إلى أربع ولايات فقط . ومن أشهر الكور في ذلك العهد ، وفي عهد الفاطميين عامة : الدقهلية . وجزيرة قويسنا ، والشرقية ، والغربية ، والمنوفيتان ، والبحيرة ، وحواف رمسيس ، والجزيرة ، والفيومية ، والبهنسية ، والأشمونين ، والأسيوطية ، والبوصيرية وغيرها<sup>(١)</sup> . وكان

(١) انظر المقرئى : خطط ج ١ ص ١١٨ ، أبو صالح الأرمي : كنانة وأدبرة مصر ص ١٠ .

أبو الحسن : نجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٩٥ ، ٢٩٧ .

حاكم السكورة يقيم في مقرها . فسكورة الجيزة كان مقر حاكمها مدينة الجيزة ،  
والبهنسية ، مدينة البهنسا ، والقيومية ، مدينة الفيوم ، والاسيوطية ، مدينة أسيوط ،  
وهكذا .

ومن الأمور الجديدة بالبحث موقف الفاطميين في عهد المعز من إقليم النوبة ؛  
الذي كان ، ولا يزال ، جزءا من مصر . وكانت الحكومات القوية في مصر تعمل  
دائما على توثيق العلاقة بين النوبة ومصر ؛ غير أن هذه البلاد كانت - لسوء الحظ -  
تستقل عن مصر إذا شعرت بضعف حكامها . وكانت النوبة حين غزا جوهر مصر  
مستقلة تمام الاستقلال ، وعلى رأسها ملك مسيحي يسمى «جورج» ، وكانت المسيحية  
في ذلك العهد منتشرة فيها انتشارا كبيرا ، على عكس ما هي عليه اليوم . ومن ثم  
أرسل جوهر الصقلي إلى ملك النوبة الرسل يطلبون إليه الدخول في الإسلام ، أو دفع  
الجزية . وقد قوبل الرسل في هذه البلاد بالترحيب ، ولبت النوبة المطلب الثاني ،  
ورضى ملكها بدفع الجزية إلى الفاطميين ، واعتذر عن قبول المطلب الأول ، وهو  
الدخول في الإسلام<sup>(١)</sup> . وكانت علاقة النوبة بحاكم قوص خاصة في عهد جوهر ، على شيء  
كبير من الصفاء ، لذلك لم يقم ملك النوبة بثورة ، أو أحدث اضطرابا في ذلك الحين .  
ويقول سير توماس أرنولد<sup>(٢)</sup> ، إن العرب الفاطميين على ضفاف النيل  
الأزرق قد زاد عددهم ، كما زادت ثروتهم وزيادة كبيرة في القرن العاشر الميلادي  
(الرابع الهجري) ، حتى إنهم استطاعوا أن يلتمسوا الإذن ببناء مسجد في  
سوبة ، حاضرة المملكة المسيحية ، وهي على اثني عشر ميلا تقريبا من مدينة  
الخرطوم الحديثة .

### (ب) في بلاد الشام :

أما بلاد الشام ، فقد اعتبر المعز لدين الله هذه البلاد من ملحقات مصر ، شأنه  
في ذلك شأن البطلمة من قبل ، ومن ثم أصبحت تابعة في إدارتها للبلاد المصرية . يدل

(١) Lane Poole : Hist. of Egypt in the Middle Ages, p. 105.

(٢) الدعوة إلى الإسلام : ترجمة حسن إبراهيم حسن ، وعبد انجيد عابدين ، وإسماعيل التحراري

(القاهرة ١٩٤٧) ص ٩٨ .



على ذلك أن جعفر بن فلاح ، الذي تقلد بلاد الشام ، لما حاول أن يكون اتصاله بالمعز مباشرة دون جعفر الصقلي ، غضب المعز ، ووردت كتيبه محتومة ، وكتب إليه : قد أخطأك الرأي لنفسك . نحن أنفذناك مع قائدنا جوهر ، فاكتب إليه . فما وصل منك على يده قرأناه ، ولا تتجاوز به بعد ، (١) .

وبهذا وضع المعز أساس نظام الحكم في بلاد الشام ، وجعل الحكومة مصر الحق في الإشراف على هذه البلاد . وكانت في عهد ولاية جوهر منقسمة قسمين أساسيين : أولهما في الجنوب وقاعدته الرملة ، وثانيهما في الشمال وقاعدته دمشق . إلا أن القسم الشمالي كان أكثر أهمية من القسم الجنوبي ؛ فكان لوالى دمشق الإشراف على والى الرملة . وقد رأينا كيف اتخذ الحسن بن عبد الله بن طغج مدينة الرملة مركزا لمقاومة الفاطميين . فلما حلت به الهزيمة ، وقبض عليه ، وسيق إلى بلاد المغرب ، حلت دمشق محل الرملة ، فأصبحت مركزا لمقاومة الفاطميين . وكان جعفر بن فلاح واليا على بلاد الشام كافة من سنة ٣٥٨ إلى سنة ٣٥٩ هـ ، واتخذ دمشق قاعدة لولايته . على أن حكومة بلاد الشام كانت حتى ذلك العهد حكومة حرية أكثر منها سياسية ؛ ولذلك لم يكن الأمن مستتباً في هذه البلاد .

وقد ظلت بلاد الشام من سنة ٣٥٩ إلى سنة ٣٦٠ هـ خاضعة للقرامطة . الذين لم يجدوا من الفاطميين مقاومة تذكر إلا في المراكز الأساسية ، مثل دمشق والرملة ويافا ، التي حاولوا الاحتفاظ بها . وقد أحدث المعز تغييرا كبيرا في طريقة الحكم في هذه البلاد ، فجعل على دمشق واليا يكاد يكون مدنيا ، يعمل على استتباب الأمن في البلاد . وكان يساعده جيش احتلال تحت إشراف قائد فاطمي . إلا أن عبث جنود المغاربة جعل حكم الفاطميين مزعرا . وأول من تمتع بولاية دمشق بعد وصول المعز إلى مصر ، ظالم بن موهوب العقيلي ، وكان الجيش الفاطمي بقيادة أبي محمود الكتامي . وبقية الرملة قاعدة القسم الجنوبي ، وعلى رأسها وال فاطمي ، يساعده جيش احتلال أيضا .

وكان للثورات المتتالية في حاضرة القسم الشمالي ، وهي دمشق ، أثرها في نظم

(١) المقرئى : خط ج ١ ص ٣٧٨ .

الحكم بعد ولاية جعفر بن فلاح ؛ فقد اضطر ظالم بن موهوب العقيلي العربي — على ما رأينا — إلى ترك دمشق للقائد أبي محمود ، الذي ولى على شرطتها رجلين من رجاله ، وولى على دمشق ابن اخته حبيش . وبهذا أصبحت العناصر التي تحكم دمشق عناصر مغربية . فهذا وال مغربي ، وقائد جيش الاحتلال مغربي ، وعلى الشرطة مغربان . إلا أن هذا الوضع الجديد لم يضع حدا للاضطرابات في هذه البلاد ؛ فاضطر المعز إلى إجراء تغيير جديد في نظام الحكم ، ونقل القائد أبا محمود بن جعفر بن فلاح إلى الرملة ، وعين على دمشق واليا آخر ، هو ريان الخادم ، والى طرابلس ، فظل بها حتى انتزعها منه أفتكين التركي كما تقدم .

والواقع أن المعز لدين الله جعل قواعد الشام الرئيسة في مدن ثلاث : في الرملة ، وعليها القائد أبو محمود المغربي ، ودمشق وعليها ريان الخادم ، وحمص وعليها ظالم بن موهوب العقيلي . وقد ظلت الحال في بلاد الشام على هذا النحو من القوضى والاضطراب ، حتى أغار أفتكين عليها في أواخر سنة ٣٦٤ هـ . ومات المعز ، وكان قد عزم على إقرار نظام الحكم في هذه البلاد .

والحق أن المعز لما انتقل إلى مصر ، وتحولت هذه البلاد إلى دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة ، تطور نظام الحكم في الأقاليم . فقد رأيناه يتدخل في طريقة حكم بلاد الشام ، كما رأيناه قبل أن يغادر المغرب ينتزع من أبي الفتوح بلكين بن زيري بن مناد ولايات طرابلس وبرقة وصقلية . ومعنى ذلك أن هذه البلاد قد أصبحت خاضعة لمصر مباشرة في عهد المعز ، حتى لقد استعان هذا الخليفة بوالى طرابلس ، ريان الخادم ، لإقرار النظام في بلاد الشام . وهكذا امتدت ملحقات مصر في عهد المعز حتى شمال بعلبك وحمص من ناحية الشرق ، وأصبحت برقة وطرابلس تكوّن ملحقات مصر من ناحية الغرب .

وكان النظام مستتباً في الولايات المصرية الخاصة وفيها إقليم النوبة ، وكانت هذه البلاد تمتد الحزاة الفاطمية في عهد المعز ، بالأموال بطريقة منتظمة . وعلى الرغم من الاختلاف المذهبي بين الحاكم والمحكوم ، ظلت الولايات المصرية من أهم مصادر ثروة الفاطميين . وأما بلاد الشام فإن النظام لم يستقر فيها ، بل ظلت طووال

عهد المعز عالة على الخزانة الفاطمية . إلا أن برقة وطرابلس وصقلية كانت تبعث بخراجها كل سنة إلى المعز لدين الله .

### (ح) في الحجاز :

وأما علاقة مصر ببلاد الحجاز ، فلا نعرف أن جوهرًا أو المعز أرسل إليها جيشًا ، كما أرسل إلى بلاد الشام مثلاً . ويظهر أنه كان للدعاية الفاطمية أثرها ، فقد كان المعز وهو بالمغرب ، يعطف على جماعة من كبار الحسينيين العلويين ، وقد وفق إلى فض النزاع الذي قام بينهم ، فقدروا له هذا الصنيع . فلما دخل جوهر مصر في سنة ٣٥٨ هـ ، واستطاع بعض هؤلاء الحسينيين أن يستولى على مكة المكرمة ، وخطب للمعز لدين الله ، وأرسل إلى جوهر يبشره بهذا الفتح ، فأرسل هذا بدوره إلى المعز في بلاد المغرب ، (١) .

وقد نسأل : هل كانت هذه البلاد تدفع الخراج للمعز لدين الله ؟ وهل كان ولاية الحجاز يعينون من قبل المعز ؟ وهل أشرك الفاطميون المغاربة في الحكم مع أهالي هذه البلاد الأخرى ؟ هذا ما لا نعرفه على وجه التحقيق . أما الذي لا شك فيه ، فهو أنه كان يخطب للمعز أحيانًا على منابر مكة وحدها ، وأحيانًا أخرى على منابر المدينة ومكة معًا . ولما مات وكان أهل مكة والمدينة قد خطبوا للمعز . . . في الموسم . فتركوا الخطبة للعزيم ، فبعث جيوشه إلى الحجاز ، فحاصروا مكة والمدينة ، وضيقوا عليهم حتى رجعوا إلى دعوتهم . وخطب للعزيم بمكة والمدينة ، (٢) . وقد استطاع العزيم أن يعين ولاية من قبله على كل من هاتين المدينتين المقدستين .

والمواقع أن إقامة الخطبة للمعز في بلاد الحجاز كانت نوعًا من أنواع الصراع الذي قام بين العباسيين والفاطميين لزعامته العالم الإسلامي ، وأن الفاطميين كانوا يعملون على أن يكون نفوذهم الأدبي عظيمًا في هذه البلاد ، حتى إن الخليفة المهدي الفاطمي سب القرامطة حين عبثوا بالحجر الأسود ، وانتهكوا حرمة مكة ، وأخذ

(١) المقرئ : اتعاظ الخفا ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٥١ .

الفاطميون في مصر يرسلون الكسوة إلى الكعبة، ويضعون على هذه البلاد شيئا غير قليل من الإجلال، حتى أضاعوا نفوذ العباسيين فيها.

(ب) الشرطة :

والشرطة، كما تعلم، هم الجنود الذين يستخدمهم الخلفاء والولاة في حاضرة الدولة وأقاليمها، لحفظ النظام، والعمل على استتباب الأمن، والقبض على الجناة الذين يفرون من وجه العدالة، والقبض على المفسدين. وينحصر عمل الشرطة في التوفر على سلامة الجمهور وطمأنينته. وقد استحدثت هذه الوظيفة في عهد عمر بن الخطاب، وأطلق الخلفاء الراشدون والأمويون والعباسيون، وكذلك الفاطميون، على رئيسها اسم «صاحب الشرطة»، وغدا اختياره مقصورا على كبار الناس، وذوى العصية والجاه.

وكانت الشرطة تابعة للقضاء في بادئ الأمر، لأنها تقوم على الأحكام القضائية، كما كان صاحب الشرطة، الذي أصبح يشبه المحافظ اليوم إلى حد كبير، يتولى إقامة الحدود. غير أن الشرطة انفصلت عن القضاء في العصر الأموي، وأصبح لصاحبها النظر في الجرائم.

وقد وصف ابن خلدون<sup>(١)</sup> الشرطة في العصر العباسي، وفي بلاد الأندلس. ومن هذا الوصف نتبين سمو هذه الوظيفة وقدر صاحبها. وهالك عبارة ابن خلدون: «كان أصل وضعها في الدولة العباسية لمن يقيم أحكام الجرائم في حال استبدانها أولا، ثم الحدود بعد استيفائها. فإن التهم التي تعرض في الجرائم لا نظير للشرع إلا في استيفاء حدودها، وللسياسة النظر في استيفاء موجباتها بإقرار يكرهه عليه الحاكم، إذا احتفت به القران لما توجبه المصلحة العامة في ذلك. فكان الذي يقوم بهذا الاستبداء، وباستيفاء الحدود بعده إذا تنزه عنه القاضي، يسمى صاحب الشرطة؛ وربما جعلوا إليه النظر في الحدود والدماء بإطلاق، وأفردوها من نظر القاضي، ونزهوا هذه المرتبة، وقلدوها كبار القواد وعظام الخاصة من مواليهم. ولم تكن عامة التنفيذ في طبقات الناس؛ إنما كان حكمهم على الدهماء وأهل الرتب، والضرب

(١) مقدمة ص ٢١٨ - ٢١٩.

على أيدي الرعاع والفجرة . ثم عظمت نباهتها في دولة بني أمية بالأندلس ، ونوعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى . وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء ، وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم في الظلمات ، وعلى أيدي أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه . وجعل صاحب الصغرى مخصوصا بالعامّة ، ونصب لصاحب الكبرى كرمي يباب دار السلطان ، ورجال يتبوءون المقاعد بين يديه ، فلا يبرحون عنها إلا في تصريفه . وكانت ولايتها للأكار من رجالات الدولة ترشيحا للوزارة والحجابة .

ولما قامت الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ، عنى الفاطميون بهذه الناحية . وحين دخل جوهر الصقلي مصر ، وجد الشرطة فيها منظمّة ؛ فقد كان هناك شرطتان : شرطة في الفسطاط ، ويطلق عليها أحيانا الشرطة السفلى . وشرطة ثانية في العسكر والقطائع ، وتسمى الشرطة العليا . وترجع تلك التسمية إلى أن العسكر والقطائع شمالي الفسطاط . ويكاد صاحب الشرطة في كل منهما يكون مستقلا ، فينوب صاحب الشرطة السفلى عن أمير مصر إذا غاب عن الفسطاط ، حتى لقد سميت الشرطة السفلى بخلافة الفسطاط . كما كان كل من صاحب الشرطة السفلى وصاحب الشرطة العليا ، يصلى بالناس أحيانا ، ويتولى أعطيات الجنود ، ويقوم بأعمال كثيرة تدل كلها على سمو مركزه وعلو قدره .

ولم يستطع جوهر أن يغير في نظام الشرطتين كثيرا ، فأبقى الشرطة السفلى بالفسطاط ، ونقل الشرطة العليا إلى القاهرة . وقد أسند الشرطة السفلى بالفسطاط إلى عروبة بن إبراهيم وشبل المعرضي ، وهما شيعيان ، وأسند الشرطة العليا بالقاهرة إلى رجل شيعي آخر ، يدعى جبرا . وكان تقليده على أثر وفاة صاحب الشرطة العليا السنّي ، في اليوم الذي دخل فيه جوهر الفسطاط .

وكان جوهر الصقلي يشرف على هاتين الشرطتين ، بحيث يخضع لنفوذه جميع موظفيهما . ولما أدرك المعز لدين الله كثرة مشاغل جوهر ، رأى أن يخفف عنه هذا العبء ، ففتح بمقرب بن كلثوم وعسلوج بن الحسن شيئا غير قليل من النفوذ ، وأصبح لهما حق الإشراف على الشرطتين وغيرهما من مصالح الدولة الفاطمية ، بما

يجعلنا نعتقد أنه لا بد وأن يكون إسناد الأعمال الإدارية إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن قد أثر في نفوذ جوهر ، (١) .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الشرطة والقضاء كثيرا ما كانا يستندان لشخص واحد ، مما أثار النزاع بين صاحب الشرطة والقاضي ، لأن القاضي كان يعتبر صاحب الشرطة دخيلا عليه ، وما كان يفض النزاع بين القاضي الأصلي وصاحب الشرطة ، إلا بتدخل الوزير أو الخليفة كما حدث في عهد العزيز .

كذلك كثيرا ما كانت الحسبة والشرطة تستندان لشخص واحد ، مما يدل على خطورة مركز صاحب الشرطة في الدولة الفاطمية .

وكان ينوب عن صاحب الشرطة في الأقاليم موظفون يعملون على حفظ الأمن واستتباب النظام فيها ، ويساعدون القاضي وعامل المدينة ، ويحفظون للدولة الفاطمية هيبتها في الولايات المختلفة .

### ٣ - النظام المالي

كانت الإدارة المالية في عهد المعز لدين الله في بلاد المغرب في أيدي الإسماعيليين ، وكانت الدولة الفاطمية تعتمد على الخراج اعتمادا كبيرا ، لأنه عماد ثروتها ، كما كانت تعتمد على « خمس الإمام » ، الذي يدفعه الأشباع من الإسماعيلية ، بمعنى أن هؤلاء الأشباع كانوا يدفعون خمس دخلهم لإمامهم من الخلفاء الفاطميين (٢) .

ولم تسرف هذه الدولة في جمع الضرائب . فكثيرا ما نرى المعز يعاقب بعض الولاة لاشتطاطهم في جمع المال ، إذ كان يرى أن سعادة الدولة ، تقوم على رضا الرعايا ، وأن الدولة التي تعمل على ابتزاز أموال الرعية وإفقارها يكون مآلها الإفلاس .

كما كان المعز لدين الله يعتمد في إمداد خزائنه بالأموال على ما يفرضه من ضرائب « جمارك » على السلع الأجنبية الواردة إلى موانئه المختلفة ؛ لذلك كان

(١) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٨٢ ( هامش ٣ )

(٢) انظر الباب الخامس من هذا الكتاب .

يشجع التجارة الخارجية، حتى بلغ من تساهله مع التجار الأجانب أن أصبحت السفن تغدو وتروح في مياه الفاطميين الإقليمية، دون أن يجدوا عنتا من هذه الدولة الشيعية. وقد نرى سفنا تجارية أسبانية، وأخرى بزنطية في موانئ النماطيين؛ ولذلك نرى السلع تغمر البلاد الفاطمية في المغرب.

وكان المعز لدين الله وهو في المغرب، يعتمد على ما يرد إليه من رجال الدعوة في الأقاليم الإسلامية، وخاصة في اليمن والبحرين وعمان وفارس وخراسان؛ فقد كان المستجيبون يدفعون لدعائه الأموال إذا أخذوا عليهم العهد، بما يدل على تمسكهم بالمذهب الإسماعيلي. كما كانوا يدفعون - كما رأينا - خمس دخلهم ليرسلوه إلى إمامهم الخليفة الفاطمي. وقد أفاضت كتب الإسماعيلية في ذكر تلك الأموال التي كان المستجيبون يغمرون بها الخزائن الفاطمية. من ذلك ما أورده النعمان غير مرة عن قدوم رسل بعض دعاة نواحي المشرق (إلى المعز بالمنصورية) بأموال كثيرة، قدموا بها من أعمال المؤمنين (أى الإسماعيلية)، وطرائف وتحف، (١).

وقد امتلأت خزائن الفاطميين وفاضت بالأموال بعد أن فتح المعز لدين الله كل شمالي إفريقية، فأصبحت بلاد الجزائر ومراكش تدفع إلى ولايته الخراج، فيرسله هؤلاء إليه في المنصورية. وبفضل ذلك المال الكثير، استطاع هذا الخليفة أن يجهز حملة جوهر الصقلي الكبرى إلى مصر، وأن يغمره بالأموال والتحف، ويمهد له السبيل إلى النصر. وبفضل هذه الأموال استطاع جوهر أن يفتح مصر وبلاد الشام.

وقد وجد الفاطميون في مصر نظاما ماليا دقيقا، فهناك الدواوين الخاصة بالخراج، وهناك الضرائب المتنوعة قد نظمت منذ الفتح العربي تنظيمًا دقيقا، وزادها إتقانًا الدولتان الطولونية والإخشيدية، حتى إن جوهرًا أو المعز لم يدخل عليها شيئا من التحسين، وإنما نظم الفاطميون الحالة المالية بما يتفق مع ميولهم المذهبية فقط.

وقد أصبحت إدارة الدواوين وجباية الخراج في يد جوهر الصقلي. وكان يهتم نائب الخليفة الفاطمي في مصر أن يعمل على استقرار حالة البلاد المالية والاقتصادية، ولذلك عنى عناية كبيرة بتوفير الطعام للبصريين، فلم يكتف بإحضار الغلال من بلاد المغرب لتخفيف حدة المجاعة التي كانت تهدد حياة المصريين منذ حين، بل فتح

(١) النعمان: المجالس والمساربات ٢٣ ص ٦٦٢.

المخازن العامة للحبوب ، وعهد برقيتها إلى المحتسب ، واستطاع بفضل ذلك النظام  
المالى الدقيق أن يحول دون احتكار الحبوب ، وأن يوفرها للناس وخصوصا  
الفقراء منهم (١) .

والحق أن جوهر الما دخل مصر ، أفر على إدارة جباية الخراج على بن يحيى  
ابن العرمم ؛ ولم يعزله من منصبه ، جريا على السياسة التى سار عليها الفاطميون فى  
إبقاء الموظفين المصريين من السنين وغيرهم ، وإن كان جوهر قد عين موظفين  
شيعيين ، للحد من نفوذهم ، وتدريب الشيعيين على الأعمال الحكومية . لذلك قلد  
جوهر بعد قليل رجاء بن ضولاب ، الذى لا يبعد أن يكون مغربيا شيعيا ، ليشارك  
ابن العرمم فى إدارة الخراج . وهكذا لم يدع جوهر عملا من الأعمال إلا جعل  
فيه مغربيا شريكا لمن فيه (٢) .

ولم يكتف الفاطميون بذلك ، بل جعل المعز لدين الله الإشراف على شئون  
البلاد المالية فى يد يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن ، اللذين قلدهما الخراج ، وجميع  
وجوه الأموال والحسبة ، والسواحل ، والأعشار (٣) ، والجوالى (٤) والأحباس (٥) ،  
والموارث ، والشراطين ، وجميع ما ينضاف إلى ذلك فى مصر وسائر الأعمال . . .  
وكتب لها سجلا قرى . يوم الجمعة على منبر جامع ابن طولون . وقبضت أيدى سائر  
العمال والمتضمنين ، وجلسا فى غد هذا اليوم (من المحرم سنة ٣٦٣) فى دار الإمارة فى  
جامع ابن طولون للنداء على الضياع وسائر وجوه الأموال . وحضر الناس للقبالات (٦) ،

( ١ ) على إبراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقلى ص ٧٥ .

( ٢ ) المقربرى : اتعاظ الخنقا ص ٨٧ .

( ٣ ) أول من وضع الأعشار فى الاسلام هو بن الخطاب ، الذى فرض على التجار من غير المسلمين  
أن يدفعوا عشر ما معهم ، لأنهم كانوا يفرضون مثل ذلك على تجار المسلمين . أما أهل الذمة فقد فرض  
عليهم نصف العشر ( من مجموع تجارتهم ) . وفرض على المسلمين ربع العشر ( من تجارتهم ) .

( ٤ ) الجوالى : اختيار الأحسن من كل شئ . من الممتلكات أو قشاه . الحزبل منها والصفير .

وربما كانت هى وظيفة العامل فى الزكاة (حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٨٣ ) .

( ٥ ) الأحباس : الأوقاف .

( ٦ ) القبالة ما يلتزمه المرء من حمل ودين .



وطالبوا بالبقايا من الأموال ، واستقصيا في الطلب ونظرا في المظالم (١) .  
كما جعلت جباية الخراج قسمين ، وضع أحدهما في يد علي بن محمد بن طباطبا  
وعبدالله بن عطاء الله ، ووضع الثاني منهما في يد الحسن بن عبدالله والحسين بن أحمد  
الروذباري ، كما كان محمد بن الحسين بن مهذب صاحب بيت المال . وكل هؤلاء  
الموظفين كانوا تحت إشراف يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن .

وقد أبتل نظام جباية الضرائب القديم ، وأُنشئ نظام جديد ، في تقدير  
الأملاك ، وتعيين ما يخص كلا منها من الضرائب ، وجمعت كل دوائره في مركز  
واحد ، وفُحصت مصادر الضرائب على اختلافها . وتشدت الحكومة الجديدة  
في تحصيل ما تأخر منها ، كما اهتمت بالنظر في كل ما تقدم إليها من الالتماسات  
والشكاوى . وسلكت الحكومة في تنفيذ نظام الضرائب الجديد سبيل الحزم ،  
وحمّت دافعي الضرائب من دفع الأموال كرها وعسفا . فكانت نتيجة هذه السياسة  
الرشيدة أن زادت موارد الدولة زيادة كبيرة (٢) .

وبفضل ما أدخله جوهر على هذا النظام المالى من إصلاح ، بلغ خراج مصر  
في سنة ٣٥٨ هـ ٣١٤٠٠٠٠٠٠ دينار (٣) . وإذا علمنا أن انخفاض النيل ، وما صحبه من  
الفيضان والوباء والمجاعات ، قد أثرت مجتمعة في كيان مصر الاقتصادية منذ أيام كافور ،  
أدركنا مدى ما بذله جوهر من جهود في النهوض بشئون البلاد الاقتصادية .

ولسنا ننكر أن المعز في مصر ، قد اشدت نوعا . في سبيل الحصول على المال ،  
لأن سياسته كانت ترمى إلى مواصلة الفتح في بلاد الشام ، وطرده القرامطة منها ، ثم  
المسير إلى العراق ، حتى لقد غلا بعض المؤرخين في تقدير الخراج بمصر ، فذكر  
أرقاما تكاد تكون خيالية . من ذلك قول ابن ميسر (٤) : « واشتد الاستخراج لكثرة  
ما أنفق المعز على مصر ، لأنه قدم إلى مصر وهو يظن أن الأموال مجتمعة ،

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ج ٢ ص ٤٥ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : مقاطعون في مصر ص ١٨٤ .

(٣) المقرئى : خطط ج ١ ص ٩٩ .

(٤) تاريخ مصر ج ٢ ص ٤٥ - ٤٦ .

فوجدها قد فرقها مؤن مصر وكثرة عساكرها . وكان الذي أنفق المعز على مصر ما لا يعرفه إلا هو وخزانه . وحدثني بعض كتاب بيت ماله (١) قال: حملنا إلى مصر أكياسا فارغة ، أنفق ما كان فيها في أربعة أعداد على جملين ؛ فكان يستخرج في اليوم نيف وخمسون (٢) ألف دينار (٣) معزياً ، لأنه كان استخراجاً بغير بُرأة ولا خرّج ولا حوالة . واستخرج في يوم مائة وعشرون ألف دينار معزياً . وحصل في يوم واحد من تيس ودمياط والأشموين أكثر من مائتي ألف وعشرين ألف دينار ، وهذا لم يسمع بمثله قط في بلد .

وعلى الرغم من أن ابن ميسر يعزو كثرة الاستخراج إلى رغبة الفاطميين في تعويض ما فقدوه من مال بسبب الفتح ، وما أنفقوه من إصلاحات على البلاد ومرافقها ، يبدو أن متوسط ما يستخرج في اليوم الواحد ٥٢,٠٠٠ دينار بعيد التصديق ، لأن الخراج يصل طبقاً لهذا التقدير إلى ما يقرب من عشرين مليون من الدنانير في السنة ، وهو ما لم نسمع به في عهد الفاطميين . وقد رأينا المقرئ يعقد فصلاً عن خراج مصر ، ويقارن هذا الخراج في صدر الدولة الفاطمية وفي أواخر عهدها ، فذكر أن الخراج لم يزد في سنة ٣٥٨ هـ على ٣,٤٠٠,٠٠٠ دينار (٤) ، وأن خراجها في وزارة اليازوري في عهد الخليفة المستنصر لم يزد على ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، وأنه بلغ في عهد الأفضل شاهنشاه (٥١٥ هـ) ٥,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، وفي عهد الأيوبيين زاد في سنة ٥٨٥ هـ على ٤,٦٥٣,٠٠٠ دينار ، ولكنه هبط في سنة ٦٤٠ هـ إلى ١,٠٠٠,٠٠٠ دينار (٥) .

ومن هذه الموازنة في العهود المختلفة ، نستطيع أن ندرك إلى أي حد أسرف المؤرخون في تقدير خراج مصر في عهد المعز لدين الله ؛ إلا أن ما ذكره ابن ميسر

(١) لا يقول أن يتحدث ابن ميسر مع معاصري المعز ، فإن هذا الخليفة توفى سنة ٣٦٦ هـ ، وتوفى ابن ميسر سنة ٦٧٧ هـ .

(٢) في الأصل وخمسين ألف دينار .

(٣) وردت في الأصل ديناراً .

(٤) ذكر ابن حوقل (المسالك والممالك ص ١٠٧) أن الخراج بلغ في هذه السنة ٣,٢٠٠,٠٠٠ دينار

(٥) المقرئ : خطاط ج ١ ص ٩٩ - ١٠٠ .

يدل ، مع غلوه ، على مدى تقدم الحالة المالية في مصر في عهد هذا الخليفة .  
 وبما هو جدير بالملاحظة ، أن الفاطميين في عهد المعز وضعوا نظاما ماليا جديدا ،  
 يتفق وسياستهم المذهبية ؛ فعملوا على التقليل من قيمة النقود الذي كان يتداول في  
 مصر ، وعملوا في الوقت نفسه على رفع قيمة النقود التي تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين .  
 من ذلك أن يعقوب بن كلس ، وعسلوج بن الحسن لم يقبلوا إلا الدينار المعزى . وكان  
 الدينار المعزى أكبر من الدينار التي تحمل أسماء العباسيين ، وكانت متداولة  
 في مصر . وقد أوضح ذلك ابن ميسر (١) فقال : إنهما « امتنعا أن يأخذا إلا دينارا  
 معزيا ، فأنضع (٢) الدينار الراضى ، وأنحط إلى ثلثي دينار (٣) ، ونقص من صرفه  
 أكثر من ربع دينار ؛ فخر الناس كثيرا من أموالهم في الدينار الأبيض والدينار  
 الراضى . وكان صرف المعزى خمسة عشر درهما ونصف » .

على أن هذه الإجراءات قد أضرت بدافعي الضرائب من المصريين ، فلو  
 أن شخصا كان مطالباً بأن يدفع للفاطميين خراجا مقداره ستائة دينار ، لوجب عليه  
 أن يدفع على أساس النقود التي كان يتعامل بها من قبل مايساوى تسعمائة دينار  
 (  $900 = \frac{2}{3} \times 1350$  ) ، لأن قيمة الدينار الذي كان يتعامل به المصريون قبل الفتح  
 الفاطمي قد انحطت إلى ثلثي قيمتها . وليس من شك في أن هذا التخفيض كان يتحمله  
 الشعب وحده .

وليس من شك أيضا في أن الفاطميين تركوا للمصريين أراضيهم يتمتعون بها ،  
 فلم يستولوا عليها منهم وقد رأينا جوهر الصقلي يقول في أمانه الذي أعطاه المصريين :  
 « ولكم على أمان الله التام العمام ، الدائم المتصل ، الشامل الكامل ، المتجدد  
 المتأكد على الأيام وكرور الأعوام . في أنفسكم وأموالكم ، وأهاليكم ونعمكم ،  
 وضياعكم ورباعكم ، وقليلكم وكثيركم ، وعلى أنه لا يعترض عليكم ، ولا يتجنى عليكم  
 متجن ، ولا يتعقب عليكم متعقب (٤) » .

(١) تاريخ مصر ج ٢ ص ٤٥ .

(٢) أنضع : أى هوى ونقص .

(٣) فى الأصل ثلثين .

(٤) المقرئى : اتعاظ الخلفاء ص ٦٩ .

وقد اتبع الفاطميون منذ عهد المعز نظام الالتزام في جباية الأموال ، فترى على ابن عمر بن العداس يضمن كورة بوصير (١) على طريقة الالتزام ، كما نرى يعقوب ابن كلثوم وعسلوج بن الحسن يتشددان في الاستيلاء على البواقي ، التي يتأخر الملتزمون في دفعها (٢) . وكانت الأحباس وبعض المنافع العامة تستغل بطريقة الالتزام (٣) . وعلى الرغم من تعسف بعض الملتزمين عرف الفاطميون بالعدل والعطف على الرعية .

وقد عنى المعز وخلفاؤه من بعده بديوان الخراج الذي اعتمد عليه الفاطميون في تنظيم ماليتهم . وكان المعز يهتم دائما بإيجاد التوازن بين الدخل والمنصرف حتى لا تصاب خزينة الدولة بالإفلاس .

وليس هذا وحده ، فإن الحكومة الفاطمية قد لجأت إلى احتكار بعض المعادن مثل الشب ، والنظرون ، وبعض مواد الصباغة (مثل ثمار أشجار السنط) . ولاهمية هذا النوع من الاستغلال ، أنشأ الفاطميون ديوانا أطلقوا عليه اسم « ديوان المستغلات » (٤) .

وكذلك اهتم الفاطميون بسك النقود ، الذي عده جوهر المعز مصدر ثراء دائم للدولة . وكانت عناية المعز بالدينار الذي يحمل اسمه فائقة حقا ، حتى إنه نقص قيم الدينار الأخرى التي لا تحمل اسمه ، كما رأينا ؛ ولاهتمامه بدار الضرب أسند إدارتها إلى قاضي القضاة (٥) . وكان للفاطميين دور لضرب النقود في مدن مصر المختلفة .

وقد أدخل الفاطميون نظاما جديدا لتنظيم التركات ، فأنشؤا ديوانا أطلق عليه « ديوان الموارث » ، كان من أهم مصادر ثروة الدولة . كما استحدث الفاطميون في عهد الحاكم ( ٣٨٦ - ٥٤١١ ) ديوانا للإشراف على الأموال المصادرة ، أطلق

(١) المقرئى : خطط : ج ٢ ص ٢١ .

(٢) المقرئى : اتماظ الخنفا ص ٩٨ .

(٣) المقرئى خطط ج ١ ص ١١٠ .

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٦ .

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٤٥ .

عليه اسم «الديوان المفرد»<sup>(١)</sup> . وكذلك اهتموا بالأوقاف فأنشؤا «ديوان الأحباس» وهو أشبه بوزارة الأوقاف عندنا اليوم .

## ٤ — النظام الحربي

الجيش هو العمود الفقري للدولة ، والأسطول من أهم مقوماتها ، خصوصا إذا كانت أراضي الدولة تطلّ على البحار . وقد اهتمت الدولة الفاطمية منذ نشأتها في بلاد المغرب على هذين العنصرين : فاعتمدت على جيش قوى يحميها ، ويساعد على امتداد نفوذها شرقا وغربا . وقد أنشأ الفاطميون إلى جانب الجيش أسطولا استطاع أن يجعل البلاد الإفريقية غربي البحر الأبيض المتوسط خاضعة لنفوذ الفاطميين . الذين استولوا على تونس والجزائر ومراكش ، وحاولوا فتح مصر مرات ، حتى تم لهم فتحها بعد قيام دولتهم بنحو ستين سنة . واستطاعوا ، في الوقت نفسه ، أن يستولوا من الروم على بعض جزر البحر الأبيض ، وذلك بفضل جيوشهم البرية وأساطيلهم البحرية : الحربية والتجارية .

### (١) الجيش :

وكان المعز لدين الله ومن سبقه من الخلفاء الفاطميين ، يعتمدون في تكوين جيوشهم على السكتاميين ، الذين انضموا تحت لواء أبي عبد الله الشيعي ، وكان لهم أثر كبير في قيام الدولة الفاطمية . إلا أن المعز لدين الله وضع نصب عينيه مبدأ الاستجابة والإخلاص للدعوة والدولة معا . فن آس منهم إخلاصا وتفانيا ، ضمهم إلى جيوشه ، وأسند إليهم المناصب ، ولو كانوا من غير السكتاميين .

ولم يكتف الفاطميون بإفريقية ، بل عملوا على مد نفوذهم إلى المغربين الأوسط والأقصى ، فانضم إليهم كثير من القبائل ، كالصنهاجيين والمصامدة وغيرهم ، وإننا نلرى كثيرا من كبار رجال الجيش الفاطمي في عهد المعز لدين الله ، من غير السكتاميين . فهذا جوهر الصقلي لا يمت إلى السكتاميين بصلة ، وذلك زيري بن مناد وابنه يوسف صنهاجيان . والمهم أن الجيش الفاطمي كان يعتمد في تكوينه على

(١) المقريري : خطط ٢ - ص ٢٨٧ .

السكرتاميين أولا ، وعلى غيرهم من القبائل المغربية المتفانية في طاعة الفاطميين ثانيا ، وعلى من عرف بإخلاصه للذهب الإسماعيلي ثالثا .

وكانت جيوش المعز ، وهو بالمغرب ، تتكون من عنصرين : الأول ، وهو الجيش الدائم ، الذي يكون على أهبة الاستعداد للعمل ، وتلبية مطالب الدولة الحربية في كل حين . وبهذا الجيش الدائم صد المعز عادية الأعداء عن بلاده ، واستطاع أن يمد نفوذه شرقا وغربا . وإلى جانب هذا الجيش الدائم فرق أخرى من المتطوعة الذين يتطوعون في الجيش ولا يعدون من فرقه الأساسية . وكان اعتماد المعز على هؤلاء كبيرا ، على الرغم من ولوعه بتنمية جيشه الدائم ، ليجب رعاياه في الجندية . وكان هؤلاء المتطوعة ، ولا سيما السكرتاميين منهم ، يتسابقون إلى تلبية نداء المعز ، الذي كان يدر عليهم الأموال ، ويضم إلى جيشه الدائم عددا كبيرا منهم .

وكثيرا ما كان المعز يعتمد على المتطوعة لسد ما عسى أن يكون هناك من نقص في جيشه الدائم ، إذا تهدد دولته خطر من الأخطار . وكان هؤلاء المتطوعة يسارعون إلى تلبية نداءه ، ويحققون ما يعقده عليهم من آمال . يتضح ذلك مما ذكره النعمان عن إرسال المعز إلى سجلماسة ، جيشا يتألف من المتطوعة كافة ، للقضاء على نفوذ صاحبها الشاكر لله ، المعروف بابن واسول . فإنه كان يعلم بعد الشقة ووعورة الطريق بين المنصورية وسجلماسة ، كما كان يعلم أن جيشه الدائم في حاجة إلى أن يتغذى بدم جديد ، من المتطوعين المتفانين في طاعته . لذلك أمر أن يندب لذلك من سارع إليه من شباب كتامة طائعا ؛ فلم تمض أيام حتى أتاه منهم من العدد فوق ما أراد ، مسارعين إلى ذلك ، فرحين به ، فأوسع لهم العطاء ، وأجزل لهم الجباة <sup>(١)</sup> . فلما أرادوا الخروج حضر الشيوخ . . . فذكر ( المعز ) مسارعة من سارع منهم إلى الخروج في ذلك الجيش ، وأنه كان فيما تقدم يتحول ذكر سلوك مآندبهم إليه دون تعاطي الخروج إليه . . . إنى لو ندبت من عسيت أن أئده منكم ، لو جئت فيه ما أريده . ثم أذن لمن سارع منهم إلى الخروج ، فدخلوا عليه فوجا فوجا ، وغص القصر بهم . فأثنى عليهم خيرا ، وقال لهم قولاطويلا ، منه . . . بآرك الله

(١) الجباة : العطاء .

فيكم ، وأحسن صحابكم ، والخلافة عليكم ، فقد صدقتم ظني فيكم ، وأملى عندكم . وأنتم من معدن البركة ، وعنصر الخير ، بكم بدأ الله إظهار أمرنا ، وبكم يتمه ويصلحه بحوله وقوته . . . وقد علمت مسارعكم إلى ماندبتنم إليه ، وإجابتم لما أردتم له ، وأرجو أن تبلغوا من ذلك بحسب الأمل فيكم ، ويرفع الله عز وجل بذلك درجاتكم ، ويعلى به ذكركم . أنتم البنون والإخوة والأقربون . ما يعدلكم عندى أحد ، ولا يبلغ مبلغكم من قلبي بشر ، وما ذلك إلا لما لي في قلوبكم ؛ ما نصر الله وليا من أوليائه قبلنا ، بمثل نصرتمك لنا ؛ على ذلك مضى أولكم ، وعليه أنتم ، على محبتنا ونصرتنا وموالاتنا . . . فأنتم حزب الله وأنصاره ، وجنده وأحباؤه .<sup>(١)</sup>

وكان المعز يثير حماسة جنوده بالممال أولا ، والمناصب ثانيا ، وتخويفهم من الله ومنه ثالثا ؛ أما الممال فكان يدر عليهم الكثير منه ، حتى لم يعد المرء يستطيع أن يقارن الخلفاء العباسيين والأمويين وغيرهم من الملوك والسلاطين المعاصرين بالمعز لدين الله . فقد كان يهب المحاربين من الأعطيات والمال ، وينفق على ذويهم في أثناء غيبتهم في الحملات ، ويتعهد بالإنفاق الدائم من يموت عائلهم في الجهاد ، وعلى غير هؤلاء المحاربين بالمؤن والسلاح ، إلى غير ذلك مما نراه مفصلا في هذه الوثيقة القيمة ، التي وازن فيها أحد المشاركة بين إنفاق المعز على جيوشه وإنفاق غيره ، حيث يقول مخاطبا الخليفة :

« أين يبلغ بأمر المؤمنين عطاء غيرك من عطائك ؟ إن الذي يعطيه أعداؤك جندهم ، نزر عند عطائك لأوليائك ، إذا حصل لهم ؛ إن أعداءك إنما يعطون الرؤساء من أجنادهم العطاء بعد العطاء لهم ولا تبعاهم ، ومن قدموه عليه من أجنادهم ولعبيدهم ، وسائر أسبابهم ؛ فيقطع العرفاء<sup>(٢)</sup> من ذلك كثيرا منه لأنفسهم ، ويفرقون باقية على من قدموا عليه ، وربما عاملوهم<sup>(٣)</sup> فيه ، ولا يبلغ ما يصل إليهم بعض ما يصل إلى أقل عبيد مولانا ﷺ . ومولانا يسبغ على أوليائه وعبيده الصلوات

(١) النعمان : المجالس والمساربات ج ٢ ص ٢٦ - ٢٨ .

(٢) العسري : هو الضابط المقدم على عدد قليل من الجند : ( من ٣ - ١٠ ) .

(٣) أى شاركهم .

والأرزاق والكساء والعلوفة والجراية على نساءهم وأبنائهم ، يقبضون ذلك بأيديهم ، وإن خرجوا في بعث حملهم ووصلهم . ومن استشهد منهم أو مات ، أبقى ما كان يجرى عليه لمخلفيه ، ويفرق عليهم السلاح والرواحل والمضارب ، وجميع أدوات السفر إذا سافروا ، مع إقطاعهم القطائع والضيايع ، واستعمالهم على الأعمال ، وتعاهدهم بالهبات الجزلة ، والعطايا السنوية ، وبلغتهم (١) عند أوتيتهم من البعوث بالسكساء والصلوات والمرالكب والحملانات ، (٢) .

وهذا يفسر سبب مغالاة جيوش الفاطميين في طاعة رؤسائهم ، وما أحرزوه من نجاح في كثير من الحملات التي اشتركوا فيها . فقد استطاعت هذه الجيوش في عهد المعز ، أن تنشر راية الفاطميين في جميع شمالي إفريقيا ، وجزء كبير من آسيا . وإن سياسة المعز مع جنوده ، لتتفق مع السياسة التي تسير عليها الدول الكبرى في الحروب الحديثة فهي تنفق على جنودها عن سعة ، وتوفر لهم أسباب الراحة ورغد العيش .

وأما إسناد المعز المناصب إلى جنده ، وتخويلهم من الله ، فقد رأينا في هذه الوثيقة أنه كان يعمل على إقطاع جنوده والقطائع والضيايع ، وعلى استعمالهم على الأعمال . ونرى ذلك واضحا جليا في الحملات التي وجهها إلى سجلماسة وغيرها ، فتمت جنسده المناصب إذا ما أخلصوا له وحسنت نياتهم في الحروب ، فيقول لهم : « إن الله قد امتحن عباده بالجهاد في سبيله معناه : فنحن نندبهم إليه ، لنعلم المجاهدين منهم والصابرين ، وايرفع الله (ع . ج) به درجاتهم ، ويجزل ثواباتهم ، وينقل حالاتهم . فكم منكم اليوم من ينفذ في هذا الجيش تابعا يعود متبوعا ، ومرءوسا يصير رئيسا . إنما ترفعكم عندنا وعند ربكم بنياتكم وأعمالكم ، وبها تتوسلون إلينا وإلى بارئكم » .

ومن الإصلاحات التي أدخلها المعز لدين الله على نظام الجندية ، ما كان يوليه قواده من احترام وتقدير . فكان إذا أرسل قائدا من قواده ، قرّنه بنفسه ، وأبان

(١) البلغة : الكفاية .

(٢) الحملان بالضم ما يحمل عليه من الدواب في الهبة خاصة . راجع كتاب الخالص والمساربات



لجندة أنه نائبه ، وأن طاعتهم لقائدهم هي طاعة له ؛ وقد سن بعمله هذا دستورا من دساتير الجندية ، له قيمته من الناحية العملية . وكان يقول لجندة إذا ودعهم : ولا يصلح الناس إلا برئيس ؛ وقد قدمت عليكم من علمتموه ، وأقمته فيكم مقام نفسي ، وجعلته معكم كأذني وعيني ، وكل امرئ منكم على نفسه بصيرة<sup>(١)</sup> .

وقد رأينا المعز يعامل جوهر الصقلي معاملة ممتازة حين عزم على إرساله إلى مصر ؛ فكثيرا ما عاده في مرضه ، وجعل أفراد البيت المالك يمرون أمامه تقديرا له<sup>(٢)</sup> ، وخلع عليه الخلع السنية ، وأمر في الوقت نفسه والى برقة أن يترجل له حين يمر بولابته ، وأن يقبل يديه<sup>(٣)</sup> . ولم يشفع لهذا الوالي ما عرضه على جوهر من أن يقدم إليه خمسين ألف دينار ، كفاء إعفائه من الترجل له ، وتقيل يديه<sup>(٤)</sup> .

وقد تشبّه المعز في ذلك بأبي بكر الصديق حين خرج ماشيا يودع أسامة بن زيد في حملته على بني غسان ؛ فقد سار ماشيا ، وأسامة راكبا ، وأخذ يخطم بعير أسامة ، حتى أصبح القواد والجنود الذين ساروا بقيادته طوع بنانه . أضف إلى ذلك أن جعفر بن فلاح لما فتح بلاد الشام ، وأرسل كتبه إلى المعز متخطيا في ذلك جوهر ، أعاد إليه الخليفة هذه الكتب ، وأمره بأن يتصل أولا برئيسه المباشر وهو جوهر الصقلي .

وهكذا اعتمد المعز لدين الله وهو في المغرب على أهالي هذه البلاد ، واعتقد الجند أنهم حماة لوطنهم ولخليفتهم العالوي . وبهذا يتميز نظام الجندية في المغرب عنه في مصر في عهد المعز ؛ فإن جيوش المعز في مصر لم تكن من أهالي البلاد ؛ فبينما نجد في جيش المعز في بلاد المغرب ، طوائف من الكتاميين والصنهاجيين والمصامدة وغيرهم من أهالي المغرب ، يتعذر علينا أن نجد جنديا واحدا من المصريين في عهد هذا الخليفة . ولا ندري إذا كان عدم اعتماد المعز على أهالي البلاد الأصليين في مصر مبعثه الخوف من انتقاض المصريين عليه ، أو اختلافهم وإيابه في

(١) الثعالب : المجالس والمساربات - ٢ ص ٣ .

(٢) Lene - Poole : A Hist. of Egypt in the Middle Ages, p. 102

(٣) شرح لمة من أخبار المعز لدين الله ( مخطوط ) ورقة ١٠٦ ، ٩ .

(٤) القبري : مخطوط - ١ ص ٣٧٨ .

المذهب الديني ، فإن المصريين سنيون غالبا ، والمعز وأصناره شيعيون ، أو أن قصر عهد المعز في مصر لم يتح له الفرصة لإحداث مثل ذلك الانقلاب الخطير ، وهو جعل الجيش الفاطمي مصريا لحا ودما. والذي لا شك فيه أن المعز اعتمد على أبناء جنوب الوادي ، حتى إنه كان من بين جيوشه فرقة تعرف بالسودانية .

وقد اعتمد المعز منذ فتح مصر في سنة ٣٥٨ هـ على جيش يزيد عدده على مائة ألف رجل من المغاربة . ونستطيع أن نقول ، إن جيوش المعز لم تهدأ ولم تستقر منذ وطئت أقدامهم البلاد المصرية ، فقد قاموا بإخضاع الإخشيدية والكافورية ، وفتحوا بلاد الشام ، ثم وقفوا في وجه الثوار من القرامطة الإسماعيلية ، في بلاد الشام تارة ، وفي مصر تارة أخرى ، ثم في وجه السنين في مصر تارة ، وفي بلاد الشام أخرى . كما حاربوا غير مرة مع الروم في الشام . وكان لهذا النشاط المتصل أثره في أن جوهر والمعز من بعده أصبحا لا يهتمان كثيرا بالتنظيم الداخلي للجيش ، بل وجهتا كل نشاطهما إلى الحرب ، وإمداد الجيوش بالعدد والعدة .

ومع ذلك يجب أن ننوه بدقة ذلك النظام الحربي الذي أدخله جوهر والمعز في مصر ، فإن جعفر بن فلاح القائد الفاطمي في بلاد الشام ، كان يعتمد في إمداد جيوشه على جوهر ، كما اتخذ جوهر من القاهرة مركزا يدافع منه عن مصر ، ويغير على غيرها من البلاد . وكذلك اتخذ الفاطميون من مدينة الرملة مستودعا لجندهم وعتادهم الحربي .

وبما نلاحظه عن جيوش المعز في الشرق ، أن اندماج الجند مع الأهالي يكاد يكون معدوما في مصر والشام . وكان ذلك راجعا ، كما ذكرنا ، إلى الاختلاف المذهبي بين هؤلاء الرعايا السنيين والمغاربة الشيعيين . كما كان راجعا أيضا إلى رغبة المعز في إبقاء جيشه وحدة لا تفكك فيها . ومن ثم كثرت الاحتكاك بين المصريين والمغاربة من ناحية ، وبين الشاميين ، وخاصة في دمشق ، والمغاربة من ناحية أخرى .

وبما يمتاز به الجيش الفاطمي في مصر ، وخصوصا في أيامه الأولى ، اعتماد جوهر والمعز على عنصر المشاة ، مع أن السكتاميين الذين كانوا يكونون العنصر الرئيس في الجيش الفاطمي قد اشتهروا بالفروسية . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى بعد الشقة ووعورة الطريق ، وطبيعة الأراضي التي تفصل بين إفريقية (تونس) ومصر ،

وعدم صلاحيتها لسير الخيول في الرمال والصحارى . وهذا يفسر لنا هزائم المغاربة في حروبهم مع القرامطة الذين كانوا يعتمدون على الفرسان .

وكان المعز في بلاد المغرب ثم في مصر ، يعتمد على ديوان الجند للنهوض بالجيش ، بل إنه كان يجعل ديوان الخراج أو بيت المال ، تحت طاعة الجيش ورهن إشارته . حتى إن المعز أمر جوهر ، أن يأخذ من بيوت الأموال ما يزيد زيادة على ما أعطاه (١) . وذكر المقرئ أن المعز لدين الله أطلق يد جوهر في بيوت أمواله ، فأخذ منها ما يزيد زيادة على ما حمله معه (٢) .

وأما عن نظام تكوين الجيش الفاطمي في عهد المعز ومن جاء بعده من الخلفاء ، فإنه كان يتكون من فريقين : الأمراء ، وطوائف الجند ، ولكل من هاتين الطبقتين مرتبة لا تتجاوزها إلى غيرها . فالأمراء كان يخضع على بعضهم بأطواق الذهب في أعناقهم ، والبعض يركب في المراكب بالقضب الفضية التي يخرجها لهم الخليفة من خزنة التجميل (٣) .

وأما طوائف الجند فقد اشتهر منها في عهد المعز لدين الله ، وخصوصا في مصر ، السكتاميون ، الذين قامت الدولة الفاطمية ، وامتدت فتوحاتها على أكتافهم . كما اشتهر « الصنهاجيون » ، نسبة إلى قبيلة صنهاجة ، وكانت لهم الزعامة في المغرب الأوسط خاصة ، وهم الذين ساهموا مساهمة فعالة في فتوح المعز في بلاد المغرب الأقصى . وقد قدر هذا الخليفة جهودهم ونفوذهم . فأناجى زعيمهم أبا الفتح (يوسف بلسكين) بن زيري بن مناد على بلاد المغرب بعد رحيله إلى مصر . ومنهم المصامدة ، وهم من قبائل المغرب الذين ساهموا مع جوهر في فتح مصر .

ومن أشهر فرق الجيش في عهد المعز ، الفرق السودانية . وكان المعز يعتز بهم ، حتى إنه كان يشركهم في ركوبه في احتفال عيد رأس السنة الهجرية . وكان يختار منهم ثلاثمائة من الشبان الأقوياء ، ويعطى لكل منهم درقة (٤) وحراب محلاة بالفضة .

(١) لمعة من أخبار المعز لدين الله (مخطوط بجامعة فؤاد الأول) ورقة ٣ (ب) .

(٢) المقرئ : خط ٣ ص ٣٧٨ .

(٣) حسن إبراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٤) عن بيض الشكل غالبا ، يتراوح طوله بين قدمين وقدم ونصف ، ويصنع من جلود

ويسمى هؤلاء « أرباب السلاح الصغير »<sup>(١)</sup> ، وبجانب السودان ، جماعة « الصقالبة » ، وكانوا من الأرقاء الذين يشترون بالمال من بلاد الحزر وبعض بلاد آسيا الصغرى والبلقان . وكان هؤلاء شأن في الجيش في عهد المعز وبعده . وقد رأينا من مناقشتهم المعز فضلهم على الدولة الفاطمية . وهناك طائفة « الأتراك » التي كان لها شأن بعد عهد المعز مباشرة ، حتى لقد استعان بهم الوزير يعقوب بن كلس على « الكتاميين » وغيرهم من الطوائف المغربية . وقد اصطنع جوهر والمعز جماعة من جنود الإخشيدية ، أطلق عليها اسم « الإخشيدية » . وكان هؤلاء الإخشيدية والأتراك من أكبر أعوان الوزير ابن كلس في عهد العزيز<sup>(٢)</sup> . ولكل طائفة من هذه الطوائف قائد خاص بها .

هذه هي أمم فرق الجيش في عهد الخليفة المعز لدين الله . وقد تطورت على مر الأيام ، فأصبح يطلق على الكتاميين والمصامدة والصنهاجيين وغيرهم من الفرق المغربية اسم « المغاربة » . ثم دخلت في الجيش فرق جديدة لم يكن لها شأن كبير في عهد المعز ، مثل قبائل الأكراد ، « والفرنجية » ، « والحجرية »<sup>(٣)</sup> « السكبار » ، « الحجرية الصغار » ، « الأتراك المصطفيين » ، « والديلم »<sup>(٤)</sup> .

وقد حدث تطور آخر في تسمية الفرق في جيش الفاطميين في العصور المتأخرة ، فأصبحت تنسب إلى بعض الخلفاء مثل الأمرية ، والحافظية ، والظافرية ، والعامدية نسبة إلى الخليفة الأمر ( ٥٢٤ هـ ) والحافظ ( ٥٤٤ هـ ) والظافر ( ٥٤٩ هـ ) والعاقد ( ٥٦٧ هـ ) . كما تنسب أحيانا إلى الوزراء ، مثل الجيوشية ، والافضلية ، نسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالي ( ٤٨٧ هـ ) وابنه الأفضل شاهنشاه ( ٥١٥ هـ ) . وقد نبغ في عهد المعز لدين الله كثير من القواد أشهرهم :

جوهـر الصقـلي ، وكان ساعد المعز الأيمن ؛ اعتمد عليه في إخضاع جميع بلاد  
= أفراس البحر وغيرها من الحيوانات ذات الجلود السمكية ، وأحيانا من جلد التماسح . ( الفاطميون في مصر ) ص ٤٧ .

(١) أبو العباس : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٩ .

(٢) Lane Poole : Hist. of Egypt in the Middle Ages, p. 110

(٣) هم جماعة من الشباب يقيمون في حجر منفردة ، وهم فرقة من الحرس الخامس في تصور الخلفاء .

(٤) أبو العباس : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٩٠ .

المغرب ، وفي محاولة طرد الأمويين من إفريقية ، كما اعتمد عليه في إدارة البلاد المغربية الشاسعة ، فاتخذته وزيراً له . ولم يكتف بذلك ، بل جعله قائداً أعلى لحملته الكبرى على مصر والشام . وتم على يديه فتح هذه البلاد . وبفضل جوهر تخلص المعز من القرامطة كما تخلص العزيز من أفتكين بفضلها أيضاً . ولما مات جوهر في سنة ٣٨١ هـ أطلق الخليفة العزيز على ابنه الحسين ، القائد ابن القائد .

ومن أشهر قواد المعز لدين الله زيري بن مناد الصنهاجي وابنه بلكين ، الذي عرف بعد ذلك باسم يوسف ، ولقب بأبي الفتوح . وإليه تنسب الدولة الصنهاجية . وكان أبوه زيري من كبار قواد القائم والمنصور من بعده . وكان المعز يعتمد عليه في إخضاع بلاد المغرب الأقصى ، وتأديب قبائل زناتة . وقد شارك هذا القائد مشاركة فعالة في حملة جوهر الكبرى على بلاد المغرب سنة ٣٤٧ هـ . ولما استحكم النزاع بين زناتة وزيري بن مناد ، قتله الزناتيون . وكان من أثر ذلك أن تفاقم العداء بين الصنهاجيين ، أنصار زيري ، والزناتيين . وقد صادف ذلك هوى في نفس المعز ، الذي رأى في اختلاف هاتين القبيلتين مصلحة له ولدولته ، لأن ذلك يقيه شر اتحادهم عليه ، واستقلالهم في النهاية .

وأما يوسف بن زيري بن مناد ، فكان من قواد المنصور والمعز ، واشترك مع أبيه في حملات جوهر الصقلي على بلاد المغرب (سنة ٣٤٧ هـ) ، وفي صراعه مع الزناتيين وحلفائهم الأمويين . وقد أنس المعز إليه ، فأنابه عنه في بلاد المغرب ، فوقف في وجه الزناتيين ، وقضى على أنصار الأمويين . وظل يغزو بلاد المغرب الأقصى ، ويلقى الرعب في المدن الخاضعة للأمويين ، مثل سبتة وطنجة ، حتى مات في ٣٧٣ هـ في خلافة العزيز .

ولا يقل جعفر بن فلاح شهرة في قيادة الجيوش عن هؤلاء ؛ فقد شارك في فتح مصر مع جوهر . واستطاع أن يخضع جميع بلاد الشام تقريباً في عدة شهور . ولولا التوتر المذهبي في هذه البلاد ، وزيادة نفوذ العرب ، كالعقبليين وسواهم فيها ، لبذت شهرته شهرة أستاذه جوهر ؛ إلا أنه كان يعتز بنفسه . ويثق بها ثقة بلغت حد الغرور ، مما أدى إلى قتله على يد الحسن الأعصم سنة ٣٧٠ هـ ، على ما تقدم .

ولا نفي أن فرق الجيش كانت تتخذ الألوية المختلفة الألوان ، فكانت خضراء تارة وبيضاء أخرى ، غير أن أعلام الأمان كانت بيضاء كما هي اليوم . وكان أمير الجيش يحمل لواءه ( أى لواء الجيش ) ، ويعتبر ذلك شرفاً دونه أى شرف . وكثيراً ما استخدمت الرايات للتخاطب بين وحدات الجيش ، وكانت الموسيقى تصحب جيوش المعز سواء في المغرب أو في مصر ، حتى إننا رأينا طبول جوهر تدق ، وأعلامه تحفق في الهواء عند دخوله مصر .

ومن أشهر أسلحة الجيش في عهد المعز : الرماح ، والحراب ، والدروع والأطبار<sup>(١)</sup> ، والخناجر ، والبلط ، والغفارات على الروم ، والمنجنقات<sup>(٢)</sup> والدبابات<sup>(٣)</sup> ، والكبش<sup>(٤)</sup> . كما كانت جيوش المعز تعتمد على استخدام النار المعروفة بالنار الإغريقية ، حتى سمي مستخدموها في الجيش باسم النبطية .

### (ب) البحرية :

وكان للبحرية الفاطمية في عهد المعز لدين الله شأن يذكر في بلاد المغرب ومصر . وقد اتخذ الفاطميون المهديّة مرفأ رئيساً ، ومن سوسة ، وغيرها من موانئ شمالي إفريقيا أما كن تأوى إليها سفنهم . ولا نفي أن الفاطميين ، وخاصة المعز ، قد أفادوا من موقع جزيرة صقلية لما فيها من موان وأحواض للسفن .

ولا نغلو إذا قلنا إن المعز استطاع بفضل أسطوله القوي أن يجعل غربي البحر الأبيض بحيرة فاطمية ، ولا غرو فقد هجم أسطوله على أساطيل عبد الرحمن الناصر الأموي في عقر دارها في الأندلس ، وانتصر على الروم ، حلفاء الأمويين

(١) جمع طبر ، وهو القاس .

(٢) آلات تستخدم لرى الحجارة أو المواد اللينة ، التي يلقى بها على الصدر . وتستخدم في الدفاع والهجوم معاً .

(٣) أما الدبابات فهي آلات من الخشب الصميكة ، ومن جلود الحيوانات التي لا تتأثر فيها النيران ، وتتخذ للهجوم ، فيدخل الجنود فيها ويدفعون بها إلى جدران الحصون لتفجها وهم بداخلها .

(٤) الكبش - حجرة صمغية ، بداخلها الجنود ، وبها قطعة قوية تشبه رأس الكبش وتتخذ لتهدم الحصون والأسوار .

في ذلك الحين ، حتى أرغهم على طلب الهدنة . وكثيرا ما هجم أسطول المعز على إقليم قلورية ( كالابريا ) جنوبي إيطاليا . ويذغى ألا ننسى ذلك الدور الهائل الذي قام به هذا الأسطول في سبيل مساعدة مساهمي جزيرة إقريش .

وقد ذكر النعمان المغربي ، قاضي المعز ، أن المهديّة كانت غاصة بالسفن ، حتى إن هذا الخليفة الفاطمي عمل على اتخاذ قاعدة ثانية تخفف الضغط عن هذا الثغر . وقد وجد القاعدة المنشودة في سوسة (١) ؛ فيذكر أنه ظهر بدار الصناعة بمدينة سوسة « سبعة مراحل (٢) ، أزية الصنع ، متقنة ، ينفذ بعضها إلى بعض ، كانت مدفونة تحت الأرض . إلا أنها تحتاج إلى بعض إصلاح ، وإلى صهرج يجرى عنه الماء إليها ، وأنها ( أي المراحل ) متى امتلأت ماء ، استغنى بها أهل المدينة عما هو خارج منها ، وكانت ذخيرة للراكب ، ولغير ذلك مما يحتاج إليه .

ويقول النعمان (٣) : « فرفعت ذلك إلى الإمام المعز لدين الله صلوات الله عليه ، فسرّ به ، وأمر بإصلاحها وإصلاح هذا الصهرج ، وأن يبني مسجد هناك . وكان قبل ذلك قد ذكر له تضايق دارى الصناعة بالمهدية بالمرالكب وكثرتها ، وما زاد منها ، وأن الدارين قد غصتا بها . فذكر عمارة دار الصناعة بسوسة ، والإنشاء بها ؛ وكان وجود هذه المراحل من مقدمة الخير فيها .

وهكذا أصبح للمعز لدين الله في إفريقية ميناءان هامين ، يعتمد على دور الصناعة فيهما في إخراج السفن ، وعلى أحواضها في إيوائها . وكان المعز يعمل على أن يجعل حاضرتة المنصورية ميناء ثالثا من موانئه الرئيسة . يدل على ذلك قوله : « لئن امتد المقام ههنا ( أي في المنصورية ) ، لتجرين البحر بحول الله وقوته إلينا في خليج حتى تكون مراكبنا تحط وتقلع بحضرتنا (٤) . » وبهذا نرى أن المعز كان يهتم

(١) مدينة ساحلية ، بينها وبين القيروان ستة وثلاثون ميلا . يحيطها البحر من ثلاث جهات : من الشمال والجنوب والشرق . وسورها صخرى ، منيع ، يضرب فيه البحر ، وبها منار يعرف بمنار « خلف الفقى » ، وتقع في مكان مرتفع .

(٢) جمع مرجل وهو القدر الكبيرة .

(٣) المجالس ج ٢ ص ٥٩٠ - ٥٩٢ .

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٥٩٢ .

بتكوين أساطيل قوية ، وأنه اتخذ من المهديّة وسوسة مراكز أساسية لأسطوله الإفريقي . أما أسطوله الأوربي فكانت سفنه رابضة في موانئ صقلية ، تحت إشراف الأسرة الكلاية .

وإلى هذا الأسطول الفاطمي يرجع الفضل في فتح مصر في أقرب وقت . فقد كان واسطة الاتصال بين جيوش جوهر الغازية ، وبين المعز في المغرب . وفي حراسة هذا الأسطول كانت الإمدادات تصل إلى جوهر في سهولة ويسر . وقد اتخذ المعز من بعض المدن المصرية دورا لصناعة السفن ، فأنشأ في المقس دارصناعة ضخمة ، وصفها المسبحي المؤرخ المصري المتوفى سنة ٤٢٠ هـ بقوله : « إنه لم ير مثلها فيما تقدم كبرا ووثاقة وحسنا » (١) . وقال ابن أبي طي : « لم ير مثلها في البحر على ميناء » (٢) . ويظهر أن المعز لم يعمل دار صناعة الفسطاط التي كانت تسمى « دارصناعة مصر » ، كما عني بإقامة دور صناعة السفن في موانئ مصر الهامة كالإسكندرية ودمياط (٣) .

ولم يكن بناء السفن في مصر راجعا إلى خوف المعز من غارات الروم والقرامطة على مصر والشام حسبا ، بل كان ذلك راجعا أيضا إلى رغبته في بسط نفوذه على البلاد التي قد يتخذها الأعداء طريقا يغيرون منه على مصر . كما كان راجعا أيضا إلى ما كان يهدف إليه المعز من اتخاذ مصر والشام قنطرة يعبر منها إلى بغداد ، حاضرة العباسيين في ذلك الحين . أضف إلى ذلك أنه حرص على أن تكون لأسطوله السيادة والتفوق على سائر أساطيل البحر الأبيض . ولاغرو فقد دخلت في حوزة المعز ، بعد أن تم له فتح مصر والشام ، البلاد الواقعة على البحر الأبيض ، من أنطاكية إلى سبته ، ووقعت في يده موانئ المغرب الأقصى المطلة على المحيط الأطلسي أيضا .

ومن ثم ملأ المعز كثيرا من موانئ الشام الهامة مثل صور ، وعكا ، وعسقلان ، بالسفن الكثيرة المختلفة الأنواع . وأهمها الثلثديات (٤) والثوانى الحربية (٥)

(١) حسن إبراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ص ٢٥١ .

(٢) المقرئبي : خطط ج ٢ ص ١٩٥ .

(٣) كانت دياط القديمة شمال دمياط الحالية بكثير ، وتكاد تقابل مصيف رأس البر .

(٤) مفردتها شندى ، من المراكب المطلعة ، وتختص بحمل العناد والرجال .

(٥) مفردتها شونة أو شبنى ، وهي سفن كبيرة ، بها الأبراج الكبيرة ، وتشبه البوارج الحربية

اليوم ، وبها آلات الهجوم والدفاع .



والمسطحات (١) والطرادات (٢) والعشاريات (٣) والحراقات (٤) . وقد رأينا موقف أسطول المعز من صور وسواها في حروبه مع الروم ، كما رأينا كيف اتخذ جوهر من عكا وعسقلان مستودعات للإمدادات التي كانت تندفق على جيوش الفاطميين في بلاد الشام ، حتى لقد اتخذ منها قواد المعز وجيوشه أما كن يفرون منها من وجه أعدائهم ، ولا سيما القرامطة .

ولأهمية السواحل الشامية في نظر المعز كان يعين عليها قوادا وولاة ، ليكون الاتصال محكما بين مصر وبلاد الشام . وقد قدرت سفن الأسطول المصري التي بنيت في دور الصناعة المصرية ، بأكثر من ستائة قطعة ، مختلفة الأشكال والأحجام ، على حين بلغ عدد السفن في أواخر عهد الدولة الفاطمية مائة قطعة فقط .

وهكذا استغل المعز لدين الله موقع مصر والشام الاستراتيجي ، فكون أسطوله الشرقي الضخم . ولو قدر له البقاء طويلا ، لكان هذا الأسطول أكثر ضخامة وأبعد أثرا . وقد وصف المقرئ (٥) عناية المعز بالأسطول في هذه العبارة ، فقال : « لما سار الروم إلى البلاد الشامية بعد سنة خمسين وثمانئة ، أشد أمرهم بأخذهم البلاد ، وقويت العناية بالأسطول في مصر منذ قدم المعز لدين الله . وأنشأ المراكب الحربية ، واقتدى به بنوه . وكان لهم اهتمام بأمر الجهاد ، واعتناء بالأسطول ، وواصلوا إنشاء المراكب بمدينة مصر وإسكندرية ودمياط ، من الشواني الحربية والشلنديات والمسطحات ، وتسييرها إلى بلاد الساحل ، مثل صور وعكا وعسقلان ، وكانت في أيام المعز لدين الله تزيد على ستائة قطعة . »

وكان للأسطول أمير يدعى « قائد القواد » . وقد سمي بذلك ، لأنه كان تحت

(١) هي نوع من السفن .

(٢) واحدها طراد ، وهي من السفن الصغيرة القوية السريعة ، تحمل الواحدة منها نحو

مائة فارس .

(٣) من القوارب النهرية ، التي استخدمها الفاطميون في غزواتهم البحرية ، واحدها عفيرى .

(٤) نلى الشواني في الفخامة ، وتحمل المنجنيقات وغيرها من معدات الهجوم ، وأتقنه الذهبية .

عندنا اليوم .

(٥) خطط ج ٢ ص ١٩٢ .

إمرته عشرة قواد. كما كان يطلق عليه وأمير الجيش، وهو المستوفى<sup>(١)</sup>. وقد بلغ من عناية المعز ومن جاء بعده من الخلفاء بالأسطول، أن الخليفة كان ينفق عليه في غزواته بنفسه، ويساعده وزيره أو من يقوم مقامه. ولم يكن بحجارة الأسطول من رتبة واحدة، فهناك جماعة تتقاضى راتباً قدره ديناران، وأخرى تتقاضى ثمانية دنانير، وثالثة عشرة دنانير، ورابعة خمسة عشر ديناراً، وخامسة عشرين ديناراً، وسادسة خمسة وعشرين ديناراً. أما أمير الأسطول، أو مقدمه، فكان من كبار الأمراء والأعيان<sup>(٢)</sup>.

كما كان الخليفة يسقطع رجال الأسطول إقطاعات عرفت باسم «أبواب الغزاة». وكان قائد الأسطول يشرف عليه، ويتناوب القواد العشرة الإشراف العملي، فيأتمر الجميع بأمر القائد الذي تؤول الرياسة إليه.

ولكي يشجع الخليفة رجال الأسطول أو الغزاة، كما كانوا يسمونهم، كان يترك لهم من الغنائم المال والثياب والمتاع، ولا يستبق سوى الأسرى والسلاح. وكانت الفسطاط من أهم مراكز الأسطول، وكان الخليفة يشاهد بنفسه حفلة النفقة على الأسطول عند خروجه، ويبارك رجاله، ويدعو لهم بالتوفيق، كما كان يحضر حفلة استقباله عند عودته. وقد بلغ اهتمام الخلفاء الفاطميين بالأسطول، أنهم اتخذوا لهم «منظرة»<sup>(٣)</sup> بالمقس، يحتفلون فيها بتوديع الأسطول واستقباله. ويتضح ذلك من هذا الوصف الشائق الذي أورده المقرئ<sup>(٤)</sup> حيث يقول: «ويتولى النفقة في غزاة الأسطول الخليفة بنفسه، بحضور الوزير... فإذا أراد النفقة فيما تعين من عدة

(١) المقرئ: خطط ج ١ ص ١٩٣.

(٢) يقول المقرئ (خطط ج ١ ص ١٩٣): «لا بد أن يقدم على الأسطول كبير من أعيان

أمراء الدولة وأنوام».

(٣) كانت أشهر مناظر الفاطميين في القاهرة ومصر والروضة والقرافة، وكثيراً ما كانت تستعمل

أماكن لتزفة الخلفاء. وأشهر المناظر هي: الأزهر، اللؤلؤة، الدكة، المقس، باب الفتوح، دار الملك، منازل المعز، اليهودج، بركة الحبش، قبة الهواء، الأندلس (أنظر حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر ص ٢٧١، هامش ١).

(٤) المقرئ: (خطط ج ٢ ص ١٩٣).

المراكب السائرة . . . فيتقدم إلى النقباء بإحضار الرجال ، وفيهم من كان يتعيش بمصر والقاهرة ، وفيهم من هو خارج عنهما ، فيجتمعون . وكانت لهم المشاهدة والجرابات في مدة أيام سفرهم ، وهم معروفون عند عشرين عريفا ، يقال لهم النقباء ، واحدهم تقيب .

وكان رجال الأسطول يشغلون مكانة سامية بين موظفي ديوان الجيش . ولا غرو ؛ فإن صاحب ديوان الجيش ، وهو المستوفى ، كان أمير الأسطول . وبذلك وضع المعز لدين الله أساس نظام البحرية في مصر ، ونهج نهجه من جاء بعده من الخلفاء ؛ إلا أنهم لم يصلوا بالجيش والأسطول إلى ما وصل إليه المعز .

وليس أدل على اهتمام المعز بالأسطول ، من اعتماده على «ديوان الجهاد» ، أو «ديوان العمازة» ، كما كانوا يسمونه ، في تنظيم شئون الأساطيل ، ووقف الأموال الفخمة للإيفاق على الأسطول ورجاله ؛ وكثيرا ما كان المعز يمد هذا الديوان بالأموال الكثيرة من بيت المال .

وكذلك عنى المعز بالأسطول التجارى ، لينقل السلع المصرية إلى البلدان الأخرى ، ويعود محملا بالسلع من هذه البلدان . وقد أصبح للفاطميين أسطولان تجاريان ، أحدهما في البحر الأبيض ، والآخر في البحر الأحمر ؛ فكانت الإسكندرية ودمياط في مصر ، وعسقلان وعكا وصور وصيدا في الشام ، من أهم الموانئ الفاطمية في البحر الأبيض ، كما كانت عيذاب أهم موانئ البحر الأحمر ، وكانت مزودة بأسطول حربى يقوم على حماية الأسطول التجارى ، والقضاء على اللصوصية في هذا البحر .

وقد عنى الخليفة المعز «بديوان الإقطاع» ، الذى كان تابعا «لديوان الجيش» ، وكان عمل صاحبه مقصورا على النظر فى الإقطاعات التى أقطعها رجال الجيش ، وبخاصة من الممتلكات الكثيرة ، التى كانت تابعة للإخشيديين من قبل .

وبهذا نستطيع أن نقول ، إن المعز لدين الله نهض بالجيش والبحرية نهضة مباركة ، كان لها أثر بعيد فيما قام به الفاطميون من فتوح ، وما نالوه من انتصار وظفر .

## ٥ - النظام القضائي

### (١) القضاء

كان للفاطميين تشريع خاص يقوم على عقائد المذهب الإسماعيلي . وقد عنوا منذ قيام دولتهم بالتشريع الذي يقوم على أساس المذهب الإسماعيلي ، وأستندوا القضاء إلى رجال ألبوا بعقائد هذا المذهب . وعلى رأس هؤلاء القضاة موظف كبير أطلق عليه اسم قاضي القضاة ، ويشبه وزير العدل اليوم ، وكان ينوب عنه في الأقاليم قضاة يصدرن الأحكام على وفق عقائد المذهب الإسماعيلي . ولسنا نشك في أن قاضي القضاة كان شيعيا إسماعيليا ، وأنه كان يعين في الأقاليم قضاة يدبتون بعقائد هذا المذهب . وبفضل هذه الطريقة ساد الفقه الإسماعيلي في شمالي إفريقيا ، منذ أيام المهدي .

وكان أبو حنيفة النعمان المغربي بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون الإسماعيلي ، خير من يمثل رئاسة القضاة عند الفاطميين في الدور المغربي ؛ فقد اتخذ المهدي قاضيا له ، ثم عينه المنصور قاضيا لقضائه ، ومنحه شيئا غير قليل من النفوذ ، وكتب له عهدا « بالقضاء بمدن المنصورية والمهدية والقيروان ، وسائر مدن إفريقيا<sup>(١)</sup> » . وقد قدر الخليفة المنصور وابنه المعز النعمان حق قدره ، وأشادا بميله إلى إقامة الحق « على الشريف والمشروف » ، والعدل « بين القوى والضعيف » .

وكانت مهمة قاضي القضاة أن يخاطب في كثير من الأحيان في المساجد الجامعة ، بالقيروان والمنصورية والمهدية ، وأن يعين من يتوب عنه في الأمصار ، ويعزل من يستحق العزل ، وينقل من يرى خطر بقاءه في ناحية ما ، إلى غير ذلك ؛ كما كان عليه أن يضع لقضائه في الأقاليم الخطة التي يسرون عليها في القضاء بين الناس ، والأسس التي يستطيعون بفضلها أن يحتفظوا بمهبتهم أمام المتقاضين ، وأخذ الحق للظالمين .

ويحدثنا أبو حنيفة النعمان<sup>(٢)</sup> قاضي قضاة الفاطميين في المغرب ، عما أسداه من النصح للقضاة في عهد المعز ، فيقول : « ولقد قلت لبعض من أوصيته من القضاة الخارجين إلى بعض الأعمال : إن أحق ما نظرت فيه وعلمت له ، الوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة فيما قلدتموه ، وامثال ما عهد أمير المؤمنين ( عليه الصلاة والسلام )

(١) النعمان : المجالس والمساربات ج ٢ ص ٢٠٣ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٢ - ١٥ .

إليكم فيه ، لما يجب لله وله عليكم في ذلك . ولا أقل من أن تنظروا فيما تدوم لكم به  
 النعمة ، وأن تقتدوا في ذلك بما تشاهدونه من عوام الناس ، مثل ضراب<sup>(١)</sup>  
 وصائع وخياط وقصار<sup>(٢)</sup> ، وأما لهم من الصناعات ؛ فقد ترون أن أحدهم يُسلم إليه  
 العمل يساوي المال العظيم ، يعمل بالأجر التافه اليسير ، ولا يشهد به عليه ، ولا  
 يتوثق فيه منه . وقد يكون فقيرا أو غير ورع ولا أمين ، ولا ناظر في علم ولا دين ،  
 فيفني بأمانته ، ويصرف ما دفع إلى من استعمله فيه ، ويقبض نافعها من الأجر عليه ،  
 ولا يدعوه إلى ذلك إلا أنه يعلم أنه إن احتبس مما دفع إليه وأنكره ، تناذره<sup>(٣)</sup>  
 الناس ، فلم يستعملوه ، فيرى أن ما يأخذه من الأجر شيئا بعد شيء . وأنفع له ؛  
 وأنتم تصيبون من فضل الله ما إن استدمتموه بحفظ ما استحضتم ، دام لكم ، مع  
 حسن الاحدوث فيكم ، ورجاء الزيادة لكم ، وما ترجون من ثواب ربكم . فمن سمع  
 من أولياء الله مثل ما قدمت ذكره ، فليزله على ما نزلته<sup>(٤)</sup> ، ولا يذهب به إلى حيث  
 ذهب من نطق الكتاب بدمه<sup>(٥)</sup> ، ويبين الله عليه فساد ما توهمه وذهب إليه .  
 والله يهدي من تمسك بحبل أوليائه<sup>(٦)</sup> ، إلى طاعته وطاعتهم ، والعمل بما يرضيه  
 ويرضهم ، قولا وعملا ، نية وموافقة للصواب .

وكان المعز لدين الله يحرص على أن يكون قاضي قضائه مثلا أعلى في الخلق الكريم ؛  
 فكان يحثه هو وغيره من القضاة على التمسك بالعدل بين الرعية ، أغنيائهم وفقرائهم .  
 وما كان يسمع وشاية الوشاة في النعمان ، لما ظهر له من عدله ، ولكنه كان يعيب على  
 القاضي اللين ، والتحيز لبعض المتخاصمين دون بعض ، ويخيف القضاة من مغبة هذا  
 التحيز ، ويحثهم على اتباع كتاب الله وسنة رسوله ، حتى ينتشر بذلك العدل بين الرعية .  
 انظر إلى الخليفة المعز يخاطب قاضي قضائه النعمان ، فيقول : « يا نعمان ! زعم لي  
 فلان الرجل ، وأسماء ، أن بعض الأولياء يستثقلون أمرك ، ويقولون :

(١) الضراب : الجراد .

(٢) القصار : الصناعة . فالقصار هو الصانع .

(٣) تناذره الناس : حذر بعضهم بعضا معامته .

(٤) أي يقدره ويمد له ليكون مثالا .

(٥) ذم الله من لم يطلع به ورسوله وأدى الأمر .

(٦) يتصد بالأولياء : أنصار الدولة أشباعها .

فلان أرفق بنا (لبعض القضاة). قال المعز: قلت له: الذي يستثقل من أمر النعمان، هو الذي معنى أن أتولى القضاء بين الناس. إن القضاء ميزان عدل الله في أرضه، وقسطه بين عباده. فمن عدل به عن جهته، أو أحاله عن سبيله، فقد باء بغضب من الله ولعنة أوليائه، فأمر القضاء عظيم، ومحملة ثقيل. والله ما نقم الناس على أمير المؤمنين عليّ (بن أبي طالب) صلح، إلا أنه تقلده لهم، لحملهم على منهاج الحق فيه؛ فلذلك قلدناه، وتعافينا منه. إنما أراد من أراد من نعمان، إذا أنه في خصومة مع ضعيف، أن يوسع له إلى جانبه في مجلسه، ويقوم خصمه بعيدا منه. فهذا أدنى ما عسى أنه كان يراد منه، وفيه خزي لمن فعله، لأننا قد عهدنا إليه وإلى غيره، بمن قلدناه القضاء والحكومة، أن يساوى بين القوى والضعيف، ويعدل بين الشريف والمشروف، في قوله وفعله، ولفظه ولحظه، وتقريبه وإبعاده ومجلسه، كما جاء الأمر عن آباؤنا صلح لمن تقلد القضاء به، فمن ابتغى خلاف هذا منه، لم يرضه إلا أن يحكم أيضا بما أحبه له، وفي هذا دون غيره غاية الخزي لمن فعله. وحسب خصم من فعل به هذا؛ نظرا إلى ظاهر جور من فعله عليه، وردعا له عن حجته، ووهنا في قوته، فقل هذا ينقمه من نقم تليه، من اتباع أمرنا، وامتنال عهدنا. وحسب من خالفه نقضا عند الله وعندنا؛ ومن قام به مشوبة من الله وحظوة لدينا (١).

وقد ضرب المعز لدين الله في هذه النصيحة المثل الأعلى للقاضي النزيب، وبين أن قاضي قضائته النعمان كان المثل الأعلى لذلك، وأن القاطمين في تضائهم وأحكامهم لم يحدوا عن كتاب الله وسنة رسوله. ولذلك لا نعجب إذا تطور النظام القضائي في بلاد المغرب تطورا ملحوظا، إذ كان المعز يشرف على القضاء بنفسه؛ ليسمو به إلى المكانة التي لا يستطيع معها أن يتدخل فيه ذوو الأغراض، من أصحاب الجاه والسلطان.

وكان قاضي قضاء المعز يقوم بالفتيا إلى جانب نظره القضايا في حاضرة الدولة، وإشرافه على القضاة في الأقاليم. فكان يرد إليه كثير من الأسئلة والمسائل، فيجيب

(١) النعمان: المجالس والمساربات ٣٣ ص ٢١٠.

عليها ، ويشرح غوامضها شرحا يتفق مع أصول المذهب الإسماعيلي ، وما جاء في الكتاب والسنة . ولم يكن قاعنى القضاة النعمان مستبدا بالأمر وحده ، بل كان يشرف عليه الخليفة المعز ، ويصحح له فتاويه ، وينقحها أو يعلق عليها . وهذا يدل على علو كعب المعز في العلوم الدينية ، والأصول الفقهية . ولا غرو ؛ فقد كان هذا الخليفة عالما حاذقا ، حتى إنه يعد بحق من كبار المشتريين من المسلمين في عهده .

وقبل أن نتناول الكلام على القضاء في مصر ، نذكر مثلا للفقه الفاطمي الإسماعيلي :

يختلف القضاء عند الإسماعيلية عنه عند السنيين . يدل على ذلك ما رواه القاضي النعمان المغربي عن معاملة المعز للأرقاء ، الذين تحولوا إلى هذا المذهب ، وغيرهم من الذين تمسكوا بعتاقدهم الأولى .

فقد كان بعض قضاة الفاطميين يورثون أبناء العبد الرقيق دون سيده ، ويقبلون شهادته على غيره . وشهادة العبيد بعضهم على بعض ، على حين رأى بعض آخر من القضاة ، وعلى رأسهم النعمان ، عدم توريث الأرقاء عملا بقول الرسول : « العبد وما ملكت يدها لسيده » ؛ كما رأوا عدم قبول شهادة هؤلاء الأرقاء . على أن المعز لدين الله قد أول هذا الحديث تأويلا يتفق مع مصلحة المذهب الإسماعيلي ، ولذلك اعتبر العبد الرقيق الذي تملكه الدولة ، والذي دخل في الدعوة الإسماعيلية ، كالحر سواء بسواء : يرث أبنائه وذووه تركته ، وتقبل شهادته . وأما الأرقاء الذين لم يدخلوا في الدعوة الإسماعيلية ، ولم يتحولوا مذهب الفاطميين ، فهؤلاء لا تقبل شهادتهم ، ولا يورثون ، كما قضت بذلك الشريعة الإسلامية . وهذا مما يدل على أن المعز آثر جانب مصالحة دولته التي كانت ترمى إلى جذب الناس إلى صفوفها ، لا فرق في ذلك بين الأحرار والأرقاء ، لأن الناس كافة كانوا في نظر القائمين بالدعوة الإسماعيلية سواء .

وإليك ما أتى به المعز لدين الله في هذا الصدد : « من كان من سائر عبيدنا ممن شملته دعوتنا ، أجريت أموره مجرى أمور الأحرار المالكين أمورهم ، في موارثهم وشهاداتهم وأفعالهم ، وجميع ما يتصرف من أموالهم . ومن لم يشملهم ذلك جرى أمره مجرى أمور العبيد ، الذين لا يجوز لهم من أمورهم إلا ما أطلقه لهم مولاهم » (١) .

وقد تطور نظام القضاء في مصر بعد انتقال المعز إليها ؛ ومع ذلك ظل القضاء على ما كان عليه تقريبا ، في عهد الإخشيديين ؛ فكان القضاء عند دخول جوهر في يد القاضي أبي الطاهر الذهلي (١) ، الذي أسند إليه الخليفة العباسي قضاء الشرقية في صفر سنة ٣٣٤ هـ ، ثم ولي قضاء مصر سنة ٣٤٨ هـ ، وأضيف إليه قضاء دمشق ، فاستخلف عليها غيره ، وتقلد هذا الرجل رئاسة القضاء زمنا طويلا . وكان مالكيًا وثقة ثبنا مستندا في الحديث ، أديبا كاملا جليلا . وكان من بيت جليل ؛ كان أبوه من شيوخ القضاة بالعراق . (٢) وعلى الرغم من إسناد القضاء إلى أبي الطاهر ، كان « في أحكامه كالمحجور عليه ، لكثرة جلوس كافر للمظالم في كل سبب » .

ومما يمتاز به أبو الطاهر ، أنه كان سهلا في أحكامه ، لأنه طرد من دمشق بسبب تشدده ؛ فكان يكتب أحيانا بشاهد واحد ويمين ، مع أن العادة قد جرت بوجوب شاهدين ، لا شاهد واحد . وقد بقي على قضاء مصر حتى دخل إليها جوهر ، فكان ممن ندب للقائه . ولما كانت سياسة جوهر ترمي إلى التقرب إلى الشخصيات البارزة في مصر ، واستغلال نفوذهم ، رفع جوهر - كما يقول السكندى - من قدر القاضي ، وخلع عليه ، (٣) .

لم يستطع جوهر أن يعزل هذا القاضي السني عن القضاء ، فأبقى في منصبه ، وتوودد إليه ؛ ولكنه عمل في الوقت نفسه على الحد من نفوذه ، وإشعاره بضرورة التمشي مع السياسة الفاطمية ، التي يخضع لسلطانها في أحكامه . ولذلك أدخل جوهر في القضاء بعض أحكام شيعية إسماعيلية ، وحث على القاضي السني أن يصدر أحكامه وفق عقائد المذهب الإسماعيلي ، مذهب الفاطميين . وكان بقاء أبي الطاهر في منصبه متوقفا على تنفيذ ذلك النظام الجديد . وهكذا ألزمه أن يحكم في المواريث بقول أهل البيت (٤) ، وفي الطلاق ، وفي الهلال (٥) .

(١) هو محمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر بن عبد الله بن صالح بن أسامة الذهلي ، كان أمه من البصرة . ولد في سنة ٢٨٠ ، وتدرج في مناصب القضاء بمصر .

(٢) السكندى : كتاب الولاية وكتاب القضاء ص ٥٨٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ٥١٤ .

(٤) في تفضيل المرأة على الرجل أو مساواتها به على الأقل .

(٥) حيث كان القاضي يلبس روية هلال رجب وشعبان ورمضان من فوق - طح الجامع ؛ فأجل =



ومعنى ذلك أن أبا الطاهر لم يكن مستقلا في أحكامه. وعلى الرغم من أن كافورا الإخشيدى كان قد حدد من نفوذه، لم يكن أبو الطاهر يشعر بتلك المهانة التي لقيها من جراء تدخل الحكومة الشيعية في أحكامه.

وكان من أثر ذلك أن أبطل جوهر في سنة ٣٥٨ هـ الصوم بعد اليوم التاسع والعشرين من شهر رمضان، وصلى العيد قبل رؤية الهلال؛ فاعترض أهل القسطنطينية على ما فعل، وصاموا اليوم الثلاثين من رمضان، تمشيا مع عقائد مذاهبيهم السنية، وجعلوا العيد بعد رؤية الهلال، متبعين في ذلك القاضي السني أبا الطاهر، الذي كان يتلبس الهلال من فوق الجامع العتيق بالقسطنطين. وقد أنكروا عليه جوهر ما فعل، وتهده، وشاركة في القضاء، حتى إنه كان يجلس معه كل يوم سبت.

وعلى الرغم من تدخل جوهر في شئون القاضى أبي الطاهر، كما تقدم، بقي قضاء مصر في يده. ولما قدم الخليفة المعز إلى مصر أشرك معه قضاء من المغاربة، مما أضعف نفوذه إلى حد بعيد. ولكن بم نفس تدخل المعز في شئون القاضى أبي الطاهر؛ يظهر أنه كان يعمل على تغيير نظام القضاء في مصر، وإسناده إلى قضاء من المغاربة، ولكنه رأى صعوبة تحقيق هذه السياسة، فأقر القاضي أبا الطاهر في منصبه، كما أقر الوزير ابن القرات، «لاعتبارات سياسية لا غير».

وأول هذه الاعتبارات أن المصريين لم يكن يتنظر منهم أن يسارعوا إلى اعتقاد المذهب الإسماعيلي؛ لذلك كان بقاؤه أبي الطاهر برغم احتفاظه بمذهبه السني، من الأمور السياسية التي لا مندوحة عنها، ولا سيما أن جوهر أخذ على نفسه العهود والمواثيق، بأن يطلق للمصريين الحرية التامة في الدخول في مذهبهم، فكان عزل هذا القاضي الذي ظل في منصب القضاء منذ ربيع الأول سنة ٣٤٨ هـ، وإحلال قاض من الشيعة محله، مما يثير شعور الجمهور<sup>(١)</sup>.

«وإن سلوك أبي الطاهر عند وصول المعز، ليدل على مقدار ما كان يضمه

جوهري ذلك، وصار الهلال بالعدد، بحيث يكون الشهر إما ثلاثين يوما أو تسعة وعشرين، مخالفا قول

الرسول: «صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم، فأكلوا عدة شعبان ثلاثين يوما...»

(السكندى): كتاب الولاة وكتاب القضاء ص ٥٨٤.

(١) حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر ص ١٨٩.

المتعصبون من السنيين ، من عداة البتشييين في شخص هذا الحاكم الشيعي ؛ فقد نزل جميع المستقبلين عن مطاياهم ، وقبلوا الأرض بين يديه ، ما عدا أبا الطاهر . يدل ذلك على ذلك ما أورده لنا المقرئ في مخطوطه المتني الكبير ، حيث يقول :

« لما ورد المعز مصر ، استقبله الناس على طبقاتهم مشاة . فلما رأوه ، قبلوا الأرض بين يديه كلهم ، سوى القاضي أبي الطاهر ، فإنه كان راكبا . ولما قرب ترجل وسلم عليه ، ولم يقبل الأرض . فالتفت المعز إلى خواص حجابيه ، وقال : من هذا الذي خالف الناس كلهم ؟ فقيل قاضي مصر ، وهو من أهل العلم والدين . ثم لأمه أحد الحجاب سرا فيما فعل ، فرفع صوته وقال جهرا بحيث يسمع المعز : وما هذا ؟ أهو الشمس التي قال رسول الله ﷺ : « من علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها » ؟ وقال الله تعالى : ( ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ؛ لا تسجدوا للشمس وللأقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ) ؛ فأرضاه بذلك ، واستحسن قوله ، فرجع وهو قاض ، وعلت منزلته . »

وليس ( هناك ) ما يمنعنا من أن نضن أن هذا القاضي إنما بقي في منصبه طبقا لهذه السياسة التي جرى عليها الفاطميون ، لا لأن الخليفة قد اقتنع بخطابه ، الذي تبين من ثنياه ما أضمره هذا الفقيه من كراهة لأهل الشيعة ؛ فإن سلطة أبي الطاهر ما لبثت أن اضمحلت ، وألزم في أواخر عهده في القضاء أن يصدر أحكامه وفق أصول المذهب الشيعي (١) .

وقد قضت سياسة الفاطميين أن أشرك المعز مع القاضي أبي الطاهر ، قاضيا مغربيا يدعى عبدالله بن محمد بن أبي ثوبان ، وجعل سجله وقاضي مصر والإسكندرية ، وجعل له النظر في المظالم في مصر ، والنظر في قضايا المغاربة ، والقضايا المشتركة بين المغاربة والمصريين ، وأخذ « شهود مصر يشهدون عنده ، ويشهدون على أحكامه ، ولم ير هذا بمصر قبل هذا (٢) » . وقد استمرت الحال على ذلك من شوال سنة ٣٦٢ هـ إلى أواخر سنة ٣٦٣ .

وكذلك نصب من المغاربة قاض آخر ( هو علي بن النعمان ) ، وكان قد صحب المعز إلى

(١) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر من ١٨٩ - ١٩٠ .

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ج ٢ ص ٤٤ .

مصر أيضا ، وشارك القاضي أبا الطاهر في سلطته . وهذا التنصيب يدل على ما ظهر في سياسة الفاطميين من تغير جديد ، بعد أن تم لهم فتح مصر ، إذ أصبح القضاء يقلد لاثنتين من الموظفين : أحدهما سني والآخر شيعي . وليس معنى ذلك زوال سلطة القاضي السني تدريجاً حسب ، بل إن ذلك إيذان بانتهاء نقلد السنيين منصب القضاء (١) . والواقع أن المعز لدين الله أشرك مع أبي الطاهر ابن أبي ثوبان ؛ فلما مات هذا أشرك معه علي بن النعمان . يقول ابن ميسر (٢) : « فلما مات ابن أبي ثوبان ، خاطب المعز علي بن النعمان بالقضاء ، وأزله في النظر في الأحكام ، وأبو الطاهر على حاله ينظر » . وقد دل لإشراك المعز علي بن النعمان مع أبي الطاهر على نية هذا الخليفة في تحويل القضاء في مصر إلى بيت النعمان ، العريق في القضاء .

حقيقة لم يشترك أبوه النعمان في قضاء مصر ، كما كان في المغرب ، إلا أنه كثيرا ما عهد إليه بالنظر في القضايا الهامة ، حتى إنه مات وهو لا يزال ينظر في إحدى هذه القضايا (٣) . وكان معنى تولية المعز علي بن النعمان القضاء ، تدريب هذا القاضي على القضاء بين المصريين والمغاربية ، وإعداده لرياسة هذا المنصب . يقول الكندي (٤) : « وقدم ( علي بن النعمان ) مع المعز من المغرب ، فأمر بالنظر في الحكم ، وكان يحكم هو وأبو الطاهر ، والشهود عليهما جميعا وعندهما ، والاجتماع عند أبي الطاهر » . وبهذا نستطيع أن نتبين خطر تقليد علي بن النعمان القضاء ، لأنه كان يشترك مع أبي الطاهر ، لاقى المنصب وحده ، بل في الجلوس وإصدار الأحكام .

ومما يدل على رغبة الفاطميين في تحويل القضاء إلى الشيعيين ، وفي بيت النعمان بوجه خاص ، أنه لما ولي العزيز بالله الخلافة سنة ٣٦٥ هـ ، عهد إلى علي بن النعمان في الإشراف على دار الضرب ، والجامعين بمصر والقاهرة ، أي جامعي عمرو والأزهر ، وهذا التقليد ينطوي على الحد من نفوذ القاضي السني ، والغرض من شأنه ، كما ينطوي على رغبة الفاطميين في ترويح قواعد المذهب الإسماعيلي ، من طريق القضاء .

(١) حنين إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٩٦

(٢) ج ٢ ص ٤٧ .

(٣) الكندي : كتاب الولاية وكتاب القضاة ص ٥٩٦ .

(٤) المصدر نفسه ص ٥٨٩ .

وقد شعر السنيون بهذا الخطر ، وحز في نفوسهم أن يروا القاضى على بن النعمان الشيعى المغربي ، يشارك أبا الطاهر السنى في مجلسه بجامع عمرو ، ومن ثم انتصر لأبي الطاهر من كان معه من الشهود السنيين - وكانوا كثيرين - كما انتصر له الفقهاء السنيون وكثير من التجار . ولم يستطع الفاطميون أن يتحملوا هذه الإهانة التى تحمل الثورة على النظام الفاطمى ، الذى يرمى إلى أن تكون السيادة للمذهب الإسماعيلى فى مصر . ولذلك قبض رجال الشرطة على جميع المتظاهرين ، وألقوا بهم فى غيابات السجون ، ولم يطلق سراحهم إلا بعد أن تدخل على بن النعمان (١).

ويظهر أن تدخل المعز والعزى فى شئون القضاء ، وازدياد نفوذ على بن النعمان ، قد ألم القاضى أبا الطاهر وحز فى نفسه ، فأصيب بالفالج . ولما كان العزيز يرغب فى نقل القضاء إلى الشيعيين ، قبل استقالته فى صفر سنة ٣٦٦ هـ ، حين اعتذر له هذا القاضى بالمرض ، ولم يستجب إلى رجائه فى تقليد ابنه القضاء . وإنما فعل العزيز ذلك ، لأنه أدرك مدى النفاق السنيين حول أبا الطاهر ، وتألم لما كان من مظاهرة الشهود والفقهاء والتجار له فى جامع عمرو . وسرعان ما تحول نفوذ هذا القاضى السنى إلى رجل من الإسماعيلية ، هو على بن النعمان ( ٢ صفر سنة ٣٦٦ هـ ) ، الذى ركب إلى الجامع الأزهر فى جمع كثير وعليه خلعة ، مقلدا سيفاً ، وبين يديه خلع فى مناديل ، عدتها سبعة عشر . وقرىء بحمله بالجامع ، وهو قائم على قدميه . فكلمه مر ذكر المعز أو أحد من أهله أو ما بالسجود ، ثم توجه إلى الجامع العتيق بمصر ، فوجد الخطيب عبد السميع ينتظره بالجامع ؛ وقد كاد الوقت أن يخرج ، فصلى الجمعة ، وقرأ أخوه محمد عهده ، وفيه أنه ولي القضاء على مصر وأعمالها ، والخطابة ، والإمامة ، والقيام فى الذهب والفضة ( دار الضرب ) والموارث والمكاييل (٢) .

ومهما يكن من شئ ، فقد أصبحت رئاسة القضاء فى يد الإسماعيلية الشيعيين ، وعين القضاء ، ومعظمهم من الإسماعيلية ، وحتم عليهم أن يحكموا بمذهب الإسماعيلية ، لا بمذهب الشافعى أو غيره من الأئمة السنيين . ولم يكف

(١) الكندى : تاريخ الولاة وتاريخ القضاة ص ٥٨٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٨٩ .

هذا القاضى الإسماعيلى بذلك ، بل استخاف أخاه محمدا على قضاء و تيسر ودمياط  
والقرما وغيرها ، فخرج إليها ، وقرر فيها نوابا ثم عاد ، . وما يدل على زيادة نفوذ  
على بن النعمان من الناحية القضائية ، أنه أول من لقب « قاضى القضاة » بمصر ، لأن  
بجمله الذى قلده العزيز فيه منصب القضاء ، كان يحتم عليه « أن تكون جميع الأعمال  
داخلة في ولايته (١) » .

وظل القضاء في يد الشيعيين من الإسماعيلية ، وبقى أولاد النعمان يتقلدون هذا  
المنصب ... وفي سنة ٣٩٣ هـ تقلد الحسين بن على بن النعمان القضاء في مصر وما يتبعها  
من الأعمال ، وأسندت مقاليد الدعوة أول مرة لقاضى القضاة ؛ فغدا يطلق على ابن  
النعمان لقب قاضى القضاة وداعى الدعاة (٢) .

وقبل أن تترك هذا الموضوع يجدر بنا أن نشير إلى بعض الأحكام الشرعية  
التي تبين رغبة المعز في جعل القضاء الإسماعيلى هو السائد (٣) :

« ذكر لنا ابن حجر العسقلانى قضية رجل ادعى ملكية حمام كان لجده ، وكان  
يتبعى أن ينتقل إلى أمه حسب قانون الشيعة . وكان القاضى أبو الطاهر قد حكم في  
هذه القضية ، بأنه لم يكن لهذا الشخص حق في ادعاء الملكية ، لأن جده قد وقف  
هذا الحمام على الأعمال الخيرية . ولقد أثارت هذه القضية شعور القاضيين السنى  
والشيعى ، وهذا الأخير قد حكم للمدعى ، وأبطل بذلك ما حكم به أبو الطاهر .

ويظهر أن هذه المسألة قد أحدثت اهتماما خاصا ، لأنها أفضت إلى الخلاف في  
وجهة نظر كل من القاضيين ، اللذين حكم كل منهما حسب قانون المذهب الذى  
يدين بعقائده . ويحدثنا ابن حجر نقلا عن ابن زولاق ( المتوفى سنة ٣٨٧ هـ ) ، أن  
المدعى شكأ إلى الخليفة المعز ، فأمر قاضيه الشيعى بأن ينظر هذه القضية ثانية (٤) .  
ولقد ذكر ابن زولاق أن هذه الحوادث هاجت شعور التمرد في نفوس الشهود  
الذين كانوا يعملون مع ابن أبى ثوبان ، حتى إن الخليفة المعز ، أمر أخيرا بإبطال  
الحكم الذى أصدره ابن أبى ثوبان .

(١) الكندى : تاريخ الولاة وتاريخ القضاة ص ٥٩٠ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ، ص ١٩٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٩٣ - ١٩٤ .

(٤) الكندى : تاريخ الولاة وتاريخ القضاة ص ٥٨٨ .

وكان من أثر هذه الحوادث أن امتنع اليهود من حضور مجالس الحكم ، التي كانت تعقد برئاسة ابن أبي ثوبان ، فبدل بهم هذا شهودا آخرين ؛ ولعلمهم كانوا من الشيعة . على أن هؤلاء اضطروا إلى الاستقالة . وكان غضب أبي الطاهر والشهود سببا في علة ابن أبي ثوبان التي أودت بحياته (١) .

ونستطيع مما أدلى به ابن حجر أن نقول ، إن العلاقات بين أبي الطاهر وابن أبي ثوبان لم تكن تنطوي على شيء من الود والصدقة . وهذا من أثر الخلاف المذهبي الذي أدى هذين الرجلين إلى الحالة التي وصفناها ، فقد أصدر القاضي الشيعي أحكامه طبقا لعقائد مذهب الشيعة ، الذي يختلف عن مذهب القاضي السني .

ويجوز قانون الشيعة للبنت أن ترث كل ما يترك أبواها ، إذا لم يكن لها أخ أو أخت ، وهذا يخالف قانون مذهب السنة ، الذي يقضى بالألا ترث البنت أكثر من نصف الثروة . ولقد تمسك القاضي الشيعي بتطبيق قانون الشيعة على أحكامه ، وغدا في استطاعته نقض ما يصدره أبو الطاهر من أحكام .

ومن هذا نرى أن المعز لم يتراجع في هذه القضية ، إلا لأن تمسكه فيها بالحكم الإسماعيلي الفاطمي ، قد يؤدي إلى ثورة شعبية ، قد تطيح بعرشه الذي لم يكن قد استقر في هذه البلاد تماما . هذا إلى أن السنيين لم يكونوا قد ألقوا بعد ، مثل تلك الأحكام ، التي تبيح للمرأة ما يبيحها عقائد المذهب الإسماعيلي .

### (ب) الحسبة :

ومن نظم الحكم الحسبة . ولسنا نعرف إلا القليل عن هذا النظام في بلاد المغرب ، والذي لا شك فيه أن الحسبة كانت منظمة تمام التنظيم في مصر ، في الوقت الذي غزت فيه جيوش الفاطميين هذه البلاد . وقد عز على جوهر أن يظل المحتسب السني في منصبه ، لأن بقاءه يكون عقبة في سبيل نشر مبادئ المذهب الإسماعيلي . لذلك عزله في أوائل سنة ٣٥٩ هـ ، وعين مكانه محتسبا من المغاربة الذين يدينون بعقائد هذا المذهب .

ويظهر أن المحتسب الجديد كان شديدا على أهل الفسطاط السفين خاصة .

(١) السكندى : تاريخ الولاة وتاريخ القضاء ص ٥٨٨ .

وأن تعيينه وخلع المحتسب السنى لم يرق أعين كثير من الأهليين ؛ لذلك نار الصيارفة  
فى سنة ٣٦٢ هـ ، لأن المحتسب الجديد أنب جماعة منهم . وقد بلغ من سخطهم أنهم  
نادوا ندامات أثار مخاوف جوهر وحقه ، بدليل ما ذكره المقرئى (١) : « عزز  
سليمان بن عشرة ، المحتسب ، جماعة من الصيارفة ؛ فشغب طائفة منهم وصاحوا :  
معاوية خال على بن أبى طالب ! فهم جوهر بإحراق رحبة الصيارفة ، لولا خوفه على  
الجامع . » وكان السنيون يصيحون بتلك العبارات العدائية تنديدا بشدة وطأة  
الحكم الفاطمى عليهم ، بل لقد نادوا فى سنة ٣٦٣ هـ بعبارات أشد من تلك ، ليعبروا  
عن مدى سخطهم على الفاطميين ، فكانوا يقولون : « معاوية خال المؤمنين وخال  
على بن أبى طالب . » وقد حمل ذلك جوهر الصقلى على أن يذيع من منبر جامع  
عمرو على الناس هذه العبارة يأمرهم فيها بالعدول عن إثارة غضب الفاطميين عليهم ،  
مهددا إياهم بإزالة العقاب بهم : « أيها الناس ! أقلوا القول ، ودعوا الفضول ...  
فلا ينطق أحد بهذا إلا حلت به الموجهة (٢) . »

وقد أدخل شىء غير قليل من الإصلاح على نظام الحسبة فى العهد الفاطمى ،  
فتمددت أعمال المحتسب ، وتنوعت أساليب إشرافه . وحظى هذا النظام بقسط  
موفور من عناية الدولة ، وتشددوا فى اختيار من يتقلد هذا المنصب ، فاشترطوا فيه  
أن يكون « من وجوه المسلمين ، وأعيان المعدلين ، لأن وظيفته وظيفته دينية . وقد  
تمتع المحتسب فى عهد المزم ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين بشىء غير قليل من النفوذ ،  
حتى أصبح من سلطته تعيين نواب عنه فى أقاليم الدولة ، أى فى حاضرتها وولاياتها  
المختلفة ، شأنه فى ذلك شأن قاضى القضاة . واتخذ المحتسب المسجدين الجامعين فى  
القاهرة والقسطاط مقرا له ؛ فكان يجلس يوما فى الجامع الأزهر ، ويوما فى جامع  
عمرو ، ليكون إشرافه دقيقا شاملا على كل من الرعايا السنيين والإسماعيليين على سواء .  
ومن الأعمال التى تدخل فى نطاق سلطة المحتسب ونوابه : الطواف « على  
أرباب الحرف والمعاش ، » والمحافظة على الصحة العامة ، بالإشراف على الماء كولات  
المعروضة للبيع ، كالحلوى واللحوم ، وما إليها ، والإشراف على الطرق ، لمنع  
إقامة المياني فيها ، أو استغلالها للتجارة والمحافظة على الآداب العامة ، « فيأمرون

(١) اتعاظ الختفا من ٨٧ .

(٢) المصدر نفسه .

السفائين بتغطية الروايا ( القرب ) بالأكسية... وأن يلبسوا السراويلات القصيرة الضابطة لعوراتهم ، وهى زرق . وكان المحتسب وأعوانه يشرفون على الموازين والمكاييل ، لمنع انتشار الغش بين الناس ، وأصبح من سطاته الإشراف على دار العيار ، التى تصنع فيها تلك المكاييل والموازين .

وكان المحتسب ، أو نائبه ، يحضر فى تلك الدار ، لينظر فى المعايير المختلفة عند صنعها . فإن كانت تتفق مع النماذج الصحيحة التى أقرتها الحكومة أقرها وإلا أعادها . ولم تكن الصنوج والمكاييل والموازين تباع فى غير هذه الدار . وكذلك كان المحتسب يستدعى إلى دار العيار ، التجار ، لاختبار صنوجهم ومكاييلهم وموازينهم ، فبأمر بتغيير ما أصبح منها غير صالح للاستعمال ، وبإزالة العقاب بمن يحاول الغش (١) .

وقد تمتع المحتسب فى العصر الفاطمى بما يتمتع به النائب العام من سلطة ونفوذ ، حتى إنه كان لا يحال بينه وبين مصلحة إذا رآها ، والولاية تشد معه إذا احتاج إلى ذلك . وكان فوق هذا يأمر أصحاب السفن والجمالين ألا يحملوا على سفنهم أو دوابهم أكثر من طاقتها ، وينذر معلمى الكتائب أن لا يضربوا الصيوان ضربا مبرحا قد يودى إلى الموت ، كما يحذر مدربي السباحة من التفرير بالناس . حتى لا يتعرضوا للفرق ، وكذلك كان من حق المحتسب أن يوقع على سببى الأخلاق العقاب الذى يراه متفقا مع جرمهم ، رادعا لهم ولغيرهم .

كل هذا يدل على ما كان لنظام الحسبة من أهمية وخطر ، كما يدل على أن الدولة الفاطمية كانت فى عهد المعز تسهر على توفير الراحة للناس ، سنيين كانوا أو شيعيين . وبما نلاحظه على منصب المحتسب فى عهد المعز لدين الله ، أنه ، على الرغم من عزل المحتسب السنى ، رأى جوهر الصقلى أن وظيفته هذه يجب أن يتحكم فيها مقدار الصلة بين المحتسب والجمهور . ولما كان السواد الأعظم من رعايا الفاطميين بمصر من أهل السنة ، لم يجد جوهر بدا من أن يعين فيها محتسبا سنيا ، فتقلد سليمان بن عشرة السنى الحسبة بعد موت المحتسب الشيعى .

وكان راتب المحتسب لا يتفق مع أهمية العمل الذى يضطلع به . وقد قدر

(١) المغربي : خطط - ج ١ - ص ٤٦٤ .



المقريري هذا الراتب بثلاثين دينارا في الشهر، لأن المحتسب ورجاله كانوا يعاونون القضاة ، ويساعدونهم مساعدة فعالة على استتباب الأمن والنظام ، ويقومون بما يقوم به البوليس السرى اليوم ، من تتبع الجناة والقبض عليهم وإنزال العقاب بهم .

### (ح) المظالم<sup>(١)</sup>

لم يكن النظر في المظالم في عهد الفاطميين أقل شأنًا منه في عهد العباسيين . ولاغرو ، فقد نال هذا النظام في عهد الفاطميين في المغرب ومصر حظًا موفورًا ، فكان الخليفة المنصور يجلس للمظالم كما كان المهدي والقائم من قبل ، وهذا المعز لدين الله حذوه هؤلاء الخلفاء ، فأولى المظالم شيئًا كثيرًا من عنايته ، حتى إنه كان إذا خرج في زهة للترويح عن نفسه ، أحاط به المتظلمون ، فلا يحد غضاضة من النظر في ظلاماتهم<sup>(٢)</sup> .

وتعتبر محكمة المظالم بمثابة محكمة الاستئناف أو مجلس الدولة ؛ فكانت تختص بالنظر في القضايا التي يرى أصحابها أن القضاة قد عجزوا عن تنفيذ أحكامهم ، أو لم ينصفوهم من عليّة القوم ، كالأمراء والوزراء والحكام وغيرهم .

ولذلك كان الغرض الأول من إنشاء محكمة المظالم الحد من تعدي ذوى الجاه ؛ وهذا ما يفسر لنا إسناد رئاسة هذه المحكمة إلى رجل جليل القدر مهيب معروف بالتقوى والورع .

ويشيد الفاطميون بهلى بن أبي طالب ، لأنه أول من نظر في المظالم من الخلفاء الراشدين . وكانت محكمة المظالم في عهد الفاطميين تعقد برئاسة الخليفة نفسه ، وأحيانًا برئاسة الوالى أو نائبه أو غيره ، بمن يأنس إليه الخليفة الفاطمى . وقد خالف الفاطميون جددهم على بن أبى طالب ، فعيّنوا يوما يجلس فيه صاحب المظالم ، حتى لا تتعطل أعماله . أما على بن أبى طالب فكان ينظر في شكاوى المتظلمين حين تأتبه ، لا يتقيد بوقت من الأوقات ، وإنما كان همه إنصاف المظلومين .

(١) المظالم من هيئات القضاء العليا ، تشبه عندنا عاكم الاستئناف . ومن ثم كان نفوذ صاحب

المظالم أعلى من نفوذ القاضي : حسن ابراهيم حسن ، هل ابراهيم حسن (النظم الاسلامية) ص ٢٥٢ .

(٢) انعمان : المجالس والمسارير ج ١ ص ٢١٢ ، ٢٣ ص ١٧ - ١٨ .

ومن المعلوم أن انعقاد مجلس النظر في المظالم يتوقف إلى حد كبير على نوع العمل الذي يضطلع به صاحب المظالم؛ فإذا كان موظفا خصص يوما لانعقاد مجلسه، وإذا كان عمله مقصورا على النظر في المظالم، عقد مجلسه طول أيام الأسبوع. وكانت المظالم في عهد الموزن من النوع الأول غالبا؛ إذ كان جوهر الصقلي يعقد مجلس النظر في المظالم في أيام السبت فقط، حتى يستطيع التفرغ للنظر في مهام أعماله الكثيرة. ولاهية المظالم في نظر جوهر، كان من الضروري أن يحضره الوزير والناضى وكبار الفقهاء الشيعيين خاصة. وكان يصدر الأحكام بنفسه، وهذا لا يترك مجالاً للشك في أنه كان متممقا في مبادئ الفقه الإسماعيلي، ولا سيما إذا علمنا أن أحكامه كانت تصدر في حضرة كبار علماء هذا المذهب.

وعلى الرغم من أن جوهرًا، كان يعقد مجلس النظر في المظالم حيث تعرض عليه القضايا التي يتبعها الأفراد، كان صاحب المظالم يختص بما يأتي (١) :

أولا : النظر في القضايا التي ترفع من الأفراد والجماعات على الولاة. إذا حادوا عن طريق العدل والإنصاف، أو على عمال الخراج إذا حابوا جماعة وظلموا أخرى، أو اشتطوا في فرض الضرائب وجمعها. ومثل هؤلاء كتاب الدواوين، إذا حاولوا التدليس والغش في أموال الناس بالنقص أو الزيادة.

ثانيا : النظر في المظالم التي يرفعها الجنود المرتزقة إذا نقصت أرزاقهم، أو تأخر ديوان الجند عن دفع رواتبهم إليهم.

ثالثا : النظر في إقامة العبادات، وتنفيذ الحدود الدينية، كالحج وصلاة الجمع والجهاد في سبيل الله.

رابعا : وأهم من ذلك أن هذه المجالس كانت تنظر في تنفيذ ما عجز القاضى أو المحتسب عن تنفيذه من الأحكام.

وأما انعقاد مجلس المظالم فقد رأينا جوهرًا يجلس فيه في كل سبت، وحوله الوزير

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية من ٧٣ ، ٨١ ، حسن إبراهيم حسن ، على إبراهيم حسن :

والفقهاء وغيرهم (١). ثم جعل يعقده في كل يوم أحد؛ ولما كثرت مشاغله جعل  
رياسة المظالم لشخص آخر، هو أبو عيسى مرشد (٢).

والواقع أن محكمة المظالم كانت تنعقد برياسة جوهر أو نائبه أبي عيسى مرشد،  
وأصبح من مميزات هذا المجلس أن يحاط صاحب المظالم بخمس جماعات، لا ينتظم  
بجلسه بغير حضورهم، وهؤلاء هم:

أولا: الحماة والأعوان، والغرض من وجود هؤلاء التغلب على من يلجأ من  
المتقاضين إلى العنف، أو يحاول الفرار من وجه العدالة؛ ويشبه هؤلاء رجال  
النصرة الذين يعهد إليهم في حراسة قاعات جلسات الحكم والإشراف عليها. ويقوم  
هؤلاء الحماة والأعوان بأجل الخدمات للعدالة والقضاء.

ثانيا: الحكام، ويهتمون بالإحاطة بما يصدر من الأحكام، لرد الحقوق إلى  
أصحابها؛ وينبغي أن يكونوا على علم تام ومعرفة كبيرة بما يجري بين المتخاصمين،  
فيلبسون بثبات الأمور الخاصة بالمتقاضين. وبهذا نرى أن القضاة الذين يجلسون  
إلى جانب صاحب المظالم يستفيدون فائدة قصوى من حضور هؤلاء الحكام، لأنهم  
ينبرون للقضاة السبيل، ليسكونوا على بيئة نائمة بحال المتخاصمين، فتكون أحكامهم  
صحيحة عادلة.

ثالثا: الكتاب، وهم ككتاب الجلسات اليوم، ويقومون بتدوين أقوال  
المتخاصمين، وحيثيات القضايا، إلى غير ذلك.

رابعا: الفقهاء، وترجع أهمية حضورهم في الجلسات إلى أن صاحب المظالم كان  
يرجع إليهم كثيرا في كل ما يشكل عليه من أحكام، وفي معرفة غوامض المذهب  
الإسماعيلي خاصة، والمذاهب الأخرى عامة، مما يدل على عدم استبداد صاحب المظالم  
أو خروجه على الشريعة.

خامسا: الشهود، ولهؤلاء أهمية خاصة، لأنهم يثبتون ما يعرفونه عن الخصوم،  
بما يثير الطريق أمام صاحب المظالم. أضف إلى ذلك أنهم يشهدون ويقررون منافاة

(١) المقرري: اتعاظ الخفاص ٧٦.

(٢) المصدر نفسه.

أحكام صاحب المظالم للشريعة والحق والعدل أو عدم منافاتها. وإذن فوجود هؤلاء يكسب أحكام صاحب المظالم قوة (١).

من هذا نرى دقة نظام القضاء وعناية الفاطميين به. ولا غرو فقد كانوا يعتقدون أن بقاءهم في هذه البلاد يتوقف إلى حد كبير على نشر العدالة بين الرعايا، سنيين كانوا أو شيعيين، مسلمين أو ذميين. وقد رأينا كيف انتصر المعز لإحدى سيدات البيت الإخشيدى (٢)، وها هو ذا يعزل بعض الولاة لاستبداده بالناس.

يقول النعمان (٣) : رفع إلى المعز لدين الله أن بعض أهل الأطراف أتوا يشكون إليه عاملا كان عليهم، ورفعت له رقعة، وقد كانوا رفعوا قبل ذلك أخرى، فقال : عجبا لهؤلاء ! يرون أما في غفلة عنهم وعن غيرهم. وما شغلنا إذا اشتغل ملوك الدنيا ببلداتهم، إلا النظر في أمور من قلدنا الله عز وجل أمره، واسترعانا إياه. وأتمرون ما نحن فيه في كل يوم، وإنما يلتذ بالدنيا من يرى أنها حظه من الآخرة. ولولا ما نعلمه لنا عند الله عز وجل، ما نظرنا إلى الدنيا بعين، لما نحن فيها من مزاولتها وأهلها. ثم نظر إلى (إلى النعمان) فقال لي : قل لهؤلاء القوم : حسبكم أن تعلموا أن خيركم انتهى، فأمسكوا عن الشكوى، وكان قد بعث في عزل ذلك العامل، فوافت بعد ذلك بأيام قليلة، واستعمل غيره مكانه.

وما يدل على اهتمام المعز لدين الله بالقضاء عامة والمظالم خاصة، أنه كان يجلس في مصر للمظالم بنفسه أحيانا، أو ينيب عنه غيره للنظر فيها، حتى لقد عهد في سنة ٣٦٣ هـ إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن بأن يجلسا للمظالم في جامع ابن طولون (٤)، وأن ابن أبي ثوبان الذي سبقت الإشارة إليه، جلس للمظالم الخاصة بالمغاربة في سنة ٣٦٣ هـ، ثم أخذ يجلس أيضا لمظالم المصريين، ثم نرى المعز يرد النظر في المظالم إلى الحسين بن عمار (٥).

(١) حسن إبراهيم حسن وعمل إبراهيم حسن : انظم الاسلامية ص ٢٥٢ .

(٢) انظر ص من ١٤٣ هذا الكتاب .

(٣) المجالس والمساربات ج ٢ ص ١٧ - ١٨ .

(٤) ابن ميسر : تاريخ مصر ج ٢ ص ٤٥ .

(٥) ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ٩٥ .

## الباب الخامس

الفن والثقافة وأهم مظاهر الحياة الاجتماعية

في عهد المعز لدين الله

يمتاز عهد المعز لدين الله بتقدم كبير في الفن والثقافة ؛ فقد كان هذا الخليفة كلغا بالعمارة التي خلدت اسمه في كل من المغرب ومصر . كما نهضت العلوم في عهده ، وبخاصة العلوم الفقهية والمذهبية منها بنوع خاص ؛ فأنشأ المساجد للتدريس وإقامة الصلاة ، وجعل من قصوره منتديات عليية يقصدها الطلاب والمستجيبون . وإليه يرجع الفضل في تأسيس مدينة القاهرة ، التي لا تزال من أمهات مدن الشرق ، والجامع الأزهر الذي يعد أقدم جامعات العالم ، وقد وضع المعز أساس الفن والثقافة اللتين ازدهرتا في عهده وفي عهد خلفائه من بعده .

١ - الفن في عهد المعز :

(١) في بلاد المغرب

عنى الفاطميون بالعمارة عناية بالغة ، فأسس المهدي مدينة المهدية التي اتخذها حاضرة لدولته ، كما أنشئت مدينة الحمدية في عهده . وقد عول على بناء مدينة جديدة تحمل محل المهدية ، تسمى « القائمة » نسبة إليه ، إلا أن ثورة أبي يزيد مخلد ابن كبيداد حالت دون ذلك . ولما قضى المنصور على هذه الثورة أسس مدينة المنصورية . وقد اهتم هؤلاء الخلفاء ببناء القصور في مدينتي المهدية والمنصورية وضواحيهما . ولم يكن المعز أقل كلغا بالعمارة ممن جاء قبله من الخلفاء الفاطميين ، فبنى كثيرا من القصور ، وأنشأ البساتين ، وأجرى مياه العيون في حاضرة ملكه . ومن القصور التي بناها المعز وهو بالمنصورية ، قصره المعروف بقصر البحر . وقد ارتاد موضعه ، وقاس أبعاده ، ووضع تصميمه بنفسه . ولم يكن إطلاق اسم

قصر البحر على هذا القصر، لأنه يطل على البحر، بل لأن المعز بناه في أرض فسيحة، وأنشأ في وسطه بركة أو بحيرة كبيرة، أسماها بحرا لاتساع سطحها. كما أقام قصرا آخر في وسط البحيرة. وبذلك تكون قصر البحر من قصرين.

وقد عبر المعز عن ذلك بقوله: «أريد أن أبنى قصرا، واحفر في وسطه بحرا (أى بحيرة) أجرى فيها ماء، ويكون وسط الماء قصر آخر<sup>(١)</sup>». وقد أقام المعز الجسور لتصل القصر الداخلى بالقصر الخارجى. ويشبه قصر البحر الذى بناه المعز قصور قدماء المصريين؛ فقد ذكر التاريخ أن أمنحتب الثالث، أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة، بنى بطيبة (الأقصر)، قصرا، وأنشأ في وسطه بحيرة كان يتنزه فيها هو وزوجته.

وقد أنشأ المعز البساتين الغناء في المنصورية وضواحيها. ومن هذه البساتين ذلك البستان الذى أقامه في جهة تعرف «بوادى القصارين» على مقربة من المنصورية. وكان من قبل مكانا موحشا، ينقل الناس منه الأتربة لصنع الطوب وعمل السباد. إلا أن المعز رأى أن يجعل المنصورية وضواحيها، «فاغترسه، وأدار عليه حائطا، وأجرى فيه النهر، حتى أነع بأصناف الشجر والرياحين والخضر والنوار، وصار من أحسن بستان رآه الناس<sup>(٢)</sup>».

وكذلك حفر المعز لدين الله قناة كانت آية في الروعة والدقة. وكانت تأخذ ماءها من العيون الواقعة في خارج مدينة المنصورية في مكان يعرف «بعين أيوب»، وتبعد عنها بأكثر من ثلاثة وسبعين ألف ذراع. ويتخلل الطريق الذى تنساب فيه هذه القناة مرتفعات ومنخفضات وصخور، ثم تنساب في الأرض حتى تصل إلى قلب حاضرة الفاطميين.

وكان الخليفة القائم قد حاول استغلال مياه «عين أيوب» في توصيل الماء إلى مدينة القيروان، ولكن ثورة أبي يزيد حالت دون إتمام هذا المشروع. ولما ولي المنصور الخلافة، فكر في إنجازها، لكنه عدل عن ذلك بعد أن رأى أنه يكلف خزانة الدولة جهودا وأموالا كثيرة.

(١) الثمان: المجالس والمآبرات ج ٢ ص ١٦٢.

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٨١ - ٢٨٢.

فلما ولي المعز لدين الله الخلافة ، كان الآمن مستتباً في ربوع بلاده ، والرعايا شاملاً ؛ لذلك أمر في سنة ٣٤٨ هـ أن يجرى قناة تبني بالجص والجير ، تأخذ في أسناد جبال ، وتمر على أودية واطنة ، يحتاج فيها إلى آراج (١) ، يجرى الماء من فوقها . واستمال (٢) ذلك بعض من حضر ؛ فقال المعز ع م : قد هول مثل هذا التهويل على القائم ع م ، وقيل له : والله لو جعلت في ساقية من زجاج ما جرت . وقيل للمنصور ع م : يحتاج أن ينفق فوق مائة ألف دينار ، ثم الله أعلم هل يصح جريها أم لا . وكان ذلك سبب تركها ؛ ولا والله لا أتركها ، ولو أنفقت فيها أضعاف ما قيل : والله لو علمت أن الزجاجين يستطيعون أن ينشئوا لنا بيوتا من الزجاج لأمرت بعمامها ، ولأجربتها فيها ، ليعلم من يهول ذلك أنه لا يهولني ولا أستعظمه (٣) .

ولقد درس المعز هذا المشروع دراسة وافية قبل أن يقدم عليه . يؤيد ذلك قوله : . والله لقد صرت إلى ناحية تونس ، وما نظرت إلا إلى ذلك الماء ، وكيف ينتهي جريه إلى المنصورية . فلقد رأيتُه ممكناً ، وإني لأرجو إذا أعان الله على هذه القناة وأوصلها ، أن يجره بعونه وتأييده وتوفيقه (٤) .

ومما يدل على رغبة المعز في تجميل حاضرتِه المنصورية ، أنه استطاع أن ينقل إليها عمودين حجريين كبيرين ، كانا بمدينة سوسة . ويظهر أنهما من بقايا آثار القرطاجيين أو الروم . وكانا من الضخامة بحيث كان النظر إليهما عبثاً ، وأنه لم يمكن أحداً من ملوك إفريقية في الجاهلية والإسلام تحريكهما من مكانهما . ولكن المعز لما رغب في نقلهما إلى حاضرتِه ، أرسل عبيده وباليك ، وما أشرك معهم أحداً غيرهم ، فأتوا بهما في أوشك مدة وأيسر مؤونة (٥) .

من هذا نرى أن المعز لدين الله لم يتوان وهو بالمغرب عن النهوض بالفن ،

(١) الأراج : بيت يبنى طويلاً ، جمه آراج وآرج .

(٢) استمال : استعظم الأمر .

(٣) النعمان : المجالس والمسائرات ، ج ٢ ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٧٥ .

(٥) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٧٦ - ١٧٧ .

حتى كانت حاضرتة غاصة بالميادين والبساتين ، كما كانت قصوره مضرب المثل في الروعة والفخامة . وإن ما أنشئ في عهده في مصر كان استمرارا لحركته العمرانية التي بدأها في بلاد المغرب .

### (ب) في مصر :

كان أهم ما يعنى به المسلمون إذا فتحوا بلدا من البلاد ، أن يؤسسوا لهم فيها مدينة يتخذونها حاضرة لهم ، ومسجدا يقيمون فيه شعائرهم الدينية . وقد سار على ذلك ولاية مصر الإسلامية ؛ فأسس عمرو بن العاص مدينة الفسطاط ، وبنى بها مسجده العتيق ، وأسس صالح بن علي العباسي مدينة العسكر حيث بنى فيها جامع العسكر فيما بعد ؛ وكذلك أسس أحمد بن طولون مدينة القطائع ، وبنى بها الجامع الذي لا يزال يعرف باسمه إلى اليوم .

وقد قام المعز لدين الله في مصر بأعمال عمرانية كثيرة ، تدل على ازدهار الفن في عصره . وعلى الرغم من أن جوهر هو الذي قام بتأسيس مدينة القاهرة وبنائه قصر الخليفة ، فإن ذلك كان بوحي من هذا الخليفة . فهو الذي أمره بتأسيس القاهرة لتسكون حاضرة لخلافته ، كما أمره ببناء قصر يتخذ مقراله إذا جاء إلى مصر ، ومساجد يقيم فيها الفاطميون شعائرهم الدينية .

### ١ - تأسيس مدينة القاهرة :

ولم يشأ جوهر أن يتخذ حاضرة ولايته في مدينة الفسطاط ، أوفى مدينة العسكر ، كما فعل أبو جعفر المنصور ، الذي لم يتخذ دمشق حاضرة لدولته ، لأنها كانت حافلة بذكريات الأمويين ، أو هاشمية السفاح ، لقربها من الكوفة مقر الشيعة ومركز دعوتهم . كذلك لم يتخذ جوهر الفسطاط أو العسكر حاضرة لولايته ، لأنهما كانتا غاصتين بالسفين الذين يختلفون مع الفاطميين في المذهب الديني .

وقد تنبأ المعز بأن جوهر سوف يفتح مصر ، ويؤسس بها مدينة يتخذها حاضرة له ، فقال وهو يودعه أمام جمع من شيوخ كتامة : « والله لو خرج جوهر هذا



وحده لفتح مصر ؛ ولتدخل إلى مصر بالأردية من غير حرب ، ولتنزل في خرابات ابن طولون ، وتبنى كذا مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا ،<sup>(١)</sup>.

وضع جوهر الصقلي أساس مدينة القاهرة إثر دخوله الفسطاط ، في ١٨ من شعبان سنة ٣٥٨ هـ ( يوليو سنة ٩٦٩ م ) ، كما وضع في الوقت نفسه أساس قصر الخليفة المعز ومقر حكمه ، وأحاط مدينته الجديدة بسور من اللبن .

ويعزو المقرئ سبب بناء القاهرة بهذه السرعة وإحاطتها بسور ضخمة ، إلى خوف الفاطميين من هجوم القرامطة ، مع أن الاصطدام الفعلي الذي قام بين الفاطميين وبين هذه الجماعة الإسماعيلية الثائرة لم يبدأ إلا بعد أن احتل جعفر بن فلاح بلاد الشام في سنة ٣٥٩ هـ . وكان جوهر يدرك ذلك الفتور القائم بين المعز وبيت أحمد ابن أبي سعيد وابنه الحسن الأعصم ، الذين كانت لهم السيادة على القرامطة في البحرين ، فاتخذ الحيلة لنفسه حتى لا يؤخذ على غرة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، كان جوهر يعلم أن مصر كانت من أهم بلاد الدولة العباسية ، وأن العباسيين لن يفتروا عن محاولة استردادها ، وأنهم سوف يقفرون منه موقفهم من جيوش المهدي من قبل . وهكذا رأى جوهر أن يعمل على درء ما عسى أن يقوم به العباسيون من محاولة لاسترداد مصر . على أن هناك أمرا آخر ضاعف مخاوف جوهر الصقلي من ناحية الروم ، الذين أخذوا - على ما ذكرنا - يستردون نشاطهم ، ويكيلون الضربات للعباسيين ، ويحتلون بعض مدن العراق الشمالية ومدن الشام . ولا بد أن جوهر كان يعلم ، أن الروم كانوا يعملون على استرداد ولاياتهم المفقودة ، ومن بينها الشام ومصر .

كذلك اتخذ جوهر من القاهرة ملجأ يأوي إليه المغاربة ، أنصار الفاطميين ، ويحول بذلك بين ما قد يقع بين هؤلاء وأولئك من خلاف . أضف إلى ذلك أن مركز جوهر في مصر لم يكن قد توطد بعد ، لأنه كان يخشى ثورة المصريين عليه . وإن بناء مدينة القاهرة يتيح الفرصة للمغاربة لإقامة شعائرهم الدينية في أمن ودعة ، من غير أن يتعرض لهم السنيون بسوء . وصفوة القول أن جوهر اتخذ من مدينة القاهرة حاضرة

(١) المقرئ : اتعاظ الحنفا من ٧٥ .

لولايته ، ومعقلا يصد عنه خطر المهاجمين ، ومركزا لنشر عقائد المذهب الإسماعيلي ، مذهب الفاطميين .

وقد بنى جوهر الجامع الأزهر ليكون مدرسة لتعليم عقائد المذهب الإسماعيلي ، وأقام قصر مولاه المعز ، ليتخذة مقرا للحكم ، ومركزا لنشر الدعوة الإسماعيلية . وهكذا أدار جوهر السور اللين على مناخه (معسكره) الذي نزل فيه بعساكره ، وأنشأ من داخل السور جامعا وقصرا ، وأعددها معقلا يتحصن به ، وتنزله عساكره . واحتفر الخندق من الجهة الشمالية (الشمالية) ليمنع اقتحام عساكر القرامطة (وسواهم) إلى القاهرة وما وراها من المدينة ، (١) . أى الفسطاط والعسكر والنطاع .

يقول حسن إبراهيم حسن (٢) في وصف مدينة القاهرة التي أنشأها جوهر : « وكانت هذه المدينة الجديدة محاطة بسور من آجر كبير الحجم ، شاهد المقرنزي بقاياها في سنة ٨٠٢ هـ (١٤٠٠ م) . وإلى الشرق منه يقع قصر الخليفة ؛ ويعرف جزء منه الآن بمان الخليلي ، وآخر بمسجد الحسين ، وهذا (بين القصرين) أطلق على الميدان فيما بعد ، بعد أن بنى العزيز بالله قصرا أصغر من القصر الذي بناه جوهر لمولاه المعز على جانبه الغربي ، عند مبدأ هذه الحديقة الغناء التي أنشأها كافور ، واستحوذ عليها الفاطميون فيما بعد .

وقد اختط طريق عام يخترق وسط القاهرة من باب زويلة جنوبا ، ويتصل بمدينة الفسطاط مارا فيما بين القصرين ، حتى باب الفتوح ؛ وكان يوصل إلى الفضاء الواقع في الشمال . وإلى الجنوب الشرق من قصر الخليفة ، يقع الجامع الأزهر الذي شرع جوهر في بانيه (في ٢٤ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ) ، بعد أن وضع أساس القاعدة الجديدة . وقد تم بناء السور المحيط بالقاهرة سنة ٣٥٩ هـ . وإلى الجنوب منه ، تقع مدينة الفسطاط التي ظلت مركز الحركة التجارية ، ووطن الأهلين حتى نهاية عهد الفاطميين . وإلى الغرب تقع المقس ، وكانت تمتد إلى النيل ، وظلت ميناء القاهرة ، إلى أن تحول مجرى النيل في القرنين الثالث عشر والرابع عشر للديلاذ ؛ فهد ذلك لتأسيس بولاق

(١) المقرنزي : مخطوط ج ١ ص ٣٦١ .

(٢) الفاطميون في مصر ، ص ١١١ - ١١٢ .

وكانت القاهرة وقت إنشائها تمتد من منارة جامع الحاكم إلى باب زويلة ؛ وكانت حدودها الشرقية هي بنفسها حدود القاهرة الحالية . وأما من الجهة الغربية فلم تتجاوز شارع الخليج .

وقد ذكر على مبارك باشا أن طول كل جانب من جوانب مدينة القاهرة التي أسسها جوهر كان يبلغ ألفي ومائتي متر . ومساحة هذا المكان . ٣٤ فداناً ، كان القصر يشغل منها مساحة مقدارها سبعون فداناً . وكانت حديقة كافور تشغل منها خمسة وثلاثين فداناً ، وخمسة وثلاثين فداناً للكان المخصص لاستعراض الجنود ، والباقي وقدره مائتا فدان لسكنى العساكر . وقد زاد السور الذي أقامه أمير الجيوش بدر الجمالي وزير المستصرم الطمى في مساحة المدينة ستين فداناً . وقد بنى هذا السور من الحجر الكبير الحجم ، وكان به ثلاثة أبواب لا تزال باقية إلى اليوم ، وهي باب زويلة ، وباب الفتوح ، وباب النصر .

وقد سمي المعز لدين الله هذه المدينة « القاهرة » ، وكانت تسمى قبل ذلك « المنصورية » ، نسبة إلى الخليفة المنصور أبي المعز . وإذا صح أن القاهرة كانت تسمى المنصورية قبل حضور المعز إلى مصر ، فإن ذلك قد يرجع إلى أن جوهر لم يشأ أن يقلل من شأن « المنصورية » حاضرة الفاطميين في المغرب ، أو أنه أراد أن يبين أن حاضرتة لا تفترق عن حاضرة المعز في شيء .

ولكن لماذا لم يطلق جوهر على هذه المدينة « المعزية » كما أطلق المهدي على حاضرة خلافته اسم « المهديية » ، كما أطلق المنصور اسم « المنصورية » على المدينة التي بناها ونقل إليها حاضرة خلافته ؟ فنن المعقول إذن أن يطلق جوهر على هذه الحاضرة الجديدة اسم المعزية ، نسبة إلى الخليفة الجالس على العرش وهو المعز ، لا إلى أبيه المنصور .

ويظهر أن جوهر أسمىها « القاهرة » ، تحقيقاً لرغبة المعز ، حين شيعه لفتح مصر وقال له : « إنك ستبنى مدينة تقهر الدنيا ، تسمى القاهرة <sup>(١)</sup> . ولا يبعد كذلك أن يكون جوهر قد أراد من وراء تلك التسمية أن يبين لمولاه المعز أنه

(١) المقرئى : خطه ج ١ ص ٣٧٧ ، انماظ الحنفا ص ٧٣ .

سيحقق نبوته ، بفتح بلاد الشام والحجاز والعراق إن أمكن ، ويتخذ حاضرة ولايته في هذه المدينة التي ستقهر الدنيا ، أي البلاد التي كانت تابعة للعباسيين والروم . أما إرجاع تلك التسمية «القاهرة» إلى ظاهرة فلكية ، وأن أساس مدينة القاهرة قد وضع وقت طلوع كوكب المريخ أو «القاهر» ، فيبدو بعيد التصديق . يقول أبو المحاسن<sup>(١)</sup> : « إن جوهر المقصد إقامة السور وبناء القاهرة ، جمع المنجمين ، وأمرهم أن يختاروا طالعا لحفر الأساس ، وطالعا لرمي حجارته ، وجعلوا بدائر السور قوائم من خشب . وبين القائمة والقائمة حبل فيه أجراس ، وأفهموا البنائين ساعة تحريك الأجراس أن يرموا ما في أيديهم من اللبن والحجارة . ووقف المنجمون لتحرير هذه الساعة وأخذ الطالع . فانفق وقوف غراب على خشبة من تلك الخشب ، فتحركت الأجراس ، وظن الموكلون بالبناء أن المنجمين حرروها ، فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة في الأساس فصاح المنجمون : لا ، لا ، القاهر في الطالع ! ومضى ذلك ، وفاتهم ما قصدوه . وكان غرض جوهر أن يختاروا للبناء طالعا لا يخرج البلد عن نسلم أبدا ، فوقع أن المريخ كان في الطالع ، وهو يسمى عند المنجمين القاهر ، فحكوا لذلك أن القاهرة لا تزال تحت حكم الأتراك . وأنهم لا بد أن يملكوا هذه البلد . فلما قدم المعز إليها ، وأخبر بهذه القصة ، وكان له خبرة بالنجامة ، وافقهم على ذلك ، وأن الترك تكون لهم الغلبة على هذا البلد ، فغير اسمها وسماها القاهرة . »

والواقع أن هذا القول أقرب إلى الخرافة منه إلى الحقيقة ، ولسكنه يشير في الوقت نفسه إلى حقيقة مقررة ، هي ولوع الفاطميين بالنجوم ، حتى إنهم ينسبون قيام الدولة الفاطمية إلى تنبؤات فلكية . كما يرجعون فتح مصر إلى هذه التنبؤات . على أن المقرري الذي ذكر هذه الحكاية أيضا ، قد ذكر نفس هذه الحكاية عند كلامه على بناء مدينة الإسكندرية في عهد الإسكندر . وكان القرامطة ، وهم إسماعيلية ، جد مغرمين بالفلك أو النجامة ، كما كانوا يطلقون عليها . وليس من شك في أن المعز لدين الله كان « مغرى بالنجوم » . وقد ظهرت آثار حب الفاطميين للفلك في عهد الحاكم الذي أقام الرصد الحاكمي ، حتى قالوا : إنه تنبأ بموته ، وقالوا مثل ذلك في المعز لدين الله .

(١) نجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤١ - ٤٢ .

وقد ذكر أبو المحاسن (١) سبباً آخر في تسمية القاهرة بهذا الاسم ، وهو أنه كان بقصورها قبة تسمى « القاهرة » ، فسميت المدينة باسمها . ويقول بعض إنفا سميت بذلك ، « لأنها تقهر من شدتها وحاول الخروج على أميرها (٢) » .

ومدينة القاهرة رابعة حواضر مصر الإسلامية ، وهي على التوالي : القسطنطينية ، والعسكر ، والقطائع ، ثم القاهرة . وكان مؤسسو هذه المدن يرمون من وراء بنائها في هذه المواضع إلى الانتفاع بماء النيل وحافة الصحراء الشرقية المعروفة بجبل المقطم لأغراض الدفاع . ويؤيد ذلك أن جوهر لم يركز دفاعه عن مدينة القاهرة إلا في الجهة الشمالية ، حيث أقام خندقاً ضخماً ، واعتمد على النيل باعتباره مركزاً للدفاع عن الناحية الغربية ، وعلى جبل المقطم من الناحية الشرقية .

على أن المعز لما جاء إلى مصر لم يعجبه موقع القاهرة ، وكان يرى أن تكون في سفح جبل المقطم ، أو على شاطئ النيل . وقد عبر عن ذلك بقوله لجوهر : « لما فانتك عمارة القاهرة بالساحل ، كان ينبغي عمارتها بهذا الجبل (٣) » . على أننا نرى أن جوهر الصقلي قد أصاب في اختيار موقع القاهرة ، لأن الجنود يستطيعون أن يصدوا الحملات التي تأتي عن طريق النيل ، بخروجهم من أبواب السور الغربي ، كباب سعادة ، وباب الفرع ، وباب القنطرة ، وغيرها . وبذلك يقفون في وجه العدو إذا حاول الاستيلاء على القسطنطينية . وكان موقف جوهر أقوى من الناحية الاستراتيجية من موقف الروم حين هاجمهم عمرو بن العاص في قرية أم دنين الواقعة على النيل . أضف إلى ذلك أن جوهر اتخذ ترعة الخليج مكاناً للدفاع عن حاضرة ولايته ، كما فعل أباطرة الدولة الرومانية الشرقية ، الذين اعتمدوا في الدفاع عن مدينة القسطنطينية من الناحية البرية الشمالية على قناة « القرن الذهبي » . وإذا علمنا أن عمرو بن العاص لم يستطع أن يتجه إلى حصن بابليون ، إلا بعد أن قضى على معاقل الروم في موقعة الجبل الأحمر شرقي العباسية ، أدركنا بعد نظر جوهر بتحصين

(١) نجوم الزاهرة ٤٣ ص ٤٣ .

(٢) الدكتور على إبراهيم حسن : جوهر الصقلي ص ٩١ .

(٣) المقرئ : خطاط ج ١ ص ٢٧٧ .

مدينة القاهرة من الناحية الشمالية ، لأن ذلك ينطوى على الدفاع عن القاهرة بل  
عن القسطنطينية والعسكر أيضا .

وتحد مدينة القاهرة المعزية ، شرقا بباب البرقية والباب المحروق ( الدراسة  
الآن ) ، وغربا بباب سعادة و باب القرج و باب الخوخة ؛ ولم تتجاوز خابج أمير  
المؤمنين ( شارع الخليلج الآن ) ؛ وتحده من الشمال بباب النصر و حارة الريحانية ،  
ومن الجنوب بباب زويلة القديم . وتقع القسطنطينية والعسكر وخرائب القسطنطينية  
في جنوبها ، والمقس (١) غربها ، وكانت ميناء القاهرة .

وكانت مدينة القاهرة حين بنائها جوهر صغيرة ، ولكنها لم تلبث أن أصبحت  
من أمهات المدن في الشرق ؛ فأصلح بدر الجمالي سورها ، وزاد فيها كثيرا . وحاول  
صلاح الدين الأيوبي أن يكون من القاهرة المعزية ومن القسطنطينية والعسكر والقسطنطينية  
مدينة واحدة ، فأحاطها جميعا بسور واحد ، لا تزال بقاياها إلى اليوم . على أن  
مدينة القاهرة أخذت تنمو على مر الزمن ، فامتدت في قلب الصحراء ، وشملت  
العباسية ، و حدائق القبة ، وعين شمس ، وما وراءها . ولو قارنا مدينة القاهرة المعزية  
بمدينة القاهرة الحالية وجدنا البون شاسعا والفرق عظيما بين المدينتين .

وليس من شك في أن سكان القاهرة المعزية في عهد المعز لدين الله كانوا من الشيعة  
وحدهم ، بحيث لم يكن مباحا لغير الشيعة أن يستقروا فيها . وكان لهذا أثره في  
تخطيط المدينة ، فقسمت إلى حارات وأقسام ، سميت بأسماء فرق الجيش الفاطمي  
وطوائفهم ، فأصبح لزويلة خطة و حارة تعرف باسمهم ؛ فكانت حارة زويلة من  
أكبر الحارات ، وتقع في جهة الخرنفش اليوم . ولجنود بركة حارة وخطة تعرف  
بحارة البرقية ، في جهة الدراسة اليوم . وللفرق الرومية حارتان : إحداهما في  
الجنوب ، وتعرف اليوم بحارة الروم ، وكانت تسمى حارة الروم السفلى ، وتقع  
بقسم الدرب الأحمر الآن ، والحارة الثانية في الشمال ، وكانت تعرف بحارة الروم  
العليا أو حارة الروم الجوانية ، وتقع بشارع الجمالية . وللكتاميين حارة في الجنوب  
الشرقي من الأزهر تعرف بحارة كسامة وهكذا (٢) .

(١) مكان لأزبكية إلى ميدان المحطة الآن ، وكانت تقع على النيل .

(٢) أبو الحسن : التتبع الزاهرة ج ٤ ص ٣٤ وما يليها .

### قصر المعز :

بنى جوهر الصقلي في داخل مدينة القاهرة قصرا كان يسمى القصر المعزى ، ليكون مقرا لهذا الخليفة . ويقال إن المعز هو الذى أمر جوهر ببنائه ، وألقى إليه ترتيبه ، فوضعه على الترتيب الذى رسمه له (١) . وهذا يدل على أن المعز كان يرغب فى اتخاذ مصر حاضرة لخلافته ، وأنه اتخذ لهذا الأمر عدته قبل فتح هذه البلاد . وكثيرا ما كان هذا القصر يسمى « القصر الشرقى الكبير » ، تمييزا له عن « القصر الغربى » الصغير الذى بناه الخليفة العزيز فيما بعد .

وتدوضع جوهر أساس هذا القصر فى اليوم الذى وضع فيه أساس مدينة القاهرة المعزية ، أى فى يوم الأربعاء ١٨ من شعبان سنة ٣٥٨ هـ ؛ وانتهى من بنائه ، وركب أبوابه فى يوم الخميس ١٣ من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ ، وأدار عليه سورا متينا فى سنة ٣٦٠ هـ . ولما جاء المعز فى سنة ٣٦٢ هـ ، كان جوهر قد استكمل بناء هذا القصر . وكان الغرض من بنائه أن يكون مقرا للخلفاء العاطميين ، فكان الخليفة يقيم فيه ، ويجلس فيه للحكم ، فى مجلس عرف باسم « مجلس الملك » . وكان هذا القصر يشتمل على كثير من دواوين الحكومة ودور السلاح (٢) . وقد أعاد بالمياه درءا للحريق ، كما كثرت فيه الأنفاق السرية ، ولا يركب أحد فى القصر إلا الخليفة ، ولا ينصرف ليلا ونهارا إلا كذلك (أى راكبا) . وله فى الليل شدادات من النساء يخدمن البغلات والخمير الإناث ، للجواز فى السراديب القصيرة الأقباء ، والطلوع على الزلاقات إلى أعلى المناظر والأماكن ، وفى كل محلة من محلات القصر فسقية مملوءة بالماء خيفة من حدوث حريق فى الليل (٣) .

وكان القصر المعزى من الفخامة ، بحيث اعتقد بعض أنه فاق قصر لايرانت ، أو قصر تيه ، الذى اتخذه أمانحسب الثالث (١٨٠١ ق م) ، أحد ملوك الأسرة

(١) المقرئى : خطط ج ١ ص ٢٨٤ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٨٦ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٨٧ .

الثانية عشرة مقر الحكمة بالفيوم ، والذي بلغ عدد حجراته ثلاثة آلاف . على أن شهرة هذا القصر قد تضاملت أمام شهرة قصر المعز ، الذي بلغ عدد حجراته ، على ما ذكره ميخون<sup>(١)</sup> ، أربعة آلاف .

نعم ! كان هذا أشبه بمستعمرة كبيرة ، حتى إن صلاح الدين الأيوبي لما قضى على الدولة الفاطمية في أواخر القرن السادس الهجري . واستولى على ذلك القصر ، وجد فيه أكثر من اثنتي عشرة ألف امرأة . وقد استمر القصر الكبير دارا للخلفاء الدولة الفاطمية ، منذ أقام فيه المعز لدين الله في اليوم السابع من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ ، إلى أن زالت هذه الدولة في سنة ٥٦٧ هـ .

وعما يمتاز به هذا القصر كثرة أبوابه ، فمنها : باب الذهب ، وكانت تعلوه منظره يشرف منها الخليفة في بعض الأوقات ، وباب العيد ، وأمامه رحبة متسعة يقف فيها الجنود في يومى العيدين ، وتعرف برحبة باب العيد . وباب الديلم وموضعه الآن مسجد الحسين ، ويصل إلى باب الزعفران ، وهي مقبرة الخلفاء وسائر أفراد الأسرة المالكة ، وموضعه الآن خان الخليلي . وقد دفن المعز لدين الله في هذه المقبرة جثث المهدي والقائم والمنصور ، وكان قد أحضرها معه من بلاد المغرب في توابيت . وظلت هذه المقبرة مدفنا للخلفاء وأولادهم ونسائهم ، حتى أنشأ فيها ركن الدين جهاركس الخليلي ، أحد أمراء المماليك ، خانة المعروف باسمه ، فأخرج منها عظام الفاطميين وألقاها على تلال البرقية<sup>(٢)</sup> ، بين باب الديلم وباب تربة الزعفران ، التي كان يصل منها الخليفة إلى الجامع الأزهر في ليالى الوقود<sup>(٣)</sup> . وكان يجلس بمنظره هذا الجامع لمشاهدة الناس . ويقابل باب الديلم الجامع الأزهر في الجنوب الشرقي من القصر . وكان الخليفة يصلى فيه صلاة الجمعة . ويجوار رحبة باب العيد ، دار الضيافة ، وكانت تسمى دار سعيد السعداء ، ويقابلها دار الوزارة . وكان هناك طريق يوصل بين باب تربة الزعفران وباب الزهومة<sup>(٤)</sup> . وتقع خزائن القصر بين هذا الباب والجامع الأزهر .

(١) Migeon: L'Art Musulman, Tome i. p. 42.

(٢) المقرئى : خطط ج ١ ص ٤٠٧ .

(٣) وهي الليالى التي تسبق أول شهرى رجب وشعبان ومنصف كل منهما .

(٤) سمي بباب الزهومة ، لأنه يؤدي إلى مطابخ القصر ، وعله الآن شارع الصاغة .



ومن هذه الخزائن خزائن الكتب والشراب والأسلحة والكسب والفرش ، وكانت في الجهة الشرقية من القاهرة المعزية . وقد تأتى المعز في تأييد هذا القصر بفاخر الرياش وكل ما يحتاج إليه الخلفاء والأمراء<sup>(١)</sup> .

ويقع قبالة القصر الشرقى الكبير الذى بناه المعز ، القصر الذى بناه العزيز ؛ وكان أصغر منه ، لذلك يعرف بالقصر الصغير كما تقدم . وقد بنى فى موضعه المارستان الكبير المنصورى ، ولا يزال بعضه إلى اليوم يعرف بسوق النحاسين . ويجواره إلى الشمال الميدان ، والبستان الكافورى ، ودار الضيافة القديمة ، ورجة الإقبال . وكان بين هذين القصرين فضاء يسع عشرة آلاف فارس ، أطلق عليه فيما بعد « بين القصرين » .

### بناء الجامع الأزهر :

شرع جوهر الصقلى فى بناء الجامع الأزهر - على ما ذهب إليه المقرئى<sup>(٢)</sup> - حول منتصف سنة ٥٣٥٩ هـ ، وانتهى من بنائه فى رمضان سنة ٥٣٦١ هـ ، أى بعد دخوله مصر بنحو سنتين . وقد كتب على إحدى قبابه<sup>(٣)</sup> : « بسم الله الرحمن ، مما أمر بينائه عبد الله ووليه أبو تميم معد الإمام المعز لدين الله ، أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين ! على يد عبده جوهر الكاتب الصقلى ، وذلك فى سنة ستين وثلثمائة<sup>(٤)</sup> » .

هذا والجامع الأزهر رابع المساجد الجامعة فى حواضر مصر ، فقد بنى عمرو بن العاص بمدينة الفسطاط الجامع المعروف بجامع عمرو فى سنة ٥٢١ هـ ، وكان يطلق عليه : المسجد الجامع ، وتاج الجوامع ، والجامع العتيق . ثم أسس العباسيون مسجداً ثانياً ، أنشأه والى مصر صالح بن على العباسى ، عرف بجامع العسكر . وقد ظل قائماً حتى فتح جوهر مصر ، ولكن أزاله بدر الجمالى الذى هدم مدينة العسكر

(١) المقرئى : اتعاظ الحنفيا ص ٧٤

انظر أيضا كتاب جوهر الصقلى للدكتور على ابراهيم حسن ، ص ٩٤ - ٩٥ .

(٢) خطط ج ٢ ص ٢٧٢ .

(٣) هم القبة التى فى وسط الرواق الأول ، فوق موضع المهراب والمنبر فى الابواب القديمة .

(٤) خطط ج ٢ ص ٢٧٢ .

لتجميل مدينة القاهرة . وبني أحمد بن طولون في مدينة القطنان ، الجامع الذي لا يزال يعرف باسمه ، ولا يزال يؤمه السياح والزوار . وقد أثر عنه أنه قال حين عزم على بنائه : « أريد أن أبنى بناء ، إن استرنت مصر بقی ، وإن غرقت بقی ؛ فقیل له : بقی بالجیر والرماد والآجر الأحمر القوی علی النار إلى السقف ، ولا یجمل فیہ أساطین رخام ، فیہ لا صبر له علی النار <sup>(١)</sup> . » ولهذا بقی هذا المسجد إلى اليوم علی الرغم من تخرب مدينة القطنان ، وسقوط الدولة الطولونية علی ید محمد بن سلیمان الکناب قائد العباسیین فی سنة ٥٢٩٣ هـ .

وقد ظلت هذه المساجد الثلاثة الجامعة عامرة ، حتی جاء جوهر مصر ، فرأى أن یتقل بالصلاة فی حاضرة ولا یته الجديدة . وكان السبب الذی حدا جوهرًا علی بناء الجامع الأزهر أنه كان یخشى ثورة السنین علی العبارات الشیعیه فی الأذان والخطبة . أضف إلى ذلك أنه لم یکن بد من أن یلقن المغاربة تعالیم المذهب الإسماعیلی .

ولا يعرف علی وجه التحقیق سبب تسمیه الجامع الأزهر بهذا الاسم ؛ وهل یرجع ذلك إلى انتساب العلویین ، وبخاصة الفاطمیین منهم ، إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول علیه الصلاة والسلام ، تیمنا بها وانتسابا إليها ، وإشادة بذكرها . یظهر أن ذلك السبب أقرب إلى الصواب ، لأنه یدل علی مبالغتائی الفاطمیین فی إظهار انتسابهم إلى الرسول وتعلقهم بعلی وفاطمة .

ویرى بعض أن الأزهر سُمی بهذا الاسم تنبؤًا بما سوف یكون له من ازدهار العلوم والمعارف . والواقع أنه علی الرغم من أن العلوم ازدهرت فی الأزهر فعلا ، نرى أنه سُمی بذلك الاسم تیمنا باسم فاطمة الزهراء .

وسواء أكان هذا أم ذاك ، فإن الأزهر قد فاقت شهرته جمیع المساجد الجامعة فی مصر ، ولاسیما بعد أن تحول إلى جامعة فی عهد العزیز بالله بن المعز ، وأصبح نبراسا للجامعات الإسلامیه ، كما أصبح مركزا لنشر عقائد المذهب الإسماعیلی .

ولم تسكن مساحة الأزهر فی زمن جوهر کبیره ، فقد تعاقبت علیه زیادات ، وتحول هذا المسجد علی مر الأيام من مسجد صغیر إلى مركز عظیم لنشر الثقافة ،

(١) المقریزی : خطط ج ٢ ص ٢٦٧ .

وغدا يشغل مساحة قدرها ١٢.٠٠٠ متر مربع . وبلغ عدد أعمدته ثلثمائة وخمسة وستين عموداً (١) ، كان في المقصورة الكبيرة التي بناها جوهر وحدها ستة وسبعون عموداً ، من أجود أنواع الرخام الأبيض . وكان المعز يصل إلى هذه المقصورة عن طريق خاص (٢) .

ومن منشآت جوهر في الجامع الأزهر المحراب القديم الذي أمامه في المقصورة القديمة ؛ غير أنه قد أقيمت محاريب أخرى حتى بلغ عددها تسعة محاريب . كما أنشأ منبراً ظل في الأزهر إلى أن نقل بعد ذلك إلى جامع الحاكم شمالي القاهرة . وأقام جوهر للجامع الأزهر منارة واحدة ، ثم بلغت على مر الزمن خمس منارات . وهكذا ارتقى الفن والعمارة في مصر على يد جوهر الصقلي ومولاه المعز لدين الله .

## ٢ — الثقافة في عهد المعز :

وفي عهد المعز لدين الله ، تقدمت الثقافة تقدماً باهراً ، وبخاصة الثقافة التي تتصل بالدعوة الإسماعيلية كالفقه والتفسير وما إليها . ونبغ في عهده دعاة أفذاذ ، وشعراء وأدباء ، وشارك المعز نفسه في هذه النهضة بنصيب كبير .

### (١) الثقافة العلمية :

ولا غرو فقد ازدهرت العلوم الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ورفع البويهيون والحمدانيون لوامها في الشرق ، كما ساهم الأمويون بالاندلس في هذه النهضة ، ولاسيما في عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) . ولم يكن الفاطميون أقل شأنًا في هذه السبيل . فقد كان المعز يعتقد أن النهضة العلمية يجب أن تقوم على أيدي بيت الرسول . كما كان الإسماعيلية ، وكثير من السنيين ، يعتقدون أن الإمام الإسماعيلي مصدر العلم والعرقان . وكان لمبدأ التعليم ، ( من الإمام ) أثره في هذه النهضة الثقافية في عهد الفاطميين .

وقد اشتهر المنصور أبو المعز بسعة الاطلاع ، ولم تشغله مهام الخلافة وأعباء

(١) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٢٧ .

(٢) التتبعان : المجالس والمساربات ج ٢ ص ١٢٥ .

الحكم عن البحث والتأليف (١)؛ بل إنه كثيرا ما كان يحتم على ابنه المعز أن يتوفر على الدرس، ويؤلف الكتب ويقرض الشعر. وليس هذا وحده، فقد حرص على حث العلماء على الاستزادة من العلم، حتى لقد أثر عنه أنه كان يأمر قاضيه أبا حنيفة النعمان، وغيره، بالنظر في القرآن وتأليف الكتب في علومه (القرآن). من ذلك ما قاله لقاضيه يوما: «يا نعمان! استخرج من كتاب الله ما رفضته العامة وأنكرته (٢)». وكان لهذه البيئة العلمية التي شب فيها المعز وترعرع، أثرها في تنمية مداركه وسعة اطلاعه وتضلعه في العلوم الدينية. حتى إنه كان يحاضر العلماء من النحاة والفقهاء وغيرهم، ويناقشهم مناقشة تدل على مقدرته العلمية، كما كان أبوه المنصور من قبل. وكانت مكتبة المعز في المنصورية ثم في القاهرة زاخرة بالكتب. وقد بلغ من شغفه بهذه المكتبة أنه كان يعرف مواضع ما فيها من الكتب وما تحويه من المعلومات. وقد قيل إن المعز أمر خازن كتبه أن يحضر له كتابا، فلم يحضره على الفور، فقام المعز وبحث عن هذا الكتاب، ثم قرأه كما قرأ غيره من الكتب؛ واستهواه الاطلاع، حتى صرف معظم هذه الليلة في القراءة، وهو واقف على قدميه ولا غرو، فقد كان يقول: «والله ما تلذذت بشيء تلذذي بالعلم والحكمة (٣)».

وكان المعز منذ ولاد المنصور عمده، يعقد المجالس العلمية، فيحضرها كبار رجال دولته ومشايخها وعلماؤها وأدباؤها، فيظهر مقدرته الفائقة، وإلمامه بالفلسفة وعلوم التأويل والحديث والفقه وما إليها. يدل على ذلك قول النعمان الفقيه المغربي: إن المعز «قد نظر في كل فن، وبرع في كل علم؛ وإن تكلم في كل فن منها أرفق على المتكلمين، وكان فيها نسيج وحده في العالمين. أما علم الباطن ووجوهه، فهو بحره الذي لا تخاض لجنته، ولا يدرك آخره. أما القول في التوحيد، وتثبيت الدين، والرد على أهل افتراق البدع والملحدنين، فهو واحده وعلمه ومناره وعمدته. وأما الفقه والحلال والحرام، ومسائل القتيا والأحكام، فذلك مجاله وميدانه وصنعتة ودبوانه. وأما الطب والهندسة، وعلم النجوم والفلسفة، فأهل النفاذ في كل فن من

(١) النعمان: المجالس والمساربات ج ١ ص ١٦٦ - ١٦٧.

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٧٢ - ١٧٣.

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٩١.

ذلك عيال في يديه ، وكل كلهم في ذلك عليه ، يخترع في كل يوم لهم الصنائع ، ويبدع لهم فيه البدائع من دقائق معانيه ، وما تحار أذهانهم فيه<sup>(١)</sup> .

وكان المعز مشغوقا بكتب الباطن خاصة ، حتى كان يجد في ذلك لذة ونفرا يصغر أمامهما جاه الخلافة . انظره وهو يقول : « إني لأجد من اللذة والراحة والمسرة في النظر في الحكمة ، ما لو وجدته أهل الدنيا لا طرحوها لها . ولولا ما أوجب الله سبحانه عليّ من أمور الدنيا لأهلها ، وإقامة ظاهرها ومصالحهم فيها ، لرفضتها بالتلذذ بالحكمة والنظر فيها<sup>(٢)</sup> . »

وكان المعز يستحث همم المغاربة للزود من العلم ، ويلوم من يتقاعد منهم عن ذلك ، فلم يكن كأولئك الأمراء الذين يرون أن الخير كل الخير في أن يحكموا شعبا جامعلا ، لأنه يكون أكثر خضوعا واستسلاما . وكثيرا ما كان يصرح لجلسائه بأنه بما يحز في نفسه أن يرى انهماك الناس في اللهو والعبث ، دون أن يشغفوا بالبحث والاطلاع ، وتغذية عقولهم بالعلوم والمعارف . وأعجب من ذلك أن المعز كان إذا أرق ، أو أحس الملل من مشاغل الحياة ، أكبّ على الكتب يرتشف منها العلوم والغنون<sup>(٣)</sup> . ومن أكبر الأدلة على حب المعز للعلم ، ورغبته المتعطشة إلى الإلمام بدقائقه ، أنه كان يجيد عدة لغات تساعد على معرفة عادات الشعوب وطبائعها ، فكان يجيد غير اللغة العربية ، اللغات البربرية والسودانية واللاتينية والأسبانية والصلقية<sup>(٤)</sup> .

وكان المعز يعمل على تشجيع العلماء وقرّبهم إليه ، ويدر الأموال عليهم ؛ كما كان يشرف على تأليف المؤلفين ، ويتناولها بالتعديل والتغيير ، فيحذف منها ما يريد ، ويضيف إليها ما يعن له من الآراء ، وينقد المؤلفين نقد العالم الصليح . وقد طلب بعض الأمراء والقضاة والمستجيبين إلى أبي حنيفة النعمان المغربي ، قاضى قضاة المعز ، أن يضع كتابا في أخبار الأئمة العلويين وأحاديثهم ، فوضع الكتاب وأسماء « الدينار » ، ثم قدمه إلى المعز لدين الله . ومع علو قدر النعمان في التأليف

(١) العمان : المجالس والمساربات ج ١ ص ١٩٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٩٣ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٨٦ .

(٤) المقرئى : اتعاظ الخنفا ص ٦٥ .

أمدته المعز بكثير من الآراء التي تدل على قدرته في النقد ، فكتب إلى النعمان يقول :  
... ووقت على الكتاب وتصفحته ، فأريت ما أعجبنى فيه ، من صحة الرواية  
وجودة الاختصار ، ولكن فيه كلمات تماص (١) على كثير من أولياتنا معرفتها ؛  
فاشرحها بما يقرب من أفهامهم ، فيستوى في معرفته والإحاطة بعلم أفاضه الشريف  
والمشروف ، فإنه يجيء طريفا قريب المأخذ ، وسمه كتاب الاختصار ، لصحيح  
الآثار ، عن الأئمة الأظهر ؛ فإن ذلك أشبه به من كتاب الدينار (٢) .

بهذا نرى المعز يساهم مساهمة فعالة في ترويح مبادئ الشيعة ، وتحبيب الناس في  
الأئمة العلويين ، كما نراه يعمل في الوقت نفسه على نشر العلوم ، حتى لقد كان النعمان ،  
وهو أكثر رجال عهده اطلاعا ، يقف من المعز موقف التلميذ من الأستاذ . وسنرى  
أن المعز لدين الله يحث هذا المشتري الإسماعيلي على تأليف كتابه القيم ودعائم الإسلام  
في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام ، كما سنرى أنه هو الذي أصل  
أصوله ، وفرّع فروعه ، وأخبره بصحيح الروايات عن الظاهرين من آبائه عن  
رسول الله ﷺ (٣) .

وبذلك سن المعز لعلماء عصره هذه السنة ، حتى إن كثيرا منهم كان يقدم له كتبه  
ليفحصها وينقدها ، وكان شأنه مع الداعي الكبير جعفر بن منصور اليميني ، شأنه مع  
أبي حنيفة النعمان . وإنك لترى في مؤلفات النعمان ، وجعفر بن منصور اليميني ، المثل  
الحق عن سمو الأدب الإسماعيلي في عهد المعز لدين الله ، كما يتضح ذلك من الملاحق  
التي ذيلنا بها هذا الكتاب .

ولم يقف ترويح العلوم والآداب في عهد المعز عند ذلك الحد ؛ فقد فتح أبواب  
قصره للعلماء والطلاب ومشايخ إفريقيا ، وأباح لهم جميعا الاطلاع على الكتب  
المختلفة ، ودراستها وانتساخها والتعلم منها ، والتفقه فيها . كما أباح للناس كافة سماع  
محاضرات كبار العلماء الذين كان يثق بهم ، وكان يشجع رعاياه على سماع المحاضرات

(١) اعتاص : صعب فهمه .

(٢) النعمان : المجالس والمساربات ج ٢ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٣) Fayzée : Cadi-An-Numan (J.R.A.S, 1934), p. 22.

التي تلتقى على الناس في قصره بالمنصورية من كتاب «دعائم الإسلام»، للقاضي النجمان المغربي (١).

ومن أشهر العلوم التي اشتغل بها العلماء في عهد المعز: التفسير، والحديث، والمناظرة، والفقه، والتأويل، والكلام، والعقائد، والوعظ. وصفوة القول أن المعز يعد من أفذاذ عصره في العلم والتصنيف، فهو الذي دعا إلى هذه الحركة العلمية المباركة، حتى لقد نسب إليه تأليف كثير من الكتب، مثل كتاب «الروضة»، الذي يتناول الكلام على بعض النواحي الفقهية، و«الرسالة المسيحية» (٢)، ورسالته الممتعة التي بعث بها إلى الحسن الأعصم، وما كتبه في «المناجاة» التي يشير إليها كتاب «عميدة الإسماعيلية»، الذي نشره ستانلاس جويبار (٣).

وكذلك نهض الشعر في عهد المعز نهضة مباركة، بفضل ما كان يدره على الشعراء من هبات؛ فكانت قصوره كعبة العلماء والشعراء والمفكرين. ومما يمتاز به الشعر في عهده، ميل الشعراء إلى الغلو المذهبي، ويتضح ذلك من شعر ابن هاني الأندلسي.

ومن أشهر شعراء عهد المعز لدين الله: ابن هاني الأندلسي، والأمير تميم بن المعز:

#### ١ - ابنه هاني الأندلسي (٤):

ويلقب أحيانا بأبي القاسم، وأحيانا بأبي الحسن، ويسمى محمد بن هاني، وكان من قبيلة الأزدي. ولد في إشبيلية في بلاد الأندلس، وقضى صباه بها. وكان أبوه هاني من قرية من قرى المهديّة في شمال إفريقية. وقد تجلّت مواهبه في الشعر والفلسفة، وانتقل إلى الأندلس؛ فولد له محمد، الذي اتصل فيما بعد بصاحب إشبيلية، وحظي

(١) النعمان: المجالس والمسائرات ج ٢ ص ١٢٣ - ١٢٤.

(٢) عجب تأمه ص ٣٢٢.

(٣) Ivanow: A Guide to Ismaili Literature, p. 36.

(٤) اعتمدنا فيما ذكرناه عن ابن هاني على كتاب «الفاطميون في مصر» للدكتور حسن

ابراهيم حسن ص ٥٣ وما يلها.

عنده ، وانهمك في الملاذ ، واتهم بمذاهب الفلاسفة الغلاة . ولما اشتهر عنه ذلك ،  
نقم عليه أهل هذه المدينة ، وأخذوا يسيئون الظن بالملك بسببه ، حتى اتهمه الناس  
باعتناق مذهب ابن هاني . فأشار عليه الملك بالبعد عن هذه المدينة ، ريثما ينسى الناس  
ما كان من أخباره . فرحل عنها وله من العمر سبع وعشرون سنة ( في سنة ٥٣٤٧ هـ  
أو ٥٣٥٣ = ٩٥٨ م أو ٩٦٤ م ) ؛ فلقى جوهر القائد ومدحه ، ثم ارتحل إلى  
جعفر ويحيى ابني أحمد بن حمدان الأندلسي أمير المسيلة وإقليم الزاب ، ومن  
أنصار العلم والعلماء ؛ فبالغا في إكرامه والإحسان إليه ، فمضى خبره إلى المعز فطلبه  
منهما ، فلما وفد عليه بالغ في الإنعام عليه (١) .

ولقد ناط المعز بابن هاني الآمال الكبار ، وقدّر أنه بما كي الشعراء العباسيين  
ويبنهم . يؤيد هذا القول ، أنه لما بلغت المعز وفاة ابن هاني وهو بمصر ، أسف  
أسفا شديدا وقال : وهذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق ، فلم  
يقدر لنا ذلك (٢) .

ولاشك في أن المعز قد أصاب فيما قاله ؛ لأننا إذا تصفحنا ديوان ابن هاني ،  
الذي يقع في مائتين وست وأربعين صفحة ، ألفينا أن أكثره قد نظم في مدح المعز  
وأسرته . وليس لدينا دليل تاريخي على أن ابن هاني انتحل مبادئ المذهب  
الإسماعيلي في صباه . غير أنه لا بد أن تكون نفسه قد أشربت روح العطف على  
هذه العقائد . يدلك على ذلك ما كان من إظهار هذه العقائد عند وصوله إلى  
بلاد المغرب .

ويظهر أن ابن هاني أصبح شيعيا متحمسا لهذا المذهب ، استدرارا لكرم الفاطميين ،

(١) لما توجه المعز إلى مصر ، شيعه ابن هاني ، وعاد إلى المغرب لاخذ عياله والامان بولاه .  
وقد أعد ابن هاني العدة للرحيل ، وسار يريد مصر . فلما بلغ رقة أضافه شخص من أهلها ، فأقام  
عنده أياما في مجالس الأثر والطرب . ويقول ابن خلكان : إنهم عربدوا عليه فقتلوه . وفي رواية  
أخرى ، أنه خرج سكران ، فنام في الطريق ، فوجد ميتا في الصباح ؛ فلم يقف الناس على سبب وفاته .  
وكان ذلك في شهر رجب من سنة ٣٦٢ هـ ، وعمره ست وثلاثون سنة ، وقيل ثمان وأربعون .

ياقوت : إرشاد الأديب ٧ ص ١٢٦ - ١٢٧ ، ابن خلكان ٢ ص ٥ . المقرئ :  
نفع الطيب ٢ ص ١٠ .

(٢) ابن خلكان ٢ ص ٥ .



لا حبا في عقائدهم واستمساكا بها ، حتى لقد ذهب به هذا التحمس إلى أن ينسب  
لحامه من صفات التشجيع ما نسبه إلى نفسه . وقد تكلم عن ذلك في هذين البيتين :

لي صارم وهو شعبي كحامله يكاد يسبق كراتي إلى البطل  
إذا المعز معز الدين سلطه لم يرتقب بالمنايا مدة الأجل (١)  
وربما كان أمر انتحال ابن هاني المذهب الشيعي راجعا إلى ما لقيه من عطف  
المعز وكرمه ، كما يتبين من إحدى قصائده في مدح المعز ، حيث يذكر لنا كيف أخذ  
يتلمس السبيل إليه طمعا في صلاته وعطاياه ، فيقول :

وظفقت أسأل عن أغر<sup>(٢)</sup> محجل<sup>(٣)</sup> فإذا الأناج جيلة (٤) دهما (٥)  
حتى دُفعت إلى المعز خليفة فعلت أن المطلب الخلفاء  
جود كأن اليم (٦) فيه نفائة (٧) وكأنا الدنيا عليه غشاء (٨)  
ويقول ابن هاني في قصيدة أخرى رائعة ، قيل إنها أول ما أنشد بالقيروان  
في مدح المعز :

قد كان رشح حديده أجلا وما صاغت مضاربه الرقاق قُيون (٩)  
وكأنا يلقى الضريبة دونه بأسُ المعز أو اسمه الخزون  
هذا معد والخلائق كلها هذا المعز متوِّجا والدين  
هذا ضمير النشأة الأولى التي بدأ الإله وغيها المكنون  
وصواهل ، لا الهُضْب يوم مغارها هُضْب ، ولا اليد الخزون حزون

( ١ ) ديوان ابن هاني ص ١٨٢ .

( ٢ ) الأغر : السيد في تومه .

( ٣ ) التحجيل : يباحض في أوامم الفرس ، وقيل في ثلاث منهن في رجل ويدين .

( ٤ ) الجيلة : بمعنى الطيبة والخليفة والغريزة .

( ٥ ) من الدهمة وهي السواد .

( ٦ ) اليم = البحر .

( ٧ ) النفائة = البعقة .

( ٨ ) الغشاء = الزبد . ديوان ابن هاني ص ٧ .

( ٩ ) قُيون = الحدادون .

عرفت بساعة سبقتها لا أها      عقلت بها يوم الرهان عيون  
وأجل علم البرق فيها أنها      مرت بجاحتيه وهي ظنون  
في الغيث شبه من نذاك كأنما      مسحت على الأنواء منك بين  
أما الغنى فهو الذي أوليتنا      فكان جودك بالخلود رهين  
وأذن له يُغرق أمة معلنا      ما كل مأذون له مأذون  
النور أنت وكل نور ظلمة      والفوق أنت وكل فوق دون  
فارزق عبادك منك فضل شفاعه      واقرب بهم زلفي فأنت ممكن (١)

وعلى هذا النحو نظم ابن هاني مدائحه في المعز ، معليا مآثره ، مشيدا بأحقية  
الفاطميين بالخلافة . وقد غلا في ذلك فنسب إلى مولاه بعض صفات النبوة والألوهية ؛  
وبذلك مهد السبيل لمن جاء بعده من الشعراء . يدل على ذلك هذه القصيدة الطويلة  
التي أشدها في حضرة المعز ، ننقل منها هذه الآيات :

هو علة الدنيا ومن خلقت له      ولعله ما كانت الأشياء  
ولك الجوارى المنشآت مواخرا (٢)      تجرى بأمرك والرياح رخاء (٣)  
فغنت لك الأبصار واقادت لك الأ      قسدار واستجيت لك الأنواء  
لا تسألن عن الزمان فإنه      في راحتك يدور حيث تشاء (٤)

ولم يفتقر ابن هاني عن مواصلة مدحه للمعز ؛ ولكننا رأينا يغرق فيه ،  
فيجعله في منزلة عيسى ومحمد ، بل وينسب إليه بعض صفات الألوهية ، كما يتضح  
ذلك في قصيدة أخرى يقول فيها :

ندعوه منتقما عزيزا قادرا      غفار موبقة الذنوب صفوحا  
أقسمت لولا أن دُعيت خليفة      لدعيت من بعد المسيح مسيحا  
شهدت بمفخرك السموات العُلا      وتنزل القرآن فيك مديحا (٥)

(١) ديوان ابن هاني ص ٢١١ - ٢١٦ .

(٢) مقتمة من اقرآن الكريم من قوله تعالى : .. ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام ..  
سورة الشورى آية ٣٢ .

(٣) سورة الصافات آية ٣٦ .

(٤) ديوان ابن هاني ص ٧ - ١١ .

(٥) المصدر ص ٢٤ - ٢٦ .

ولم يفق ابن هانيء أن يعلى من شأن الانتصار الذي حازته جيوش المعز على جند البيزنطيين في سورية حيث يقول :

يوم عريض في الفخيار طويل ما تنفضى عُسرٌ له وحجول  
لو أبصرتك الروم يومئذ درت أن الإله بما تشاء كقفل  
ياليت شعري عن مقاولهم إذا سمعت بذلك عنك كيف تقول  
ودواودادا أن ذلك لم يكن صدقا ، وكلُّ تاكل مشكول  
قل للدمستق مورد الجمع الذي ما أصدرته له قنا (١) ونصول  
سل رهط منويل وأنت غورته في أي معركة ثوى منويل (٢)  
منع الجنودَ من القفول رواجعا تبيا له بالمسنديات قفول؟  
من يهتدى دون المعز خليفة إن الهداية دونه تضليل (٣)  
وبما قاله في عيد النحر يمدح المعز ويذكر هذا العيد :

هذا ابن وحى الله تأخذ هديها عنه الملائك بكرة وأصيلا  
ذعرت مواكبُه الجبال فأعلنت هضباتها التكبير والتأيلا  
وعلمت من مكثون سر الله ما لم يؤت في الملكوت ميكاثيلا  
لو كان آتى الخلق ما أوتيته لم يخلق التشبيه والتأيلا (٤)

ولقد بلغ تمجيد ابن هانيء للمعز أقصى حد يمكن أن تتصوره ، حيث ينسب إليه القدرة على المعجزات فيقول :

فقد شهدت له بالمعجزات كما شهدت لله بالتوحيد والأزل (٥)  
ويقول في قصيدة أخرى :

ما شئت لا ما شامت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار  
وكأنما أنت النبي محمد وكأنما أنصارك الأنصار

(١) القنا : الرغ .

(٢) أنظر ص ٥٥ - ٥٨ من هذا الكتاب .

(٣) ديوان ابن هانيء ص ١٤٧ - ١٥٣ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٥٣ - ١٦٠ .

(٥) المصدر نفسه ص ١٤٦ .

هذا الذي تجدى شفاعته غدا حقا وتحمد أن تراه النار<sup>(١)</sup>  
ويغلب على ظننا أن ابن هانيء تأثر في عقائده بأراء الفلاسفة اليونان ، وأن  
كرم المعز أوحى إليه أن يشيد بذكر مآثر الفاطميين ، وأن يأخذ بنصيه فيما قاموا  
به في سبيل نشر دعوتهم ، كما يتجلى ذلك في هذين البيتين من قصيدة قد تكون آخر  
ما نظمه هذا الشاعر ، وقد بعث بها إلى المعز وهو في طريقه إلى مصر فيقول :

وروح هدى في جسم نور يمدده شعاع من الأعلى الذي لم يُجسم  
فأقسم لو لم يأخذ الناس وصفه عن الله لم يعقل ولم يُتوهم<sup>(٢)</sup>

٢ - تمجيد به المعز ( ٣٧٤ هـ )

نشأ تميم في المنصورة حيث ولد حول سنة ٣٣٧ هـ ، وأدرك عظمة الدولة  
الفاطمية في المغرب ثم في مصر . وقد عهد أبوه بالأمر من بعده لأخيه العزيز ،  
فتوفر تميم على دراسة الأدب والشعر ، ينهل من مناهلها الصافية . ويمتاز شعره بالرفقة  
والعذوبة مع الميل إلى الحزن والجنوح إلى الغزل والعبث أحيانا ، وبالإشادة بمآثر  
الفاطميين ، والغرض من شأن خصومهم السنيين .

انظره وقد جمع في شعره الرفقة والعذوبة والألم والإسراف في الحزن حيث يقول :

يادهر ما أفساك من متلون في حالتك وما أقلك منصفا  
أتروح للنسكس<sup>(٣)</sup> الجهول مهدا وعلى اللبيب الحر سيفا مرهفا  
فاذا صفوت كدرت ، شيمة باخل وإذا وفيت نقضت أسباب الوفا  
لا أرتضيك وإن صفوت لأنني أدري بأنك لا تدوم على الصفا  
زمن إذا أعطى استرد عطاءه وإذا استقر بدا له متحرفا  
ما قام خيرك يا زمان بشره أولى بنا ما قل منك وما كفي  
ويدلك على إمعانه في الحزن قوله :

أما والذي لا يملك الأمر غيره ومن هو بالسر المكتم أعلم

(١) ديوان ابن هانيء ص ٩٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٨٨ .

(٣) النسكس : الرجل الضعيف الذي لا خير فيه ، الذي يقصر عن النجدة والكرم ، وجمعه أنكاس

لئن كان كتمان المصائب مؤلماً لإعلامها عندي أشد وآلم  
وبى كل ما يبكى العيون أقله وإن كنت منه دائماً أتبتم  
ومن شعره الذى يمتاز بالمعاني الطريفة والألفاظ الحلوة قوله :

دم العشاق مطلول وديّين الحب بمطول  
وسيف اللحظ مسلول ومبدي الحب معذول  
وإن لم يصغ للآثم

° ° °

وأحور سحر الطرف يفوق جوامع الوصف  
مليح الدلّ والظرف جنت الحاظه حتى  
فن يعدى على الظالم ؟

يعنفنى على حبي ويهجرنى بلا ذنب  
كأنى لست بالصب لقهوة ريقه العذب  
أما فى الحب من راحم ؟

وله فى الغزل :

وما بلد الإنسان إلا الذى به له سكن يشتاقه وحبيب  
إلى الله أشكو وشك بين وفرقة لها بين أحشام الحب ندوب  
تسرى عندهم علم وإن شطت النوى بأن لهم قلبى على رقيب ؟ (١)  
وله فى الغزل أيضاً :

لا تطلبوا الناس ولا تطلبوا بثأرى اليوم أذى مسلم  
ويا لقومى دونكم شاذنا معتدل القامة والمبسم  
وإن أبى إلا ججودا له واكتتم الأمر فلم يعلم  
قولوا له : يكشف عن وجهه فإن فيه نقطة من دمي (٢)  
وكان تميم يفخر بانتسابه إلى فاطمة بنت الرسول ، ويغض من شأن العباسيين ،

(١) التتالى : بتيمة الدهر ١٣ ص ٢٥٤ .

(٢) المصدر نفسه .

فيرد على ابن المعتز العباسي الذي كان يشيد بالعباسيين، ويذم العلويين في قصيدته التي يقول فيها :

هاشمي إذا نسبت ومخسو ص بيت من هاشم ، غير عار  
أخزن الغيظ في قلوب الأعدى وأحل الجبار دار الصغار

فيرد عليه تميم في قصيدة من نفس الروى والقافية يقول فيها :

يا بني هاشم ولسنا سواء في صغار من العلا وكبار  
إن نكن نكنى لجد فإننا قد سبقناكم لكل نثار  
ليس عبئاً سكم كمثل علي هل تقاس النجوم بالأفكار ؟

والواقع أن العلويين كانوا يفخرون باتهامهم إلى علي وفاطمة ، ويعبرون عما كانوا يشعرون به من حزن وألم لما كان يحيق بهم من محن وخطوب ، فزرى أبا منصور تزار بن المعز يقول في رثاء ولده :

نحن بنو المصطفى ذوو محن يجرعها في الحياة كاظمنا  
عجبية في الأنام محنتنا أولنا مبتلى وآخرنا  
يفرح هذا الورى بعيدهم طرا ، وأفراحنا ما تمنا

(ب) الثقافة المذهبية .

## ١ — ثقافة الدعوة الإسماعيلية في المغرب .

لم يقف نشاط المعز على نشر الثقافة العامة وحدها ، بل تجاوزه إلى نشر مبادئ المذهب الإسماعيلي ، فوضع نظاما دقيقا لتمثيل هذه المبادئ في عقول الإسماعيلية ، أو المؤمنين كما كان يطلق عليهم .

ولم يدخر المعز وسعا في نشر عقائد المذهب الإسماعيلي بين أشياعه ، بل كان قاضي قضائه النعمان ينتهز فرصة اجتماع هؤلاء بعد صلاة الجمعة وصلاة العيدين في مسجد المنصورية الجامع ، فيقرأ عليهم محاضرة أو « منشورا » في عقائد هذا المذهب ،

كما كان هذا القاضي يلتقي على الإسماعيلية في القصر منشورا ، من الحكمة والوصايا والموعظة والعلم الحقيقي ، (١) .

وبذلك وضع المعز لدين الله أساس مجالس الحكمة التي كان لها في مصر شأن يذكر . وقد خصص هذا الخليفة يوم الجمعة لتدريس منشوراته ، كما خصص ابنه العزيز ومن جاء بعده من الخلفاء في مصر يومى الاثنين والخميس لإلقاء مجالس الدعوة أو مجالس الحكمة على المؤمنين والمؤمنات . أضف إلى ذلك أن المعز جعل من قصره ومن مسجد المنصورية مدارس لنشر عقائد المذهب الإسماعيلي ، وحذا خلفاؤه حذوه ، فجعلوا من الأزهر ومن قصورهم في المكان المعروف باسم المحول في القصر الشرقي الكبير في القاهرة أما كن لبث العقائد الإسماعيلية .

والواقع أن الخلفاء الفاطميين في المغرب كانوا يعنون بنشر تعاليم الدعوة الإسماعيلية . وقد ذكر المعز أن أباه المنصور كان يشرح له بعض كتب الباطن الرمزية الخاصة بشرح معاني الحروف الأبجدية والكتب التي ورثها عن المهدي ، وأن أباه المنصور كان يهتم بتدريس هذه الكتب له اهتماما بالغاً ، حتى إنه كان يقول له : « كنت أحب أن أعيش لك أكثر مما عشت لأفيدك وأزيدك » (٢) ، وضرب المعز نفسه بسهم وافر في شرح هذه الكتب .

ولما ولى المعز الخلافة أصبح نشر الدعوة الإسماعيلية جزءاً من سياسة الدولة ، وسن هذا الخليفة سنناً إسماعيلية ، وحتم على الرعية قبولها والعمل بها ، مما يدل على أن المعز لدين الله قد عمل في جد ونشاط على نشر الدعوة ، واستغل مركزه الحكومي في سبيل تحقيق هذه السياسة . ولذلك نراه في سنة ٣٤٩ هـ يجتمع على أئمة المساجد ومؤذنيها أن يذكروا في الأذان عبارة « حتى على خير العمل » ، وأن يقرءوا : بسم الله الرحمن الرحيم في أول كل سورة ، ويكبروا على الجنائز خمساً ، ولا يؤخروا العصر ، ولا يكبروا بالعشاء الآخرة ، ولا تصيح امرأة وراء جنازة ، ولا يقرأ العميان على القبور إلا عند الدفن (٣) .

(١) التتبعان : المجالس والمساربات ج ٢ ص ٦٣٠ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٣ .

(٣) ابن خلدون : البيان المغرب ، في أخبار المغرب ج ١ ص ٢٣١ .

ويظهر أن المعز لدين الله قد خصص وقتا لأخذ اليهود على المستجيبين ، ولم يرض أن ينوب عنه دعاة . وإنما كان يرى من وراء ذلك إلى إثارة حماسة أتباعه ، لكي يلتفتوا حول إمامهم وخليفتهم . ومن ثم أخذ المستجيبون من مشارق الأرض ومغاربها يفدون عليه . وكان المستجيب يرى الفخر كله في لثم يد الخليفة ، وأخذ العهد عليه دون غيره . ولاغرو ، فقد كان المعز ينتهز فرصة اجتماع هؤلاء الغرباء ، ويعمل على تلقينهم مبادئ الدعوة التي راجت بفضل هذه السياسة في كافة أرجاء العالم الإسلامي ، وساعدت على اتصال مدينة المنصورة بغيرها من المدن الإسلامية .

وكان المعز نفسه يؤلف الرسائل والمحاضرات ، ويبعث بها إلى النعمان ، فيلقها على الناس دون زيادة أو نقص . وهذا اشتهر بيت النعمان في مصر في عهد الخليفة العزيز وخلفائه ، حيث كانوا يلقون على مسامع الأتباع والمستجيبين المحاضرات المهورية بامضاء الخليفة . وكان من أثر ذلك أن « كثر المستجيبون ، وعظمت رغباتهم ، وأقبلوا من كل أفق يقطعون البحار والقفار ، إلى ذلك ، من نيل رحمته (١) » .

ولم يقتصر نشاط المعز على المنشورات ، التي يضعها ، ويلقها قاضى قضائه ، والاجتماعات التي تعقد في المسجد أو في القصر لسماع هذه المنشورات ، بل عنى هذا الخليفة عناية فائقة بتلقين أشياعه خصائص المذهب الإسماعيلي وأسراره ، أو علوم الباطن كما كانوا يسمونها . ولذلك أخرج من خزائن كتبه كثيرا من هذه الكتب ومنتجها النعمان ، وأعد له في قصره مكانا آخر يلقى فيه هذه الكتب . وقد أقبل الإسماعيلية على سماع محاضرات النعمان إقبالا أثار إعجاب المعز وتقديره . وإذا كانت مجالس الحكمة بالقاهرة في عهد العزيز قد حفلت بالمستمعين حتى مات بعض من شدة الزحام ، فإن مجالس الباطن ، التي كان المعز يعقدها في قصره بالمنصورة ، كانت لا تقل في روعتها عن مجالس الحكمة في القاهرة ، فكثير ازدحام الناس ، وغص بهم المكان ، وخرج في احتفالهم عن حد السماع ، وملئوا المجلس الذي أمر باجتماعهم فيه ، وطائفة من رحبة القصر ، وصاروا إلى حيث لا ينتهي الصوت إلى آخرهم (٢) .

(١) النعمان : المجالس والمعارف ج ٢ ص ٦٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٨٩ .



إذن كانت هناك دعاية تقوم بها الدولة تحت إشراف الخليفة المعز ، ويقوم بها كبار دعائه . وكان الغرض من هذه الدعاية نشر مبادئ المذهب الإسماعيلي بين الناس ، وبخاصة المستجيبين منهم . وعندنا أن مجالس القصر أو محاضرات الباطن هذه ، كانت لا تلتقى إلا على المستجيبين وحدهم . وهذا لا يمنعنا من القول بأن من يحضر لسماع هذه المحاضرات كانوا لا يدخلون هذه المجالس إلا بعد التحقق من أشخاصهم ؛ فإن كانوا من المستجيبين ، أذن لهم ، وإلا عادوا من حيث أتوا . وبما يدل على أن هؤلاء كانوا من المستجيبين ، أنه لما كثر عددهم ، وعجز النعمان عن أن يسمع جموعهم الحاشدة ، ففكر في أن ينحى عن مجالس الباطن هؤلاء الذين لم تنسج مداركهم لفهم المحاضرات التأويلية ، ليلقى عليهم معلومات أقل تعمقا في التأويل من تلك المعلومات التي تلتقى في مجالس القصر . إلا أن المعز أبى ذلك ، لأن الجميع وقد شملته الدعوة ، واستشهد بقوله تعالى : « وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم <sup>(١)</sup> » ، وقوله تعالى : « ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون <sup>(٢)</sup> » . وإنما فعل المعز ذلك لأنه لم يشأ أن يحرم مستجيبا من تلقى علوم الباطن ، أو علوم أهل البيت كما كانوا يسمونها <sup>(٣)</sup> .

وإذا كانت مجالس القصر تعد من مجالس الباطن التي لا يحضرها إلا المستجيبون من الإسماعيلية ، فإن مجالس المسجد الجامع كانت تلتقى على الناس كافة ، سواء أكانوا من السنين أم الشيعة . ولذلك كان المعز يعنى عناية بالغة بأعداد هذه المحاضرات التي أطلق عليها « المنشورات » ، ليسهل فهمها على الإسماعيلية والسنين على سوا . وكان لهذه المجالس أثرها في كافة أنحاء البلاد الإسلامية ؛ حيث أخذ دعاة الإسماعيلية يلقون في أصول المذهب الإسماعيلي ، محاضرات على غرار المحاضرات التي كانت تلتقى في حاضرة الدولة . وكان الخليفة المعز نفسه يزودهم بمنشوراته التي تلتقى في مساجد المنصورية وقصورها ؛ كما يتضح ذلك في هذه العبارة التي أمدنا بها النعمان المغربي : وصار للإسماعيلية « بكل مصر جماعة وألفة واجتماع على طلب العلم

(١) سورة هود آية ٢٩ .

(٢) نفس السورة آية ٣٠ .

(٣) النعمان : المجالس والمساربات ج ٢ ص ٢٨٩ - ٢٩٢ .

والحكمة ، وبث فيهم صلى الله عليه وسلم ما يُقرأ عليهم . وتواترت على كتب جماعة من أهل ذلك ، من قريب البلدان وبعيدها ، يسألون الزيادة من فضله ونعمته ؛ فرفعت ذلك إليه ، وسألت إسعافهم ببعض ما يخرج به ، ليقرأ على من بحضرته المرضية ، وأنهيته إليه رغباتهم وسؤالهم ، فوقع إليّ : كثر الله المؤمنين ، ومحق الكافرين . وما سألت وسألوا إلا ما ينبغي إسعافهم به . ونحن نتصفح من ذلك ما يصلح لهم ، وننفذه إليهم ، إن شاء الله تعالى (١) .

وبفضل هذا التنظيم كانت رسل دعاة المعز يقدون عليه في المشرق ، يحملون إليه الأموال والتحف والظرف والكتب التي تؤكد له ، ما هم عليه من صلاح الأحوال ، واستقامة الأمور ، وظهور الكلمة ، وانبساط الدعوة (٢) .

لذلك كان المعز يختار للبلاد الإسلامية الأخرى دعاة من العلماء الأذكياء ، وكان إذا وجد داعياً متخلفاً ، عن كبار علماء عصره ، همّ بعزله وتولية غيره . وهذا يعلل لنا نجاح هذه النهضة الثقافية ، عن طريق نشر الدعوة الإسماعيلية ، التي راجت في القرن الرابع الهجري ، كما يبين لنا في جلاء هذه السياسة التي سار عليها المعز في تثقيف أتباعه ، دعاة كانوا أو مستجيبين .

ومن أهم ما تمتاز به كتب الدعوة الإسماعيلية في عهد المعز في المغرب ، أنها كانت زاخرة بالنصائح التي توجه الدعاة ليسيروا على هديها في تلقين عقائد المذهب الإسماعيلي ، وليكونوا من « الفراسة » بحيث يستطيعون أن يميزوا بين المستجيبين ، ويلقنوا كل واحد منهم بمقدار استعداده . فإذا كان خصومهم أقوياء ، لجأ الدعاة إلى الباطن والتأويل ، وهذا ما يفسر اعتماد الإسماعيلية على الدعاة المأذونين ؛ لأنهم لا يأذنون بالدعوة إلا إلى العلماء القادرين منهم ، أو بالأحرى لم يأذنوا في الكلام إلا لمن ارتضوه وأطلقوا ذلك له (٣) .

ومن الوصايا التي كان الدعاة يسرون على هديها ، ما أورده أبو حنيفة النعمان

(١) النعمان : المجالس والمساربات ج ٢ ص ٦٢٢ - ٦٢٣ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٦٢ .

(٣) النعمان : كتاب الهمة وفضل الأئمة ج ١ ورقة ٢٠ .

المعروف في قوله : « متى ناظرک من ترى أنه ألحن <sup>(١)</sup> بالحجة منك ، فاستتر بالباطن ، يعني أن يقطع كلامه ، ويومى إلى أن في ذلك باطنا لا يتنبأ له ذكره ، ولا يتبادى في الكلام ، إلى أن يظهر عليه مخاصمه ، فيكون ذلك فتنة ، وداعياً إلى الإصرار على ما هو عليه ، ولكن يبقيه على شبهة من أمره ، إن كان قد وجل في مناظرته . وإن علم أنه ألحن منه قبل المناظرة ، لم يناظره ، واستتر كذلك بالباطن منه ما أمكنه ، لأن احتجاج المبطلين ربما شبهوا به ، وخيلوا للسامعين أنه الحق <sup>(٢)</sup> .

وقد رسمت كتب الدعوة الرسمية الحطة التي يسير عليها الداعي في تلقين مبادئ الدعوة ؛ فيسير معهم بخطاً متتداً ، حتى لا يضع البذور في أرض سبخة ، فلا ينحرف عن السبيل ، أو ينعكس عليه قصده ، فتصاب الدعوة بالحية والخذلان . ومن ثم ترى الدعاة يلبون بأحوال المدعويين ، ويسيروا في معاملتهم لإياهم على وفق أصول المذهب الإسماعيلي ، فيتدخلون في شؤونهم الخاصة . وقد أوضح المشرع الإسماعيلي ما يجب أن يكون عليه الدعاة في علاقاتهم بمدعويهم في هذه العبارة فقال :

« ينبغي للداعي اختيار أمر من يدعو ، وتعرف أحوالهم رجلاً رجلاً ، وتميز كل امرئ منهم ، ومعرفة ما يصلح له أن يؤتى إليه ، ويحمله عليه من أمر الله وأمر أوليائه ، ومقدار ما يحمله من ذلك ، ومدى قوته وطاقته ، ومتى يوصل ذلك إليه ؛ وكيف يغذوه به ، وامتحان الرجال ، وتعرف الأموال ، ومقدار القوى ، ومبلغ الطاقات . وعلم ذلك هو أفضل ما يحتاج إليه الدعاة في باب السياسات والرياضيات <sup>(٣)</sup> .»

ولم يكن هذا كل ما حددته كتب الدعوة في تنظيم العلاقة بين الداعي ومدعويه ، فقد رسمت للدعاة الخطوط الرئيسة التي يسلكونها مع مدعويهم ، فأبانت لهم وجوب الظهور بمظهر الوقار والإجلال ، ليكون ذلك مدعاة إلى تقاضى المدعويين في الالتفاف حولهم ، وأن يكون مصدر هيبة الداعي ووقاره ، حسن الصمت ، وخفض الجناح ، ولين الجانب ، وحسن العشرة ، وجميل المخالفة ، من غير تجبر عليهم ، ولا تكبر

(١) ألحن بالحجة : أقوى حجة .

(٢) التعمان : كتاب الهمة = ٢ ص ٨٨ .

(٣) المصدر نفسه = ٢ ص ٨٨ .

عليهم ، بل يكون التواضع سبباً ، والوقار همته ، (١) .

كذلك وضعت رياسة الدعوة الإسماعيلية للدعاة نظم الحكم بين المدعويين ، وقررت لهم مبادئ . لا تقلص صراحة عن تلك المبادئ . الفقهية ، التي يصدر القضاة أحكامهم على وفقها ، حثمت على الدعاة إثابة المحسن ، وزجر المخالف ، وعقابه ، إلا أنها سمت العقوبة التي تقع على أهل الدعوة بالتأديب . ومن أهم هذه العقوبات التي سنت لتربية المؤمنين ، أي الإسماعيلية ، وتأديبهم ، إقصاء المعاقب ومجمره . بحيث يهجره الداعي ، ويهجره إخوانه من الإسماعيلية المستجيبين ، فيبقى مهجوراً في قومه ، مبعداً في أهله وخاصته ، ، وتفريجه الأموال ، أو الحكم عليه بالأشغال الشاقة . ومن وسائل تأديب المدعويين ، تبيكيت الداعي وتوبيخه على مسمع من الجميع وجلده أو سجنه ؛ وإن استحق القتل أمر الداعي بقتله . ويلاحظ أن رياسة الدعوة تركت للدعاة الحرية في اختيار العقوبة التي تناسب مع ذنب المدعو .

وهكذا كان للإسماعيلية في البلاد التي يدعون فيها لمذهبهم ، تشريع خاص في معاملتهم أهالي هذه البلاد ، كما كانت لهم ثقافة وصلابة وأذان وضرائب مقررة . ولا غرو ، فإن كل إسماعيلي ، مهما بعدت دياره ، كان يحن إلى الدولة الفاطمية ، ويسعى إلى إرضائها ، ويولي ما تفرضه عليه مبادئها ونظمها ، كما كان يعتقد أن المعز إمامه الحق ، الذي يجب عليه أن يتجه إليه بقلبه . ومن ثم أخذت أموال الإسماعيلية تتدفق على المنصورية ، حتى كان المعز يتمتع بخمس ما يملكه أشياعه ، الذين كانوا يابون نداء رياسة الدعوة والدولة ، ذلك النداء الذي يتجلى في هذه العبارة القصيرة : « فما كسب أحدكم من كسب ، أو أفاد من فائدة ، فليخرج خمسة في وقت وصوله إليه ، فيرفعه إلى إمامه » (٢) .

بهذا كله نستطيع أن نقول ، إن المعز لدين الله وجه الدعوة الإسماعيلية توجيهاً علياً صحيحاً ، سواء أكان ذلك في حاضرة خلافته أم في البلاد التابعة له ، أم بين الإسماعيلية في البلاد الأخرى ، خارج حدود إمبراطوريته . فكان فقهاء المذهب الإسماعيلي يلقون مبادئ هذا المذهب في صورة محاضرات أو منشورات

(١) النعمان : كتاب المهمة ج ٢ ص ٨٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٣ .

في أوقات معينة ، على الرعايا تارة وعلى الأشياع أخرى ، وكانوا يلقون هذه المحاضرات في المساجد أحيانا ، وفي قصر الخليفة بالمنصورية أحيانا أخرى .

ولم يكن هذا كل ما قام به المعز ودعاته ؛ فقد وضع كثيرا من الكتب التي تعمق أشياع المذهب الإسماعيلي في دراستها . وأقبل المستجيبون على مجالسها ، وأغرم المعز نفسه بإعداد المحاضرات وتذليلها بإمضائه ، ليكون تأثيرها في النفوس أشد . كما كانت رئاسة الدعوة بالمنصورية على اتصال دائم بالمدعوين الذين كان يرسل إليهم منشوراته أو محاضراته ، فيهرعون إلى سماعها في شغف ولذة .

انظر المعز يعظ بعض دعاته ، وكانوا قد قدموا عليه بأموال كثيرة من المشرق ، ثم عولوا على العودة إلى بلادهم ، وأظهروا الأسف لفراق إمامهم قائلين : « لاجعل الله آخر عهدنا بك ؛ فما أشد علينا فراقك ، لولا ما نرجوه في امتثال أمرك . وإنا لذلك شخصنا عنك وفارقناك . فقال لهم ( المعز ) صلح : إذا كان اعتقادكم ولايتنا ، وامتثال أمرنا وطاعتنا . والتسليم لنا ، ووصلتم ذلك قولاً وفعلاً ، فأتم معنا حيث كنتم ، متصلة أرواحكم بأرواحنا ، ومودتكم بمودتنا . ومن كان على خلاف ذلك ، لم ينفعه قربه منا ، لأن الاتصال لا يكون بتقارب الأجسام ، وإنما يكون عن تقارب الأنفس ؛ فأنتم ، ما كنتم على ما وصفنا ، قريبة من أنفسنا ، وإن بعدت الأجسام ، ونأت المنازل ، ومطابقة الولاية أخص وأقرب وألصق من مطابقة الأهل والقرابة . وأتم واجدون منا ما لا تجدونه من الآباء والأمهات ؛ إن أحسنتم أحسنتم إلى أنفسكم ، شكرنا ذلك من أمركم ، وعرفنا فضله لكم ، وجزيناكم به ؛ وإن أسأتمت صفحنا عما يجب صفحه عنكم . وكل إنسان منكم ينظر لنفسه ، ويكدهح لها . ونحن ننظر ونعنى بصلاح جميعكم ، فأعينونا على ذلك ، بتقوى الله وامتثال أمره ، والانتهاج بنبيه . فإنكم إذا فعلتم ذلك ، أصاح الله حالكم ، وأجزل أجوركم ، وأقر أعينكم ، وأعيننا بكم . وعن قريب ترون من صنع الله وفضله ما تحبونه إن شاء الله (١) . وهذه العبارة الأخيرة تكشف لنا عن تفكير المعز في فتح مصر ، ومد نفوذ الفاطميين إلى المشرق .

(١) النعمان : المجالس والمساربات = ١ ص ٣٦٣ - ٣٦٤ .

وكان من أثر هذه الدعاية العلمية المنظمة أن انتشرت الدعوة، وذاعت في مصر والشام خاصة، وفي بلاد الدولة العباسية عامة، مما أدى إلى اعتقاد أنصار الدعوة أن المشرق قد أصبح في قبضة المعز، حتى كانوا يقولون له وهو بالمنصورية: « ما يمنع أمير المؤمنين من المشرق، ولا يحول دونه إلا أنه لم ير العزم في أمره؛ فأما لو عزم على ذلك لما حال دونه حائل (١) ».

وكان لهذه الدعاية المنظمة أثرها في فتح مصر بقيادة جوهر. فقد رأينا اتصال المدعويين في هذه البلاد بالخليفة المعز قبيل الفتح، كما رأينا اتصال أنصاره في سلبية، حتى كان المعز يعبر عن ثقته في إخضاع جميع بلاد المشرق (٢). ويرجع الفضل في ذلك كله إلى هذه الدعاية المنظمة.

## ٢ - الدعوة الإسماعيلية في مصر:

حكم الفاطميون إفريقية قبل تحول خلافتهم إلى مصر أكثر من نصف قرن، وكانت آمالهم تتجه إلى هذه البلاد، لحسن موقعها الجغرافي الذي يساعدهم على الإغارة على بلاد الدولة العباسية، وصلاحياتها لنشر الدعوة الإسماعيلية. ولذلك لم يكفد جوهر يستقر في مصر، حتى أسس مدينة القاهرة التي حلت محل المنصورية حاضرة الفاطميين في المغرب، بعد وصول المعز إلى مصر في سنة ٥٣٦٢ هـ، وأصبحت مركزاً رئيساً لنشر الدعوة الفاطمية.

وكانت سياسة جوهر الصقلي مع المصريين، تدل على شيء كثير من المهارة، فقد سار في حكم هذه البلاد في حذر وتؤدة، ولم يشأ أن يواجه المصريين بالانتقال الفجائي من المذاهب السنية إلى المذهب الإسماعيلي، فأمر بإبطال الخطبة للخليفة العباسي من مصر، وأقامها للخليفة المعز الفاطمي، في كافة أرجاء البلاد، وضرب السكة باسم الخليفة الفاطمي بدلاً من اسم الخليفة العباسي، فكتب على أحد وجهيها: « باسم مولانا المعز، » دعا الإمام معد بتوحيد الإله الصمد، وفي السطر الثاني: المعز لذين آفة

(١) التعمان: المجالس ٢ ج ٢ ص ٤٧٦.

(٢) المصدر نفسه ٢ ج ٢ ص ٩٤ - ٩٥.

أمير المؤمنين ، وفي السطر الثالث : وباسم الله ؛ ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلثائة . كما كتب على الوجه الآخر : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ، على خير الوصيين ، وزير خير المرسلين (١) .

كذلك أمر جوهر بإبطال السواد شعار العباسيين ، الذي اتخذته الأمراء وكبار الموظفين في عصر الإخشيديين ، وأمر الخطباء بإرتداء الملابس البيض ، شعار الفاطميين ، وأعدّ المصريين لقبول عقائد الفاطميين ولذلك نهى الناس عن التكبير بعد صلاة الجمعة ، وكان من العادات المألوفة عند السنيين (٢) ، وأقال ، كما رأينا ، رئيس ديوان المظالم ، ونظر فيها بنفسه ، وأصدر أحكامه على وفق عقائد المذهب الإسماعيلي مذهب الفاطميين ، فدل ذلك على رغبة الفاطميين الصريحة في محاولة نشر الدعوة للذهب الإسماعيلي بين المصريين تدريجياً .

### الدعوة الفاطمية في المساجد :

لم يكن نشر الدعوة الإسماعيلية من مساجد مصر بدعة جديدة ، فقد رأينا كيف كانت مساجد المنصورية تغص بالإسماعيلية الذين كانوا يلتفون حول دعواتهم ، حين يلقون عليهم المحاضرات في أصول المذهب الإسماعيلي . ولذلك اتخذ جوهر بعد أن فتح مصر ، من مساجدها أمكنة لتلقين مبادئ المذهب الإسماعيلي . حقيقة كان الغرض من بناء المساجد في مصر أن تتخذ أما كن للصلاة ، إلا أنه سرعان ما اتخذت هذه المساجد كغيرها من المساجد ، مدارس يتلقى فيها الطلاب أصول الدين . ولم يتف الحال عند هذا الحد ، فقد أصبح المسجد المكان الذي يتداع فيه الأخبار الهامة التي تتعلق بالمصلحة العامة (٣) . وغدا القضاة يتخذون من المساجد أما كن يقضون فيها بين المتخاصمين ، واتخذ الفاطميون المساجد مرا كز لنشر شعائر مذهبهم .

(١) المقرئى : أتماظ الخنقا ص ٧٦ . وقد رأينا كيف عمل جوهر على الحط من قيمة الدينار

العباسى ، حتى جمع آثار العباسيين من مصر .

(٢) المقرئى : أتماظ الخنقا ص ٧٦ .

(٣) Margoliouth : Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 40.

## ١ — الدعوة الفاطمية في مسجرو:

ما كاد جوهر الصقلي يستقر في مصر ، حتى أخذ يعمل على إعداد عقول الناس وأذهانهم ، لتقبل عقائد المذهب الإسماعيلي ، مذهب الفاطميين .

« وقد أقيمت صلاة الجمعة في المسجد العتيق ، وخطب فيه للبعز في التاسع عشر من شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) ، أي بعد استيلاء جوهر على القسطنطينية بأيام قليلة . وقد خطب في هذا اليوم هبة الله بن أحمد خليفة إمام الجامع ، وأدخل في خطبة الجمعة ، العبارة الآتية ، التي حلت محل العبارات التي كانت تقال في عهد العباسيين ، قال الخطيب :

« اللهم صل على عبدك ووليك ، ثمرة النبوة ، وسليل العزة الهادية المهديّة ، عبد الله الإمام معد أبي تميم ، المعز لدين الله أمير المؤمنين ، كما صليت على آباءه الطاهرين ، وأسلافه الأئمة الراشدين . اللهم ارفع درجته ، وأعل كفته ، وأوضح حجته ، واجمع الأمة على طاعته ، والقلوب على موالاته ، واجعل الرشاد في موافقته ، وورثه مشارق الأرض ومغاربها ، وأحمده مبادئ الأمور وعواقبها ، فإنك تقول وقولك الحق : ( ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون<sup>(١)</sup> ) . فقد امتعض لدينك ، ولما اتسببك من حرمتك ، ودرّس من الجهاد في سبيلك ، وانقطع عن الحج إلى بيتك وزيارة قبر رسولك ﷺ . فأعد للجهاد عدته ، وأخذ لكل خطب أهبته ، فسيّر الجيوش لنصرتك ، وأنفق الأموال في طاعتك ، وبذل المجهود في رضاك ، فارتدع الجاهل ، وقصر المتطاول ، وظهر الحق وزهق الباطل . فانصر اللهم جيوشه التي سيرها ، وسراياه التي ندبها لقتال المشركين ، وجهاد الملحدّين ، والذب عن المسلمين ، وعمارة الثغور والحرم ، وإزالة الظلم ، وبسط العدل في الأمم . اللهم اجعل راياته عالية مشهورة ، وعساكره غالبية منصوره ، وأصلح به وعلى يديه ، واجعل لنا منك واقية عليه<sup>(٢)</sup> . »

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٥ .

(٢) المقرئ : اتعاظ الخفا من ٧٥ - ٧٦ .



وكانت هذه الخطبة ( ١٩ من شعبان سنة ٣٥٨ هـ ) إيذانا بنهاية نفوذ العباسيين في مصر ، وبداية لصراع مذهبي عنيف بين الفاطميين والعباسيين ، استمر أكثر من قرنين . وإن إقامة الخطبة للخليفة الفاطمي في جامع عمرو ، هي صورة موجزة من ذلك البيان الذي أذاعه جوهر الصقلي على المصريين<sup>(١)</sup> .

وقد أخذ الخطيب يشيد في هذه الخطبة بفضائل الأئمة الإسماعيلية الذين اغتصب العباسيون حقهم في الإمامة والزعامة ، وتشير كلمة الجهاد التي عرج الخطيب عليها إلى ذلك البرنامج الحافل الذي وضعه الفاطميون لمحاربة الروم والقرامطة والعباسيين وغيرهم . وإن الدعاء للخليفة المعز في مصر ، ليصور في جلاء ذلك المظهر الديني ، الذي ظهر به الفاطميون ، للوصول إلى أغراضهم الدنيوية ، كما يبين أن جوهر الصقلي والمعز لدين الله قد بدأ ذلك النزاع الديني الذي قام بين الشيعة والسنيين في مصر ، ذلك النزاع الذي سوف يتحدث وتظهر آثاره بعد عهد المعز<sup>(٢)</sup> .

وقد وجدت العقائد الإسماعيلية الشيعية في مصر مرعى أكثر خصبا ونماء منه في بلاد المغرب ، ففي شهر ذي القعدة من سنة ٣٥٨ هـ ، زاد جوهر في الخطبة هذه العبارة ، التي تدل على رغبة الفاطميين في جذب رعاياهم إلى أهل البيت : اللهم صل على محمد المصطفى ، وعلى علي المرتضى ، وعلى فاطمة البتول<sup>(٣)</sup> ، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول ، الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرا . اللهم صل على الأئمة الراشدين ، آباء أمير المؤمنين ، الهادين المهديين<sup>(٤)</sup> .

كما أمر جوهر في جمادى الأولى من سنة ٣٥٩ هـ ( ٩٧٠ م ) بأن يزداد في الأذان بجامع عمرو عبارة ، حث على خير العمل ، التي تميز الأذان السنني عن الأذان الشيعي . كما أمر بقراءة البسملة قبل الفاتحة في الصلاة ، بصوت مرتفع ، بخلاف ما يفعله السنيون ، مما يدل على إيمان الفاطميين في نشر الدعوة للذهب الإسماعيلي بصورة

(١) انظر ملحق ٢ من هذا الكتاب .

(٢) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٢١ .

(٣) التي انقطعت عن الدنيا إلى الله تعالى .

(٤) المقرئ : اتعاظ الخنقا ص ٧٧ .

جدية ، بمحاولة غزو العقائد والأفكار السنية تدريجياً . ولم يقنع جوهر بهذا كله ، فقد أمر في رمضان من سنة ٣٥٩ هـ بنقش جدران الجامع العتيق وسواريه باللون الأخضر (١) .

هذه أهم التغييرات الدينية التي أدخلها جوهر الصقلي لنشر الدعوة للذهب الفاطمي من جامع عمرو ، ومنها نرى أن الفاطميين لم يعملوا على صبغ السنين بالصبغة الإسماعيلية عن طريق العنف ، وإنما لجئوا إلى سياسة الدهاء والإغراء . واستطاع جوهر بفضل هذه السياسة أن ينال شيئاً غير قليل من النجاح . أضف إلى ذلك أن الخلفاء الفاطميين في مصر أخذوا يعملون من جانبهم على إدخال كثير من مبادئ الشيعة وإذاعتها عن طريق المسجد العتيق وغيره من المساجد .

## ٢ — الدعوة الفاطمية في جامع ابن طولون :

لم يستطع جوهر الصقلي أن ينشر من جامع ابن طولون ما كان ينشره من جامع عمرو ، إلا بعد مدة طويلة لا تقل عن ثمانية أشهر . ففي يوم الجمعة الثامن عشر من شهر ربيع الثاني سنة ٣٥٩ هـ ، أدخل شيء غير قليل من خصائص الدعوة الإسماعيلية ؛ فأدخل المؤذنون على الأذان عبارة « حتى على خير العمل » التي تميز أذان الفاطميين عن أذان السنيين . ولم تلبث هذه العبارة أن استعملت في مسجد العسكر وفي الجامع العتيق بالفسطاط . وعلى هذا النحو استغل الفاطميون عنصر الزمن ، فبدؤوا بإقامة الخطبة في جامع عمرو ، ثم أدخلوا في الأذان العبارات التي كانت مألوفاً عند الشيعيين . وقد سر القائد جوهر لذلك النجاح ، وبعث للبعز يزف إليه هذه الأنباء (٢) .

وحضر جوهر بنفسه للصلاة في جامع ابن طولون في يوم الجمعة ١٨ من ربيع الثاني سنة ٣٥٩ هـ ، وازدحم المسجد بالمصلين . وبما هو جدير بالملاحظة أن عبد السميع الذي أسندت إليه رئاسة الخطباء بمصر ، هو الذي أخذ على عاتقه تنفيذ برنامج الفاطميين ، فأذاع خطبهم ، ونشر مبادئهم من فوق المنابر ، وأخذ يشيد في الخطبة بأئمة أهل البيت

(١) كان اللون الأبيض والأخضر من الألوان المحببة إلى الفاطميين ، ولذلك كان الخطباء يلبسون

الملابس البيض .

(٢) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر من ١٢٣ .

لأول مرة في جامع ابن طولون . ودعا للقائد جوهر ، فاعترض عليه ، ولم يقره على ما فعل ، واحتج بأن الخليفة المعز لم يأذن له بإدخال اسمه في الخطبة . كذلك حتم جوهر على الإمام أن يبجهر بالبسملة في الخطبة والصلاة ، والقنوت (١) في صلاة الجمعة بعد الركعة الثانية ، مع أن السنين لا يقتنون في صلاة الجمعة ، وإنما يفعلون ذلك في صلاة الصبح وفي الوتر في النصف الثاني من شهر رمضان غالبا .

من ذلك كله نستطيع أن نقول : إن الخطبة للفاطميين قد بدأت في جامع عمرو ، ثم تلتها في المساجد الأخرى ؛ وإن الأذان بدأ من جامع ابن طولون ثم في مساجد العسكر والفسطاط .

كما يجب أن نلاحظ أن التغييرات التي أحدثها جوهر الصقلي في مصر لم تكن تمت إلى أصول الشريعة بصلة ، وإنما تمت إلى فروعها ونوافلها . فلم تكن إضافة عبارة «حى على خير العمل» ، أو القنوت في الصلاة ، أو الدعوة للمعز لدين الله في الخطبة بدل الخليفة العباسي ، مما يطعن في عقائد الفاطميين ، أو يثير كراهية السنين عليهم . على أن هذه التغييرات إن دلت على شيء ، فإنما تدل على الخطأ التي عول الفاطميون على أن يسلكوها في مصر ، والتي تتلخص في أنهم عولوا على ألا يتدخلوا في عقائد السنين ، أو يحاولوا تغييرها . وبحسبهم أن ، يضموا إلى هذه العقائد السنية بعض العبارات ، التي يتميز بها المذهب الإسماعيلي ، ولا سيما في مساجد الفسطاط والعسكر والقطائع ، بخلاف ما كانت عليه الحال في مساجد القاهرة المعزية ؛ فقد كانت التغييرات المذهبية فيها أكثر شمولا ، وعلى الأخص بعد سنة ٣٦٥ هـ ، فاتخذوا من الأزهر مدرسة لتعليم أصول المذهب الإسماعيلي ، ودراسة خصائص الدعوة الإسماعيلية بعيدا عن السنين . ومن ثم نرى الاعتراض الذي لقيته السياسة المذهبية الفاطمية ينبعث من ناحية الأهالي ، الذين لا يقيمون في القاهرة المعزية ، أي من أهالي الفسطاط والعسكر .

(١) يقول بعض العلماء : القنوت في الجمعة بدعة . وكان مكحول الدمشقي يكرهه ، ولم يؤثر عن أحد من الصحابة أنه قنت في الجمعة . وقال أبو بكر بن أبي شيبة : (نا) يحيى بن أبي بكير : قال حدثني أبي : قال : أدركت الناس قبل عمر بن عبد العزيز يقتنون في الجمعة ؛ فلما كان زمن عمر بن عبد العزيز ترك القنوت في الجمعة . . . المقرئ : اتعاظ الخفاص ص ٧٩ .

### ٣ - الدعوة الفاطمية في الأزهر

ذكرنا من قبل أن الفاطميين اتخذوا الأزهر مركزا لنشر مبادئ المذهب الإسماعيلي ، وأن جوهرًا صلى فيه أول جمعة في اليوم السابع من شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ .

« أما ما كان هنالك من زيادة في الأذان والخطبة ، منذ أقيمت الصلاة في الأزهر إلى أن وصل المعز إلى القاهرة ، فشيء لم يكشف لنا التاريخ الستار عنه . ويلوح لنا أن ما زيد في الخطبة والأذان في الجامع العتيق ، ومسجد ابن طولون هو الذي أدخل على الخطبة والأذان في الأزهر (١) . »

والواقع أنه لا بد أن يكون جوهر قد أدخل هذه الزيادات في الأزهر ؛ ولا غرو فإنه أصبح أكثر حرية في نشر عقائد مذهبه في داخل أسوار القاهرة دون أن يلقي معارضة من السنين . إلا أنه ينبغي أن نعلم أن جوهرًا قد حرص على عدم إثارة سخط السنين في مصر ، وأنه كان يخشى في بادئ الأمر أن يأخذ السنين على غرة في المساجد بإضافة هذه العبارة إلى الخطبة وهي : « السلام على الأئمة آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله » . ولكن المعز لم يكذب يصل إلى مصر حتى « تطورت الحالة تطورًا محسوسًا من حيث تنظيم الدعوة الفاطمية على يد الخلفاء أنفسهم (٢) » .

وقد اتخذ المعز وابنه العزيز من بعده ، الجامع الأزهر مكانًا رئيسًا لإقامة خطبة الجمعة . فلما فتح مسجد الحاكم أصبحت الخطبة في مساجد عمرو وابن طولون والحاكم والأزهر على التوالي . وبذل الفاطميون قصاراهم في تزيين الأزهر والعناية به ، فأثاروه بالأنوار الساطعة في أيام الأعياد ، وزينوا مناراته بأهلي الزينات . وهذا ما حدا المعز على بناء المنظرة ، التي أطلق عليها اسم « منظرة الجامع الأزهر » ، لمشاهدة هذه الزينات .

ومن أهم التغييرات التي أدخلت على الدعوة الإسماعيلية ، أن المعز أمر على أثر

(١) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٢٤ .

(٢) المصدر نفسه .

وصوله إلى مصر بأن ينقش على جدران القسطنطينية عبارة: «خير الناس بعد رسول الله ﷺ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب»، هذه العبارة التي لا تختلف كثيرا عن عبارة «حى على خير العمل» و«محمد وعلى خير البشر» التي أبطلها نور الدين محمود صاحب حلب، والتي يستعملها الشيعة والإسماعيلية منهم بوجه خاص، في الأذان. وقد قيل إن محمود نور الدين أمر في سنة ٥٤٣ هـ الفقهاء أن يصعدوا المنارات في وقت الأذان لمنع المؤذنين من ذكرها، وقال لهم: «مروهم يؤذونوا الأذان المشروع، ومن امتنع كبوه على رأسه»<sup>(١)</sup>.

وكذلك صلى المعز لدين الله العيد سنة ٣٦٣ هـ في مصلى القاهرة، التي بناها جوهر في خارج «باب النصر» (سنة ٣٥٨ هـ)، على طريقة الإسماعيلية، فقرأ في الركعة الأولى فاتحة الكتاب، فسورة الغاشية، ثم كبر، وأطال الركوع والسجود، فسيح نيفا وسبعين تسبيحة في كل ركعة وسجدة. وكان محمد بن النعمان القاضي يبلغ عنه التكبير. فقرأ المعز في الركعة الثانية فاتحة الكتاب، فسورة الضحى، ثم كبر، وفعل ما فعله في الركعة الأولى، وجهر بالبسملة، محتذيا في ذلك حدو علي بن أبي طالب.

ولما فرغ الخليفة المعز من الصلاة، صعد المنبر وسلم على الناس يمينا وشمالا فقال: «السلام عليكم ورحمة الله!» وكان أعلى المنبر وسادة من ديباج مقل، أعدت لجلوس الخليفة بين الخطبتين. وكان معه على المنبر جوهر، وابن عمار من رؤساء كتامة، وشقيع صاحب المظلة، بعد ذلك نشر العلبان اللذان كانا على المنبر، وقرأ الخليفة خطبة أخرى من خلفهما، فبدأها بالبسملة جهرا، وأعقبها بالتكبير مرتين. وقد ألقى الخطبة في خضوع وخشوع، وكانت من الفصاحة والتأثير بحيث استدرت دموع المصلين<sup>(٢)</sup>. وعاد بعد الصلاة إلى قصره في موكب حافل، يحف به أبنائه وحاشيته، ودعا الناس إلى موائده، وتهدد من بلغه أنه صام العيد<sup>(٣)</sup>، لأن الصوم غير مقبول في أيام التشريق، بل لأن عادة الفاطميين قد جرت بأن يصوموا

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٧١ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٢٦ .

(٣) المقرئى : اتمام الحنفا ص ٩١ - ٩٢ .

أو يفطروا من غير أن يكسروا لرؤية هلال شوال أو رمضان ، وإنما كانوا يهتمون بمراعاة عدد أيام الشهور .

وقد سن المعز خلفائه سنة خطبة الجمعة في شهر رمضان وفي الأعياد ، سواء أكان ذلك في الأزهر أم في سواه . ونستطيع أن نقطف شيئا مما ذكره أبو المحاسن في وصف خطبة الجمعة في عهد المعز ومن جاء بعده من الخلفاء ، نقلًا عن ابن عبد الظاهر ، قال : « وأما عظمُ الخليفة (المعز) في أيامه . وما كانت قاعدته وطريقته ، التي رتبها ودامت من بعده عادة لكل خليفة ، فشيء كثير . من ذلك أنه كان يخطب في شهر رمضان ثلاث خطب ، ويستريح فيه جمعة ، وكانوا يسمونها جمعة الراحة (١) . وكان إذا أراد أن يخطب ، يتقدم متولى خزانة الفرش إلى الجامع ، ويعلق المقصورة التي برسم الخليفة ، والمنظرة وأبواب مقاصيرها ، وبادهنج (٢) المنبر ، ثم يركب متولى بيت المال ، وعلى يد كل واحد منهما تعليقه وفرشه ، وهي عدة سبحادات مفروزة (٣) منطّقة ، وبأعلاها سجادة لطيفة ، لا تكشف إلا عند توجه الخليفة إلى المحراب . ثم يفرش الجامع بالحصر المفروزة مما يلي المحراب . وكان ذلك بجامع الأزهر قبل أن يبني الحاكم جامعه ، ثم صار بعد ذلك بجامع الحاكم . ثم يهيا للداخل للجامع مثل ذلك ، ثم يطلق البخور ، وتغلق أبواب الجامع ، ويجعل عليها الحجاب والبوابون ، ولا يمكن أحد أن يدخله إلا من هو معروف من الخواص والأعيان . فإذا كان حضور الخليفة إلى الجامع ، ضربت السلسلة من ركن الجامع إلى الوجه الذي قبالة ، ولا يمكن أحد من الترجل عندها .

ثم يركب الخليفة ، ويسلم لكل واحد من مقدمي الركاب في الميمنة والميسرة أكياس الذهب والورق ، سوى الرسوم المستقرة والهبات والصدقات في طول الطريق . ويخرج الخليفة من باب الذهب والمظلة بمشدة الجوهر على رأسه ، وعلى الخليفة الطيلسان (٤) ، فعند ذلك يستفتح المقرئون بالقراءة في ركابه بغير

(١) كانت جمعة الراحة غالبًا الجمعة الأولى من شهر رمضان .

(٢) معرب بادخون ، والمراد به الفتحتان الجانبيتان في المنبر .

(٣) الثوب المفروز : ما كانت له تطاير أي شراريب .

(٤) الطيلسان : كساء مدور أخضر لا أسفل له ، وهو معرب .

رهجة<sup>(١)</sup>، والدكاكين مزينة، مملوءة بأواني الذهب والفضة، فيسير الخليفة إلى أن يصل إلى وجه الجامع، ووزيره بين يديه، فتحط السلسلة، ويتم الخليفة راكبا إلى باب الأزهر الذي تجاه درب الأتراك<sup>(٢)</sup>، فينزل ويدخل من باب الجامع إلى الدهليز الأول الصغير، ومنه إلى القاعة المعلقة التي كانت برسم جلوسه، فيجلس في مجلسه، وترخي المسقرمة الحرير، ويقرأ المقرئون، وتفتح أبواب الجامع حينئذ. فإذا استحق الأذان أذن مؤذنو القصر كلهم على باب مجلس الخليفة ورئيس الجامع على باب المنبر، وبقية المؤذنين في المآذن. فعندما يسمع قاضي القضاة الأذان، يتوجه إلى المنبر فيقبل أول درجة، وبعده متولى بيت المال، ومعه المبخرة، وهو يبخره، ولم يزالا يقبلان درجة بعد درجة إلى أن يصلا ذروة المنبر، فيفتح القاضي بيده التزير، ويرفع الستر، ويتناول من متولى بيت المال المبخرة، ويبخر هو أيضا، ثم يقبلان الدرج أيضا وهما نازلان. وبعد نزولها يخرج الخليفة والمقرئون بين يديه بتلك الأصوات المشجية، إلى أن يصل إلى المنبر ويصعد عليه. فإذا صار بأعلى، أشار للوزير بالطلوع، فيطلع إليه وهو يقبل الدرج حتى يصل إليه، فيزير عليه القبة. ثم ينزل الوزير ويقف على الدرجة الأولى، ويجهر المقرئون بالقراءة، ثم يكبر المؤذنون، ثم يشرع المؤذنون في الصمت، ويخطب الخليفة. حتى إذا فرغ من الخطبة. طلع إليه الوزير، وحل الأزارار؛ فينزل الخليفة، وعن يمينه الوزير، وعن يساره القاضي، والداعي بين يديه - والقاضي والداعي يوصلان الأذان إلى المؤذنين - حتى يدخل المحراب ويصلى بالناس ويسلم.

وإذا انقضت الصلاة، أخذ لنفسه راحة بالجامع بمقدار ما تعرض عليه الرسوم وتفرق؛ وهي للنائب في الخطبة ثلاثة دنانير، وللنائب في صلوات الخمس ثلاثة دنانير، وللمؤذنين أربعة دنانير، ولمشارف خزانة الفرش وفراشها ومتولياها لكل ثلاثة دنانير، ولصبيان بيت المال دیناران، ولعبي الفاكهة دیناران. وأما القراء فكان لهم رسوم غير ذلك. ومن حين يركب الخليفة من القصر إلى الجامع حتى يعود، الصدقات تعم الناس<sup>(٣)</sup>.

(١) الرهج ويحرك، الغبار والمصباح بلا ماء، والرهجة الضغب أيضا.

(٢) وهو الآن قبالة باب الأزهر المسمى باب المقاربة.

(٣) أبو الحسن: التعميم الزاهرة ج ٤ ص ١٠٢ - ١٠٤.

من هذه الوثيقة نرى أن الفاطميين في مصر ، نهجوا ، منذ أيام المعز ، نهجا دينيا اجتماعيا لم يألفه المصريون من قبل . ويرجع ذلك إلى أن مصر كانت إلى أن وصل إليها المعز دار إمارة لا دار خلافة ؛ فلم يكن الوالي السنّي في صلواته أو خطبته يعمل ما يعمل الخلفاء الفاطميون . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، كان السواد الأعظم من المصريين يدينون بعقائد المذاهب السنّية ، ومن ثم لم ينظروا إلى الخلفاء الفاطميين كما ينظر إليهم الشيعة ، لذلك كانت هذه التقاليد الفاطمية تبدو غريبة عليهم ، ولكنهم ألفوها على مر الزمن ، ونظروا إليها كما ينظر المتفرج إلى المناظر الغريبة عليه .

وفي الحق أن المعز لدين الله أدخل في مصر شيئا غير قليل من خصائص المذهب الإسماعيلي ، التي لم يكن للمصريين بها عهد من قبل ؛ فكان يكبر في صلواته على الميت تكبيرات تناسب في كثرتها وقلتها مع مكانة الميت وقربه من الأئمة ، مقتفيا في ذلك أثر جده علي بن أبي طالب ، الذي كان يكبر على الميت بقدر ما يتناسب مع مكانته . وهذا يخالف ما ذهب إليه السنّيون الذين يكبرون على الميت أربع تكبيرات فقط (١) . ولذلك نرى المعز يصلي في الأضرحة على بعض بنى أعمامه ، فيكبر على أحدهم سبع تكبيرات ، ويكبر على آخر خمس تكبيرات . ولو أنه صلى على هؤلاء في مسجد غير مساجد القاهرة لآثار عليه السنّين .

ومما يوضح هذه السياسة التي سار عليها الإسماعيلية إزاء السنّين ، احتفال المعز بعيد الغدير (٢) . ولأول مرة في تاريخ مصر يشهد المصريون احتفالات رائعة ، يرى القائمون بها إلى تقديس أشخاص الأئمة والإشادة بمذهبهم ، ويربطون عليها بالرسول برباط وثيق . حقيقة كان عليّ أول من أسلم من الصبيان ، وكان ابن عم الرسول

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٥٣ .

(٢) هو غدير خم : ويقع بين مكة والمدينة ، ويعتقد الشيعة أن الرسول اجتمع مع علي في هذا الغدير ، يوم ١٨ من ذى الحجة سنة ١٠ هـ . وتأخى معه . ومن ثم اعتبر الشيعة هذا اليوم عيداً ، يحتفلون به في مشارق الأرض ومغاربها . ويقول المقرئى ( خطط ج ١ ص ٣٨٨ ) : إن معز الدولة بن بويه كان أول من احتفل به في سنة ٣٥٢ هـ ، فأخذ الشيعة يحتفلون به منذ ذلك الوقت .



وزوج ابنته فاطمة ، وأشجع من دافع عن الإسلام في أحوار محنته ، كما كان موضع تقدير الرسول ، وأحب الناس إلى قلبه . لكن الشيعة رأوا أن يحاربوا العباسيين بنفس سلاحهم ، لأن هؤلاء يقولون ، إن العباس جد عم الرسول ، وإن علي بن أبي طالب جد العلويين ، ابن عمه ، والعم أقرب من ابن العم بالطبع . ويقولون أيضا : إن العباس يرث الرسول بالعصية ، وإن أبناء فاطمة بنت الرسول لا يستطيعون ذلك ، كما يتبين من قول شاعر العباسيين :

أنتى يكون وليس ذلك بكأن لبني البنات وراثه الأعمام ؟

عمل العلويون على محاربه العباسيين ، كما تقدم ، فأوحوا أن الرسول آخى عليا في يوم الغدير ، وأنه أخذ بيد علي بن أبي طالب ، رضى الله عنه ، فقال : أستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا : بلى ! قال : أستم تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ قالوا : بلى ! فقال : من كنت مولاه فعلى مولاه . على منى بمنزلة هارون بن موسى ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله . وكانوا يرمون من وراء ذلك إلى أن يصبغوا دعواهم في الخلافة والإمامة بصبغة شرعية .

وإن عيد الغدير الذى احتفل به المعز ولا يزال الشيعيون يحتفلون به إلى اليوم ، يؤيد النظرية التى يقول أصحابها : إن علي بن أبي طالب ولى عهد الرسول دون سواه ، وإنه كان يجب أن يخلفه فى زعامة المسلمين . ومن ثم يرى الشيعيون أن أبا بكر وعمر وعثمان ، وبني أمية ثم بنى العباس اغتصبوا حق الخلافة من علي وأبنائه (١) . وبذلك عمل المعز على جذب أنصار الخلفاء الراشدين والأمويين ثم العباسيين إلى الدعوة الفاطمية ، وأنه أستطاع التأثير فيهم . وقد عنى المعز بالاحتفال بعيد الغدير عناية فائقة ، وحذا خلفاؤه حذوه فى هذه السبيل ، فأصبح الاحتفال بيوم ١٨ ذى الحجة من كل سنة من أهم الاحتفالات الدينية ، التى كانت تتهز لها جوانب القاهرة فرحا وسرورا ، ويقف منها السنيون موقف المتفرجين المعجبين ، لأنها كانت من عوامل تسليتهم . ويعد عيد

(١) وبرون أن عمر بن الخطاب قال لعلى : .. هنيئا لك يا بنى أبى طالب . أصبحت مولى كل

الغدِير ، كما تقدم ، من أهم أعياد الفاطميين ، فينبى . الإسماعيلية بعضهم بعضا ، وينحرون فيه أكثر مما ينحرون في عيد الأضحى ، لأنهم يفضلون عيد الغدير عليه .

يقول ابن زُولاقي<sup>(١)</sup> : « في يوم ثمانية عشرة من ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثمائة ، وهو عيد الغدير ، تجتمع خلق من أهل مصر والمغاربة ومن تبعهم ، للدعاء ، لأنه يوم عيد ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، عهد إلى أمير المؤمنين على بن أبي طالب فيه واستخلفه ؛ فأعجب المعز ذلك من فعلهم . وكان هذا أول ما عمل بمصر . » . ويقول المسبجى<sup>(٢)</sup> في يوم الغدير هذا : « اجتمع الناس بجامع القاهرة (الأزهر) ، والقراء والفقهاء والمنشدون ؛ فكان جمعا عظيما أقاموا إلى الظهر ، ثم خرجوا إلى القصر ، فخرجت إليهم الجائزة . وبذلك كان اهتمام المعز بهذا اليوم كبيرا ، حتى إنه كان يخرج إلى قنطرة المقس ، ويعرض الأسطول ويعود<sup>(٣)</sup>هذه (٣) ويباركه ويدعوه له .

وهكذا وضع المعز لدين الله خلفائه الأساس الذى يعتمدون عليه في نشر شعائر المذهب الإسماعيلي ، ومن ثم أخذوا ينشرون هذه الشعائر من المساجد التي بنيت بعد وفاته ، وساهم كل من جامع الحاكم ، وجامع راشدة . وجامع المقس مع الجامع الأزهر خاصة ، والجامع العتيق عامة ، في نشر الدعوة الفاطمية .

#### ٤ — الدعوة السرية وأعمال الدعاء :

هذه هي أهم مظاهر الدعوة الإسماعيلية ، كما كانت الدولة الفاطمية تقوم بنشرها في مصر ، منذ فتحت على يد جوهر في سنة ٣٥٨ هـ ، إلى أن سقطت هذه الدولة على يد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧ هـ . والواقع أن هذه التغييرات المذهبية التي كان الفاطميون يحرصون على ترويحها بين السنيين لم تعد أن تكون أمورا شكلية ، لا تستطيع أن تحفظ المذهب الإسماعيلي من مناوأة المذاهب السنية وغيرها من المذاهب . ولكن هل كانت هذه التغييرات الشكلية كل ما كان يسعى إليه رجال الدعوة الفاطمية ؟ نعتقد أن الدعوة الإسماعيلية كانت تنهج في مصر منهجين : منهجا علنيا

(١) نقل عن المقرئى خطط : ج ١ ص ٣٨٨ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٨٨ .

(٣) أى يقرأ الموعودتين .

ومنهجاً سرىاً . أما المنهج العلنى فقد أخذ رجال الدولة الفاطمية على عاتقهم ترويجه بين السنين والإسماعيلية على سواء ، بحيث يرضى الإسماعيلية ولا يثير سخط السنين . وهذا هو ماسلكه جوهر والمعز من إدخال عبارات مذهبية ، حيث يقولون فى الأذان عبارة «حى على خير العمل» ، ويقتنون فى صلاة الجمعة ، ويكبرون على الموقى تكبيرات متفاوتة العدد ، ويدعون من فوق المنابر لآل البيت وللمعز لدين الله ، ويجهرون بالبسملة فى خطبهم وصلاتهم ، ويحتفلون بعيد القدير ، ويوم عاشوراء ، إلى غير ذلك من المسائل التى أشرنا إليها من قبل ، وهى مسائل غير ذات بال إذا ما قوبلت بجوهر المذهب الإسماعيلى .

وفى الحق أن هذا هو أقصى ما تستطيع أن تقوم به دولة شيعية تحكم أغلبية من السنين ، فهى تستطيع أن تنادى بين السنين بمبدأ الإمامة ونظرياته المختلفة ، التى تركز حول تقديس شخص الإمام ، والوصول به إلى مرتبة النبوة أحياناً والألوهية أحياناً أخرى . وليست نظرية التعاليم من الإمام الإسماعيلى ، الظاهر أو المستور ، وتعيين الإمام بالنص ، وغيرها من النظريات الإسماعيلية إلا صدقاً للبادئ الإسماعيلية . كما أن هذه الدولة الشيعية رأت من الحكمة أن لا تنادى بمبدأ الحلول Incarnation أو التناسخ Metempsychosis أو التأويل Interpretation ، الذى اشتهر به الإسماعيلية خاصة ، إلى غير ذلك من المبادئ الإسماعيلية التى ظلت سرا مكتوما لا يعلمه إلا خواصهم من العلماء والدعاة .

والذى يلفت النظر حقاً أن هذه التغييرات الشكائية المذهبية ، هى التى تصدى لذكراها المؤرخون فنسبوها إلى المعز وجوهر . أما المبادئ السرية والدعوة السرية ، فلم يتناولها أحد بالبحث ، بل يكاد المؤرخون يجمعون على أن دراسة مبادئ المذهب الإسماعيلى وأصوله فى مصر ، لم تبدأ إلا فى أخريات عهد العزيز ، وأن مكتبة القصر وغيرها من المكتبات أصبحت غاصة بكتب «الباطن» ، وغدا المستجيبون والدعاة يتناولونها بالبحث والتنقيب ، وأن الخلفاء الفاطميين فتحوا أبواب قصورهم للمؤمنين والمؤمنات (أى الإسماعيلية والإسماعيليات) ، وأصبحت مجالس الدعوة التى يشرف على إعدادها داعى الدعوة ، مثلاً علياً فى الدقة والتنظيم .

وإن دراسة أصول المذهب الإسماعيلي ، والعمل على ترويح الدعوة الإسماعيلية في مصر وغيرها ، وتنظيم طرق الدعوة وتدريبها ، ووضعها تحت إشراف موظفي الدولة ، كداعي الدعوة ومعاونيه - كل هذا كان في مصر في عهد المعز ، على الرغم من أن المؤرخين لم يذكروا لنا شيئا عن عنايته بهذه الناحية .

ذلك أن المعز حين غزت جيوشه مصر ، كان يعلم أنه يحارب العباسيين والقرامطة معا ، وأنه لا يستطيع أن يستغنى عن الدعاية في حرب هاتين القوتين ، ولا سيما جماعة القرامطة الإسماعيلية . ونحن نعلم أن المعز استطاع بفضل دعوته السرية ، ونشاط دعائه الجم ، أن يلتقي بذور الشقاق في صفوف الهيئة الحاكمة من أسرة الجنابي وبين أفراد الشعب القرمطي .

ونحن نعتقد أن المعز لا يستطيع أن يحدث ذلك كله دون أن يعتمد على الدعوة السرية ونظمها الدقيقة ، ولو أنه اعتمد على التغييرات الشكلية الظاهرية وحدها ، لكان ذلك وبالاعلى دولته ومذهبه . وهذا ما يجعلنا نتفق مع بعض المؤرخين الذين يذهبون إلى القول بأن الدولة الفاطمية كانت تنهج في سياستها نهجين ، نهجا يتفق مع سياسة الدولة من التظاهر أمام الناس بأن المذهب الإسماعيلي لا يختلف كثيرا عن المذاهب السنية ، ونهجا آخر يتفق مع سياسة الدعوة لا الدولة ، فيتصل الخلفاء الفاطميون بأشياعهم ، لا برعاياهم ، ويؤكدون لهؤلاء الأشياع أن المذهب الإسماعيلي دين الخاصة ، ويدرسون معهم أصول هذا المذهب في شيء من الحرية والصراحة ، عن طريق دراسة كتب الباطن والوقوف على أسرار المذهب الإسماعيلي .

وليس هذا فقط ، فإن المعز لدين الله كان يروج أصول المذهب الإسماعيلي وهو بإفريقية ، من مساجد المنصورية ومن قصور الخلافة فيها ، عن طريق النعمان المغربي قاضي قضاته وكبير دعائه ، كما كان يذيع أصول هذا المذهب ، عن طريق منشوراته أو محاضراته ، التي كان يكتبها بنفسه ويذيلها بتوقيعه ، ويسلها إلى النعمان ، ليقرأها على الناس . وكثيرا ما كان المعز ، يرسل منشوراته إلى بلاد المشرق واليمن وسواها ، كما رأيناه بأمر كبير دعائه أبا حنيفة النعمان أن يقرأ كتب الباطن على المستجيبين .

وكان الإقبال على سماع هذه الكتب الباطنية عظيما ، حتى إن أهباء قصر الخليفة لم تعد تسع المستجيبين . فإذا كان ذلك ما أحدثه المعز في سبيل النهوض بالدعوة وهو بالمغرب ، فكيف نستطيع أن نفسر تقاعده عن النهوض بها في مصر ؟ الحق أن المعز لم يتقاعد عن نصره هذه الدعوة ، وإلا هدم دولته ومذهبه ، وقضى على نفسه بنفسه ؛ لأن الدولة الفاطمية إنما قامت على الدعوة الإسماعيلية ، التي لا تزال تغذى الدولة بالمبادئ التي تمد في حياتها ، وتمنحها الحيوية والقوة والنفوذ . وهكذا لم يكن بد من أن يعتمد المعز على الدعوة السرية ، وأن يعين لها في مصر دعاة يقومون على نشرها ، كما فعل هو في بلاد المغرب ، وكما فعل آباؤه من قبل .

وإذا علمنا أن القاهرة بأسوارها ومساجدها وقصور الخلافة فيها ، التي لا يدخل إليها إلا الإسماعيلية ، تستطيع أن تغذى الدعوة الإسماعيلية بالسرية المحكمة ، وأن غير الإسماعيلية لا يستطيعون أن يدخلوا هذه المدينة أو ينفذوا إلى قصور الخلافة فيها ، لسماع مجالس الدعوة - إذا علمنا هذا ، أدركنا أن المعز قد حاط دعوته في مصر بسياس محكم من السرية ، وأنه قد تعذر على كثير من المؤرخين أن يعرفوا شيئا عن جهود هذا الخليفة في ترويج هذه الدعوة السرية في هذه المدينة ومساجدها وقصورها . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فنحن نعلم أن المعز لدين الله أحضر معه إلى مصر كل شيء يمت إلى الدعوة والمذهب بسبب ، وبخاصة تلك الكتب التي تتناول أصول المذهب الإسماعيلي . ولما كانت مكتبة قصر المعز بالمنصورة مملأة بهذه الكتب ، فلا يعقل أن يتركها هذا الخليفة بالمنصورة ، دون أن يحضرها معه إلى القاهرة . أضف إلى ذلك أن الخلفاء الفاطميين عامة كانوا يعنون عناية بالغة بالكتب الباطنية التأويلية ، حتى إن المهدي قال حين استرد القائم بعض كتبه ، التي كانت قد سرقت منه وهو في طريقه إلى المغرب : لو أن غزوة القائم على مصر (٣٠٠-٣٠١هـ) لم تتمخض إلا عن استرداد هذه الكتب لعد ذلك نجاحا كبيرا .

وإذا علمنا أن المعز كان أكثر شغفا بالكتب ممن جاء قبله من الخلفاء الفاطميين ، أدركنا كيف ملأ مكتبة قصره في القاهرة بهذه الكتب التأويلية ، أو على الأقل كيف وضع نواة طيبة لمكتبات القاهرة التي فاقت جميع مكتبات العالم الإسلامي في ذلك الحين ، كما أدركنا أن الأدب الإسماعيلي ظل رائجاً في مصر ،

في عهد المعز ، كما كان في بلاد المغرب بن قبل (١) .

ومما يجعلنا نميل إلى هذا الاعتقاد ، أن المعز كان يروج مبادئ المذهب الإسماعيلي سرا في القاهرة ، وأنه لذلك صحب معه النعمان المغربي ، قاضي قضائه وداعى دعائه في المغرب ، وأبناءه ، وكانوا جميعا من كبار رجال الدعوة والقضاء والأدب . وكان المعز لدين الله يرى من وراء إحضار النعمان وأبنائه إلى مصر إلى ، الاستعانة به في النهوض بالدعوة السرية فيها ، كما نهض بها في المغرب ، والاستفادة من كفايتهم العلمية والقضائية . ولما كانت النهضة الأدبية التي حاول المعز بعثها في مصر تقتضى أن يكتم عن رعاياه أسرار المذهب الذي يدعو إليه ، ظهرت جهود بيت النعمان في الناحية القضائية ، واختفت في الناحية الأدبية في عهد ذلك الخليفة . ونستطيع أن نقول ، إن النعمان رسم خطة النهوض بالدعوة السرية والأدبية ، ولكنه لم يتمتع بشهرة جهوده ، لأنه مات بعد أن وصل إلى مصر بسنة واحدة (٣٦٣ هـ) .

ولهذا فإن جهود المعز في النهضة الأدبية للدعوة قد تجلت قبل وفاته ، وأن هذه النهضة قامت على أكتاف بيت النعمان ؛ ففرى القاضي على بن النعمان يجلس بالجامع الأزهر في أوائل سنة ٣٦٥ هـ ، ويشرح كتابه الاقتصار ، الذي وضعه أبوه ، ويمليه على الناس . ويشتمل هذا الكتاب على مسائل فقهية استمدتها من أئمة أهل البيت . ونعتقد أن الذين كانوا يحضرون لسماع هذه المحاضرات من الشيعة ، أو على الأقل من المستجيبين ، لأن الدولة الفاطمية كانت تتم بمؤلاها وتفيد أسماءهم في سجلات خاصة (٢) . ولا غرو فقد كان الإقبال على سماع فقه أئمة أهل البيت عظيما حقا .

وعلى الرغم من أن على بن النعمان لم يلقب بلقب داعى الدعوة ، بل بلقب قاضي القضاء ، كان يقوم منذ عهد المعز بأعباء داعى الدعوة ، ذلك اللقب الذي لقب به

(١) كان المعز وهو في القاهرة يرى أن يتنافس عباؤه بنداوا وقرطبة.

(٢) يقول المقرئى (خطوط ج ٢ ص ٢٤١) : .. في صفر سنة خمس وستين وثلثمائة ، جلس على ابن النعمان القاضي بجامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر ، وأمل معتصر أيه في الفقه من أهل البيت ، ويعرف هذا المختصر بالاعتصار ، وكان جمعا عظيما ، وأثبت أسماء الحاضرين ، ..

أخوه وخليفته أبو عبد الله محمد بن النعمان<sup>(١)</sup>، الذي كان يجلس لتدريس فقه الأئمة في الجامع الأزهر . كما أعد له المعز وابنه العزيز في قصر الخلافة مجلسا يلقي فيه محاضرات في أصول المذهب الإسماعيلي . يدل على ذلك ما ذكره المسبحي عن محمد ابن النعمان داعي دعاة الإسماعيلية من أنه في سنة ٣٨٥ هـ جلس على كرسي بالقصر لقراءة علوم آل البيت ، على الرسم المعتاد المتقدم له ولأخيه<sup>(٢)</sup> بمصر ، ولأبيه<sup>(٣)</sup> بالمغرب<sup>(٤)</sup> .

وإذن كانت في قصور الخلافة مجالس للدعوة تلتقي فيها المحاضرات منذ عهد المعز ، ولا بد أن يكون هذا الخليفة قد سن لبنت النعمان ذلك النظام الذي نراه سائدا في عهد خلفائه ، وحيث كان الداعي يواصل الجلوس بالقصر لقراءة ما يقرأ على الأولياء ... فكان يفرد للأولياء مجلسا ، وللخاصة وشيوخ الدولة ومن يختص بالقصور من الخدم وغيرهم مجلسا ، ولعوام الناس وللطارئين على البلد مجلسا ، وللنساء في جامع القاهرة الجامع الأزهر مجلسا ، وللحرم وخواص نساء القصور مجلسا<sup>(٥)</sup> .

ولسنا بصدد تقصى نهضة الدعوة السرية والأدبية في عهد الفاطميين عامة ، وإنما نريد أن نقول ، إن المعز وضع في مصر أصول الدعوة السرية والظاهرية ، وإن خلفاه تعهدوها ، فتمت نمو مطردا . ويكفي المعز نفرا أن الدعوة أنجبت في عهده رجلين بعثا أدب الإسماعيلية بعثا جديدا ، وكان لتآليفهما أثر كبير في نشر الدعوة الإسماعيلية في الشرق والغرب ، ولا تزال آثارهما باقية بين أيدينا إلى اليوم ، تشهد بعلو كعبهما في عالم الدعوة والفقه والأدب . هذان هما أبو حنيفة النعمان المغربي ، وجعفر ابن منصور اليمن . وبما يمتاز به هذان العالمان أن مقرهما كان بحاضرة الدولة الفاطمية ، وأنهما كانا ينتقلان من حاضرة إلى أخرى ، فعاشا في المهديّة ، ثم في المنصورية ، فالقاهرة ، وقاسما الخلفاء الفاطميين مر الحياة وما فيها من نصر وظفر .

(١) الكندي : كتاب الولاية وكتاب القضاة ص ٥٩١ .

(٢) يقصد على بن النعمان أبا محمد بن النعمان هذا .

(٣) يقصد بأخيه النعمان نفسه .

(٤) المقرئ : خطط ج ١ ص ٣٩١ .

(٥) المصدر نفسه .

أبو حنيفة النعمان<sup>(١)</sup> (٥٣٦٣ = ٩٧٣ — ٩٧٤ م)

ينتمي أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله بن محمد بن أحمد بن حيون إلى قبيلة تميم .  
ويسميه الإسماعيلية « سيدنا القاضي النعمان » ليميزوا بينه وبين أبي حنيفة النعمان ،  
صاحب المذهب الحنفي المشهور . كما يسمونه أحيانا باسم « سيدنا الأوحده » ، وأحيانا  
« القاضي الأجل » ؛ ويعرف عندهم أيضا بأبي حنيفة الشيعة<sup>(٢)</sup> .

عاصر أبو حنيفة الفاطميين في المغرب ، واعترف غير مرة أنه دخل في خدمة  
عبيد الله الفاطمي حول سنة ٣١٣ هـ (٩٢٠ م) . وكان النعمان مالكي المذهب كسائر  
أفراد أسرته ، ثم انتحل المذهب الإسماعيلي فأخلص له . وكان عمله الرئيس في أيام  
المهدي والقائم والمنصور مقصورا على الجمع والحفظ ونشر الكتب الخاصة بالمذهب  
الإسماعيلي ، كما تولى القضاء في طرابلس في أيام القائم ، واتخذ المنصور والمعز قاضيا  
لها . ولما جاء مصر كان أحد أبنائه يتقلد منصب القضاء . وعلى الرغم من بقاء أبي  
طاهر القاضي السنّي في منصبه كانت رئاسة القضاء الفعلية في أسرة النعمان .

ويعد النعمان من أهم دعائم الدعوة الإسماعيلية . ويذهب الداعي إدريس عماد  
الدين إلى أن النعمان كان مشرعا ، وأنه كان دعامة من دعائم المذهب الإسماعيلي .  
وعلى الرغم من أن كتاب « العيون » للداعي إدريس لم يذكر رتبته في الدعوة ، فإنه  
من الراجح جدا أن يكون قد وصل إلى رتبة الحجّة<sup>(٣)</sup> ، وربما كان ذلك راجعا إلى  
أنه اشتغل بالقضاء . ويقول ابن خلكان<sup>(٤)</sup> عن النعمان : « قاضيه الواصل من  
المغرب معه ، أبو حنيفة النعمان بن محمد الداعي » . والحق أن أبا حنيفة النعمان كان  
رئيسا للقضاء ، كما كان داعيا .

أما نشاطه في التأليف فإنه لا يحد ، ولا غرو ، فقد أفاد الدعوة الإسماعيلية بكثرة

(١) انظر له أحمد شرف : تاريخ الإسماعيلية السياسي (مخطوط) ج ١ ورقة ٢٨٣ — ٢٨٥ .

(٢) Fayzee : The Ismailian Law of Mut'a (J. B. B. R. A. S.)

1929) p. 85.

(٣) Fayzee : Kadi an-Numan (J. R. A. S., 1934), p. 12.

(٤) وفیات الأعيان ج ٢ ص ١٥٦ .



مؤلفانه في الفقه الإسماعيلي ، وفي المناظرة ، والتأويل ، والعقائد ، والسير ، والتاريخ ،  
والموعظ ، وغير ذلك . ومن الثابت أن النعمان ألف بضعة وأربعين كتابا ، بقى  
منها حتى اليوم نحو عشرين كتابا ، وضاع الباقي .

وأهم هذه الكتب جميعا كتاب «دعائم الإسلام» ، واسمه الكامل «دعائم  
الإسلام» ، في ذكر الحلال والحرام ، والقضايا والأحكام . ويتناول الكلام على فقه  
الإسماعيلية ، ويقع في مجلدين ضخمين ، يشتمل كل منهما على سبعمائة صفحة . ويعتز به  
البهرة اليوم في اليمن والهند . ويذهب الداعي إدريس في كتابه «العيون» ،  
إلى القول بأن المعز هو الذي حث النعمان على تأليفه ، وكان قد مثل بين يديه  
مع كثير من الدعاة ، فتناولوا الكلام على الأحاديث الموضوعية ، والاختلاف في  
الرواية ، فذكر لهم المعز الحديث المشهور : «إذا ظهرت البدع في أمة ، فليظهر  
العالم عليه ، وإلا فعليه لعنة الله» . ونظر المعز لدين الله عليه الصلاة والسلام إلى  
القاضي النعمان بن محمد ، رضوان الله عليه ! فقال : أنت المعنى في هذه الأوراق  
يانعمان ، ثم أمر بتأليف «دعائم الإسلام» وأصل أصوله ، وفرع فروعه ، وأخبره  
بصحيح الروايات عن الظاهرين من آباءه عن رسول الله ﷺ (١) .

ويعد كتاب الدعائم أهم المراجع في فقه الإسماعيلية . وقد استغل النعمان ميوله  
المذهبية في تأليف هذا الكتاب ، حتى إننا نراه يزيد قواعد الإسلام ، فيجعلها سبعا ،  
ذلك العدد الذي يفضله الشيعة عامة ، فيضيف «الولاية» ، وهي حب أهل البيت ،  
ثم «الطهارة» ، إلى القواعد الخمس المعروفة عند السنيين (٢) .

وقد أخذ دعاة الإسماعيلية يرجعون إلى كتاب الدعائم في أحكامهم ، كما  
أخذ الخلفاء الفاطميون يشجعونهم على ذلك . فقد أرسل الخليفة الحاكم (٤١١هـ) في ذي  
القعدة من سنة ٣٩١ هـ (أكتوبر سنة ١٠٠١ م) إلى هارون بن محمد داعية في بلاد  
اليمن ، رسالة جاء فيها : «ولتكن فتواك للمستفتين في الحلال والحرام من كتاب

(١) عماد الدين إدريس : عيون الأخبار (المجلة الآسيوية المسكية سنة ١٩٣٤ ، ص ٢٢) .

(٢) H. Hamdani : (J.R.A.S., 1933), p. 369.

دعائم الإسلام دون سواه من الكتب المتنفّلة<sup>(١)</sup>، كما نهج الوزير يعقوب بن كلس في كتابه، ومصنف الوزير، منهج كتاب الدعائم. وأطنب الدعاة المتأخرون في مدح هذا الكتاب، فذكره «حميد الدين الكرماني»، داعي الحاكم في فارس، في كتابه «راحة العقل»، وأشاد به حتى جعله في المرتبة التي تلي القرآن والحديث. وكان المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي يقرأ كتاب الدعائم في مجالسه التي كان يلقيها على أبي كاليبجار البويهسي. وفي ذلك يقول المؤيد<sup>(٢)</sup> «وكان بناء المجالس التي تعقد بمحضرة في ليالي الجمع على أن يتبدى بقرأة شيء من قوارع القرآن، ويثنى من كتاب دعائم الإسلام».

وقد ترك النعمان المغربي في مؤلفاته الرائعة الكثيرة ثروة ثمينة. وعلى الرغم من ضياع كثير من مؤلفاته، لا يزال أكثر ما بقي منها في حوزة البهرة، وقد أفاد الإسماعيلية كثيرا من هذه المؤلفات. ولا غرو، فإن النعمان ضرب بسهم في جميع نواحي النشاط العلمي. ومن أهم كتبه، كتاب «الإيضاح»، وكان مطولا جدا، حتى قيل إنه شغل مائتين وعشرين كراسة، وقد وصفه بقوله:

وجئتُ بالشاهد والبرهان      لثابت القول مع التبيان  
من بعد ذكرى عند كل مسألة      ما جاء منها باختلاف النقلة  
بذكر نقلها من الكتاب      نصّا وبالإسناد والأنساب  
بغير ما رأي ولا قياس      إلا على المثبت في الأساس  
تكلمت في مائتي كتاب      تزيد عشرين على الحساب<sup>(٣)</sup>

ومن كتب النعمان: كتاب «النبوع»، وكتاب «مختصر الآثار»، وكتاب «الطهارة». ومن كتبه الفقهية التي لعبت بها يد الدهر: كتاب «مختصر الإيضاح»، وكتاب «كيفية الصلاة»، وكتاب «منهاج الفرائض» وغيرها.

(١) أي الزائدة والدخيلة.

Fayzee : Cadi An-Numan (J.R.A.S., 1934), p. 23.

(٢) السيرة المؤيدية ص ٦٢.

Hamdani : Some Unknown Ismaili Authors (J.R.A.S., (٣)

1933), p. 369.

وبما يؤسف له أنه لم يثر للنعمان على كتاب واحد من كتب المناظرة التي ألف فيها « الرسالة المصرية » في الرد على الشافعي ، و « الرسالة ذات البيان » في الرد على ابن قتيبة ، وكتاب في الرد على أحمد بن سريج البغدادي ، وكتاب « اختلاف أصول المذاهب » .

وقد بقي للنعمان من كتب التأويل كتاب « أساس التأويل » ، وكتاب « تأويل الدعائم » . وضاع من كتبه في هذه الناحية كتاب « نهج السبيل » ، إلى معرفة علم التأويل .

وبما خلفه النعمان من كتب العقائد : كتاب « القصيدة المختارة » ، وكتاب « الهمة » ، وستناوله في شيء من التفصيل . أما المؤلفات المفقودة في العقائد ، فمن أشهرها كتاب « الدعاء » ، وكتاب « الشروط » ، وكتاب « التعاقب والانتقاد » ، وكتاب « الحلل والثياب » .

أما كتبه في الأخبار والسير ، فقد بقي منها كتاب « شرح الأخبار » ، وقد ضاعت الأرجوزة المسماة « ذات المن » ، والأرجوزة المسماة « ذات المحن » . ومن أشهر كتبه التاريخية : « افتتاح الدعوة الزاهرة » ، وهو من الكتب الخطية المحفوظة بمكتبة جامعة فؤاد الأول بالقاهرة . وقد اقتبس منه المقريزي وغيره من المؤرخين ، وكتاب « مناقب بني هاشم » ، ولم يقف الناس له على أثر .

ومن مؤلفاته في الوعظ ذلك الكتاب الممتع « المجالس والمسائرات » ، الذي سنتكلم عليه فيما بعد ، وكتاب « معالم الهدى » ، و « الرسالة إلى المرشد الداعي بمصر في تربية المؤمنين » ، وقد ضاع كل منهما للأسف .

ومن الكتب التي تنسب إليه بلا مراء كتاب « تأويل الرؤيا » ، وكتاب « منامات الأئمة » ، وكتاب « التفریح والتصنيف » ، وكتاب « مفاتيح النعمة » ، وقد ضاعت كلها ، كما ضاع من كتبه في الحقائق كتاب « حدود المعرفة » ، وكتاب « في الإمامة » ، وكتاب « إثبات الحقائق » ، وكتاب « التوحيد والأمانة » .

ومن الكتب التي تنسب إلى النعمان ولم تثبت صحة هذه النسبة بعد : كتاب « تقويم الأحكام » ، وكتاب « الراحة والتسوية » ، وكتاب « سيرة الأئمة (١) » .

ومما يمتاز به تأليف النعمان ، عدم الإغراق في التأويل الذي نلسه في تأليف زميله  
جعفر بن منصور المين ، ذلك التأويل الذي اشتهر به دعاة الإسماعيلية في الدور القداحي ،  
أو دور الستر ، وقد أسرف في هذه الناحية دعاة الإسماعيلية في بلاد فارس خاصة .  
ولا عجب في ذلك فقد كان أبو حنيفة النعمان يخاطب عقولا لا تدرك جوهر الفلسفة  
الإسماعيلية ، ولذلك يعتبر من هذه الناحية خير من يمثل المدرسة الإسماعيلية القديمة ،  
التي التزمت عدم إثارة شعور الرعايا السنيين على الحكم الفاطمي .

ولنلق نظرة عاجلة على مؤلفي النعمان القيمين : « المجالس والمساربات »  
و « الهمة وفضل الأئمة » ، لتبين إلى أي حد أصاب النعمان من توفيق في الناحيتين  
المذهبية والأدبية :

فكتاب « المجالس والمساربات » يشمل ثلاثة مجلدات ، إلا أنه ينقسم قسمين :  
يطلق على القسم الأول منهما ، اسم « النصف الأول » ويشمل « المجلد الأول »  
وهو في ٣٧٣ صفحة . أما القسم الثاني ، فيشتمل على مجلدين يكونان « النصف الثاني » ،  
ويشغلان ٦٧٢ صفحة .

ويعد كتاب « المجالس والمساربات » خير ما ألف في وصف حياة الخلفاء  
الفاطميين في الدور المغربي ؛ فقد تناول فيه مؤلفه حياة الخلفاء الأربعة ، وهم المهدي  
والقاسم ، والمنصور ، والمعز خاصة . ولذلك يعد هذا الكتاب أحسن مرجع  
لتاريخ الخلفاء الفاطميين في الدور المغربي . ولا نستطيع أن نجد مرجعا آخر تناول  
الحياة الاجتماعية الفاطمية في عهد المعز خاصة . ومن هذا الكتاب نستطيع أن نقف  
على شيء غير قليل عن حياة الخلفاء الخاصة ، وعن وصف قصورهم ، وأوقات فراغهم .  
وقد أمدنا هذا المؤلف القيم بوثائق ذات قيمة تاريخية كبيرة ، عن نظام الحكم في  
عهد المعز . فمن نصائح يسديها المعز للولاة والحكام والقضاة ، إلى أعمال يقوم بها  
هذا الخليفة . ومنه نقف على مدى اعتماد المعز على الكتاميين في نواحي النشاط في  
دولته ، كما تعرض النعمان لاستقصاء أحكام الأئمة من أهل البيت ، مثل جعفر الصادق  
وأبيه محمد الباقر ، وجددهما على بن أبي طالب ، إلى غير ذلك . ناهيك عن رده القوى  
على أعداء المذهب الإسماعيلي . ومهما يكن من شيء ، فإن كتاب المجالس والمساربات  
يكشف لنا عن مقدرة النعمان القضائية والفقهية ، ويبين في الوقت نفسه أن المعز

لدين الله كان - على الرغم من صغر سنه - أستاذا لهذا العالم العبقري ، كما يعد بحق من نوابغ علماء عصره .

ويعتبر كتاب «المجالس والمسائرات» من أهم المراجع التاريخية المعاصرة للمعز ؛ فقد تناول في إسهاب علاقة المعز بالأمويين في الأندلس ، وشرح أسباب العدماء الذي قام بينهم وبين الفاطميين ، ووازن بين قوة كل من هذين الفريقين ، وكشف عن مخاوف الخليفة الناصر الأموي من أساطيل المعز ، وخوفه على عرشه من أن يقع في أيدي الفاطميين . كما تكلم على الحملات البحرية التي شنّها المعز على الناصر وخلفائه ، وعرض لجهود الأمويين في إفريقية . ولأول مرة في تاريخ الأندلس ، يتصل عبدالرحمن الناصر الأموي بالمعز ، يتزلف إليه تارة ، ويهدده تارة أخرى . وتعتبر الرسائل التي تبودلت بين الفريقين من أحسن ما كتب في الأدب والمنطق ، لما اشتملت عليه من الحجج والبراهين ، في الإثبات والنفي وما إلى ذلك .

وعرض النعمان غير مرة لعلاقة المعز بالدولة البيزنطية ، فأوضح اعتماد الناصر الأموي على الروم في صراعه مع الفاطميين ، وصوّر ما حل بهؤلاء الروم وحلفائهم أمام أساطيل المعز تصويراً رائعاً ، وذكر الرسائل التي بعث بها أباطرة الدولة الرومانية لاستدراج عطف المعز ومهادنته .

ولأول مرة نسمع أن مسلمي جزيرة إقريطش ( كريت ) الذين كانوا تحت حكم العباسيين ، يطلبون النجدة والمساعدة من المعز لدين الله على حرب الروم . ومن دراستنا للوثائق التي تبودلت بين أهل إقريطش المسلمين وبين المعز لدين الله ، نرى مدى ما وصلت إليه الدولة الفاطمية من قوة ونفوذ .

وبصوّر كتاب «المجالس والمسائرات» موقف المعز لدين الله من صاحبي بجلاسة وفاس ، بما لا يختلف مجال من الأحوال عما ذكره المؤرخون السنيون ، فيبين الأسباب التي أثار غضب المعز على صاحب بجلاسة ، ويذكر أن ذلك الغضب كان راجعاً إلى تلقيه نفسه بألقاب الخليفة المعز ، ومنها لقب «أمير المؤمنين» ، كما يعرض لرحلة جوهر الصقلي الكبير على بلاد المغرب ( ٥٣٤٧ هـ ) عرضاً يدل على صدق الرواية وتحري الحقيقة .

ومن دراسة كتاب «المجالس والمسائر» ، نرى كيف كان المعز يرنو ببصره إلى بلاد المشرق ، ويعد العدة لإخضاعها ، ويمنى أنصاره بامتلاك الشام ، إلى غير ذلك . وليس هذا وحده ، فقد عرض هذا الكتاب لمسألة نسب الفاطميين ، وأمدنا بوثيقة جاءت على لسان المعز نفسه ، ومنها ندرك أن الخليفة القائم كان من بيت غير بيت عبيد الله المهدي . وهذا يتفق مع ما ذهبنا إليه في كتابنا «عبيد الله المهدي»<sup>(١)</sup> . أما من الناحية المذهبية فإن كتاب «المجالس والمسائر» يعد أهم كتب الدعوة الإسماعيلية ، لأن مؤلفه النعمان استمد مادته من الإمام المعز الخليفة الفاطمي ، وقد عدّه أنصار المذهب الإسماعيلي من أهم مراجعهم الدينية ، ولا يزالون على ذلك إلى اليوم . وقد أفدنا من هذا الكتاب فائدة كبيرة ، فيما ذكرناه عن اهتمام المعز بترويج الدعوة الإسماعيلية ومبادئها .

وإن كتاب «المجالس والمسائر» قطعة أدبية رائعة ، يمتاز بأسلوب رقيق سهل ، كما يمتاز بانسجام ألفاظه ومعانيه . ولا غرو فقد سمعه النعمان عن الخليفة المعز تابعة عصره علما وأدبا ، ودبجه بأسلوبه القوي الجذاب .

وصفوة القول أن هذا الكتاب مرآة صادقة للأدب الإسماعيلي والعقائد الإسماعيلية ، ولا يستغنى عنه الباحثون في تاريخ الفاطميين في الدور المغربي بوجه عام ، وفي عهد المعز بوجه خاص .

أما كتاب «الهمة وفضل الأئمة» ، فيتكون من جزأين ، يشغل أولهما ٤٦ صفحة (ص ١-٤٦) ، ويشغل ثانيهما ٤٦ صفحة (ص ٤٦-٩٢) . وقد قسم المؤلف الجزء الأول إلى ثمانية فصول ، والقسم الثاني إلى أحد عشر فصلا . وترجع أهمية هذا الكتاب الذي كان يعد من الكتب المفقودة حتى سنة ١٩٣٤ ، إلى أنه من أقدم المراجع التي تمثل الأدب الإسماعيلي في عصوره الأولى أصدق تمثيل ، كما يعد من أقدم كتب الإسماعيلية التي وضعت بقصد تربية أفراد هذه الطائفة ، وتدريبهم على التفاني في الإخلاص لمبادئها .

(١) انظر ص ١١ - ١٣ من هذا الكتاب ، ص ١٦٥ - ١٦٩ من كتاب «عبيد الله

المهدي» ، للمؤلفين .

ويتناول هذا الكتاب بسميه الحدود الدينية ، ويهتم اهتماما خاصا بشرح واجبات الأتباع نحو رؤسائهم المباشرين ، وهم الدعاة ، ونحو الأئمة . كما يشرح واجبات المستجيبين بعضهم نحو بعض ، ويرسم لهم الخطط التي يجب عليهم أن يسلكوها في حياتهم . فتراه يعقد الفصل الثالث من الجزء الثاني (١) لنهى أتباع الأئمة عن الحسد والبغى والشراء والحقد وسوء الظن ، . ويقصر الفصلين الرابع (٢) والخامس (٣) من هذا الجزء على « ذكر الأمر لاتباع الأئمة بالتواضع لله تعالى ولهم ( أى للأئمة ) ، وإطراح ( أى ترك ) الكبر والأنفة ، وإعطاء الحق الذى يلزمهم ، و ذكر الأمر لاتباع الأئمة بالحلم والعمو والوقار والسكينة ، . وأهم من ذلك أن مؤلفه يعمل على تأليف قلوب الأتباع على ما نراه فى الفصل السادس (٤) ، ويختص بما « ينبغى لاتباع الأئمة فيما بينهم من التعاطف والتواصل والتواد والتبادل ، .

ويهدف كتاب المهمة إلى جذب المستجيبين إلى أمتهم ؛ فيشيد بفضل الأئمة الإسماعيلية كافة ، ويبين حاجة العالم (٥) إليهم فى عبارات خلاصة تصل إلى سويداء القلوب . ويحث على المستجيبين وجوب « الوفاء بعهود الأئمة ورعايتها ، وتذكار ما أخذ لهم منها (٦) ، ، ويبين للاتباع أن اتصالهم بالأئمة والجهاد معهم ، جهاد فى سبيل الله (٧) . ويعد كتاب المهمة من أهم وأقدم كتب الاشتراع المالى عند الإسماعيلية ، فبنى مؤلفه اشتراعه المالى على أسس مستمدة من القرآن الكريم ، تحمل المستجيب على أن يؤدى الأموال للإمام وهو طامع مختار . ولذلك خصص النعمان الفصل السادس (٨) من الجزء الأول لما « يجب للأئمة الصادقين أخذه من أموال المؤمنين والمؤمنات ، . ونراه يقرر

(١) كتاب المهمة ج ٢ من ٥٢ - ٥٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٥ - ٥٦ .

(٣) المصدر نفسه ص ٥٦ - ٥٧ .

(٤) المصدر نفسه ص ٥٧ - ٨٠ .

(٥) اسمى الفصل الأول من كتاب المهمة ، فى وجوب طاعة الأئمة ، ( ص ٨ - ١٣ ) .

(٦) وهو عنوان الفصل الثالث من الجزء الأول ص ١٣ - ١٩ .

(٧) كتاب المهمة ج ١ ص ٢٤ - ٣٠ .

(٨) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٠ - ٣٧ .

على الاتباع وجوب دفع خمس أموالهم لإمامهم ، معتمدا في ذلك على بعض الأحاديث النبوية ، وأحاديث الأئمة ، إلى أن يقول : « فاعلموا أيها المؤمنون — كما علمكم الله — وأن ما غنتم من شيء . أي كسبتموه ، « فأن لله خمسة ، تقربون به إليه ، و « الرسول » ، تدفعونه إلى إمام عصركم ، ثم إليه الأمر فيه ، وفيما يعطى منه فقراء أهل بيته ویتامهم وأبناء سبيلهم» (١) . وهذا يفسر قوله تعالى : « واعلموا أنما غنتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » (٢) . ويؤكد في شرحه وجوب دفع الخمس لإمام الزمان ، لأنه هو الذي حل محل الرسول ﷺ بعد موته ، كما يفسر اعتماد الأئمة الإسماعيلية على قرابتهم من الرسول ، ومحاربتهم العباسيين من هذه الناحية ، فيقولون إنهم أحق بوراثته الرسول من العباسيين ، لأنهم أهل بيته المقربون . ولم يكتف النعمان بحمل الاتباع على دفع خمس أموالهم للأئمة ، بل حتم عليهم دفع زكاتهم إلى هؤلاء الأئمة . انظره يقول : « فعلى جميع المؤمنين أن يدفعوا خمس ما غنموه في كل عصر ، إلى إمام ذلك الزمان ، من أهل بيت رسول الله ﷺ ، كما أمر الله عز وجل ، مع زكاة أموالهم (٣) » .

ولكى يربط النعمان بين الاتباع والخلفاء ، عقد عدة فصول ، أشاد فيها بالأئمة ، وحتم على الاتباع تقديسهم ، والتأديب في طلب الخواص منهم (٤) ، شارحا طرق توصيل دعاويهم إلى أئمتهم . وينهى الاتباع « عن إنكار أفعال الأئمة » ، ويأمرهم « بتلقيها عنهم بالقبول » ، كما يأمر الأشياخ « بتحرى ما وافق الأئمة صلوات الله عليهم (٥) » . وبهذا وضع النعمان دستور المذهب الفاطمي ، الذي يجب على المؤمنين (الإسماعيلية) أن يسيروا على هديه مع أئمتهم .

من ذلك نخلص إلى القول بأن المعز قد أفاد من مؤلفات رجال دعوته ، وبخاصة

(١) كتاب الهمة ص ٢٣ .

(٢) سورة الأنفال آية ٤١ .

(٣) النعمان : كتاب الهمة ج ١ ص ٢٢ .

(٤) انظر الفصل الثامن من الجزء الثاني . من كتاب الهمة ج ٢ ص ٧٨ - ٨٠ .

(٥) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٠ - ٨٤ .



تلك المؤلفات التي يحاول أصحابها ربط الأشيع بإمامهم الخليفة الفاطمي . وبعد كتاب الهمة من الكتب النادرة ، التي ضربت بسهم في تدعيم أواصر المحبة والوفاء بين رياسة الدعوة في المنصورية ثم في القاهرة ، وبين الاتباع في سائر أرجاء العالم الإسلامي .

هذا وقد اهتم النعمان اهتماما بالغا بتحديد العلاقة بين الدعاة ومستجيبهم من جهة ، وبينهم وبين الأئمة من جهة أخرى ؛ فوضع الخطوط الرئيسة التي يجب على الدعاة أن يسلكوها في جذب الأشيع ، وحثهم على التجمل بالصفات الطيبة ، كالورع والتقوى والصلاح والعفاف ، لكي يكون تأثيرهم في النفوس كبيرا . وكذلك بين النعمان في كتابه كيف يختار الدعاة مستجيبهم ، فألزهم أن يدرسوا حالة الاتباع النفسية والعقلية دراسة وافية ، حتى يوصلوا إلى عقولهم المعارف التي يستطيعون تمثيلها وفهمها . كما ينصح النعمان جماعة الدعاة بالتقرب إلى المدعويين ، فيجعل الداعي من نفسه للبريدن أبا وأخا ومعلما ، ويشير على الداعي بأن يقرب إليه من حسنت نيته ، وصفت سريرته ، دون اعتبار للجاء أو المال . « فإن التقرب على الدين والتفضيل به ، والترفع لأهله ، أقرب سببا إلى اغتباط الناس به ، ودخولهم فيه ،<sup>(١)</sup> كما يظهر أمامهم بمظهر الهيبة والوقار ، مع لين الجانب ، وحسن الصمت ، وقلة الكلام ، مستشهدا بقول جعفر الصادق : اطلبوا العلم ، وتزينوا معه بالوقار والحلم ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه ، ولمن تعلمونه . ولا تكونوا علماء جبارين ، فيذهب باطلكم بحقكم ... من طلب العلم ليدافع به العلماء ، ويمارى به السفهاء ، أو ليصرف به وجوه الناس إليه ، ويتكبر عليهم ، فليتبوأ مقعده من النار ، إن الرياسة لا تصلح إلا لأهلها<sup>(٢)</sup> . »

وكذلك يحتم النعمان على الدعاة أن يكونوا قضاة نزيهين ، يحكون بين المستجيبين بالقسطاس المستقيم ، جاعلين نصب أعينهم صلاح أحوال الأشيع . ولهذا قصر المؤلف الفصل العاشر من الجزء الثاني<sup>(٣)</sup> على « ذكر ما ينبغي لمن استرعى أمر رعايا

(١) النعمان : كتاب الهمة ج ٢ ص ٨٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٩ - ٩٠ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٤ - ٨٨ .

الآئمة ، من السير بالعدل فيمن ولوا أمره من الآئمة .  
وهكذا كان للنعمان أثر لا يعدله أثر في النهضة الثقافية للدعوة ، وحق للعلماء أن  
يسموه والمشرع الإسماعيلي . ولا غرو فقد كان ساعد المعز الأيمن ، ولسانه الناطق ،  
واستحق بهذا كله أن يتربع على عرش الدعوة الإسماعيلية في المغرب ، وأن يورث  
أبنائه هذه الزعامة في مصر ، حيث توفي في شهر جمادى الآخرة سنة ٥٣٦٣ هـ ، وصلى  
عليه المعز لدين الله .

### جعفر بن منصور اليميني<sup>(١)</sup> :

اشتهر جعفر بن المنصور ( بن حوشب ) منذ نعومة أظفاره بحب الفاطميين ،  
واختلف مع أخيه أبي الحسن بن منصور ، الذي ثار على الخليفة المهدي في أخريات  
حياته . وغادر جعفر بلاد اليمن حنقا على أخيه ، وقصد بلاد المغرب في سنة ٥٣٢٢ هـ  
( ١١٣٣ م ) . ويظهر أنه كان يرأسل أخاه ، ويؤنبه على ما اقترفه مع الفاطميين . وفي  
ذلك يقول الحمادي اليماني<sup>(٢)</sup> : وقد دخل عليه جعفر ، ففجح ما فعله ، وقال : قطعت يدك  
بيدك ، فلم يلتفت إلى قوله ، وخرج جعفر إلى ولد عبيد الله المسمى بالقائم ، فكتب  
أخاه يعيب عليه فعله بشعر طويل يقول فيه :

فسكنتم وأتم تدمون وأبتي فستان من يبسني وآخر يهدم .

وقد تمتع جعفر بمركز رفيع في الدولة الفاطمية ، في المغرب ثم في مصر . وكان موضع  
تقدير القائم والمنصور ، كما نال تقدير المعز ، حتى اتخذه « باب أبوابه » في مصر ،  
وهي أعلى من رتبة قاضي القضاة . ولا غرو فقد ضرب جعفر بأوفر سهم في التأويل  
الإسماعيلي ، كما كان لفراره من بلاد اليمن حبا في النهوض بالمذهب الإسماعيلي ،  
أثره في تقدير الخلفاء الفاطميين له ، ومحبتهم إياه ، وعظفهم عليه .

وقد ترك جعفر كثيرا من الآثار العلمية التي لا تزال عند الهرة إلى اليوم .  
ومن أهم مؤلفاته كتاب « تأويل الزكاة » ، وهو بمكتبة الجامعة بليدن .  
وقد ألفه ، على ما يبدو ، في عهد المعز لدين الله . ومنه نقف على غلو الإسماعيلية

(١) طه شرف : تاريخ الإسماعيلية لذيابى ج ١ ورقة ٢٨١ - ٢٨٢ .

(٢) كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٠ .

في تأويلهم ، حتى لقد ذهب هذا الفقيه الإسماعيلي إلى تأليه الأئمة ، مؤيدا في ذلك النظرية الإسماعيلية التي تقول : « من عرف إمام زمانه عرف ربه » . ويقول دى غويه<sup>(١)</sup> في كتاب « تأويل الزكاة » : إن به كثيرا من مبادئ القرامطة الخارجة على الدين . ويذهب الأستاذ ماسينيو<sup>(٢)</sup> إلى القول بأن جعفر ألف هذا الكتاب في سنة ٣٦٠ هـ ، ويسميه تأويل الفرائض . بل إن الأستاذ إيفانو<sup>(٣)</sup> يذهب إلى أن كتاب تأويل الفرائض هو نفس كتاب جعفر المسمى « الفرائض و حدود الدين » .

ولجعفر بن منصور اليمن من الكتب أيضا كتاب « سرائر النطقاء » ، وكتاب « أسرار النطقاء » ، الذي سنتناوله بالتفصيل . وكتاب « الشواهد والبيان » المحفوظ بدار الكتب المصرية ، بمكتبة تيمور باشا ، تحت رقم ١٨٤ عقائد . وله من الكتب كتاب « الكشف » ، وهو كتاب قيم في التأويل ، أول فيه بعض آيات من القرآن في شيء كثير من الغلو . من ذلك ما ذهب إليه في تفسير قوله تعالى : « والزيتون ، والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين » ، بأن التين هو الحسن ، والزيتون هو الحسين ، وطور سينين هو سيدنا محمد ﷺ ، والبلد الأمين على بن أبي طالب ، الأمر الذي حداه على أن يأمر بحفظ محتويات هذا الكتاب وعدم إذاعة أسرارها .

ولجعفر بن منصور من الكتب كتاب « الفترات والقمرانات » ، ويسمى « الجعفر الأسود » . ويظهر أنه كتاب « الجعفر » الذي ينسب إلى جعفر الصادق . ويعتقد الإسماعيلية أن على بن أبي طالب هو الذي وضع أصوله ، ليستبقى علم التأويل والباطن في سلالة . كما يظهر أن « الجعفر الأسود » من وضع أحد الدعاة المتأخرين ، لأنه يتناول حوادث وقعت في القرن الخامس الهجري . ويتناول هذا الكتاب حوادث بعض الأنبياء مع أصدادهم ، ويتعرض لشرح تأثير الكواكب في الدعوة وأطوارها ؛ فهو إذن نوع من الملاحم التي أغرم بها الإسماعيلية . ومهما يكن من شيء ، فإن جعفر يسلك في مؤلفاته هذه مسلك التأويل ، حتى إنه ينادى بمبدأ استمرار

Memoires sur les Carmathes du Bahraïn, vol. ii. pp. 169-170. (١)

(٢) عجب نامه ص ٣٣١ .

A Guide to Isma'ili Literature, p. 31. (٣)

الأديان والحلول ، أى حلول الأنبياء من شخص إلى آخر (١) .

وبهذا نرى أن نشاط الداعى جعفر بن منصور كان خصبا فى دراسة عقائد المذهب الإسماعيلى . ويقص علينا الداعى إدريس عماد الدين فى كتابه « عيون الأخبار » ، ما يشعرنا بسمو مركز جعفر فى الدعوة الإسماعيلية . وذلك أن أباحنيفة النعمان المغربى ، قاضى قضاة المعز لدين الله ، مرض وهو بمصر ، فزاره كثير من عليه القوم ، ومنهم جعفر ، باب أبواب المعز . ولما أبل أبو حنيفة من مرضه ، سأله المعز عن زاروه ، فذكر أسماءهم جميعا سوى جعفر بن منصور ، فأخذ المعز يطرى جعفرا ، ثم قدم إلى أبى حنيفة رسالة ، وطلب منه قراءتها ، وسأله عن مؤلفها . وقد نالت هذه الرسالة إعجاب قاضى القضاة ، حتى إنه قال للخليفة المعز : إنها من تأليف مولانا الخليفة ؛ فأجابه المعز بأنها من وضع مولاه الرئيس جعفر بن منصور (٢) . وفى وصف المعز جعفرا بالرئيس والمولى ما يشعر بعـالو مكانته . لذلك نزل القاضى أبو حنيفة على الفور ، وذهب إلى دار جعفر الداعى ، وعبر له عن أصدق احترامه وتقديره . وهكذا كان مركز جعفر يفوق مركز النعمان . وصفوة القول أن جعفرا أحد اثنين يعدان من أشهر الدعاة الذين أنجبتهم مدارس الدعوة فى بلاد المغرب خاصة . وقد مات بعد رحيله إلى مصر مع المعز . ولا ندرى على وجه التحقيق اليوم الذى مات فيه .

ولنعرض الآن عرضا سريعا لأهم ما ورد فى كتاب أسرار النطقاء لجعفر بن منصور اليمنى .

يعد هذا الكتاب من أقدم مصادر الإسماعيلية التى تتناول تاريخ الأئمة المستورين ، ومن أهم الكتب المذهبية التى ألقت للدفاع عن المذهب الإسماعيلى وأنصاره ، كما يعد بحق من أحسن الكتب التى تمثل الأدب الإسماعيلى القديم أصدق تمثيل .

وقد بحث هذا المؤلف تاريخ الأئمة العلويين الذين سبقوا إسماعيل بن جعفر الصادق بحثا دقيقا . ولهذا يعد كتابه « أسرار النطقاء » من أحسن المراجع فى تاريخ

Hamdani : Some Unknown Ismaili Authors (J.R.A.S., (1)

1933.) p. 371.

Ibid. (2)

الأئمة من لدن علي بن أبي طالب إلى جعفر الصادق . كما يتناول هذا الكتاب بعض المبادئ الشيعية ، التي شرحها شرحا مستقصى . من ذلك نظرية « الغيبة » ، أي اختفاء الإمام ، ونظرية الإمام الصامت<sup>(١)</sup> ، إلى غير ذلك .

ويكاد يقتصر كتاب أسرار النطقاء على الرد على الموسوية الاثناعشرية ، فينقض آراءهم في وضوح ودقة ، مما يدل على تضلع جعفر في النقاش الكلامي .

كما يعد هذا الكتاب من أهم المراجع التي تصدت لبحث تاريخ فرق الشيعة ، التي ظهرت بعد وفاة جعفر الصادق ، كالموسوية والأبطحية ، نسبة إلى الأبطح ، أحد أبناء جعفر الصادق ، والمحمدية ، نسبة إلى محمد بن جعفر . وزرى الداعي جعفرا يرد ردا عنيفا على أنصار هذه الفرق ، ويبرهن لهم على بطلان دعاويهم ، ويخذبهم في الوقت نفسه إلى طائفة الإسماعيلية . كما يعتبر هذا الكتاب مرجعا هاما في تاريخ أبناء علي الرضا ( بن موسى الكاظم ) وأبنائه حتى الإمام المنتظر ( ٥٢٦٠هـ ) .

وكذلك تعرض جعفر في كتابه لتاريخ الأئمة الإسماعيلية المستورين ؛ فذكر معلومات ذات غناء عن إسماعيل بن جعفر ، وشرح موقفه من أبيه جعفر ، وأخيه موسى<sup>(٢)</sup> ، وتناول انتقال الإمامة إلى إسماعيل . ويستدل على صحة دعواه بأحاديث عن جعفر وسواه ، ليؤكد صحة إمامة إسماعيل . وإن ما كتبه جعفر بن منصور اليمن عن إسماعيل بن جعفر ، ليصور حياة الإسماعيلية ونشأتهم أصدق تصوير ؛ فنراه يعرض لعلاقة إسماعيل ببعض غلاة المذهب الإسماعيلي ، ويناقش مسألة وفاة هذا الإمام ، أو قل اختفائه ، فلا يقر أن وفاته حدثت في حياة أبيه جعفر الصادق .

وقد عرض جعفر بن منصور غير مرة لشرح بعض خصائص المذهب الإسماعيلي ، كالإمام المستقر والإمام المستودع . فيقول مثلا : « إنه لما غاب إسماعيل ، أحضر جعفر ولده ( محمد بن إسماعيل ) ، وجماعة صحبه ، وسلم إليه الإمامة بمحضر منهم في مجلس أبيه . واستودع منزلته حجة ، كما فعل أبوه إسماعيل بالكبش المنسوب بين

(١) لكل نبي عند الإسماعيلية إمام ، يعاصره ويأخذ عنه ويشرح شريعته ، ويسمونه الأساس ، أي أساس النطق . ويتبع هذا الأساس سنة أئمة بالتوالي ، يسمى كل منهم « الصامت » . وعندهم أن علي بن أبي طالب أساس ، ومن جاء بعده من الأئمة ، حتى جعفر الصادق ، أئمة صامتون . فعل زين العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق أئمة صامتون .

(٢) انظر كتاب أسرار النطقاء . ( من المنتخب ) ص ٨٥ - ٩٣ .

يديه قبله ، وجعله سترًا عليه من فرعون وقته . وجلس الصادق مجلسه ، كما جلس يعقوب مجلس يوسف عند غيبته<sup>(١)</sup> . كما ذكر كثيرا من التأويلات ومبادئ الإسماعيلية كالحجة والاستيداع وما إليهما . ومهما يكن من شيء فإن جعفرًا قد أجاد في وصف دور استتار الأئمة الإجابة كلها ، وملاها بالتأويل الغالي والمعتدل ، مما يجعلنا نعتقد أنه من أشهر رجال التأويل في الدور المغربي ، كما يعتبر النعمان المشترع الأول في هذا الدور .

لذلك يعد هذا الكتاب من كتب المناظرات الإسماعيلية القيمة ، حتى إن هذه الطائفة قد اتخذته أساسا للرد على مخالفهم . كما يعد من كتب التأويل وكتب التاريخ ، التي توضح للقارىء شيئا غير قليل من تاريخ كبار أئمة الإسماعيلية الأوائل ، وغيرهم ممن يدعون الإمامة . ولا يخلو هذا الكتاب من الغلو المذهبي ، ولا سيما حين يوازن بين الأئمة والأنبياء ، أو يؤول بعض الآيات القرآنية ، وسنن الأنبياء وأفعالهم ، بما لا يتفق مع العقل . وعلى الرغم من ذلك كله ، لا ننكر أن هذا الكتاب وغيره من مؤلفات جعفر ، من الكتب التي رفعت منار الدعوة الإسماعيلية في عهد المعز لدين الله .

وهكذا سميت الدعوة الإسماعيلية بأدائها في عهد هذا الخليفة ، وبلغت أوجها على يد الإمام المعز نفسه ، وقاضى قضاته النعمان ، وباب أبوابه جعفر بن منصور . وكان لهذه المدرسة التي تقدمت لها هؤلاء الثلاثة أثرها فيما بعد ، واستطاع أحد تلامذتها ، وهو حميد الدين الكرمانى ، أن يرفع منار الدعوة في عهد الحاكم فى كل من فارس ومصر . وكان المؤيد الشيرازى والحسن الصباح أثرا من آثار هذه المدرسة ، على ما نبينه فى كتاب المستنصر بالله الفاطمى إن شاء الله .

### ٣ - أهم مظاهر الحياة الاجتماعية :

تطورت الحياة الاجتماعية فى عهد المعز ، سواء أكان ذلك فى بلاد المغرب أو فى مصر ، فقد وضع هذا الخليفة أساس الحياة الاجتماعية ( فى مصر ) كالمواسم والأعياد والاحتفالات الدينية والقومية ، وما صحبها من مظاهر الترف والثروة .

(١) أسرار النطقاء ( من المنتخب ) ص ٩٩ .

## (١) مظاهر الثروة والثروة

امتلات خزائن الفاطميين في عهد الخليفة المعز بالأموال ، ويرجع ذلك إلى النظام المالي الدقيق الذي سنه الفاطميون لاستغلال موارد الدولة ، وإلى النظم المالية التي وضعها رجال الدعوة في سبيل جمع الأموال التي يتبرع بها المستجيبون من الإسماعيلية ، الذين كانوا يدفعون - طائعين - خمس أموالهم للدولة الفاطمية .

ومن أهم مظاهر الثروة في عهد المعز لدين الله ، تلك الأموال الضخمة التي أنفقها هذا الخليفة في سنة ٣٥١ هـ ، حين عزم على ختان أبنائه ، فقد رأى أن يشرك رعيته في أفراحه ، وحثم أن يقدم الأهلون أبناءهم الصغار ليختنوا ، ويأخذوا من الدولة كفاء ذلك مالا معلوماً . وقد سار المعز على هذه السياسة في سائر بلاده ، وتدفقت الأموال من مدينة المنصورية ، حاضرة الفاطميين ، إلى الولايات المختلفة ، ليقوم الولاة بدفع الهبات والنفقات والهدايا لآباء الصغار المختنين . وإذا علمنا أن المعز كان يعطى كلا من هؤلاء الأطفال كسوة حسنة بعد اختنانه ، وبمنحه مقدارا من المال يتراوح بين مائة وخمسين درهما ومائتي درهم ، وأنه قد اختن في مدينة المنصورية وحدها نحو ربع مليون من الصديان<sup>(١)</sup> ، ظهرت لنا ضخامة الأموال التي أنفقها المعز في حاضرة خلافته وغيرها .

ومما يدل على ضخامة هذه الأموال التي أنفقت في الاحتفالات التي أقيمت بمناسبة هذا الختان ، أن المعز أرسل إلى صقلية وحدها خمسين حملا من المال في كل حمل عشرة آلاف دينار ، أي أن ما أنفق في صقلية من الأموال - غير الكساء - بلغ نصف مليون دينار . وإذا علمنا أن هذا الختان تم في سنة ٣٥١ هـ ، أي بعد انضواء جميع بلاد المغرب تحت لوائه ، وأنه أنفق على ظهور أبناء رعاياه في جميع بلاد المغرب الأدنى والأوسط والأقصى ، وأن عدد من اختن في

(١) يرى المقرئ ( انماط الحنفا ص ٦٠ ) أنه كان يختن بحضرة المعز يوميا - ولمدة شهر - عدد لا يقل عن اثني عشر ألف صبى ، على حين يرى أبو حنيفة النعمان - وكان معاصرا للمعز - أن هذا العدد كان يتراوح بين عشرة آلاف وخمسة آلاف صبى . ولو صدقنا المقرئ لكان عدد من اختن في المنصورية ٣٦٠٠٠٠٠ صبى .

المنصورية لا يقل عن ربع مليون ، كما تقدم ، فكأن عدد من اختن في كافة أنحاء الدولة الفاطمية ؟ وإذا كان المعز قد أنفق في صقلية وحدها نصف مليون من الدينار ، فماذا يكون مجموع ما أنفقه في برقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ؟ وما يدل على ضخامة الأموال التي أنفقها المعز في هذا الختان أن وزن الأكياس المفرغة التي أنفقت في هذا الأعدار<sup>(١)</sup> بلغ مائة وسبعين قنطارا<sup>(٢)</sup> .

ولندع النعمان - قاضي المعز - يحدثنا عن وصف حالة البلاد التي كانت تابعة للدولة الفاطمية وقتئذ ، في هذه العبارة المستفيضة : « ولما أراد المعز لدين الله - صلح - أن يطهر عبد الله ونزارا وعقيلًا - بنيه - تقدم إلى خاصته وأوليائه وسائر جنده وعبيده وجميع رجاله ، وكافة من بالحضرة من سائر التجار والصناع وعمامة الرعية بالمنصورية والقيروان ، وجميع أهل مدن إفريقية وكورها من حاضر وباد . وأمر بالكتب إلى العمال من لدن برقة وأعمالها إلى سبجلباسة وحدودها وما بين ذلك ، وما حوته مملكته ، وإلى جزيرة صقلية ومن بها من طبقات الناس ، في حضر وبدو ، أن يتقدموا في ظهور أبنائهم يوم الثلاثاء أول يوم من شهر ربيع الأول من سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة إلى انقضاء هذا الشهر ، وأمر أن يحمل إلى كل بلد من هذه البلدان من الحضرة<sup>(٣)</sup> أموال وخلع ، تفرق على كل من طهر من أبناء المسلمين من خاص وعام ؛ فكان الذي رأيناه حمل إلى صقلية من المال خمسين حملا سوى الخلع ، ومثل ذلك ونحوه إلى كل عامل ليفرقه على أهل عمله .

« وتقدم (صلح) في ظهور ولده يوم الثلاثاء هذا المذكور ، وجلس بنفسه الزكية لظهور سائر أهل الحضرة وما يليها من البوادي . وأمر بضرب سرادقات بساحة قصر البحر<sup>(٤)</sup> حول الماء ، وبإدخال الصبيان مع من أراد الدخول معهم من آبائهم وأمهاتهم وعبيدهم وخدمهم ، ومن أرادوا أن يظروهم من عبيدهم . واعتزم على أن يصل الظهور أيام هذا الشهر كله . . . وكان يجلس صلح من وقت الغداة ، فلا

(١) الأعدار : الطهور .

(٢) المقريري : اتعاط الحنفا ص ٦٠ .

(٣) أي الحاضرة ، ويقصد بها المنصورية .

(٤) انظر ما كتبتاه عن هذا القصر في الباب الخامس من هذا الكتاب .



يزال جالسا وهم يطهرون ويمرون بين يديه ، فيكسون ويوصلون ، لا يخيب من ذلك منهم شريف ولا مشروف ، ولا حر ولا عبد ، ولا قريب ولا بعيد ، ولا حاضر ولا باد . والختانون في السراقات على الكراسي ، وبين أيديهم المنابر الجلوس الصبيان ، والقومة يسكونهم في حجورهم ، ويذرون الذرورات الممسكة للدم على ختاناتهم ، ويقفون بالبخور وماء الورد على رؤسهم يرشونهم على وجوههم ، لما يعتريهم من الروع ، والسند بأصناف الملاعب قيام عليهم ، يلهونهم ويصجون من طهر منهم يزفونه إلى منزله .

وكان الذي أعطاه الخاصة من الخلع والصلات على أقدارهم ما يتفاوت ويطول ذكره . وكان الذي أعطاه العامة من الصلة غير الكسوة ، اكل صبي منهم مائتا درهم إلى مائة وخمسين ، وأقل ما أعطاه المجهولون من أهل البوادي ونظرأهم وعبيدهم ، كل صبي منهم عشرة دراهم . وكان يطهر (١) منهم في كل يوم من أيام هذا (٢) الشهر ، من عشرة آلاف صبي إلى خمسة آلاف أقل ذلك .

وأكثر الناس الخوض والحديث في ذلك وتعظيموه ، وأجمعوا في ابتداء الأمر أن ذلك لا يتم ، وأن الأموال لا تنهض به ، وذكروا ، لكثرة ما رأوه من الخلاق ، أن ذلك لو وصل حولا ، لما انقطع الناس ، ولا أتى على آخرهم فيه . وكنت (أى النعمان) ممن تعظم ذلك ، وتداخله الإشفاق (٣) .

وهذا يدل على ضخامة المالية الفاطمية ، كما يدل على جود المعز ورغبته في إسعاد شعبه . ولا غرو فقد خصص مقدارا ضخما من المال من ميزانية دولته ، ووقفه على هذا العمل الخيري الجليل . وحق له أن يفخر على معاصريه من الخلفاء والأمراء ، الذين كانوا ينفقون الأموال في اللهو والمجون . واستطاع المعز هو وعماله أن يتموا هذه المهمة الشاقة في الوقت الذي حدده تماما . ونستطيع أن نتصور مدى السرور الذي غمر رعايا الدولة الفاطمية في ذلك الحين ، بما ورد على لسان النعمان حيث قال : «وكانت أيام هذا الشهر أيام أعياد ومسرات وأفراح وهبات ، بكل وجه

(١) في الأصل يطهروهم .

(٢) .. .. ههه .

(٣) النعمان : المجالس والمساربات = ٢ ص ٦٥٤ - ٦٥٩ .

وجهة من مملكة أمير المؤمنين ص ، من بدو وحضر . وعمهم فضله ، وتبين عليهم أثره ، وارتقى به أغنياؤهم ، وانتعش له فقراؤهم ، ودخلت المسرة على أهل كل بيت منهم . وقد كان أترا جيلا لم يسبقه إليه ص ع (أى صلواته ) أحد قبله ، ولا ظن أحد أن أحدا يتسع له مثله (١) . وهكذا انتشر الثناء عليه والدعاء له على ألسن العامة والمخالفين والمؤلفين ، لما ظهر من فضله على الفقراء والمساكين ، إذ كان أحدهم يأتي بالثلاثة والأربعة وأكثر من ذلك من ولده ، فيأخذ لكل واحد منهم صصلة لعله لم يرف في يده قط مثلها (٢) .

وإن دل هذا العمل على شيء ، فإنما يدل على حب المعز لرعيته ، وحبده عليها ، ومثانة ماليته ، والتفاف القلوب حوله . ولا عجب فقد كان المعز يهتم برعاياه وأنصاره اهتماما بالغا ، حتى إنه كان يقدم إلى كثير منهم الأموال الوفيرة ، ويشفق على فقراهم ، ويساعدهم على تزويج أبنائهم ، وإدخال السرور عليهم . بل كان كثيرا ما يبني الدور للفقراء منهم ، حتى كان موضع إعجاب رعيته وتقديرهم . وإذا وازنا بين علاقة الفاطميين والعباسيين برعاياهم ، وجدنا أن رعايا الفاطميين كانوا أكثر التفافا حول خلفائهم من رعايا العباسيين . ويرجع ذلك إلى ضعف الخلفاء العباسيين في عصر نفوذ الأتراك ، الذين لم يتركوا لهم من الخلافة إلا اسمها . ثم جاء بنو بويه ، فقصوا على ما بقي لهم من نفوذ . ولولا خوف البويهيين من ضياع نفوذهم السياسي ، لحولوا الخلافة العباسية إلى خلافة شيعية . وعلى العكس من ذلك زادت هيبة المعز ، لا تنسأبه إلى الرسول ، وحبده على رعاياه ، وظهوره بمظهر المتدين الورع .

وعما يدل على مظاهر الثروة في عهد المعز ، تلك الإغاثة العاجلة التي قدمها إلى الديار المصرية في وقت محتها . فقد أرسل إليها - وهو بالمغرب - الحبوب والأموال الكثيرة ، حتى استقامت الأمور بها . وإن ما كان ينفقه المعز على حملاته الكثيرة ، ليدلنا على مدى ثراء الفاطميين في عهده . فقد استطاع بفضل أمواله الكثيرة أن يوجه الحرب في عدة جهات ، فأصبحت جيوشه تغزو جميع بلاد المغرب ، وتصل إلى المحيط الأطلسي ، وتتابع الضربات للأمويين في عقر دارهم ، وتقف

(١) نعمان : المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٦٦١ - ٦٦٢ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٦٣ - ٦٦٤ .

بالمحصاة للبيزنطيين ، فتهزمهم في صقلية ، وتستولى على بعض بلاد إيطاليا الجنوبية في قلورية ، وتهدد الروم في لإقريطش . وليس هذا وحده ، بل إن الأموال الضخمة التي أنفقها المعز في فتح مصر ، أكبر دليل على مدى الثراء الذي وصلت إليه دولته ؛ فقد بلغ ما حمله جوهر إلى مصر من الأموال وحدها ، أربعة وعشرين مليوناً من الدينارين ، أى ما يقرب من ثلاثة عشر مليوناً من الجنيهات ، وهو مقدار لا يستهان به في ذلك العهد (١) . أضف إلى ذلك الأموال والإمدادات التي كانت ترسل إلى مصر تباعاً . كل هذا يبين مدى ضخامة مالية الفاطميين في عهد المعز .

وليس أدل على صحة هذا القول ، من تلك الهدية الفخمة التي أرسلها القائد جوهر إلى المعز في بلاد المغرب في سنة ٣٥٩ هـ . فكان فيها أهداه تسع وتسعون (٢) بحشية ، وإحدى وعشرون قبة ، عليها الديباج المنسوج بالذهب ، ولها مناطق من ذهب مكللة بالجواهر ، ومائة وعشرون ناقة بأجلة (٣) الديباج ، وأعنة محلاة بالفضة ، وخمسة مائة حمل عربي (٤) ، وستة وخمسون جلا ، وثمانية وأربعون دابة ، منها بغلة واحدة ، وسبعة وأربعون فرسا بأجلة حرير منقوش ، وسروج كلها ما بين ذهب وفضة ، ولجها كذلك ، وعودان كأطول ما يكون من العود الذي يفخر به (٥) .

وليس هذه الهدية هي وحدها التي وصلت إلى المعز من جوهر ؛ فقد قدم إليه هدية أخرى بعد أن وصل إلى مصر في سنة ٣٦٢ هـ . وقد اشتملت هذه الهدية على أشياء كثيرة ، منها مائة وخمسون فرسا مسرجة ملجمة ، منها مذهب ومنها مرصع ومنها معبر ، وإحدى وثلاثون قبة على نوق بخافي بالديباج ، والفرس ، منها تسعة بديباج مثقل ، وتسعة نوق مزينة بمثقل . وثلاثة وثلاثون بغلا ، منها سبعة مسرجة ملجمة . ومائة وثلاثون بغلا للثقل ، وتسعون نجيبا ، وأربعة صناديق مشبكة يرى ما فيها ، وفيها أواني الذهب والفضة ، ومائة سيف محلى بالذهب والفضة ، ودرجان

(١) المقرئى : اتعاظ الحنفا ص ٦١ ، ٦٢ .

(٢) في الأصل تسعا وتسعين .

(٣) مفردة جل ، والجل البعير كالثوب للانسان .

(٤) العراب من الابل خلاف البخافي ، وخيل عراب خلاف البراذن .

(٥) المقرئى : اتعاظ الحنفا ص ٧٩ .

من فضة مخزقة فيها جوهر ، وشاشية مرصعة في غلاف ، وتسعائة ما بين سَفَط وتَحْت ، فيها سائر ما أعد له من ذخائر مصر (١) .

على أن ما أحضره المعز من بلاد المغرب ، يدل على وفرة الأموال في هذه البلاد في عهده . وما هو جدير بالملاحظة ، أن المعز كان ينفق تلك الأموال الكثيرة في سبيل النهوض بالدعوة والدولة . ولو اقتنى خلفاؤه أثره في ذلك لما اضمحلت دولتهم بسرعة . ومهما يكن من شيء ، فإنه لما عزم المعز على الرحيل إلى مصر ، حمل معه أمواله - وكانت كثيرة - على ألف بعير ، وسبك الدنانير على شكل الطواحين ، جعل على كل جمل قطعتين ، وجعل في وسط كل قطعة نقبا تجمع به القطعة إلى الأخرى ؛ فاستعظم ذلك الجند والرعية ، وصاروا يقفون في الطرق لرؤية بيت المال المحمول (٢) .

ونحن نعتقد أنه لو قدر للمعز البقاء في مصر طويلا ، لاستطاع أن يستغل مركزها الجغرافي في التجارة ، وخصب أرضها في الزراعة أحسن استغلال ، ولفاضت خزائنه بالأموال تبعاً لذلك ومع هذا فإن المعز ترك في مصر ثروة ضخمة ، حتى إنه اتخذ له عرشا من الذهب الخالص ، كان جوهر الصقلي قد أعد له في القصر الكبير . وقد أطلق المقرئ عليه اسم «سريير الملك» (٣) ، و«السريير الذهب» ، ويقول فيه : إنه كان يزن «مائة ألف مثقال وعشرة آلاف مثقال» (٤) ، أي ما يقرب من ثمانية قناطير من الذهب الخالص ، إذا اعتبرنا أن الدرهم يزن مثقالا .

وما يدل على وفرة ثروة مصر في عهد المعز ، تلك الكسوة التي أعدها هذا الخليفة للكعبة الشريفة ، التي فاقت الكسوة التي كان العباسيون يرسلونها إلى الكعبة ، حتى أصبحت مضرب المثل ومثار الإعجاب ، ولم يستطع صانعو الجواهر أن يقدرُوا ثمنها لكبرها ودقة صنعها . وقد وصفها ابن ميسر (٥) في هذه العبارة : «وسعتها

(١) المقرئ : خطط ج ١ ص ٣٨٥ .

(٢) « : اتعاط الخفا ص ٦٥ .

(٣) ويسميه أيضا سريير الملك الكبير ، وكان وزنه ٧٠٦٤ قنطارا من الذهب .

(٤) المقرئ : خطط ج ١ ص ٣٨٥ .

(٥) تاريخ مصر ص ٤٤ .

اثنا عشر شبرا<sup>(١)</sup>، وأرضها ديباج أحمر، ودورها اثنا عشر<sup>(٢)</sup> هلالا ذهباً، في كل هلال أترجة<sup>(٣)</sup> ذهب مشتبك . وفي جوف كل أترجة خمسون درة كبارا كبيض الحمام . وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق ، فيها كتب على دورها آيات الحج بزمرد أخضر ، وحشو الكتابة در كبار لم ير مثله ، وحشو الشمسية المسك المسحوق . فرآها الناس في القصر ومن خارج القصر لعلو موضعها ، وإنما نصبها عدة فراشين لثقل وزنها . . . وذكر أصحاب الجواهر أنه لا قيمة لها<sup>(٤)</sup>، وأن شمسية بنى العباس مساحتها مثل ربع هذه . وكذلك كانت شمسية كافور الذي عملها لمولاه أونوجور .

كل هذا يدل على عظمة مصر ووفرة ثروتها في عهد المعز . وإذا علمنا أن الاحتفال بعرض هذه الكسوة قد أقيم في آخر سنة ٣٦٢ هـ ، أي في نفس السنة التي وصل فيها المعز إلى مصر . وأنه استطاع في تلك المدة القصيرة أن يتم صنع هذه الكسوة الفاخرة ، في الوقت الذي لم تكن فيه أقدام الفاطميين قد استقرت بعد في مصر - إذا علمنا ذلك ، أدركنا مدى ضخامة ثروة مصر في ذلك العهد ، ودقة النظام المالي في الدولة الفاطمية . ولا غرو فقد ساعدتهم هذه الثروة على أن يحتفلوا بأعيادهم ومواسمهم ، ويقيموا المنشآت الكثيرة ، وينفقوا الأموال على حملاتهم الحربية والبحرية .

ومن مظاهر الثراء في عهد المعز ، تلك النهضة العمرانية التي نراها في بناء القصور الفخمة في بلاد المغرب ، وإنشاء البساتين والميادين الواسعة ، والفوارات الجميلة ، والقنوات العجيبة التي كانت تأخذ ماءها من الجبال ، ثم تسير في طريقها إلى مدينة المنصورية ، مخترقة السهل والحزن . ثم ، أليس فيما بذله الفاطميون من أموال ضخمة على بناء مدينة القاهرة وقصورها ومساجدها ، البرهان القاطع على ثروة الدولة الفاطمية في عهد المعز ؟ وقد ذكر المقرئ<sup>(٥)</sup> هذه العبارة التي تؤيد صحة ما ذهبنا إليه فقال : « وكان الذي أنفقه المعز على مصر ، ما لا يضبط ولا يعرفه إلا هو

(١) في الأصل اثني عشر .

(٢) " " " " " "

(٣) الأترجة ثمر من جنس الليمون ، أي أنه كان في كل هلال قطعة من الذهب المشبك على شكل الأترجة .

(٤) أي لا تقوم بال . لسكثرة ما بها من الجواهر النفيسة .

(٥) اتماظ الخنقا ص ٦١ .

وخزائنه ، كما نقل هذا المؤرخ عبارة أخرى جاءت على لسان بعض كتاب بيت مال المعز فقال : « حملنا إلى مصر أكياسا فارغة ، أنفق ما كان فيها في أربعة أعدل (١) على جملين » . ونحن نعلم أن جوهرها حمل معه إلى مصر ما بلغت قيمته أربعة وعشرين مليوناً من الدينارين . وإذن فإن المال الذي أنفقه المعز على مصر ، والذي بلغت أكياسه أربعة غراتر ، غير ذلك المال الذي حمله معه جوهر ، يدل دلالة واضحة على مبلغ ثراء مصر في عهد المعز .

وعلى الرغم من تظاهر المعز للبخارية بالتقشف ، كانت قصوره آية في الروعة ، حتى إنها أخذت بمجامع قلب سفير الروم حين زاره في المنصورية . نعم ! كان المعز يعمل على الظهور لشعبه بأنه لا يفتقر عن العمل ، وأنه يصل ليله بنهاره ، وأن قصوره لم تتخذ وسيلة للهو والعبث . فلم يكن الخلفاء الفاطميون « يأكلون ويشربون ، ويتقلبون في المثلل والديباج والحريير والفسك والسمور والمسك والخمر والغناء ، كما يفعل أرباب الدنيا (٢) » . ولذلك كان المعز يظهر كثيراً أمام رعاياه في مجالس تتجلى فيها البساطة والتواضع ، فنراه ذات مرة يأمر بإحضار شيوخ كتامة ليروه « في مجلس مربع كبير ، مفروش باللبود على مطارح ، وحوله كساء وعليه جبة ، وحواليه أبواب مفتحة تفضى إلى خزائن كتب ، وبين يديه دواة وكتب (٣) » .

والحق أن قصور المعز كانت آية في الإبداع ، حتى لقد صرح له سفير الروم حين رآه جالسا فوق عرشه بقوله : « دخلت عليك ، فرأيتك على سريرك ، فظننتك خالقا (٤) » . والواقع أنه كان لقصور المعز مداخل كثيرة ، تفضى إلى أزوقة متواضعة ، وإلى أبهاء وأفنية آية في الروعة والإبداع . حتى إن قصر البحر الذي تكلمنا عنه في الباب الخامس من هذا الكتاب ، كان مثلاً أعلى للقصور في العصور الوسطى ؛ فكان جزؤه الأوسط أشبه بجزيرة تقع في وسط بحيرة ، وقد بلغ جزؤه الخارجي الذي يحيط بالبركة من الاتساع ، بحيث يخيل إلى الناظر أنه مدينة من المدن .

(١) جمع عدل . والأعدل هي الغراتر .

(٢) المقرئى : انماظ الخنفا ص ٦١

(٣) المقرئى : خطط ج ١ ص ٣٥١ .

(٤) ابن الأثير : السكامل ج ٨ ص ٢٣٩ .

ولم يكن القصر الشرقى الكبير في القاهرة بأقل روعة من قصر البحر في المنصورة، فقد كان يحتوي على آلاف الحجرات، المؤتة بأعظم الأثاث، والمزينة بأبهى الزينات. كما كان هذا القصر يشتمل على ما فيه من عين وورق وجوهر وحلى وفرش وأواني وثياب وسلاح وأسفاط وأعدال وسروج ولجم، وبيت المال بحاله بما فيه، وفيه جميع ما يكون للوك. (١)

وكان المعز يجلس على سرير الملك بالإيوان الكبير، قبل أن ينشئ العزيز قصر الذهب، وكان هذا المجلس مضرب المثل في الأناقة؛ وظل على ذلك طول عهد الفاطميين. كما كان يعلق فيه دستور الديباج شتاء والديبقي (٢) صيفا، وفرش الشتاء بسط الحرير، عوضا عن الصوف، مطابقا لسطور الديباج. وفرش الصيف مطابقا لسطور الديبقي، ما بين طبرى وطبرستانى مذهب معدوم المثل (٣)، بما يدل على أن مجالس الخلفاء الفاطميين في مصر، وخاصة في عهد المعز، لم تكن أقل روعة وبهاء من مجالس الخلفاء العباسيين في بغداد والأمويين في قرطبة. ولكثرة أبهاء هذا القصر ومماره وسراديه، نبى بحيث يستطيع الخليفة أن ينتقل في جميع أنحاء في سهولة ويسر، واكتفته فسقيات المياه حتى لا يتعرض لخطر الحريق.

وبما يدل على عظمة الدولة في عهد المعز وكثرة ثرائها، ذلك النسيج الفخم الذى نسج من الحرير والذهب. فقد رأى المعز في سنة ٣٥٣ هـ أن يرسم مصورا للعالم، ويوضح فيه موقع بلاد الحجاز منه؛ فعمل له ثوب من الحرير المنسوج بالذهب، كان موضع إعجاب وإعجاب خلفائه. وقد وصفه المقرئى (٤) فقال: هو مقطع من الحرير الأزرق التستري (٥) القرقوبى، غريب الصنعة، منسوج بالذهب

(١) المقرئى: اتعاظ الحنفا ص ٩٠.

(٢) الديبقي: نسبة إلى مدينة ديق بين القرماتيين؛ وقد اشتهرت بما كان يصنع فيها

من الملابس.

(٣) المقرئى: خطلط ج ١ ص ٢٨٦.

(٤) خطلط ج ١ ص ٤١٧.

(٥) نسبة إلى تستر، أشهر مدن إقليم خوزستان جنوبى فارس الغربى.

وسائر ألوان الحرير ، كان المعز لدين الله أمر بعمله في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة ، فيه صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهاها ومسالكها . . . وفيه صورة مكة والمدينة ، مبينة للناظر ، مكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق ، اسمه بالذهب أو الفضة أو الحرير ؛ وفي آخره : بما أمر بعمله المعز لدين الله ، شوقا إلى حرم الله ، وإشهارا لمعالم رسول الله ، في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة ، والنفقة عليه اثنان وعشرون ألف دينار .

ولا بد أن يكون المعز قد أحضر ذلك النسيج الثمين معه وهو في طريقه إلى مصر ، بدليل أنه وقع فيما بعد في قبضة الجنود ، حين ثاروا على المستنصر الفاطمي . وقد حذا الخلفاء الفاطميون حذو المعز في اقتناء التحف النادرة المثل ، حتى كان البلاط الفاطمي مضرب المثل في الروعة والبهاء . وكان المعز قد أراد أن يحوط عرشه وتاجه بهالة من الأبهة ، فاستغل ثروته الواسعة في سبيل تحقيق ذلك ، ونجح في تحقيق أميته نجاحا ملحوظا ، ولم يشأ أن ينفق أمواله على المغنين والمغنيات ، وعلى مجالس اللهو والطرب ، كما كان يفعل العباسيون والأمويون في عصره .

يدل على ذلك أنه بنى مؤسسة أطلق عليها « دار الكسوة » ، لتفصيل جميع أنواع الثياب ونسجها ، وجعل يهب هذه الأقمشة لرعاياه وموظفيه ، وأعد للشتاء ملابس ، وللصيف أخرى . ولم تكن هذه الهبات مقصورة على العامة ، بل شملت الموظفين . وبذلك سن المعز بعمله هذا لأبنائه سنة ظلوا يتوارثونها حتى سقطت دولتهم . يقول ابن أبي طي : « وعمل المعز لدين الله دارا وسماها دار الكسوة ، كان يفصل فيها من جميع أنواع الثياب . . . ويكسوها الناس على اختلاف أصنافهم كسوة الشتاء والصيف . وكانت لأولاد الناس ونسائهم كذلك ، وجعل ذلك رسما يتوارثونه في الأعقاب ، وكتب بذلك كتباً ، وسمى هذا الموضع خزانة الكسوة . ومن أخبارهم أنهم كانوا يخرجون من خزائن الكسوة إلى جميع خدمهم وحواشيهم ، ومن يلوذ بهم من صغير وكبير ورفيع وحقير ، كسوات الصيف والشتاء ، من العمامة إلى السراويل وما دونه من الملابس والمنديل ، من فاخر الثياب ، ونفيس الملبوس ، ويقومون لهم بجميع ما يحتاجون إليه من نفيس المطعومات



والمشروبات<sup>(١)</sup> . وبهذا وغيره جعل المعز عامة شعبه وموظفيه يلتفون حوله . وليس أدل على مظاهر الترف عند الفاطميين ، من تلك الثروة الضخمة التي كان أبناء المعز ينعمون بها ، حتى إن إحدى بناته قد تركت ثروة لا تقل عن مليون وسبعمائة ألف دينار ، وهي ثروة كبيرة إذا قورنت بحالة الرخاء التي كانت سائدة في ذلك العصر ، إلى غير ذلك من وسائل الترف التي تجل عن الوصف . كما تركت ابنة ثانية للمعز أموالا كثيرة وحليا فاخرة<sup>(٢)</sup> . وإذا حاولنا تقويم ذلك التراث الهائل الذي خلفته هاتان الأميرتان لما استطعنا لفخامته وكثرته . ولا شك أن الأمراء الفاطميين كانوا يشاركون الخلفاء في عظمتهم وميلهم إلى الظهور . وإذا كان الخلفاء الفاطميون - على ما يقوله لينبول Lane-Poole - من أكثر ملوك مصر حبا للأبهة والظهور<sup>(٣)</sup> ، فإن أمراء البيت الفاطمي وأميراته كانوا لا يقلون في ميلهم إلى الظهور عن الخلفاء أنفسهم . وإن تلك الثروة الضخمة التي خلفتها ابنتا المعز لأكبر شاهد على صحة ما ذهبنا إليه .

وقد أنفقت تغريد زوجة المعز لدين الله ، في أوائل حكم العزيز ، من مالها

(١) المقرئى : خطط ج ١ ص ٤٠٩ .

(٢) وهذا المقرئى (خطط ج ١ ص ٤١٥) بحدتنا عن ضخامة التركة التي خلفتها بنتا المعز - رشيدة وعبد - فيقول : « ووجد للسيدة رشيدة ابنة المعز حين ماتت في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ، ما قيمته ألفا ألف دينار وسبعمائة ألف دينار . من جملة ثلاثون ألف ثوب خز مقطوع ، واثنا عشر ألفا من الثياب المصمت ألوانا . . . وما وجد لها معيات مجواهرها من أيام المعز . . . ووجد لعبدت بنت المعز أيضا ، وماتت في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ، ما لا يحصى . . . إن خزانة السيدة عبدت ومقاصيرها وصناديقها وما يجب أن يختم عليه ذهب من الشمع في خواتمه ، على الصحة والمشاهدة ، أربعون رطلا بالمصرى . وأن بطائق المتاع كتبت في ثلاثين رزمة ورق . وما وجد لها أيضا أربعمائة فطرة وألف وثلاثمائة مينا فضة خرقه ، زنة كل مينا عشرة آلاف درهم ، وأربعمائة سيف على بالذهب ، وثلاثون ألف شقة فضيلة . ومن الجواهر ما لا يحصى كثرة ، وزمرد كيلة أردب واحد . وإن سيد الوزراء أبا محمد البازورى ، وجد في موجوداتها طستا وإبريقا ، فلقرط استحسانه لما سأل المقتصر فيما ، فوهبها له . ووجد مدهن ياقوت أحمر وزنه سبعة وعشرون مثقالا ، وأخرج أيضا تسعون طستا وتسعون إبريقا من صافي البلور . . »

الخاص مالا كثيرا على تشييد مسجد نخم بالقرافة ، وأقامت في السنة نفسها قصرا فسيحا في القرافة ، احاطته ببستان جميل ، وأنشأت فيه حماما وبئرا . وعلى الرغم من أن بناء هذه العمائر قد تم في أوائل عهد العزيز ، فإن الفضل في ذلك يرجع إلى ثروة الدولة الفاطمية في عهد المعز . ولقد أثر عن تغريد أنها أنفقت أموالا جمة على تشييد مسجد لها بالقرافة ، وقد قام برسم المسجد الحسن بن عبد العزيز الفارسي المحتسب ؛ وتولى زخرفته ونقشه جماعة من الفنانين من أهل البصرة . وكان يحيط بهذا الجامع من غريبه حديقة غناء وصريح ، واختط هذا المسجد على شكل مربع الزوايا ، وفي جوانبه أروقة كالأزهر ، بيد أن نقوشه كانت في غاية الإبداع . أما بابه فكان ذا مصطبة كبيرة تحت المنارة العالية ، وكان مصفحا بالحديد . وكانت المقصورة يدخل إليها من أربعة عشر بابا مربعة ، أمام كل باب قنطرة مقوسة على عمودين من الرخام في ثلاثة صفوف . وكانت الأبواب مجوفة مدهونة بالأزرق والأحمر والأخضر ، كما كانت السقوف ملونة بمختلف الألوان . وكان أمام الباب الأوسط قنطرة على هيئة قوس ، ملونة بألوان مختلفة ، يكاد الناظر إليها يخالها شكلا طبيعيا . وقد حاول النقاشون أن يحاكوها فما استطاعوا . (١)

وقد أمرت زوجة المعز الحسن بن عبد العزيز المحتسب ، الذي رسم مسجد القرافة ، فبنى لها قصر القرافة في سنة ٣٦٦ هـ . وكان يتصل بهذا القصر ببستان لطيف وحمام وبئر . وكان — كما يقول المقرئ (٢) — قصرا نفخا يسر الناظرين ، يتردد عليه أهله طلبا للراحة . وكان بهذا القصر قنطرة مقامة على قبو يستظل به المسافرون من الشمس .

### (ب) الحفلات والاعيان :

عمل الفاطميون على كسب احترام رعاياهم ، وساروا على هذه السياسة في

(١) انظر : حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ٢٤٠ .

المقرئ : خطط ج ١ ص ٤١٥ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٤١٦ .

بلاد المغرب ، وغلا خلفاؤهم في مصر في إقامة الحفلات التي طبعوها بطابع خاص ، وأقاموا المناظر ، وبخاصة في أنحاء القاهرة . فكان المعز ومن أتى بعده من الخلفاء يحتفلون بصلاة الجمعة - على ما رأينا - وصلاة العيدين ، وتوديع الحملات الحربية ، كما كانوا يحتفلون بيوم عاشوراء ، ومولد بعض أئمتهم مثل علي بن أبي طالب ، وفاطمة الزهراء ابنة الرسول وزوجة علي ، ومولد الحسن والحسين ، كما كانوا يحتفلون أيضا ببعض الأعياد الأخرى التي تميزهم عن السنيين ، مثل عيد الغدير ، ومولد الخليفة القائم بالأمر . وكانوا يحتفلون كذلك بأعياد أخرى مثل ليلة أول رجب ، وليلة نصف رجب ، وليلة أول شعبان ، وليلة نصف شعبان ، وبعيد غرة رمضان . وكانوا يشاركون الأهالي في الاحتفال ببعض أعيادهم ، مثل عيد جبر الخليج ، وعيد النوروز <sup>(١)</sup> ، وشاركوا القبط في الاحتفال بيوم الغطاس ، وخميس العهد <sup>(٢)</sup> وغيرها .

ونلاحظ على هذه الأعياد أموراً منها :

أن المعز لدين الله كان أول من مهد لهذه الأعياد في مصر ، وعمل على ترويجها ، بإقامة الولائم الفخمة احتفالاً بها . فكان يقيم الأسمطة في قصور الخلافة وفي المساجد . وحذا خلفاؤه حذوه ، فكانوا يقيمون الأسمطة في قاعة الذهب بالقصر الكبير طوال شهر رمضان وأيام العيدين . وكانت هذه الأسمطة آية في الروعة والجلال . وكان يدعى إليها قاضي القضاة ، وكبار القواد والموظفين ، ويمثل الخليفة فيها الوزير غالباً ، كما كانت الدولة تنفق عليها أموالاً طائلة ، مما يدل على وفرة ثروة مصر في عهد الفاطميين .

وكان الفاطميون يتخذون هذه الأعياد وسيلة لجذب الرعايا إليهم ، لذلك

(١) النوروز عيد فارسي قديم ، وهو أول السنة هجري ، ويقع عند ابتداء الربيع . وكان المصريون

يحتفلون به منذ زمن طويل .

(٢) أما خميس العهد ، فيحتفل فيه النصارى بانجيلهم ، وذلك قبل عيد الفصح بثلاثة أيام .

ويمتاز هذا العيد عند الفاطميين بالهدايا التي كان ينالها كبار الموظفين وغيرهم .

أنظر : حسن إبراهيم حسن ، الفاطميون في مصر ص ٨٥ ، هامش ١ ، ٣ .

شارك المعز القبط في الاحتفال بعيد خميس العهد ، وعيد يوم الغطاس ، وعيد الميلاد ، وغيرها . وقد نهج أبناؤه وأحفاده نهجه في ذلك . حقاً لم ينل عيد النوروز من تقدير المعز ما ناله على يد الخلفاء الفاطميين الذين ولوا الخلافة من بعده ؛ فقد أمر هذا الخليفة في سنة ٣٦٢ هـ بمنع الاحتفال بعيد النوروز ، وشهر بكل من حدثته نفسه بالابتهاج بلياليه . وإنما فعل المعز ذلك ، لما كان يصحب هذا العيد من عادات لم تنل رضا هذا الخليفة ، فقد كان الفساد والخلاعة يقترنان به ، كما يتبين ذلك مما أورده المقرئ (١) نقلاً عن ابن زولاق ، حيث يقول عند كلامه على حوادث سنة ٣٦٣ هـ : « منع أمير المؤمنين المعز لدين الله من وقود النيران ليلة النوروز في السكك ، ومن صب الماء يوم النوروز ، ويقول في حوادث سنة ٣٦٤ هـ : « وفي يوم النوروز زاد اللعب بالماء ووقود النيران ، وطاف أهل الأسواق ، وعملوا فيه ، وخرجوا إلى القاهرة بلعهم ، ولعبوا ثلاثة أيام ، وأظهروا السجاجات (٢) والحلى في الأسواق . ثم أمر المعز بالنداء بالكف ، وأن لا توقد نار ولا يصب ماء . وأخذ قوم نجسوا ، وأخذ قوم فطيف بهم على الجمال . وليس معنى ذلك أن المعز كان يقف في وجه رعاياه ، وإنما كان يعمل على حفظ الأمن وبسط الظلمة ، والمحافظة على الآداب والفضيلة . وسوف يصبح عيد النوروز من أهم أعياد الفاطميين .

وبما يدل على أن المعز كان يتخذ من الأعياد وسيلة لجذب رعاياه إليه ، تلك الجهود التي كان يبذلها لإحياء بعض الأعياد القومية ، مثل عيد جبر الخليج ؛ فقد سن المعز لخلفائه من بعده سنة التودد إلى المصريين في ذلك اليوم ، فكان الفاطميون ينفقون الأموال الجزلة للاحتفال به ، فتعطل دواوين الحكومة ، وتحتفل به الدولة احتفالاً رسمياً .

أضف إلى ذلك أن المعز كان يشترك مع رعاياه في الاحتفال بعيد رأس السنة الهجرية ، ومولد النبي ﷺ ، وليلة أول رجب ونصفه ، وأول شعبان ونصفه ،

(١) خطاط ج ١ ص ٢٦٨ .

(٢) السجاجة : القمعة وسوء الأدب وإطراح الحشمة .

وموسم غرة رمضان ، حتى لا يثير نفوس السنيين ، ويقرب مسافة الخلف بين المبادئ السنية والعقائد الشيعية .

وكذلك كان المعز لدين الله يستغل هذه الأعياد التي زخر بها عهده في نشر خصائص المذهب الإسماعيلي وعقائده ؛ ولذلك كان يحتفل بيوم عاشوراء ، ليحيى فيها ذكرى الحسين رضى الله عنه ، كما كان يحيى ذكرى مولد كثير من الأئمة ، وذكر مولد الخليفة القائم بالامر . وهكذا اتخذ المعز من الاحتفال بهذه الأعياد وسيلة لجذب رعاياه إليه ، ونشر مبادئ المذهب الإسماعيلي .

#### ٤ - أهمل المعز وصفاته .

يعتبر المعز لدين الله مثلاً أعلى للخلفاء الفاطميين ، فقد كان يتصف بصفات رفعته إلى مصاف كبار الملوك والسلاطين . فكان قوى العزيمة ، يواجه الصعاب دون خوف أو وجل ، يقف في عزم ثابت في وجه الثورات التي يذكي نيرانها الخارجون على الدولة ، ويتصدى لمناوأة الأمراء الذين يعملون على الاستقلال عن الفاطميين ، والإنضواء تحت لواء الأمويين . فيضرب هؤلاء بأولئك ، ويأخذ كلا على غرة ، حتى تم له توحيد بلاد المغرب . انظره وقد تحالف الأمويون والروم عليه ، وناووه برا وبحرا ، وأجمع رجاله على البدء بالأمويين دون الروم ، عزم هو على مهاجمة الاثنين معا في وقت واحد ، واستطاع بما أوتيه من عزم ثابت أن يقضى على الروم والأمويين جميعا .

كما كان المعز رحب الصدر كثير الحلم ، وخصوصا نحو الرعية ، حتى كانوا يرفعون إليه إذا رأوه ، ويرفعون إليه ظلاماتهم ، فيسمع لكل واحد منهم على حدة ، وينهر من يقف في وجههم . وعلى الرغم من كثرة مشاغله ، كان واسع الصدر مع رعيته وأبنائه وموظفيه ، يحلم عليهم ليسمو بأخلاقهم إلى أعلى المراتب ، ويثور بهم إذا خالفوا الدين ، وحادوا عن الطريق المستقيم . ولنأت بمثل أو مثلين لنقف منهما على مدى حلم المعز . يقول أبو حنيفة النعمان المغربي<sup>(١)</sup> : «وركب المعز صلح

(١) المجالس والمعارب ٢٣ من ٣٥ - ٣٧ .

يوما من أيام الربيع ، إلى مكان وصف له أن فيه زهرا حسنا ونبقا عيميا ، وفي الطريق الحامل إليه مثل ذلك . فلما خرج (صلح) من باب المنصورية اكتشفه الناس يسألونه حوائجهم ، ويرفعون أمورهم ، فما زال يقبل بوجهه على الواحد والجماعة منهم ، ويكلمهم ويحببهم ، حتى انتهى إلى المكان الذي وصفه . وانصرف وهو على مثل ذلك ، ما تبلى<sup>(١)</sup> مما أراد النظر إليه ، ولا أعاده الطرف إلا اختلاسا ، ولا أضجره ما كان من أمر الناس ، وإنما حوله لتضجره لذلك ، وإن المشاة بين يديه يدفعون<sup>(٢)</sup> الناس ، فيأمرهم بتخلية من يدفعونه . وإن كثيرا منهم ليعطيل مسيرته ، ويكرر حاجته ، فيأمره من حوله بالانصراف ، ويعمزه<sup>(٣)</sup> لإرادة التخفيف عليه ، وأن ينظر إلى ما خرج إليه ، فينهاهم عن ذلك ، ويأمر أن يدعوا من كلبه إلى أن يقضى حاجته ، وينصرف عن رأى نفسه . وهذا دأبه في أكثر خروجه ... ولا أعلم ولا سمعت أحدا وصف بمثل ذلك من الصبر ، وسعة الصدر .

وكان المعز يضرب به المثل في حله مع خدمه وعبده ، حتى لقد كان بعضهم يعترض عليه ، ويقاطع رأيه ، ويحتج عليه . ومع ذلك كان يجادلهم بالحسنى ، ويناقشهم باللين ، ولا يأخذهم بالشدّة ، يفعل كل هذا ولا يجحد الغضب إلى نفسه سديلا<sup>(٤)</sup> . ولم يكن ذلك عن ضعف منه ، ولكنه الحلم المستساغ ، الذي يجيب صاحبه إلى الناس ، ويجذب قلوبهم إليه . يقول النعمان<sup>(٥)</sup> : « وحضرت يوما مجلسه فتحدث مليا ، ثم قال لبعض الخدم بين يديه : أصلح الحمام . قال : نعم ! فجلس بعد ذلك طويلا ، ولا أشك إلا أنه قد كان أمر قبيل ذلك بإصلاحه ، ثم دعا الفرس فركبه ، ومشينا بين يديه إلى الحجرة التي فيها<sup>(٦)</sup> الحمام من قصره ، فدخل ، ونزل ليدخل الحمام ، فأصاب بابه مقفلا ولم يصلح بعد ، فستل عن المفتاح فلم يوجد ، فوقف طويلا وما تنكر حاله ، ولا

(١) في الأصل ما تملأ .

(٢) في الأصل يرفعون .

(٣) في الأصل ويفعه .

(٤) النعمان : المجالس والمسايرات ج ١ ص ٣١١ - ٣١٢ .

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٠٩ .

(٦) في الأصل فيه .

بدا منه غضب ، ولا قال في ذلك قولا . ثم دعا بالكروسي مجلس ، وجعل يتحدث ، حتى أتى بالمفتاح ، وأصلح الحمام ، وقام فدخل ، وما حرك ذلك منه ساكنا ، ولا هاج كائنا . هذا الخليفة الذي يحلم هذا الحلم على خدمه وعبيده ، قد هاجه اعتراض سفن الخليفة الناصر الأموي لسفينة صغيرة من سفنه ، وأثارها حربا دامية في البر والبحر .

أما تقوى المعز وورعه ، فحدث عنهما ولا حرج ؛ كان المشل الأعلى للملك الورع التقي ، لم يغيره الملك ولا الجاه ، ولم يعيب كما كان الخلفاء الأمويون في المشرق والمغرب يعيبون ، ولا كما كان كثير من خلفاء العباسيين ووزرائهم وأمراءهم يفعلون . فلم يعرف عنه أنه شرب الخمر ، أو خالف أوامر الدين ونواهيها ، بل كان المشل الأعلى للحاكم الذي يحافظ على أوامر الشرع ، يقضى سبحانه يومه في النظر في شئون الرعية ، والحكم فيهم بما أنزل الله ، وأتى به الرسول ، أو في الاطلاع والبحث والدرس ، أو في تأليف الكتب والمقالات إلى الدعاة والمدعوين والمعال .

وبما يدل على ورع المعز ما أورده الثعالب من أنه حضر عيد الفطر وتقدمه يوم (١) عظيم ، وكثير من الوحل والطين ، وذكر ذلك للإمام المعز لدين الله (ص) ، وما بالمصلي منه ، وما في الطريق إليه من الماء والوحل والطين ، وظنوا أنه يصلي صلاة العيد في المسجد ، فقال (ص) : يكون من ذلك ما كان ، لا بد من قضاء فرض الله تعالى في البراح ، علي ما أمر به جل ذكره ، وسنة رسول الله (ص) وقال المعز : وهذا من أقل ما ينبغي أن يفعل في ذات الله وأكثر منه . والله لو حبونا في الطين حبوا على الركب ، وكان ذلك مما يرضى الله عنا ، ويقبله منا ، لفعلناه . إن رسول الله (ص) يقول : إذا سمعتم داعيا إلى أهل بيتي ، فسارعوا إليه ولو حبوا على الثلج والنار ؛ فإذا كان الله تعالى قد أوجب لنا هذا على عباده ، ونحن خلق من خلقه ، قد ابتدأنا بفضلله ، وأنعم علينا بإحسانه ، فكيف بما يجب علينا للخالق جل ذكره أن نرخص فيه ، أو نتماظم مشقة تدخل علينا من أجله . معاذ الله أن نستكبر عن عبادته ، أو نستحسر في طاعته . وخرج (عم) ، وخرج الناس في غد يخوضون الماء والطين ، فما انصرفوا إلا وقد تخضبوا فيه ، وامتلاأت ثيابهم منه . وكان

(١) النور : العواصف واضطراب العر .

مشهدا يرضى الله من وليه ، ومن ذهب فيه مذهبه (١) .

كما اشتهر المعز لدين الله بالجود ، فكان يعمل على إسعاد شعبه ، وينفق على إصلاح أحوالهم كثيرا من أمواله . انظره وقد أرسل كسوة الكعبة ، فكانت أعظم من غيرها إذا ضُوهيت بكسوة العباسيين وسواهم . ثم انظره ينفق الأموال الضخمة على أبناء رعيته حين قام بختان أبنائه ؛ يدل على ذلك قول المعز نفسه : « والله لقد كفيننا كثيرا عن اختصاصنا . منهم من أوليائنا وعبيدنا أمر دنياهم ، وأطعمناهم مما نأكل ، وكسوناهم مما نلبس ، وشاركناهم فيما نملك . ولأنهم ليأكلون من ذلك ، ويلبسون ويملكون ما لا تعب ولا نصب ولا كلفة عليهم فيه ، وإننا لتعب وننصب وتكلف ذلك لهم ؛ فهم على ذلك أخفض عيشا منا فيه ، وأقل تعباً واهتماماً به (٢) . »

وكان المعز عالما متشرعا من متشرعي المذهب الإسماعيلي ومؤلفيهم ، ضرب في كل علم بسهم وافر . ولا غرو فقد كان متوفرا على البحث والاطلاع ، لا يجد اللوم إلى نفسه سيلا . وكان ، كعامة الإسماعيلية ، يعتقد أنه منبع العلم والعرفان ، وأن التعليم من الأئمة هو التعليم الحق . وقد رأينا مدى مساهمته في حركة التأليف والتثقيف ونشر الدعوة ، كما رأينا تشجيعه العلماء والمؤلفين من أمثال النعمان المغربي . وهكذا نستطيع أن نقول في غير إسراف : إن المعز لدين الله كان أكبر شخصية في العالم الإسلامي في عصره ، فقد فاق بثروته وانتصاراته وأخلاقه الخليفة الأموي الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) ، وكان معاصرا له ، وفاق المطيع والطائع العباسيين ، ولم يستطع أحد من أمراء عصره أن يصل إلى ما وصل إليه من قوة ونفوذ .

### ٥ - خاتمة القول في المعز لدين الله :

كان عصر المعز لدين الله عصرا ممتازا في تاريخ الدولة الفاطمية ، وكانت حياته حافلة بجلائل الأعمال . وقد رأينا كيف كان في جميع أطوار حياته مثلاً أعلى . وكان في طفولته حاد الذكاء ، تحوطه عيون الأئمة ، وبرعاه الخلفاء . ولا غرو فقد كان إمام

(١) النعمان : المجالس والمساربات ج ٣ ص ٤٤٠ - ٤٤٢ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٠١ - ٢٠٢ .



استقرار ، تنبأ له أبوه بالسمو في عالمي الخلافة والدعوة . واعتمد عليه كل من القائم والمنصور ؛ فكان يسندان إليه القيام بكثير من أمور الدعوة والدولة ، وأخذ يصرف شئون الدواوين في مهارة فائقة جعلته موضع الإعجاب والتقدير . كما افاد كثيرا من المحن والخطوب التي ألمت بالدولة الفاطمية في طفولته وشبابه ، فأحالته إلى رجل عرك الحياة ، لاتصرعه الجوادث ولا تزعزعه الخطوب . فكان لهذا كله أفضل أمراء البيت الفاطمي ، وأحقهم بالاضطلاع بالملك والدعوة ، فعهد إليه أبوه المنصور بالخلافة من بعده ، فجاء اختياره موفقا غاية التوفيق .

وقد استطاع المعز لدين الله أن يشكل جغرافية شمالي إفريقية بالشكل الذي يتغيه ، واستطاع أن يوحد بين ربوع هذه البلاد الشاسعة ، ويكون من برقة وطرابلس وتونس والجزائر ومرراكش وحدة فاطمية تدين له بالولاء والطاعة ، بحيث كان يلقى أوامره من المنصورية أو القاهرة ، فيليبها المغاربة من سواحل المحيط الأطلسي حتى حدود مصر الغربية .

كانت مناهج المعز الحربية في إفريقية حافلة بالأعمال والخطط الواسعة ؛ كان عليه أن يقضى على الأمراء الذين يحاولون الاستقلال بولاياتهم الإفريقية ، فكان ينفس عليهم هذه الزعامة . ويضع الخطط للقضاء عليهم ، ويرسل إليهم الجيوش تلو الجيوش . ويبعث إليهم بدعائه لغزو أفكار الناس في بلادهم ، وتهينة الأمور لسيوف المعز لتعمل عملها بعد حين ، كما كان يبذل قصارى جهده لإذلال هؤلاء الأمراء حتى يكونوا عبدة لسواهم ، فلا تحذتهم أنفسهم بالخروج عليه . ولهذا كان يمثل بهم أشنع تمثيل ، وكذلك استطاع أن يقضى على نفوذ قبائل زناتة التي حاولت الاستقلال عن الفاطميين ، وأن يفيل شوكة أبناء عمه الأدارسة ويقضى على دولتهم ، كما استطاع أن يقضى قضاء تاما على بيت ابن أبي العافية ، الذي كان شوكة في جنب الفاطميين منذ أيام الخليفة المهدي ( ٥٣٢٢ هـ ) .

وكانت سياسة المعز لدين الله ترمي إلى القضاء على جميع أمراء المغاربة الذين يحاولون الاتصال بالأمويين في الأندلس ، حتى لا يترك لأعدائه الأمويين فرصة تغلغل نفوذهم السياسي في بلاده . وكان لجهوده في هذه السبيل أثر ملموس في القضاء على نفوذ هؤلاء الأمويين ، الذين كانوا يرمون من ورائها إلى الاستقرار في إفريقية .

ولم تقف جهود المعز عند ذلك الحد ، فقد كان من سياسته أن يرث الأمويين في الأندلس ، ولذلك عول على غزو شبه جزيرة أيبيريا ، وأعد لهذا الأمر عدته ، واستعان بأسطوله الإفريقي ، كما استعان بأسطول صقلية الفاطمي . ولولا مهارة الخليفة الناصر الأموي ، ومخالفته الروم على الفاطميين ، واستغلال عنصر المفاجأة في حروبه مع المعز ، واستقراره في سبته وطنجة ، لاستطاع المعز لدين الله أن يحتل شبه جزيرة أيبيريا ، وينشر الإسلام في أوروبا .

وقد عثرنا على وثائق تاريخية هامة معاصرة ، تبين العلاقة بين المعز الفاطمي وعبد الرحمن الناصر الأموي . وهذا الموضوع لم يتناوله - فيما نعلم - أحد من قبل . فقد عثرنا في كتاب « المجالس والمسائرات » للنعمان المغربي ، على أكثر من مائة صفحة ، قصرها هذا المؤلف على بحث العلاقة بين الأمويين والفاطميين في عهد المعز ، ودون الرسائل التي تبودلت بين هؤلاء وأولئك ، مما أفادنا كثيرا في بيان العلاقة بين المعز والأمويين في الأندلس .

ويعتبر ما أوردناه عن علاقة المعز بجزيرة إقريطش ، من أحدث ما كتب في هذا الموضوع ؛ فقد أوضحنا علاقة المعز بالإخشيديين في منتصف القرن الرابع الهجري ، بالروم في سنة ٣٥٠ هـ ، وبمسلمى هذه الجزيرة ، وشرحنا العوامل السياسية التي ساعدت المعز على التدخل في شئون جزيرة إقريطش ، وجعلها حلقة اتصال بين الشرق والغرب ، واعتمدنا فيما ذكرناه في هذا الموضوع على المصادر المعاصرة .

أما موقف المعز لدين الله من جزيرة صقلية ، فقد بينا كيف اعتمد هذا الخليفة في صراعه مع الأمويين في الأندلس والبيزنطيين في قلورية ، على سيوف مسلمى هذه الجزيرة ، وكيف كان موقع هذه الجزيرة من عوامل انتصار الفاطميين على الأمويين والروم ، وبيننا تلك الجهود الهائلة التي بذلها المعز لدين الله ، هو وولاته الكلبيون في النهوض بهذه الجزيرة وإقصاء الروم عنها ، وذهبنا إلى القول بأنه لولا قيام إمبراطورية أوتو الجرمانى ، ووقوفها في وجه الفاطميين ، لاستطاع المعز أن يغزو إيطاليا جميعها ، ويضمها إلى ملكه الواسع في شمال إفريقيا ، كما بحثنا العلاقة المباشرة بين المعز وأسرّة الحسن الكلبى بحثا مستفيضا ، وانتهينا من هذا كله إلى القول بأن عهد المعز يعتبر العصر الذهبي لجزيرة صقلية .

بهذا كله نستطيع أن نقول ، إن المعز لدين الله لم يسير جيوشه إلى مصر سنة ٣٥٨ هـ ، إلا بعد أن أصبح شمال إفريقية وجزيرة صقلية موحدا تحت رايته . وعلى الرغم من انتقاله إلى مصر واتخاذ مدينة القاهرة بدل المنصورية حاضرة لدولته ، ظل سلطان الفاطميين في بلاد المغرب على قوته ، ولم يحاول الصنهاجيون الاستقلال بهذه البلاد إلا في عهد المستنصر الفاطمي .

ولم يكن توحيد بلاد المغرب وصقلية تحت راية الفاطميين كل ما كان يسعى إليه الخليفة المعز ، بل إنه كان يرمي إلى ضم بلاد الشام ومصر إلى إمبراطوريته الواسعة . وكان لذلك العداء التقليدي بين الفاطميين والعباسيين أثره في اتجاه الفاطميين نحو مصر والشام ؛ ولا غرو فقد استغل ضعف العباسيين والإخشيديين ، والعداء بين التشيع الذي يدين به الفاطميون والسنية Sunnism التي يدين بها العباسيون ، وهذه الانتصارات الرائعة التي أحرزها على الأمويين والروم وأمراء المغرب ، للتأثير في جنوده للمسير إلى هذه البلاد . لذلك لم يكفد المعز ينتهي من تلك الحروب ، حتى حول أداة حربه إلى المشرق ؛ فتم له ما أراد ، وفتح مصر والشام في شهور معدودات ، واستطاع بذلك أن يخضع شمالي إفريقية كافة ، وجزءا كبيرا من آسيا ، ومات المعز وقد امتدت بلاده من شمال الشام حتى سواحل المحيط الأطلسي .

ولم تكن مهمة المعز في المشرق قد انتهت بفتح مصر والشام . فقد كان يعتبر فتح هذه البلاد خطوة يتلوها فتح بغداد ، وزوال نفوذ العباسيين منها ، وكان عليه فوق ذلك أن يقف في وجه الروم الذين أخذ نفرذهم يطغى على بلاد الشرق الأدنى منذ منتصف القرن الرابع . ومن ثم اتخذ دمشق قاعدة يوجه منها جيوشه لصد الروم في شمال الشام . إلا أنه سرعان مادهم خطر القرامطة ، إخوانه في المذهب والعقيدة . وقد بحثنا موقف المعز من هؤلاء القرامطة بحثا مستوفي ، وعزونا أسباب العداء الذي قام بينهم وبين المعز إلى تدخل هذا الخليفة في شئونهم الداخلية ، وإيثاره أبناء أبي طاهر على أبناء أبي سعيد ، وبيننا كيف حز ذلك في نفوس الفئة الحاكمة ، فأشعلوا نار الثورة على زعيمهم الأول ، المعز لدين الله . أضف إلى ذلك أن العباسيين استغلوا هذه المنافسة التي تفاقمت بين المعز والقرامطة ، وأثاروا الفئة القرمطية الحاكمة على المعز ، ليشغلوه عن قصد بغداد . وقد نجح العباسيون في هذه

السياسة نجاحا منقطع النظير ، فانضم الأعمش إليهم ، ورفع السيف في وجه سادته ورؤسائه في المذهب . ومن ثم كان الصراع بين هؤلاء وأولئك صراعا بين السنين والشيعة .

وقد تمكن القرامطة بمساعدة العباسيين والبهيميين والحمدانيين من انتزاع بلاد الشام من الفاطميين وتهديد مصر نفسها . ولولا مهارة المعز السياسية والحربية ، لما استطاع أن يسدد الضربات للحسن الأعمش وأنصاره ، ويطرده من مصر ، ويطارده جيشه إلى الشام . وما زال المعز بالقرامطة المنافسين له ، حتى رد رئيسهم إلى بلاد البحرين ، وأثار النزاع بين أنصارهم في بلاد الشام ، التي لم تلبث أن خضعت له .

من ذلك نرى أن العباسيين لم يحققوا سياستهم التي ترمى إلى استرداد مصر والشام على أيدي القرامطة . غير أنهم استطاعوا أن يحولوا دون استيلاء الفاطميين على بغداد . ولو لم يكن لتدخل العباسيين في ذلك الصراع الذي قام بين القرامطة والمعز من أثر سوى صد الفاطميين عن بغداد ، لكان ذلك أقصى ما وصلت إليه السياسة العباسية من نجاح في هذه السبيل .

ولم يعترف العباسيون بهذه الهزيمة ، ولذلك شاركوا هم والبهيميون في الحركة التي قام بها أفتكين . فكانت ثورتا الأعمش القرمطي وأفتكين التركي نوعا من أنواع الصراع العنيف الذي قام بين الفاطميين الشيعة والعباسيين السنين . وعلى الرغم من هذا كله استطاع المعز أن يحتفظ لنفسه بمعظم بلاد الشام ، وأن يعد إلى الأبد خطر القرامطة عن مصر ؛ ولو مد الله له في أسباب الحياة ، لاستطاع بلباقته أن يعد خطر أفتكين عن الشام .

وكان لنظم الحكم المحكمة التي سار عليها المعز لدين الله أثر بعيد في رقي بلاده . ولا غرو فقد كان المعز يمثل الحاكم المستنير ، الذي يجمع في يده السلطات كلها . ولكنه كان يسعى دائما لإسعاد شعبه ، فكان يعتبر الحكم أمانة من الله ائتمن عليها ، وأن زعامته للمسلمين واجب ألقاه على عاتقه انتسابه إلى الرسول ﷺ . ولذلك كان ينفس على الخلفاء العباسيين والأمويين ، لأنهم اغتصبوا الحق من أهله ، كما

كان يعتر بلقب « إمام » و« أمير المؤمنين » ، ويحقد على الناصر الأموي والمطيع العباسي وغيرهما انتحاهم لقب « أمير المؤمنين » ، ويعتر بانتسابه إلى الرسول . فلم يكن يعتمد في تأييد هذا النسب - كما ذهب إليه بعض - على سيفه وذهبه ، بل كان يستغل انتسابه إلى الرسول ليحمل الرعايا على طاعته ، وينادى أن من عصاه فقد عصى الله ورسوله ، ومن أطاعه فقد أطاع الله ورسوله . وهذا يفسر لنا التفاف رعيته من حوله ، وإخلاصها له . كما كان المعز يعتقد أن الفاطميين سيرثون العالم ، وأن هذا وعد الله بإمام ، وأن الله سينجز وعده عاجلا أو آجلا ، وكان يتمنى أن يتم ذلك على يده ، لذلك حاول فتح أسبانيا ، ثم فتح مصر والشام وود لو تم له فتح العراق وإخضاع العالم الإسلامي كافة .

ولم يترك المعز شيئا كثيرا من النفوذ لرجال دولته ومعاونيه ، حتى لا يستبدوا بالأمور دونه ، كما فعل البويهيون مع العباسيين ؛ كما أنه لم يهمل شؤون دولته ، وينغمس في العبث والمجون كغيره من الخلفاء ، بل كان يشرف على جميع شؤون الدولة صغيرها وكبيرها ، ويستعين بأخلص الناس إليه في إدارة الحكومة المركزية . وقد اعتمد على جوهر الصقلي ، فاتخذ منه كاتباً وقائداً ووزيراً ، ولكنه لم يترك له من النفوذ ما يساعده على الاستبداد ، فيمثل الدور الذي مثله البرامكة مع العباسيين ، وإنما جعله وزير تنفيذ فقط ، يآتمر بأوامره ، وينتهي بنواهيه . ولم يشأ المعز أو قائده جوهر أن يترك شيئا من النفوذ للوزير ابن الفرات ، فخذاً من نفوذه ، وعينا الجواسيس تتبعه كظله .

وأما النظام الإداري الذي سنه المعز لإدارة البلاد ، فقد عنى بإدارة الولايات المختلفة ، واختار حكامها من أكفأ رجاله وأخلصهم لدولته ومذهبه . ولم يجعل لمبدأ الوراثة مكانة بين موظفيه ، بل كانت الكفاية والإخلاص من أهم المؤهلات التي يعتمد عليها في اختيارهم . وقد سن المعز لموظفيه مبادئ سداها الإخلاص لشخصه ، ولحتمها التفاني في سبيل حماية الدولة .

واهتم المعز لدين الله بتقسيم بلاده إلى ولايات كبرى ، يعين عليها الولاة الذين يشق بهم . وعلى الرغم من أنه منح هؤلاء الولاة شيئاً من الحرية ، كان كثير التجسس عليهم ،

كما كان يعين كثيرا من عمال المدن المختلفة بنفسه ، ويتصل بهم مباشرة أو عن طريق  
حكام الولايات الكبرى . ومهما يكن من شيء ، فقد كانت الكلمة العليا في القرية  
والمدينة والولاية للمعز دون سواه . وكثيرا ما كان المعز يعتمد في إدارة بعض  
الولايات على جيوش الاحتلال ، التي يسيرها إلى هذه الولايات ، لمعاونة الولاة ،  
وإخضاع الثورات ، كما كانت الحال في بلاد الشام وبعض بلاد المغرب الأقصى وصقلية .

ومما يدل على ميل المعز إلى الاستئثار بالحكم ، وسلب السلطة من أيدي ولاته في  
الأقاليم ، أنه لم يترك لبلكين بن زيري بن مناد ، شيئا من النفوذ أو السلطان في  
كثير من الولايات المغربية ؛ لجعل صقلية وطرابلس وبرقة وبعض المدن الهامة  
تخضع لشخصه هو في مصر دون بلكين . وبذلك ضمن ولاء أهالي هذه الولايات  
للخلافة الفاطمية حينما من الدهر . ولم يستطع هذا البيت الصنهاجي أن يستقل ببلاد  
المغرب ، إلا بعد أن عهد العزيز وخلفاؤه إليهم بالإشراف على كثير من هذه  
الولايات ، وبخاصة طرابلس وبرقة ، مما يدل على بعد نظر المعز لدين الله .

أضف إلى ذلك أن المعز كان يعين بجانب الولاة جماعة يثق بهم ليكونوا  
عيونا على الولاة . ومن هؤلاء الجباة وأصحاب الخراج . وقد رأينا كيف استعان  
المعز بابن القديم ليكون عيناه في تونس ، حتى لا يستبد بها الصنهاجيون . وبفضل  
هذا كله ظلت إمبراطوريته الفسيحة ، على ولائها وإخلاصها له وهو بالمنصورية  
ثم بالقاهرة .

وقد اهتم المعز في إدارة بلاده بالشرطة ، سواء أكان ذلك في حاضرة الدولة  
التابعة لها أم في الولايات . وبفضل نظام الشرطة ساد الأمن وانتشرت الطمأنينة في  
ربوع الإمبراطورية الفاطمية . واتخذ المعز من الشرطة أداة لحفظ هيئته وهيبته  
الخلافة ، وبقي نظام الشرطة في مصر على ما كان عليه في عهد الإخشيديين ، وأسند  
أعمالها إلى المخلصين له من المغاربة . والحق أن المعز لدين الله وضع دستوراً جديداً  
للوظائف في مصر ، حيث أشرك المغاربة مع المصريين في الوظائف ، واستطاع  
بفضل هذا النظام أن يبقى على كثير من النظم التي كانت سائدة في مصر ، ولا يثير  
كرهة المصريين ، مما أدى إلى استقرار الأمور في عهده .

كما كان للنظام المالى الدقيق الذى وضعه المعز أثر ملحوظ في نهضة الدولة ، فقد استعان بمبادئ المذهب الإسماعيلى الذى يحتم على الأشياع أن يؤدوا خمس أموالهم للإمام . وكذلك عنى المعز بدواوين الخراج ، وأسند إدارتها إلى أشد الناس إخلاصا له ، واهتم بالمكوس والتجارة الداخلية والخارجية ، فامتلات خزائنه بالأموال الكثيرة ، التى ساعدته على النهوض ببلاده . كما استطاع المعز بفضل هذا النظام المالى الدقيق أن يبنى أسطولا ضخما ، ويجمع جيشا قويا ، استطاع بهما أن يصد الأعداء عن بلاده ، ويقف حجر عثرة في وجه الأمويين والروم . وليس هذا وحده ، بل استطاعت خزائنه أن تمد جيوشه بالأموال والإمدادات ، ومن ثم قضى على الثورات في بلاده ، وتم له فتح مصر في سهولة ويسر .

أما النظام الحربى الذى اعتمد عليه المعز ، فقد كان راجعا إلى اهتمامه بالجيش الدائم ، وقصر جيشه على أشياعه المخلصين له ، فأسند قيادته إلى قواد عرفوا بالحزم والإخلاص للفاطميين . كما عنى المعز بنظام التجنيد الإجبارى ، وملأ البلاد بتوقيعاته الكثيرة التى تثير حماسة رعاياه ، وتدفعهم إلى حمل السلاح في سبيل الذود عن بلادهم . وسلك المعز ما يسلكه قادة الدول اليوم ، من الاهتمام بإمداد الجيوش المهاجمة ، وربطها بحاضرة الدولة ؛ فكان يمد جيوشه عن طريق البر والبحر ، وينفذ معها رجال المال والإنفاق عليها . كما لم يترك نظام الجنود المرتزقة ، فكان لإغداقه الأموال على الجنود أثره في إقبال كثير من الناس على الانضمام إلى طائفة المرتزقة .

ومن مآثر المعز أنه كان يتفق على جنوده المحاربين ، وعلى ذويهم أيضا ، بل كان يجعل لهم معاشا سنويا إذا وقع عائلهم في ساحة القتال ، كما كان يشجع المحسن منهم بتعيينه في أرقى المناصب ، وإقطاعه الإقطاعات الكثيرة . ومن مآثر المعز لدين الله ، أنه كان يمنح قواده شيئا غير قليل من الاحترام ، فكان يحتم على أبنائه وأقاربه وكبار ولاته ، أن يظهروا للقواد ولاءهم واحترامهم ، مما ساعد على التفاف الجنود حول قوادهم ، وإخلاصهم لهم .

وعلى الرغم من أن المعز كان يعتمد في تكوين جيوشه على العصبية ، فيجعل من الكشامين فرقا ، ومن الصنهاجيين والآتراك وسواهم فرقا أخرى ، كانوا جميعا

يخضعون لقوادهم خضوعاً أعمى . وبفضل هذه النظم التي سنّها المعز ، استطاع أن يسير إلى مصر جيشاً لا يقل عن مائة ألف رجل ، مزودين بالمال والعدة والسلاح ، استطاعوا أن يضموا إلى أملاك الدولة الفاطمية : مصر والشام ، ويهددوا العراق نفسها . وبفضل هذه النظم نبغ كثير من القواد الذين كان لأعمالهم أثر بعيد في الشرق والغرب .

ناهيك عن عناية المعز بالأسطول ، فقد اتخذ من مدينتي المهديّة وسوسة في المغرب ، والإسكندرية ودمياط والفسطاط والمقس في مصر ، قواعد أساسية لعمارة السفن . والحق أن أسطول الفاطميين في عهد المعز كان من أقوى أساطيل العصور الوسطى ، وبفضله استطاع هذا الخليفة أن يحول البحر الأبيض الشرقي إلى بحيرة فاطمية . وغدت سفنه في الإسكندرية ودمياط وعسقلان وصُور مصدر فزع البين نظيين وخوفهم .

وكان المعز يضيء على رجال أسطوله شيئاً غير قليل من التجارة والاحترام ، حتى لقد قيادة الأسطول رجلاً لا تقل رتبته عن رتبة الوزراء ، كما كان الخليفة نفسه ينفق على الأسطول في غزواته ، ويغدق الرتب والأموال على رجاله ، ويبني المناظر ليشرق منها على أسطوله في غزواته وروحاته . وبفضل هذا الأسطول البحري ، بلغت الدولة الفاطمية في عهد المعز أقصى ما وصلت إليه من قوة ونفوذ .

وكذلك عنى المعز لدين الله بالنظام القضائي ، واتخذ وسيلة لبث العقائد الشيعية والفقهاء الشيعي ، وفوض إلى أبي حنيفة النعمان أمور القضاء ، وعهد إليه في تعيين قضاة الأقاليم ، فكان النعمان بذلك أشبه بوزير العدل عندنا اليوم . كما كان المعز شديداً في الحق ، لا يخشى فيه لومة لائم ، يكثر النصيح لقضاته ، ويشرف عليهم وينقح أحكامهم . ولاغرو ، فقد جعل المعز قاضي قضاته يقوم بالفتيا إلى جانب نظره في القضايا في قاعدة الدولة . وليس من شك في أن القضايا والأحكام كانت تصدر وفق عقائد المذهب الإسماعيلي ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن القضاء عند الفاطميين كان لونا من ألوان الدعاية للمذهب الإسماعيلي .

وقد نجح المعز وجوهر الصقلي في تنظيم القضاء بمصر ، فلم يترك القضاء السنين الفرصة ليصدروا أحكامهم وفق عقائد السنين ، بل أشركا معهم قضاة من الشيعيين .



وهكذا وضع المعز لدين الله في مصر نظام إقصاء القضاة السنيين ، ثم تعهد أبناؤه هذا النظام حتى أضحى للقضاء الإسماعيلي السيادة في البلاد المصرية . وهكذا نهض المعز بالقضاء الإسماعيلي في مصر ، كما نهض به في بلاد المغرب ، دون أن يثير كراهية المصريين له ، وسخطهم عليه .

وكذلك اهتم المعز بالحسبة التي تعد وسطا بين القضاء والمظالم ، وأشرك المغاربة في إدارتها ، وما زال يقوى من نفوذهم حتى آلت هذه الوظيفة إليهم . وكان لتحويل الحسبة إلى أيدي الإسماعيلية في عهد المعز أثره في كبح جماح التجار ، وإقرار الأمن والطمأنينة في البلاد ، في الوقت الذي لم تسكن أقدام الفاطميين قد استقرت بعد في مصر .

وقد اهتم المعز بالنظر في المظالم ، فكان ينظر فيها بنفسه وهو بالمغرب ، ويفخر بذلك اعتقادا منه أنه يأتيه بجده علي بن أبي طالب . وقد حاكى جوهر الصقلي مولاة المعز في ذلك ، فكان يجلس للنظر في المظالم في بعض أيام الأسبوع ، ويعمد لغيره بالفصل في القضايا ، حتى إنه اتصر لإحدى الآيات الإخشيديات - كما رأينا . وبهذا نرى أن نظم الحكم التي وضعها المعز لدين الله ، كانت أساسا صالحا ارتكز عليه أبناؤه وأحفاده في رفع شأن دولتهم .

وقد بلغ اهتمام المعز بالفن والثقافة مبلغا عظيما ، فعنى بالعمارة في المغرب ومصر ، وأكثر من بناء القصور ، وتنسيق الحدائق في المنصورية ؛ كما شق القنوات التي تصل إلى حاضرة الدولة ، وتزيد من بهجتها وجمالها ، حتى لقد بهرت حاضرة المعز سفراء الدولة البيزنطية ، لما شاهدوه من اتساع ميادينها وكثرة حدائقها وعظمة قصورها . ولا غرو فإنه قصر البحر الذي بناه المعز في المنصورية ، كان مفخرة من مفاخر الفاطميين ، وقد فاق بجماله وروعته قصور بغداد وقرطبة .

أما في مصر فقد نهض المعز بفن العمارة نهضة تراها في تأسيس مدينة القاهرة المعزية ، وما اكتنفها من شوارع منظمة وميادين واسعة . وكان للذهب الشيعي أثر كبير في عمارة القاهرة ، فقد حاطها المعز بسور ضخم ، حتى يستطيع أتباعه أن يؤدوا شعائرهم الدينية الشيعية بعيدين عن مضايقة السنيين ، ويستطيعوا أن يصدوا الأعداء

إذا حاولوا إخراجهم من مصر . وكان المعز كان يخشى ثورة المصريين عليه ، كما كان لبناء سور القاهرة أثر كبير في صد القرامطة عن مصر .

وكانت القاهرة في عهد المعز مدينة حربية ، فقد قام بتأسيسها لإيواء جيوشه . ولذلك قسمها إلى خطط وحصارات ، وجعل لكل جماعة من جنوده حارة ، فهناك حارة للصامدة ، وأخرى للدكتامين ، وثالثة للأتراك ، ورابعة لزويلة ، وهكذا .

كما أن بناء الجامع الأزهر ، الذي يعد بحق أعظم آثار الفاطميين ، لم يكن إلا لتحقيق غرض مذهبي بحت ، فقد رمى المعز من وراء بنيانه إلى اتخاذ مسجدا لأداء شعائر المذهب الإسماعيلي من جهة ، ومدرسة لتعليم عقائد هذا المذهب من جهة أخرى . وقد بنى جوهر لمولاه المعز قصرا كبيرا فاق في فخامته وأهيمته قصر البحر في المنصورية . وقد ذكر المؤرخون أن المعز لدين الله هو الذي وضع لجوهر خطة بنيانه ، فوضعه على الأسلوب الذي رسمه له (١) . وكان الغرض من بنيانه أن يكون مقرا للخلافة ، وأن يتخذ من أهائه مدارس لنشر مبادئ المذهب الإسماعيلي . وكان قصر المعز هذا أشبه بمستعمرة أو مدينة صغيرة ، حتى لقد ذهب بعض إلى القول بأن حجراته كانت تزيد على أربعة آلاف . وهكذا نهض المعز بالعمارة في المغرب ومصر ، وإليه يرجع الفضل في تأسيس مدينة القاهرة التي تعد من أمهات المدن الإسلامية اليوم ، والأزهر الشريف الذي كان ولا يزال منبعاً للعلوم والمعارف . كما عنى المعز بالثقافة عنايته بالفن ، فعمل على تشجيع الثقافة العلمية والمذهبية ، وكان يعقد المجالس العلمية في قصره بالمنصورية خاصة ، ويناقش العلماء والفلاسفة ، ويبحث رعاياه على الإطلاع والبحث ، ويرى الخير كل الخير في أن يحكم شعبا مثقفا ، لا شعبا جاهلا . أضف إلى ذلك تشجيعه العلماء والشعراء ، وإدراجه الأموال عليهم . وكان في الوقت نفسه يشجع المؤلفين ، ويشرف على النهضة العلمية ، وينقد العلماء . وليس هذا وحده ، بل إنه فتح أبواب قصره للعلماء . وجعل مكتباته تحت تصرفهم . ومن ثم اشتغل الناس بدراسة كثير من العلوم في عهده ، كالتفسير والحديث والمناظرة والفقه والكلام والوعظ والتأويل ، وما إليها . والحق أن المعز كان من

(١) المقرئ : خط ١٠ ص ٢٨٤ .

كبار العلماء والمثريين ؛ فكان مؤلفاً وقيماً ومتكلماً ومفسراً ومحدثاً وفيلسوفاً . ويعتبر عصره من أزهى عصور الخلفاء الفاطميين من الناحية العلمية ، حتى لقد نبغ في عهده علماء كثيرون ، وشعراء كثيرون ، كابن هاني الأندلسي ، وتميم بن المعز . أما الثقافة المذهبية الخاصة بالدعوة الإسماعيلية والمذهب الإسماعيلي ، فقد انتشرت انتشاراً واسعاً في كل من المغرب ومصر ، حتى كان المعز نفسه يكتب الكتب والمحاضرات التي كان يطلق عليها « المنشورات » ، ويقدمها إلى داعي دعائه ليلقيها على الناس ، ويبحث بها إلى الإسماعيلية في كافة أنحاء العالم الإسلامي . ولم يكتب المعز بذلك ، بل كان يأخذ العهد على كثير من المستجيبين ، الذين كانوا يفدون إليه من مشارق الأرض ومغاربها .

ولم يقف نشاط المعز عند هذا الحد ، بل عمل على تثقيف أشياعه بعلوم المذهب الإسماعيلي ، أو علوم الباطن - كما كانوا يسمونها - فأخذ يخرج من مكاتبه كثيراً من هذه الكتب ليقراها النعمان داعي دعائه على الأتباع . وكانت هذه المحاضرات أشبه بمجالس الحكمة في مصر ، وكان الإقبال على سماعها في قصر البحر بالمنصورة عظيماً ، كما كان دعاة المعز في كافة أنحاء العالم الإسلامي يقلدون النعمان ، فيلقون على المؤمنين والمؤمنات ( الإسماعيلية ) محاضرات في علوم الباطن .

وقد نهج مؤلفو الإسماعيلية في بلاد المغرب نهجاً جديداً ، فكانوا يضعون في تأليفهم المبادئ التي يجب على الداعي والمستجيب أن يدين بها ، والأسس التي يسير عليها ، ويوضحون فيها ما يجب أن تكون عليه علاقة بعض الإسماعيلية ببعض ، إلى غير ذلك من الأسس التي تنظم المجتمع الإسماعيلي وتدعمه .

أما في مصر فقد عنى الفاطميون بنشر مبادئ المذهب الإسماعيلي مذ وطئت أقدامهم هذه البلاد ، فأنشئوا القاهرة ، وحاطوها بسور منيع ، ليستطيعوا نشر مبادئهم الخالصة في داخل أسوار هذه المدينة ، واتخذوا من الأزهر مدرسة يلقنون فيها الناس مبادئهم الشيعية ، بل عملوا على نشر عقائدهم بين السنين فيه وفي غيره من المساجد ، فأدخلوا في الأذان العبارات المألوفة عند الشيعيين ، مثل « وحى على خير العمل ، ومحمد وعلى خير البشر » ! وشادوا في خطبهم بأمتهم وعقائدهم مذهبهم . وكانوا يقننون في صلاة الجمعة ، إلى غير ذلك من الرسوم الشيعية الخالصة .

وليس من شك في أن الدعوة الإسماعيلية السرية كانت رائجة في مضر وواجهها في المغرب ، إذ لا يمكن الدولة الفاطمية أن تعتمد على هذه التغييرات الشكلية . ومن أشهر من أنجبتهم هذه الدعوة في ذلك الحين ، أبو حنيفة النعمان المغربي ، والداعي جعفر بن منصور البني ، وهما يمثلان أدب الإسماعيلية في بلاد المغرب خير تمثيل .

ومن مظاهر الحياة الاجتماعية في عهد المعز ، هذه الثروة التي كانت تتجلى في مواسم الفاطميين وأعيادهم . ومن أهم مظاهر الثروة تلك الأموال الضخمة التي أنفقها في حروبه برا وبحرا ، وإشراكه رعاياه في أفراحه وأعياده ، فتراه ينفق ملايين الدنانير ، احتفالا بختان أبنائه وأبناء رعاياه ، حتى كانت أيامه ، أيام أعياد ومسرات ، وأفراح وهبات ، . ومن مظاهر عظم الثروة في عهده ، هذه الإعانة التي بعث بها وهو بالمغرب لإنتقاذ مصر ، والهدية الفخمة التي أرسلها إليه جوهر ، والأموال الوفيرة التي أحضرها معه من بلاد المغرب ، والكسوة الفخمة التي كان يبعث بها إلى الكعبة ، حتى فاقت جميع الكسوات التي كان الخلفاء والسلاطين السنيون يبعثون بها . أضف إلى ذلك هذه النهضة العمرانية التي رأيناها في بلاد المغرب ومصر ، والآبة التي كانت تتجلى في قصور المعز ، والثروة التي كان يتمتع بها أبنائه ، إلى غير ذلك ، مما يدل على أن عهده كان عهد رخاء شامل .

أما الحفلات والأعياد ، فقد كان المعز يرمي من ورائها إلى إظهار عظمة الفاطميين ، وجذب الرعية إليه وإلى دولته ودعوته . وكثيرا ما اتخذ هذه الأعياد وسيلة لنشر المذهب الإسماعيلي . والمعز لدين الله كان أول من سن لخلفائه سنة الاحتفال بهذه الأعياد التي زخر بها العصر الفاطمي .

## الملاحق

### الملاحق الأول

رسالة المعز إلى أبي الحسن على الإخشيد ، يطلب إليه إنجاد مسلمي إقريطش (١)

قال المعز : « إن الله سبحانه قد خَوَّلَنَا من فضله وأمدَّنَا من معونته وتأييده ، بما نرى ، بحوله وقوته ، ونصره لنا وإظهارنا على عدونا ، أنا نكسِفُ أيدي الكفرة ، عما تطاولت (٢) إليه من حرب هذا الصُّقْع والإيقاع بأهله . وقد انتهى إلينا أنك أظهرت الحركة إلى الجهاد ، وإمداد هؤلاء القوم بمراكب من قبلك . وأنت لعمري بذلك أجدر لقبهم منك ، واتصالحهم بك ، وميرتهم بلك ، وكونهم وإياك في دعوة واحدة . ولو أسلبناهم إليك ، وقعدنا عنهم ، لما كان لك ولا لهم علينا حجة في ذلك . وإمكننا آثرنا نصره أمة جدنا محمد ﷺ ، ولم نر التخلف عن ذلك ، وقد رجونا له ، وألقوا بأنفسهم إلينا فيه ، ونحن لا نحول (٣) بينك وبين الجهاد في سبيل الله ، ولا نمنعك من تمام ما أملت منه . فلا يكن ما يتصل بك من إنفاذ أساطيلنا يرسبك (٤) عن الذي هممت به من ذلك ، وأن تخشى على من تبعك به وعلى مراكبك منا . فلك علينا عهد الله وميثاقه ، أنا لا نكون معهم إلا بسبيل خير ، وأنا نحلهم محل رجالنا ، ونجعل أيديهم مع أيدينا ، ونشركهم فيما آفاه الله علينا ، ونقيمهم في ذلك وغيره مقام رجالنا ، ومراكبك مقام أساطيلنا ، حتى يفتح لنا إن شاء الله ، ثم ينصرفوا إليك على ذلك ، أو يكون من أمر الله وقضائه ما هو فاعله . فاعلم ذلك ، وثق به منا ، ففي ذلك تظافر المسلمين على عدوهم ، واجتماع كلمتهم ، وإعزاز لدين الله ، وكبت لأعدائه ، فقد سهلنا لك السبيل ، والله على ما نقول وكيل . فإن وثقت بذلك ، ورأيت إيثار الجهاد ، فاعمل على أن تنفذ

(١) العنان : المجالس والمساربات ج ٢ ص ٤١٧ - ٤٢٠ .

(٢) تطاولت أي الكفرة : يقصد الروم .

(٣) في الأصل حول .

(٤) يزخرك وبنيك عن عزمك .

مراكبك إلى مرسى «طبنه» من أرض برقة ، لقرب هذا المرسى من جزيرة إقريطش ،  
ويكون اجتماعهم مع أساطيلنا بهذا المرسى في مستهل ربيع الآخر ( سنة ٣٥٠ هـ )  
بتوفيق الله وقوته وتأيدته ، ونصره وعونه ؛ وإلا تر ذلك ، فقد أبلغنا في المعذرة  
إليك والنصيحة لك ، وخرجنا بما علينا إليك .

ونحن بحول الله وقوته ، وتأيدته ونصره وعونه ، مستغنون عنك وعن غيرك ،  
وعلى عزم وبصيرة في إنفاذ أساطيلنا ورجالنا وعدتنا ، وما خولنا الله إياه ، وأقدرنا  
عليه ، بما نرى ( أننا ) بحوله وقوته نبلغ به ما نؤم إليه بذلك ، ونصعد نحوه . فبالله  
نستمين ، وعليه نتوكل ، وعلى تأييده نعمل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ،

### المطلع الثاني

عهد جوهر الصقلي إلى المصريين (١)

« بسم الله الرحمن الرحيم ! هذا كتاب من جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين  
المعز لدين الله ، صلوات الله عليه ، لجماعة أهل مصر ، الساكنين بها ( من أهلها ) ، ومن  
غيرهم . إنه قد ورد من سائلتموه الترسل والاجتماع معي ، وهم أبو جعفر مسلم الشريف ،  
أطال الله بقاءه ، وأبو إسماعيل الرسى أيده الله ، وأبو طالب الهاشمي أيده الله ،  
وأبو جعفر أحمد بن نصر ، أعزه الله ، والقاضي ، أعزه الله ، وذكروا عنكم أنكم التستم  
كتاباً يشتمل على أمانكم في أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم ؛ ففرقتهم  
ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وحسن نظره لكم .  
فلتحمداً الله على ما أولاكم ، وتشكروه على ما حاكم ، وتدابوا فيما يلزمكم ، وتسارعوا  
إلى طاعته العاصمة لكم ، العائدة بالسعادة عليكم ، وبالسلامة لكم ؛ وهو أنه صلوات الله  
عليه ، لم يكن لإخراجه للعساكر المنصورة ، والجيوش المظفرة ، إلا لما فيه إعزازكم  
وحمايتكم والجهاد عنكم ؛ إذ قد تحطفتكم الأيدي ، واستطال عليكم المستذل . وأطمعته  
نفسه بالاعتدال على بلدكم في هذه السنة ، والتغلب عليه ، وأسر من فيه ، والاحتواء على  
نعمكم وأموالكم ، حسب ما فعله في غيركم من أهل بلدان الشرق ؛ وتأكد عزمه ، واشتد  
كليه (٢) ، فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، بإخراج العساكر

(١) المقرئ : اتعاظ الخفا ص ٦٧ - ٧٠ .

(٢) أى طمعه ، ويقصد بذلك الدولة البيزنطية

المنصورة ، وبأمره بإنفاذ الجيوش المظفرة دونكم ، ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان الشرق ، الذين عمهم الخزي ، وشملتهم الذلة ، واكتسفتهم المصائب ، وتابعت (عليهم) الرزايا ، واتصل عندهم الخوف . وكثرت استغاثتهم ، وعظم ضجيجهم ، وعلا صراخهم ؛ فلم يغتهم إلا من أرمضه أمرهم ، ومضه حالهم ، وأبكى عينه ما نالهم ، وأسهرها ما حل بهم ، وهو مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، فرجا بفضل الله عليه ، وإحسانه لديه ، وما عوده وأرجاه عليه ، استنقاذ من أصبح منهم في ذل مقيم ، وعذاب أليم ؛ وأن يؤمن من استولى عليه المهمل ، ويفرخ روع من لم يزل في خوف ووجل ، وأثر إقامة الحجج الذي تعطل ، وأهمل العباد فروضه وحقوقه ، للخوف المستولى عليهم ؛ وإذا لا يُؤمَّسون على أنفسهم ولا على أموالهم ؛ وإذا قد أوقع بهم مرة بعد أخرى ، فسفكت دماؤهم ، وابتزت أموالهم ، مع اعتماد ما جرت به عادته من صلاح الطرقات ، وقطع عبث العابثين فيها ، ليطرق الناس آمنين ، ويسيروا مطمئنين ، ويتحفظوا بالأطعمة والآقوات ، إذ كان قد انتهى إليه ، صلوات الله عليه ، انقطاع طرقاتها ، لخوف مارتها ، إذ لا زاجر للعتدين ولادافع للظالمين ؛ ثم تجويد السكَّة ، وصرفها إلى العيار الذي عليه السكَّة الميمونة المنصورة المباركة ؛ وقطع الغش منها ، إذ كانت هذه الثلاث خصال ، هي التي لا يسع من ينظر في أمور المسلمين إلا إصلاحها ، واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها ؛ وما أوعز به سيدنا ومولانا أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه ؛ إلى عبده من نشر العدل ، وبسط الحق ، وحسم الظلم ، وقطع العدوان ، ونفي الأذى ، ورفع المؤن ، والقيام في الحق ، وإعانة المظلوم مع الشفقة والإحسان ، وجميل النظر ، وكرم الصحبة ، ولطف العشرة ، واقتفاء الأحوال ، وحياسة أهل البلد في ليالهم ونهارهم وحين تصرفهم في أوان ابتغاء معاشهم ، حتى لا تجرى أمورهم إلا على ما لمَّ شعنتهم ، وأقام أودهم ، وجمع قلوبهم ، وألف كلتهم على طاعة (ولييه) ، مولانا وسيدنا أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه ، وما أمره به مولاه من إسقاط الرسوم الجائرة ، التي لا يرتضى صلوات الله عليه بإثباتها عليكم . وأن أجريكم (١)

في الموارث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأضع ما كان يؤخذ من تركت موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفى بها ، فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال . وأن أتقدم في رم مساجدكم وتزيينها بالفرش والإيقاد ، وأن أعطى

(١) في الأصل أجريكم .

مؤذنها وقتومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم ، وأدرها عليهم ، ولا أقطعها عنهم ،  
ولا أدفعها إلا من بيت المال ، لا بإحالة على من يقبض منهم ؛ وغير ما ذكره  
مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، مما ضمنه كتابه هذا ، من ترسل عنكم ،  
أيديكم الله وسانكم أجمعين ، بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ،  
من أنكم ذكرتم وجوها التسم ذكرها في كتاب أمانكم ، فذكرتها إجابة لكم ، وتطمينا  
لأنفسكم ؛ فلم يكن في ذكرها معنى ، ولا في نشرها فائدة ، إذ كان الإسلام سنة واحدة ،  
وشرعية متبعة ، وهي إقامةكم على مذهبكم ، وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء  
المفروض في العلم ، والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم ، وثباتكم على ما كان  
عليه سلف الأمة ، من الصحابة رضی الله عنهم ، والتابعين بعدهم ، وفقهاء الأمصار ،  
الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وقتواهم ؛ وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر  
رمضان وفطره وقيام لياليه ، والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله في كتابه ونصه  
نبيه صلى الله عليه في سنته ؛ وأجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه . ولكم على أمان  
الله التام العام ، الدائم المتصل ، الشامل الكامل ، المتجدد المتأكد على الأيام ، وكرور  
الأعوام ، في أنفسكم وأموالكم ، وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم ، وقليلكم وكثيركم ،  
وعلى أنه لا يعترض عليكم معترض ، ولا يتجنى عليكم متجن ، ولا يتعقب عليكم  
متعقب ؛ وعلى أنكم تُصانون وتُحفظون وتُحرسون ، ويذب عنكم ، ويمنع منكم ، فلا  
يتعرض إلى أذاكم ، ولا يسارع أحد في الاعتداء عليكم ، ولا في الاستطالة على قويعكم ،  
فضلا عن ضعيفكم ؛ وعلى ألا أزال مجتهدا فيما يعمم صلاحه ، ويشملكم نفعه ، ويصل  
إليكم خيره وتعرفون بركته ، وتغتنبون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين  
صلوات الله عليه . ولكم على الوفاء بما التزمته وأعطيتكم إياه ، عهد الله وغلظ  
ميثاقه وذمته ، وذمة أنبيائه ورسله ، وذمة الأئمة موالينا أمراء المؤمنين ، قدس الله  
أرواحهم ، وذمة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه ،  
فتصريحون بها وتعلنون بالانصراف إليها ، وتخرجون إلى ، وتسلمون على ، وتكفونون  
بين يدي إلى أن أعبأ الجسر ، وأنزل في المناخ المبارك ، وتحفظون وتحافظون من بعد  
على الطاعة ، وتنابرون عليها ، وتسارعون إلى فروضها ، ولا تخذلون وليا لمولانا  
وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وتلزمون ما أمرتم به . وفقكم الله  
وأرشدكم أجمعين ا .



### الملحوظ الثالث

رسالة المعز لدين الله إلى الحسن الأعصم القرمطي (١)

من عبد الله ووليه ، وخيرته وصفيه ، معد أبي تميم ، المعز لدين الله أمير المؤمنين ، وسلالة خير النبيين ، ونجل عليّ أفضل الوصيين ، إلى الحسن بن أحمد .  
بسم الله الرحمن الرحيم . رسوم النطقاء ، ومذاهب الأئمة والأنبياء ، ومسالك الرسل والأوصياء ، السالف والآنف منا ، صلوات الله علينا ، وعلى آبائنا أولى الأيدي والأبصار ، في متقدم الدهور والآكوار ، وسالف الأزمان والأعصار ، عند قيامهم بأحكام الله ، واتصافهم لأمر الله ، الابتداء بالأعذار ، والانتهاج بالإندار ، قبل إنفاذ الأقدار ، في أهل الشقاق والآصار ، لتكون الحججة على من خالف وعصى ، والعقوبة على من باين وغوى ، حسبما قال الله جل وعز :  
« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (٢) . « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » (٣) ، وقوله سبحانه : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين » (٤) . « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق » (٥) .

أما بعد أيها الناس ، فإننا نحمد الله بجميع محامده ، ونمجده بأحسن مما جده . حمدا دائما أبدا ، ومجدا عاليا سرمدا ، على سبوغ نعمائه ، وحسن بلائه ، ونبتغى إليه الوسيلة ، بالتوفيق والمعونة على طاعته ، والتسديد في نصرته ، ونستكفيه بمايلة الهوى ، والزيف عن قصد الهدى ، ونستزيد منه إتمام الصلوات ، وإفاضات البركات ، وطيب التحيات ، على أوليائه الماضين ، وخلفائه التالين ، منا ومن آبائنا

(١) المقرئ : اعطاء الخفاص ١٢٣ — ١٤٣ .

(٢) سورة الاسراء آية ١٥ .

(٣) سورة فاطر آية ٢٤ .

(٤) سورة يوسف آية ١٠٨ .

(٥) سورة البقرة آية ١٣٧ .

الراشدين ، المهديين ، المنتخين ، الذين قَضَوْا بالحق ، وكانوا به يعدلون . أيها الناس ! قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فلعلها ، لئلا كرم من يذكر وينذر من أبصر واعتبر .

أيها الناس ! إن الله جل وعز إذا أراد أمراً قضاها ، وإذا قضاها أمضاه ، وكان من قضاهاه فينا قبل التكوين ، أن خلقنا أشباحا ، وأبرزنا أرواحا ، بالقدرة مالكين ، وبالقوة قادرين ، حين لا سماء مبنية ، ولا أرض مدحية ، ولا شمس تضيء ، ولا قمر يسرى ، ولا كوكب يجرى ، ولا ليل يجس ، ولا أفق يسكن . ولا لسان ينطق ، ولا جناح يخفق ، ولا ليل ولا نهار ، ولا فلك دوار ، ولا كوكب سيار . فنحن أول الفكرة وآخر العمل ، بقدر مقدور ، وأمر في القدم مبرور . فعند تكامل الأمر ، وصحة العزم ، وإنشاء الله جل وعز المنشآت ، وإبداء الأمهات ، من الهيولات ، طبعنا أنوارا وظلما ، وحركة وسكونا . وكان من حكمه السابق في علمه ، ما ترون من فلك دوار ، وكوكب سيار ، وليل ونهار ، وما في الآفاق من آثار معجزات ، وأقدار باهرات ، وما في الأقطار من الآثار ، وما في النفوس من الأجناس ، والصور والأنواع ، من كفيف ولطيف ، وموجود ومعدوم ، وظاهر وباطن ، ومحسوس وملبوس ، ودان وشاسع ، وهابط وطالع ، كل ذلك لنا ، ومن أجلنا ، دلالة علينا ، وإشارة إلينا ، يهدي به الله من كان له سبب سجيح (١) ، ورأى صحيح ، قد سبق له منا الحسنى ، فدان بالمعنى . ثم إنه جل وعلا أبرز من مكشون العلم ، وعززون الحكم ، آدم وحواء ، أبوين ذكرا وأنثى ، سببا لإنشاء البشرية ، ودلالة لإظهار القدرة القوية ، وزاوج بينهما ، فتوالدا الأولاد ، وتكاثرت الأعداد .

ونحن نتقل في الأصلاب الزكية ، والأرحام الطاهرة المرضية ، كلما ضمنا صلب ورحم ، أظهرنا قدرة وعلم ، وهلم جرّا ، إلى آخر الجلد الأول ، والآب الأفضل ، سيد المرسلين ، وإمام النبيين ، أحمد ومحمد ، صلوات الله عليه ، وعلى آله في كل ناد ومشهد . فحسن آلاؤه ، وبان غناؤه ، وأباد المشركين ، وقصم الظالمين ، وأظهر الحق ، واستعمل الصدق ، وظهر بالأحدية ، ودان بالصمديه ، فعندها سقطت الأصنام ، وانعقد الإسلام ، وانتشر الإيمان ، وبطل السحر والقربان ، وهربت الأوثان ،

(١) متدل .

وأتى بالقرآن ، شاهداً ( بالحق ) والبرهان ، فيه خبر ما كان وما يكون ، إلى يوم  
الوقت المعلوم ، مثبتاً عن كتب تقدمت ، في صحف قد تنزلت ، تبيناً لكل شيء .  
وهدى ورحمة ونورا ، وسراجاً منيراً .

وكل ذلك دلالات لنا ، ومقدمات بين أيدينا ، وأسباب لإظهار أمرنا ، هدايات  
وآيات ، وشهادات وسعادات ، قُدسيات إلهيات ، أزليات كائنات ، منشآت ،  
مبديات معيدات . فما من ناطق نطق ، ولا نبي بعث ، ولا وصي ظهر ، إلا وقد  
أشار إلينا ، ولوَّح بنا ، ودل علينا ، في كتابه وخطابه ، ومنار أعلامه ، ومرموز  
كلامه ، فيما هو موجود غير معدوم ، وظاهر وباطن ، يعلمه من يسمع النداء ، وشاهد  
ورأى من الملائ الأعلى : فمن أغفل منكم أو نسي ، أو ضل أو غوى ؛ فليُنظر في  
الكتب الأولى ، والصحف المنزلة ، وليتأمل إلى القرآن ، وما فيه من البيان ،  
وليسأل أهل الذكر إن كان لا يعلم ، فقد أمر الله عز وجل بالسؤال ، فقال : « فاسألوا  
أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون <sup>(١)</sup> » . وقال سبحانه وتعالى : « فلو لا نفر من  
كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم  
لعلهم يَحذرون <sup>(٢)</sup> » . ألا تسمعون قول الله حيث يقول : « وجعلنا كلمة باقية في  
عقبه لعلهم يرجعون <sup>(٣)</sup> » ، وقوله تقدست أسماؤه : « ذرية بعضها من بعض والله سميع  
عليم <sup>(٤)</sup> » ، وقوله له العزة : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا  
إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ،  
كبر على المشركين ما تدعوهم إليه <sup>(٥)</sup> » ، ومثل ذلك في كتاب الله تعالى . . . .  
ولولا الإطالة لأتينا على كثير منه . وبما دل به علينا ، وأنبأ به عنا ، قوله عز وجل :  
« كشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من  
شجرة مباركة زيتونة ، لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ، ولو لم تمسسه نار ،  
نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله

(١) سورة النحل آية ٤٣ .

(٢) سورة التوبة آية ١٢٢ .

(٣) سورة الزخرف آية ٢٨ .

(٤) سورة آل عمران آية ٣٤ .

(٥) سورة الشورى آية ١٣ .

بكل شئ عليم<sup>(١)</sup>، وقوله في تفضيل الجد الفاضل، والآب الكامل، محمد صلى الله عليه  
و(علي) علي عليه (السلام)، لإعلاما بجليل قدرنا، وعلو أمرنا: «ولقد آتيناك سبعاً من  
المثاني والقرآن العظيم» (٢). وهذا مع ما أشار ولوح، وأبان وأوضح، في السر  
والإعلان، من كل مثل مضروب، وآية وخبر، وإشارة ودلالة، حيث يقول:  
«وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون». وقال سبحانه وتعالى: «إن في  
خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار» (٣)،  
وقوله جل وعز: «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق».  
فإن اعتبر معتبر، وقام وتدبر ما في الأرض وما في الأقطار والآثار، وما في  
النفس من الصور المختلفة، والأعضاء المتولفات، والآيات والعلامات،  
والانفاقات والاختراعات، والأجناس والأنواع. وما في كون الإبداع من  
الصور البشرية، والآثار العلوية، وما يشهد به حروف المعجم، والحساب المقوم،  
وما جمعته الفرائض والسنن، وما جمعته السنون، من فصل وشهر ويوم، وتصنيف  
القرآن من تحزيبه، وأسبأه، ومعانيه وأرباعه، وموضع الشرائع المتقدمة،  
والسنن المحكمة، وما جمعته كلمة الإخلاص في تقاطيعها، وحروفها وفصولها، وما في  
الأرض من إقاييم وجزيرة، وبر وبحر وسهل وجبل، وطول وعرض، وفوق  
وتحت، إلى ما اتفق (عليه) في جمع الحروف من أسماء المديرات السبعة، والأيام  
السبعة، النطقاء والأوصياء والخلفاء، وما صدرت به الشرائع من فرض وسنة،  
وحسد وشبهة، وما في الحساب من آحاد وأفراد وأزواج، وأعداد تاليته وترايعه،  
واثنا عشرية وتساييعه، وأبواب العشرات والمئين والألوف، وكيف تجتمع  
وتشتمل على ما اجتمع عليه ما تقدم، من شاهد عدل، وقول صدق، وحكمة  
حكيم، وترتيب عليم، فلا إله إلا هو له الأسماء الحسنى والأمثال العليا، وإن تعدوا  
نعمة الله لا تحصوها، وفوق كل ذي علم عليم. «ولو أن ما في الأرض من شجرة  
أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله». وليعلم من الناس من كان

(١) سورة النور آية ٣٥.

(٢) سورة الحجر آية ٨٧.

(٣) سورة آل عمران آية ١٩٠.

(٤) سورة السجدة آية ٥٣.

له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، أنا كلمات الله الأزليات ، وأسماؤه التامات ،  
 وأنواره الشعشعانيات ، وأعلامه النيرات ، ومصايجه البيئات ، وبدائعه المنشآت ،  
 وآياته الباهرات ، وأفداره النافذات ، لا يخرج منا أمر ، ولا يخلو منا عصر ، وإنما  
 لكما قال الله سبحانه وتعالى : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة  
 إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما  
 عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شيء عليم » (١) . فاستشعروا النظر ، فقد نقر في الناقدور ،  
 وفار التنور ، وأتى التنذير بين يدي عذاب شديد ؛ فمن شاء فلينظر ، ومن شاء  
 فليتدبر ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين .

وكتابتنا هذا من فسطاط مصر ، وقد جئناها على قدر مقدور ، ووقت مذكور ،  
 فلا نرفع قدما ، ولا نضع قدما ، إلا بعلم موضوع ، وحكم مجموع ، وأجل معلوم ،  
 وأمر قد سبق ، وقضاء قد تحمق . فلما دخلنا وقد قدر المرجفون من أهلها أن الرجفة  
 تنالهم ، والصعقة تحل بهم ، تبادروا وتعادوا شاردين ، وجلوا عن الأهل والحريم  
 والأولاد والرسوم . وإنما لنارُ الله الموقدة ، التي تتطلع على الآفدة ، فلم أكشف  
 لهم خبرا ، ولا قصصت لهم أثرا ، ولكنني أمرت بالنداء ، وأذنت بالأمان ، لكل باد  
 وحاضر ، ومنافق ومشاقق ، وعاص ومارق ، ومعاند ومسابق ، ومن أظهر صفحته  
 وأبدى لى سوءته ، فاجتمع الموافق والمخالف ، والبائن والمنافق ، فقالت الولي  
 بالإحسان ، والمسمى بالغفران ، حتى رجع النائي والشارد ، وتساوى الفريقان ،  
 واتفق الجمعان ، وانبسط القلوب ، وزال الشحوب ، جرىا على العادة بالإحسان  
 والصفح والامتنان ، والرأفة والغفران ، فتكاثرت الخيرات ، وانتشرت البركات .  
 حل ذلك بقدره ربانية ، وأمسة برهانية ؛ فأقمت الحدود بالبيننة ، والشهود  
 في العرب والعبيد ، والخاص والعام ، والبادى والحاضر ، بأحكام الله عز وجل  
 وآدابه ، وحقه وصوابه ، فالولى آمن جدل ، والعدو خائف وجل .

فأما أنت (أيها) الغادر ، الخائن الناكث ، البائن عن هدى آباته وأجداده ، المنسلخ  
 من دين أسلافه وأنداده ، ، والموقد لنار الفتنة ، والخارج عن الجماعة والسنة ، فلم  
 أغفل أمرك ، ولا خفي عنى خبرك ، ولا استتر دوني أترك ، وإنك مني ليمتظر

ومسمع ، كما قال الله جل وعز : « إني معكم أسمع وأرى (١) » ، وما كان أبوك  
 امرأ سوء . وما كانت أمك بغيا ، (٢) . فعرفنا على أي رأى أصسكت ، وأي طريق  
 سلكت . أما كان لك بحمدك أي سعيد أسوة وبعمل أي طاهر قدوة ؟ أما نظرت  
 في كتبهم وأخبارهم ؟ ولا قرأت وصاياهم وأشعارهم ؟ أكننت غائبا عن ديارهم  
 وما كان من آثارهم ؟ ألم تعلم أنهم كانوا عبادا لنا أولى بأس شديد ، وعزم شديد ،  
 وأمر رشيد ، وفعل حميد ؟ يفيض إليهم موادنا وينشر عليهم بركاتنا ، حتى ظهروا على  
 الأعمال ، ودان لهم كل أمير ووال ، ولقبوا بالسادة ، فسادوا ، منحة منا ، واسما  
 من أسائنا ؛ فعلت أساؤهم ، واستعلت هممهم ، واشتد عزمهم ، فسارت إليهم وفود  
 الآفاق ، وامتدت نحوهم الأحداق ، وخضعت لهيبتهم الأعناق ، وخيف منهم الفساد  
 والعناد ، وأن يكونوا البني العباس أصدقاء ، فعميت الجيوش ، وسار إليهم كل خميس ،  
 بالرجال المنتخبة ، والعدد المهذبة ، والعساكر الموكبة ، فلم يلقهم جيش إلا كروه ،  
 ولا رئيس إلا أسروه ، ولا عسكر إلا كسروه ، وألحظنا ترمقهم ، ونصرنا يلحقهم ،  
 كما قال الله جل وعز : « إنا لننصر رسلنا ( والذين آمنوا ) في الحياة الدنيا » (٣) .  
 « وإن جندنا لهم الغالبون » (٤) ، وإن حزبنا لهم المنتصرون .

فلم يزل ذلك دأبهم ، وهين الله ترمقهم ، إلى أن اختار لهم ما اختاروه ، من نقلهم  
 من دار الفناء إلى دار البقاء ، ومن نعيم يزول إلى نعيم لا يزول ، فعاشوا محمودين ،  
 واتقلوا مفقودين ، إلى روح وريحان وجنت النعيم ، فطوبى لهم وحسن مآب . ومع  
 هذا ، فما من جزيرة في الأرض ، ولا إقليم إلا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون إلينا ،  
 دوء يدلون علينا ، ويأخذون تبعتنا ، ويذكرون رجعتنا ، وينشرون علينا ، وينذرون  
 بأسنا ، ويبشرون بأيامنا ، بتصاريف اللغات واختلاف الألسن . وفي كل  
 جزيرة وإقليم رجال منهم يفقهون ، وعندهم يأخذون . وهو قول الله جل وعز :

(١) سورة طه آية ٤٦ .

(٢) سورة مريم آية ٢٩ .

(٣) سورة المؤمنون آية ٥١ .

(٤) سورة الصفات آية ٧٣ .

« وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم <sup>(١)</sup> ، وأنت عارف بذلك .  
 فيأبها الناكث الخائن ، ما الذي أرداك وصدك ؟ أشيء أشككت فيه ، أم أمر  
 استربت به ؟ أم كنت خلياً من الحكمة ، وخارجاً عن الكلمة ، فأزالك وصدك ، وعن السبيل  
 ردك ؟ إن هي إلا فتنة لكم ومتاع إلى حين . وإيم الله لقد كان الأعلى لجديك ،  
 والأرفع لقدرك ، والأفضل لمجديك ، والأوسع لرفدك ، والأضر لعودك ،  
 والأحسن لعذرک ، الكشف عن أحوال سلفك وإن خسفت عليك ، والقفو  
 لآثارهم وإن عميت لديك ، لتجرى على سننهم ، وتدخل في زميرهم ، وتسلك في  
 مذهبهم ، أخذاً بأمرهم في وقتهم ، وزميرهم في عصرهم ، فتكون خلفاً قسماً سلفاً بجد  
 وعزم مؤتلف ، وأمر غير مختلف . لكن غلب الران <sup>(٢)</sup> على قلبك ، والصدأ  
 على لبك ، فأزالك عن الهدى ، وأزاعك عن البصيرة والضياء ، وأمالك عن مناهج  
 الأولياء ، وكنت من بعدهم كما قال الله عز وجل : « تخلف من بعدهم خلف أضاعوا  
 الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً <sup>(٣)</sup> » ؛ ثم لم تقنع في ارتكاسك ، وترديك  
 في ارتكاسك ، وارتبساك وانعكاسك ، من خلافاك الآباء ، ومشيك القهقري ،  
 والتكوص على الأعقاب ، والتسمى بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان .  
 وعصيانك مولاك ، وجحدك ولامك ، حتى انقلبت على الأدبار ، وتحملت عظيم  
 الأوزار ، لتقيم <sup>(٤)</sup> دعوة قد درست ودولة قد طعمت ، إنك لمن الغاوين ،  
 وإنك لفي ضلال مبين . أم تريد أن ترد القرون السالفة ، والأشخاص الغابرة ؟  
 أما قرأت كتاب السفر وما فيه من نص وخبر ؟ فأين تذهبون ؟ إن هي إلا  
 حياتكم الدنيا ، تموتون وتظنون أنكم لستم بمبعوثين ! قل : بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن  
 بما عملتم ، وذلك على أقد يسير . أما علمت أن المطيع آخر ولد العباس ، وآخر المترس  
 في الناس ؟ أما تراهم كأنهم أعجاز نخل خاوية ؟ فهل ترى لهم من باقية ؟ ختم والله

(١) سورة إبراهيم آية ٤ .

(٢) من ران عليه حب المال : غلب عليه وغطى قلبه .

(٣) سورة مريم آية ٥٩ .

(٤) يعني أنه يريد إقامة دولة بني العباس بكونه أخذ منهم السلاح والمال من أبي تغلب بن

حمدان وقدم يقاتل المعز نصرته لهم .

الحساب ، وطوى الكتاب ، وعاد الأمر إلى أهله ، والزمان إلى أوله ، وأزفت الآزفة ، ووقعت الواقعة ، وقرعت القارعة ، وطلعت الشمس من مغربها ، والآية من وطنها ، وجيء بالملائكة والنبیین ، وخسر هنالك المبطلون . هنالك الولاية لله الحق ، والملك لله الواحد القهار ؛ فله الأمر من قبل ومن بعد . ويومئذ يفرح المؤمنون ، بنصر الله ينصر من يشاء ، ويوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد<sup>(١)</sup> . فقد ضل عملك ، وغاب سعيك ، وطلع نحسك ، وغاب سعيك ، حين آثرت الحياة الدنيا على الآخرة ، ومال<sup>(٢)</sup> بك الهوى ، فأزالك عن الهدى . فإن تكفرت أنت ومن في الأرض جميعا فإن الله هو الغنى الحميد . ثم لم يكفك ذلك من بلائك ، وطول شقائك ، حتى جمعت أرجاسك ( وأنجاسك ) ، وحشيت أوباشك وأفلاسك<sup>(٣)</sup> ، وسرت قاصدا إلى دمشق . وبها جمع فرين فلاح في فنة قليلة من كتامة وزويلة ، فقتلته وقتلهم ، جراءة على الله ، وردا لأمره ، واستبحت أموالهم ، وسبيت نساءهم ، وليس بينك وبينهم ترة ولا نار ، ولا حقد ولا إضرار ، فعل بنى الأصفر والترك والخزر . ثم سرت أمامك ولم ترجع ، وأقت على كفرك ولم تقلع ، حتى أتيت الرملة . وفيها سعادة بن حيان ، في زمرة قليلة ، وفرقة يسيرة ؛ فاعتزل عنك إلى يافا ، فلم تزل ما كشا على نكتك ، باكرا وصاحبا ، وغاديا ورائحا ، تقعد لهم بكل مقعد . وتأخذ عليهم كل مرصد ، وتقصدهم بكل مقصد ، كأنهم ترك وروم وخزر ، لا ينهك عن سفك الدماء دين ، ولا يردعك عهد ولا يقين . قد استوعب من الردى حيزومك ، وانقسم على الشقاء خرطومك . أما كان لك مذكر ، وفي بعض أفعالك مزدرجر ؟ أو ما كان لك في كتاب الله عز وجل معتبر حيث يقول : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ، ولعنه وأعد له عذابا عظيما »<sup>(٤)</sup> ؛ لحسبك فعلة بها يلقاك يوم ورودك وحشرك ، حين لامناص ، ولا لك من الله خلاص ،

(١) سورة الحج آية ٢ .

(٢) في الأصل ومالك .

(٣) ما خرج من الخلق وملا القم .

(٤) سورة النساء آية ٩٣ .



ولم تستقلمها وكيف تستقبلها؟ وأنتى لك مقيلها؟ هيهات هيهات! هلك الضالون وخسر هنالك المبطلون، وقل النصير، وزال العشير، ومن بعد ذلك تماديك في غيك، ومقامك في بغيك، عداوة لله ولأوليائه، وكفرا لهم وطفيانا وعمى وبهتاننا. أترك تحسب أنك مخلد أم لأمر الله راد؟ أم يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله مستم تورهم ولو كره الكافرون؟ هيهات لاخلود لمذكور، ولا مرد لمقدور، ولا طافىء لنور، ولا مفر لمولود، ولا قرار لموعود. لقد خاب منك الأمل، وحن لك الأجل، فإن شئت فاستعر للتوبة بابا، وللنقلة جلبابا، فقد بلغ الكتاب أجله، والوالى أمله، وقد رفع الله قبضته عن أفواه حكيمته، ونطق من كان بالأمس صامتا، ونهض من كان هناك خائفا. ونحن أشباح فوق الأمر، والنفس دون العقل، وأرواح في القدس، نسبة ذاتية، وآيات لدنية، نسمع ونرى، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون.

ونحن عارضون ثلاث خصال، والرابعة أردى لك، وأشق لبالك، وما أحسبك تحصل إلا عليها. فاختر: إمّا قِدتَ نفسك بجمعفر بن فلاح، وأتباعك بأنفس المستشهدين معه بدمشق والرملة، من رجاله ورجال سعادة بن حيان، ورد جميع ما كان لهم من رجال، وكرام، ومتاع، إلى آخر حجة، من عقال ناقة، وخطام بعير، وهى أسهل ما يرد عليك؛ وإمّا أن تردهم أحياء في صورهم وأعيانهم وأموالهم وأحوالهم، ولا سبيل لك إلى ذلك ولا اقتدار؛ وإما سرت ومن معك بغير ذمام ولا أمان، فأحكم فيك وفيهم بما حكمت، وأجربكم على (إحدى) ثلاث: إما قصاص، وإما مسنٌ بعد، وإما فداء. فمضى أن يكون تمحيصا لذنوبك وإقالة لعثرتك. وإن أبيت إلا فعل اللعين، فأخرج منها فإنك رجيم، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين. أخرج منها، فما يكون لك أن تسكبر فيها، وقيل اخسثوا فيها ولا تكلمون، فما أنت إلا كشجرة خبيثة اجثت من فوق الأرض ما لها من قرار. فلا سماء تظلك، ولا أرض تقلك، ولا ليل ينجك، ولا نهار يكنك، ولا علم يسترك، ولا فئة تنصرك. قد تقطعت بكم الأسباب، وأعجزكم الذهاب، فأتم كما قال الله عز وجل: «مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء»<sup>(١)</sup>، فلا ملجأ لكم من الله يومئذ ولا منجى منه، وجنود

الله في طلبك قافية . . . . فلا تجرد في السماء مصعدا ، ولا في الأرض مقعدا ، ولا في الأرض ولا في البحر منهاجا ، ولا في الجبال مسلكا ، ولا في الهواء سلبا ، ولا إلى مخلوق ملتجأ . حينئذ يفارقك أصحابك ، ويتخلى عنك أحيابك ، ويخذلك أترابك ؛ فتبقى وحيدا فريدا ، وخائفا طريدا ، وهائما شريدا . قد أبلجك العرق ، وكظك (٢) العَلَق ، وأسلمتك ذنوبك وازدراك خزيك ، كلا لا وزر ، إلى ربك يومئذ المستقر .  
ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر (٣) .

وقد أورد النويري (٤) في كتابه نهاية الأرب خاتمة هذه الرسالة الممتعة فقال :  
وقال ( المعز ) في فصل آخر : إنا لسنا مهمليك ولا بمهلك ، إلا ريثما يرد به كتابك ، والوقوف على مجرى جوابك . فانظر لنفسك ما يبقى ليومك ومعادك ، قيل انغلاق باب التوبة ، وحلول وقت التوبة . حينئذ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت في إيمانها خيرا . ثم ختمه بأن قال : فما أنت وقومك إلا كمناخ نسيم ، أو مراح غنم . فإما زرينك بعض الذي نعدهم أو تتوفينك ، فإننا عليهم مقتدرون . فعندها تخسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين . فأذرتهم نارا تلظى ، لا يصلاها إلا الأشقي ، الذي كذب وتولى ، يوم يرون ما يوعدون ، لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ ، فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ؟ فليستدبر من كان ذا تدبير ، وليستفكر من كان ذا تفكير ، وليحذر يوم القيامة ، يوم الحسرة والندامة ، أن تقول نفس يا حسرتنا على ما فرطت في جنب الله ، ويا حسرتنا على ما فرطنا ، ويا ليتنا نرد فنععمل غير الذي كنا نعمل . والسلام على من اتبع الهدى ، وسلم من عواقب الردى ! وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(١) سورة النساء آية ١٤٢ .

(٢) أي ملاك الهم . اتعاط الخنقا ص ١٣٢ - ١٤٣ .

(٣) سورة القيامة آية ١١ - ١٣ .

(٤) ٣٦ ( مخطوط ) ورقة ٤٤ .

## المحور الرابع

موقف المعز من أهل سجلماسة (١) .

ولما تمادى أمر اللعين ابن واسول (٢)، وارتكب ما ارتكبه، وتعاطى ما تعاطاه، من التغلب بسجلماسة، وخلع طاعة الأئمة، وتسمى بالإمام أمير المؤمنين الشاكر لله، وهو الكافر بالله (عج) لعظيم ما ارتكبه... رأى المعز لدين الله (صلح) جهاده، لعظيم جرمه، وأنه لا يسعه تركه، لما تعدى إليه وتعاطاه، فأنهض إليه عسكرياً، فأمكنه الله (عز وجل) منه من غير يد لأحد من الخلق عليه فيه. وذلك أن قائد ذلك العسكر تقدم إلى أهل سجلماسة من قبل أن يحل بهم بمدة، يكتب منه في قبض عليه، وأنهم إن فعلوا ذلك، أمنهم وأحسن إليهم، وعفا عن ذنوبهم التي اقترفوها بطاعته، على ما ارتكبه من عظيم جرمه، وإلقاتهم بأيديهم إليه، فلم يفعلوا. ولما قربت العساكر المنصورة منه، خرج من المدينة هارباً بنفسه، فلقبه نفر من أهل المدينة، فأخذوه وأتوا به القائد. فعاتب القائد أهل سجلماسة في تركه، ثم رأى الصفح عنهم، وولى عليهم والياً منهم، وانصرف.

فوثبوا على ذلك الوالى فقتلوه، وأقاموا مقامه «منتصر بن محمد بن المعز»، وكان أبوه وجده قد وليا البلد باستعمال أمير المؤمنين، وكانا من أهل الولاية. وكان ابن واسول، هذا الفاسق المتغلب، لما تغلب على البلد، اعتقل منتصراً هذا وهو غلام حدث، فأقام معتقلاً عنده، فقدمه أهل البلد لما قتلوا العامل الذى استعمله عليهم القائد، ونسبوا إليه من القبيح ما زعموا أنه أوجب قتله، وذكروا أن القوغاء والعامّة قتلوه، وذهبوا في تقديمهم هذا الذى قدموه، إلى ما هو عليه من الولاية والمحبة. وقيل إنه سعى في قتله في ذلك، وأرسل رسولاً من فوره، وأرسل أهل البلد، وكتبوا إلى أمير المؤمنين المعز لدين الله (ص) يذكرون ذلك، ويعتذرون ويصفون حالهم، فصرف رسولهم بأنه غير قابل ذلك من عذرهم، وأنهم لا أمان

(١) النعمان: المجالس والمسائرات ج ٢ ص ٢٩٥ - ٣٠٥ .

(٢) انظر ما ذكرناه عن الشاكر لله الذى تغلب على سجلماسة في الباب الثانى من هذا الكتاب .

لهم عنده<sup>(١)</sup>، إلى أن يأتي وجوههم وسماهم ، ويأتي منتصر هذا إليه ، محكمين في أنفسهم ،  
 حينئذ يرى رأيه فيهم . وانصرف الرسول بذلك إليهم ، فما كان إلا مقدار مسافة  
 وصوله إليهم وانصرافه ، حتى أتى منتصر هذا الذي قدموه ، وماتنا رجل من وجوههم ،  
 وهم الذين سماهم أمير المؤمنين ، قد ركبوا طرق الرمال والفلوات ، خوفا من أن يصل  
 إليهم أحد دون الباب ، حتى حلوا به ، فأدخلهم أمير المؤمنين صلح . فلما مثلوا بين  
 يديه وقبلوا الأرض ، ووقفوا ، نظر إليهم نظرة مغضب ، وأطرق ساعة ، فامتعت<sup>(٢)</sup>  
 ألوانهم ، وارتعدت<sup>(٣)</sup> فرائصهم ، ولم يستطع أحد منهم أن ينطق بحرف ، لما داخلهم  
 من الخوف ، فرفع رأسه فقال :

« يا أهل سجلماسة افعلتم ما فعلتم في أيام المهدي بالله (صلح) . واقتدر عليكم  
 مرة بعد أخرى ؛ فعفا عنكم وأحسن إليكم ، لحلوله فيكم ، ومجاورته إياكم ، مدة  
 إقامته فيكم ، كما يرعاه من أحله الله محله من كرم الطباع وحسن صنيع ، من غير يد  
 كانت له عنده ، ولا فعل من الجميل تقدم لكم لديه . فصصح وأحسن ، وعفا وأجل ،  
 فما رعيتم ذلك حق رعابته ، ولا فهمتم بشكره . ثم نفع فيكم ناعق من الشيطان  
 فلبتتموه ، ودعاكم إليه داع فأجبتتموه . قام فيكم دعوى فيما ادعاه ، متوثب على ما تولاها ،  
 قد عرفتم نسبه ، ودرتتم سببه ، فتغلب على ظاهر أمركم ، وتحلى بالرياسة والتصنع  
 لكم ، وتسمى بأمر المؤمنين ، وإمام المسلمين لكم ، وأتم على علم لا تشكون ، ويقين  
 لا يتمرون ، أن ذلك لا يجوز له ، ولا يحل تسليمه ، فسلتتموه لمثله له ، وأطعتتموه  
 وتوليتتموه واتبعتموه ، ففارقتم جماعة المسلمين ، وخرجتم من حزب المؤمنين ، وأحدثتم  
 حدثنا عظيما في الدين . وانتهى إلينا من أمركم وأمره ، ما لم يسعنا تركه والغفلة عنه ،  
 لما افترضه الله علينا عز اسمه ، من القيام بحقه في أرضه ، وجهاد من صدف عن<sup>(٤)</sup>  
 دينه ، وغير سنة رسوله ، وحل محلكم وحل هذا الفاسق فيكم ؛ فأنهضنا إليكم جيشا  
 من أوليائنا ، وأنصار دولتنا ، وعبيدنا . مع عبيد أمرناه عليهم ، وتقدمنا إليه في  
 الإعذار والإنذار إليكم ، في الإنابة والتوبة ، قبل الوقوع بكم ؛ فلم يزل مع طي

(١) في الأصل عندهم ، والصواب عنده .

(٢) في الأصل فامتعت .

(٣) في الأصل وارتعدت فرائصهم .

(٤) صدف عن : ابتعد عن .

المراحل نحوكم، يتابع الكتب إليكم مع رسوله، تأكيدا في الحجة عليكم، مرة بالوعد،  
ومرة بالوعيد، وتارة باللين، وتارة بالتشديد، يدعوكم إلى الطاعة، والنزوع عما أنتم  
عليه من المعصية والضلال، والقبض على عدو الله فيكم، إن تمادى على ما هو عليه  
من النغي والضلال إن استطعتموه، أو البراءة منه، وتركه بجانب إن لم تقدرُوا عليه؛  
ووصلت كتبه إليكم، وأدى إليكم من اختار به منكم، وكل ذلك وأنتم على باطلكم  
مصريون، وبالفاسق المضل لكم متمسكون، إلى أن حلت جيوشنا بقر بكم، وانتشرت  
عساكرنا ببلدكم، وعان من عاينكم من عيون عدو الله من جمعها وعتادها وقوتها،  
ما أنهاه إليه، وقد علم أنه لا طاقة لكم ولا له بعسكر من عسكرنا؛ فلما حلت  
بِعَقُوبَتِكُمْ<sup>(١)</sup>، ونزلت بداركم، وأنتم مع الفاسق على ما أنتم عليه، نهض موليا عنكم،  
وهاربا متسلا من بين أظهركم، وقد كنتم تقدرُون على أخذه لو أردتموه، وبمكنكم  
من ذلك، ومن حصاره في داره متى أحبتموه، لو أخذتم بحظكم في ذلك ففعلتموه؛  
لكنكم أفتهم مصريين على طاعته وتولسيه، إلى أن نزع عنكم، وأقدرنا الله عجب (عز وجل)  
بفضله وإحسانه عليه، كهادته الجميلة، بلا صنع لكم ولا لغيركم في ذلك، وأقدرنا  
عليكم، وأمكننا منكم، وأنتم على ما أنتم عليه من غيكم وضلالكم،  
وما تستوجبون به اجتياحكم ودماركم؛ فسار عبدنا فيكم بما أمرناه به، من العفو  
والصفح والمرحمة، وانصرف عنكم، فأحدثتم من بعده ما أحدثتم. فإذا تستحقون  
أن يفعل بكم؟ يكلمهم بهذا الكلام (صلح) كلام مغضب، فاصفرت ألوانهم، وتغيرت  
وجوههم، وأرعدت فرائصهم، وأحتم أكثرهم عن الكلام. وقال من قال منهم قول  
مدعور دهش: إن يعاقب أمير المؤمنين (صلح)، فنحن أهل العقوبة، وإن يعف  
فهو أهل العفو والفضل والمرحمة. فأطرق صلح مليا، ثم دعا منتصر بن أحمد بن  
المعز، فقر به إليه، وأمره بالجلوس، فقبل الأرض مرارا، وشكر لأمير المؤمنين،  
ثم عطف (صلح) على الوفد، فقال: قد كنتم تستحقون أليم العذاب والنكال،  
ولكننا للذي جبلنا الله عليه من الصفح والعفو والرحمة، قد عفونا ما سلف  
من ذنوبكم ما استقمتم وأصلحتم. وقد استعملنا عليكم عبدنا هذا، وأوما إلى منتصر،  
فقبل، وقبلوا الأرض مرارا، وشكروا بما قدرُوا عليه، وزال ما ظهر عليهم

(١) العقوبة: بفتح العين وتسكين القاف ما حول الدار والمحلة.

من الملح والجزع . وأمر (صلمم) بصرفهم إلى موضع أنزلهم فيه ، وخلع على منتصر وحمله ، وفعل ذلك بجماعة من وجوههم ، وأمر بإجراء النزل لهم أجمعين ، وأقاموا بذلك مدة في أرفه عيش ، وأحسن حال .

ثم لما رأى صرفهم ، عقد لمنتصر على سجداسة وعملها ، وخلع عليه خلعا سنية ، وحمله على عدة من الخيل سرجا مفرقة ، ووصله بصلات جزيلة . وحمل جميع من قدم معه ، وكساهم ووصلهم ، وصرفهم إلى بلدهم بما لم يؤملوه . ولم يتوهموه . وكان غاية آمالهم أن يسلبوا من القتل ، فانصرفوا وقد طال بالشكر ألسنتهم ، وملئت فرحا قلوبهم .

### الملح الخامس

نصيحة المعز لعامل بسجداسة (١)

قال النعمان : وسمعت منتصرا (٢) هذا يوما يشكر لآمير المؤمنين المعز لدين الله (ص) صنيعته فيه ، ويذكر ما وهبه الله له من عطفه عليه ، وإحسانه إليه ، وما صار له بذلك من النعمة والفائدة والغبطة . فقال له المعز لدين الله (ص) : يكفيك والله من ذلك تعجيل الراحة لك ، وإزالة الغمة عن نفسك ، وتجديد المسرات بأن كان الفاسق المتغلب قبلك يتوقع من حلول بأس الله به على أيدينا ، ما قد أصاره الله (عج) ، وعجل له به ، فلم يكن لذلك يلد عيشا . وكلما انتهى إليه شيء مما يتولاه الله (عج) لنا من الصنع نكاه (٣) ، وقد كان حتمه ، وإمكان الله (عج) إيانا منه يتصل بذلك ؛ فهو كما قال الله (عج) في إخوانه المنافقين ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو . وأنت اليوم قد أمنت ذلك كله ، وكلما جدد الله (عج) لنا نعمة ، وأولانا فضيلة ومكرمة ، تجدد لك بذلك سرور ، واتصلت بك باتصاله نعمة وغبطة . فلو لم يكن لعدونا عقوبة ، ولولينا مشوبة غير هذا لكفاهما . فكيف وقد تكفل الله (عج) بالصنع في عاجل الدنيا بإعزاز الولي وكبت العدو ؟ أعد لأوليائنا في الآخرة كريم الثواب ، ولأعدائنا

(١) النعمان : المجالس والمساربات ٢٦ ص ٣٠٧ - ٣٠٩ .

(٢) وإلى سجداسة .

(٣) أي أصاب منه وآله .

أليم العقاب . فقال منتصر : صدق والله أمير المؤمنين ، لقد كان عدو الله ابن واسول من توقع أمر الله الذي وقع به ، وما يتصل به من صنع الله عند وليه ، لني أمر ، ماهو اليوم بدون ما كان فيه . وإن عبد أمير المؤمنين بحمد الله وفضل وليه (صلح) ، من خفض العيش وراحة النفس ، لني مايسأل الله دوامه له بطول بقاء وليه (صلح) ، فقال أمير المؤمنين : لن تعدم نعمة وفضلا من الله وقبولا منا عليك ، ما عرفت قدر النعمة عندك ، وشكرت ما يأتي منها إليك ، إن شاء الله .

### المبحث السادس

تهديد المعز إمبراطور الدولة البيزنطية لاستيلائه على إقريطش (١)

يقول النعمان : أمر الإمام المعز ، بكتاب في ذلك إليه ( إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية ) ، وأملاه على الكاتب بحضرة من بين يديه ، بكلام ما سمعت أجزل ولا أبلغ منه ، فقال بعد أن خيره بين أن يقطع عن حرب أهل إقريطش ، وبين أن يبند إليه عهده ، كما نبذ رسول الله ( ﷺ ) إلى مشركي العرب عهدهم ، وأرسل عليا برامة ، فقرأها في الموسم عليهم . ولقول الله أصدق القائلين : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم (٢) » . ثم قال له في كتابه ع م ( عليه السلام ) : ولا يرى أن دعوة أهل إقريطش قبل اليوم إلى غيرنا ، وقد أنابوا اليوم إلينا ، واستغاثوا بنا ، مما يوجب لك عندنا تمام الموادة ، بتركهم إليك ، وترك اعتراضك فيهم . إن امتناع أهل الباطل من أهل الحق ليس بمزيل حقهم ، وإن تغلبوا عليه دونهم ، بل هو لهم بتبصير الله تع ( تعالى ) إياه إليهم .

فإقريطش وغيرها من جميع الأرض لنا ، بما خولنا الله منها ، وأقامنا له فيها . أطاعنا فيها من أطاعنا ، وعصانا من عصى ، وليس بطاعتهم يجب لنا أن نملك ، ولا بعصيانهم يحق علينا أن نترك . ولو كان ذلك ، لكان الأمر إليهم ، لا لله تعالى الذي خولنا ، ولا لنا ، إن شاءوا أعطونا ، وإن أحبوا منعونا . كلا ، إن ذلك لله تعالى الذي له ما في السموات وما في الأرض . هو الذي اصطفانا وملكنا وأعطانا ، ولو كان ذلك للخلق ، لما وسعنا قتال من امتنع منهم علينا ، ولا رد ما انتزعوه

(١) النعمان : المجالس والمساربات ج ٢ ص ٤١٣ - ٤١٦ .

(٢) سورة الأنفال آية ٥٨ .

بالغضب من أيدينا إذا قدرنا الله على ذلك وبه قوانا .

فإن قلت أنت غير ذلك ، وأنت ترى أن ما في يدك لك ، فقد كان رومانس (١) تغلب عليك وعلى أيك من قبلك ، ثم دارت لكما عليه الدائرة . فإن رأيت أن من احتجز شيئا وتغلب عليه فهو له دون صاحب الحق الذي ملكه ، فلم يكن لك ولا لأيك القيام على رومانس ، ولا انتزاع ما صار إليه من بين يديه . فهذه سبيل أهل الحق عندنا ؛ فإن اعترفت لها فقد أنصفت ، وإن جهلتها ، لم يكن جهلك إياها حجة على من عرفها .

وعهدك إن تماديت على حرب من أناب إلينا منبوذ (٢) إليك . فانظر لنفسك ولأهل ملتك ، فإننا مناجزوك وإياهم الحرب بعون الله لنا وتأيدته . ولا حول ولا قوة إلا بالله !

### الماحج السابع

كلام في مجلس خوطب به رسول الأموى (٣)

وقال : وكان فيما ذكره الرسول ، أنه استرحم أمير المؤمنين للسليين وقال : قد علم أمير المؤمنين أن الحرب متى كانت ، هلك فيها من الفريقين وهم مسلمون . فإن رأى أمير المؤمنين حقن دمايهم ، والكف عما يخاف فيه الهلاك عليهم . فقال أمير المؤمنين : المسلمون هم أمة جدى لا أمة جد مرسلك ؛ وأنا أرحم بهم وأرأف ، وأعطف وألطف بهم . فإن دخل أحد منهم في جملة صاحبك ، فقد دخل في جملة طائفة أهل البغى ، ووجب على وعلى سائر المسلمين قتالهم ، كما أمر الله عز وجل (ع ج) في كتابه ، وقرأ حتى تفيء إلى أمر الله . فمن قتل منهم على البغى ، فيحكم الكتاب قتل ، ومن قتلوه من أهل العدل معى ، ففي سبيل الله استشهد ، وبأمره عمل . وقد زعم صاحبك أنه يطلب ثأره من موضعه إلى آخر الدنيا ، وإنما

(١) يخاطب المعز رومانس الثاني ( ٢٤٨ - ٣٥٢ = ٩٥٦ - ٩٦٣ م ) ، ويشير إلى الإمبراطور رومانس الأول ليباسين Lépacène ( ٣٠٧ - ٣٣٣ = ٩١٩ - ٩٤٤ م ) ، الذى اغتصب العرش من أسرة قسطنطين السابع ( ٢٩٥ - ٣٤٨ = ٩١١ - ٩٥٩ م ) .

(٢) في الأصل منبوذا .

(٣) النعمان : المجالس والمسابرات ج ١ ص ٢٣٨ - ٢٤٧ .



هو في جزيرة بطرف منها . فإن كان المسلمون عندك وعنده ، إنما هم أهل جزيرة الأندلس فقط ، فقد أصاب صاحبك في قوله ، وإن كان المسلمون قد عموا أكثر الأرض - وهو كذلك - فكان ينبغي أن تقول هذا القول الذي قلته لنا ، له ؛ إذ توأدهم بالقتل . وكان ينبغي لك أن تسترحمهم . وقد جمع جموعه كما علمت ، وأخرج مراكبه ، وأوطأ علينا المشركين ، وأنزل رجاله في غير موضع من المراسي ، ليقتل قوما من المسلمين . ما هم منه بسبيل ، ولا آذوه ولا بغوا عليه ، إلا أنهم ممن حوته مملكتنا ، ودان بطاعتنا ، فأظهرهم الله عليه ورده منهم بغيظه ؛ فهلاكنت أخذت ذلك عليه ، وقبحت فعله إليه ؟ وقد علمت أنا أغضينا عن جواز مراكبه في بحرنا ومملكتنا ، بما يجتازون به إليه من السوءات والقبائح ، حتى عاثوا ومدوا أيديهم إلى رعيتنا ، وأخذوا كتبنا من أيدي رسلنا ؛ فقمنا في ذلك قيام مثلنا ، وطلبنا من أفسد وعاث في بلدنا ، وقاتلنا من قام دونه إذ وصلنا إليه . حتى إذا أظهرنا الله بفضله كما عودنا ، رفعنا أيدينا عن من لم يقاتلنا ، فلم نهتك حرمة ، ولا خفرنا ذمة ، عملا بسيرة جدنا رسول الله ﷺ ، وأبيننا على صلوات الله عليه وعلى الأئمة من آبائنا . ثم قد رأيت لما دلف إلينا مرة مواليا علينا المشركين ، كيف قد صرفنا الجد إلى المشركين عن أصحابه ، وإن كانوا للشر مستحقين ، لبعيهم علينا ، وزحقمهم إلينا . إلا أنا آثرنا ما يجب إثارة ، وأعرضنا عنهم ، فبجعل الله انتقامه على أيدي أوليائنا منهم . فن تراه أراف بالمسلمين ، وأرحم لأهل الدين : نحن أم صاحبك ؟ أم كيف رأيت الله أقدرا بفضله على الفريقين ، وأمكنا من الطائفتين ؟ ولقد سألنا المشركون موادعتهم حينئذ ، ومال إلى ذلك جماعة من أوليائنا ، ليصرفوا وجوههم إلى أصحابك ، فأبيننا ذلك ، لئلا يرى المشركون أنا وادعناهم على خوف منكم ومنهم . حتى إذا هزمتنا أساطيلهم ، وقتلنا حماهم ، وحللنا بعقوبة ديارهم ، وأثنخناهم بالقتل فيهم ، وامتلات أيدي أوليائنا من سيدهم وغنائمهم ، ورأينا أن الذي هو أفضل للمسلمين أن نوادعهم مدة نستجمعهم بها ، وادعناهم على أموال أزمها نفسه لنا ملكهم ، وهو لا يلزم نفسه ذلك لأحد غيرنا ، بمشرق الأرض ولا مغربها ، جزية يؤديها إلينا ، وإطلاق أسارى أهل المشرق الذين في يديه لنا ، وعلى شرائط يطول ذكرها ، شرطانها عليه شرط العزيز على الذليل . فن أرحم بالمسلمين : نحن أم من وإلى عليهم المشركين ؟ مخالفا لما أنزل الله في الكتاب المبين ، إذ يقول ، وهو أصدق القائلين :

يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوكم أولياء (١) . . . الآية .

أفا رأيت أساطيل صاحبك ، وقد خرجت أساطيلنا لقتال أوليائه من المشركين ، وهي تنزل في مراسي المغرب ، لا تمر بمرسى إلا نزلت فيه ، ووضع من فيها الحرب على أهليه ، فيجعل الدائرة السوء فيهم ، والهزيمة عليهم ، والقتل في رجالهم ؟ فهؤلاء الذين أوقعوا هذا الإيقاع بهم ، عندك وعند صاحبك ، مسلمون أم مشركون ؟ فإن كانوا من المسلمين ، وهم لم يتخرجوا إليه ، ولا تعرضوه ، فكيف جاز قتلهم ، ومعاونة المشركين عليهم ؟ ثم يزعم مفتخرا لما انصرفوا منكوبين ، أنه لم يرسلهم إلا ليلتفخوا إلى المهديّة . وكذلك كان عقدهم مع طاغية القسطنطينية ، وكذلك دلف إلينا كل واحد منهم بأسطوله ، ودخل المشركون في بحرنا ، وجاوزوا صقلية إلينا ، ولم يكونوا يتجرون على ذلك قط في أيامنا ، إلا بما أطعمهم فيه صاحبك ، فهزم الله الجمعين ، وأمكسنا من الفريقين . وإنما كان يفتخر صاحبك بمثل ما هياه الله لنا لو قد هياه الله له . كلا ، لن يفعل الله ذلك بفضله علينا ؛ إنما أملنا إدراك مركب من مراكبه لنتحرقه ، فأقدرنا الله عليها وعلى جميع أساطيله ، فخرقناها ، وعلى أرضه وبملكته فوطئناها . فأما أمه أن يبلغ المهديّة ، فرده الله من دونها مغلوبا منكوبا ، له خزي من الله أكمله ، وخذلان انقطع به أمه . فلو كان من أهل التمييز والعقول ، أو كان يدري ما يقول ، لم يقل مثل ذلك ، ولا يفخر به ، وهو عليه خزية وعار وسبة . وما فعل الله عز وجل ذلك به ، إلا كفعله باللغناء آياته ، إذ رجعوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من مكة إلى المدينة على بكرة أبيهم ، وقد استجاشوا بمن يليهم ، فردهم الله عز وجل كما قال : « بغضهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا ، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيمهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا (٢) » . فكانت هذه تيك ، حذو النعل بالنعل ، والقذبة بالقذبة ، بل هذه بحمد الله أنكسى لأصحابك ، بما قتله الله ع ج منهم ، وللشركيين بمن قتل أيضا ، وأسر وهزم من أساطيلهم وجموعهم . وتلك عادة الله قديما لأوليائه ، وهو ولي ما عوده حتى ينجز وعده إن شاء الله لهم .

(١) سورة المنتهنة آية ١

(٢) سورة الأحزاب آية ٢٥ ، ٢٦

ثم يبلغنا أنه يبلغنا على منابره كل من سلفه الفسقة لأمير المؤمنين عليّ (صلع) ،  
ويشكر علينا لعنه . فنحن إن لعناه ، لعناه بكتاب الله ، لأنه من قال الله فيه - وهو  
أصدق القائلين : « ألا لعنة الله على الظالمين » . ومن أسلافه لعناه رسول الله (صلع) ،  
لأنه يتولاها الله عز وجل يقول : « ومن يتولهم منهم فإنه منهم » . وهو إن لعنا  
أوشتمنا ، فبالاقتداء بسلفه ، الذين كانوا يشتمون رسول الله (صلع) ويلعنون وصيه -  
صلوات الله عليه وعلى الأئمة من ولده ! وما زاده الله ، ولا يزيدنا بذلك إلا رفعة  
وشرفا ، ولا زادهم إلا شقاء ، ولا يزيدهم إلا ضعة عند الله وعند عباده ومقتنا .  
ثم قال (صلع) : وإنما معنى اللعن الطرد والإبعاد عن الله وعن رسول الله (صلع) وأهل  
بيته ، الذين هم أولى به ، وأقعد وأقرب إليه (ص ع) ، تمنّ عاداتهم وناصبهم وكذبهم .  
فلو تدبر الشقي هذا . لعلم أن لعنة الله راجعة عليه ، لا تعدوه ولا تعدو سلفه .

قال الرسول : إنما قلت يا أمير المؤمنين ما قيل لي أن أقوله ، والقول ما قاله  
أمير المؤمنين ، والحجة له . قال له أمير المؤمنين (صلع) : إذا قلت ما قيل لك ، فقد  
سمعت جوابك غير محمل إياه ، ولا مرسل إلى من أرسلك به . فانصرف إذا شئت ،  
وسر حيث أردت . ولو علمنا أن هذا بما قيل لك لتقوله لنا ، لما سمعناه منك ،  
ولا أجبناك عنه ، وإنما أجبناك عن قولك جوابا منا لك لا لمن أرسلك .

### الملحق الثامن

رد المعز على عبد الرحمن الناصر الأموي (١)

« أما ما يتخوفه من الحرب والفتنة وسفك الدماء ، فما ظهر له منا ما يتخوف  
منه ذلك ، وما نحن بمن يؤمنه منه . ولكننا بغى علينا من بغى من أهل عمله ، فانتصرنا  
بأنه ، فنصرنا الله ، وبلغنا فوق آمالنا . فقام وقعد ، وأبرق وأرعد ، ووالى علينا  
المشركين ، الذين رأى الآن أن اشتغالنا به واشتغاله بنا داع إلى ترك جهادهم ، وأن  
ذلك نقص ووكف على الإسلام . فهلا رأى ذلك إذا بعث بأمواله وهداياهم ورسوله

(١) الثمان : المجالس والمساربات ج ١ ص ٢٣٠ - ٢٢٤ .

إليهم، واستنصر علينا بهم؟ فكيف رأى عز وجل ما فعل بهم ويجمعهم؟ ألم يصرف  
الجمعين مغلوبين خائبين خاسرين؟ ونحن بعدها، فما كان رأى منا إليه حركة، فما هذا  
القلق وهذه العجلة؟

وأما ما دعا إليه من السلم والسكف والمودعة والصلح، وهو يزعم أنه أمير  
المؤمنين، كما تسمى دون من سلف من آبائه، وإمام الأمة بدعواه وانتحاله .  
ونحن نقول: إننا أهل ذلك دونه ودون من سواه، ونرى أن فرض الله علينا  
محاربة من انتحل ذلك دوننا وادعاه، مع ما بين أسلافنا وأسلافه، ومن مضى من  
القديم والحديث من آبائنا وآبائه، من العداوة القديمة الأصلية، والبغضة في الإسلام  
والجاهلية، وما اعتقدوه لنا في ذلك في الإسلام، وطلبونا به من قديم الأيام:  
من لعن رسول الله، صلوات الله عليه، آباءهم، وقتله من قتله على الشرك والكفر  
بأنه منهم، وطلبهم بثأرهم ودمائهم، وطلبنا نحن إياهم بمن قتلوه منا كذلك  
في سلطانهم وأيام تغلبهم. فكيف بالصلح الذي ذكره بعد هذا النبأ الجليل خطره،  
يأني لنا من ذلك قول الله ع ج: لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر، يوادون  
من حاد الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم .

ما أنا بالمداهن في دين الله، ولا بالراكن بالمودة إلى أعداء الله، ولا بالمخادع  
في أمر من أمور الله عز وجل. ارجع بجوابي هذا إليه، فإله عندي سواء، ومالي  
من الأمر من شيء، إن الأمر كله لله، عليه توكلت وإليه أنيب. فإن حركني الله  
إليه، وقذف في قلبي حربه وغزوه، فلا أشك أن الله عز وجل أراد قطع دابره  
واستئصال شأفته، وتطهير الأرض من رجسه، وحسم أيامه ومدته، وإلا يقذف  
ذلك في قلبي، ويصرف إلى من سواه وجهي، فلأمر هو بالغه فيه، وإملاء هو محتج  
به عليه، ومدة سبقت في قلبه له. قال تعالى: «ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي  
لهم خيراً» لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً<sup>(١)</sup>. فليتظر أحد الأمرين، وليتوقع  
وجها من الوجهين: إما هلاكاً يعجل اصطلامه، وإما إملاء من الله يوفّر آثامه؛  
ونحن نتظر من الله ع ج إحدى الحسنيين، ونرجو منه لنا خير الأمرين:

إما نصرنا من الله يجعله لنا عليه، فيشفى قلوبنا وقلوب المؤمنين به، وإما أن يعلى له على ما هو عليه من معاصيه ومخازيه، ففي ذلك سرور من رأى عدوه عليه، فقد كان يقال: حسبك ذلك أمل من عدوك، أن تراه عاملاً بمعاصي الله، وذلك أن المعاصي تعجل الدمار، وتولج عما قليل عذاب النار.

### الملحق التاسع

#### نقض المعز كتاب الناصر (١)

وقال النعمان: وكان في الكتاب الذي قدم به الرسول من الأندلس الذي قدمت خبره، وأنه رفع إلى أمير المؤمنين، يعني لهسيهم، الكتاب الوارد؛ فرأى فيه من أطراء فلان، يعني أمير المؤمنين، لنفسه، وذها به بها وافتخاره، ما لا يليق بأهل العقول مثله، ريس من شيم أهل العقول إطراء أنفسهم. وقال المعز لدين الله (صلع): فاسمعوا إلى جهل هذا الجاهل: إن هذا الكتاب ورد من رجل منا على رجل من قبله، جواباً عن كتاب كتبه إليه، فنسب إلينا فيه أنا قلناه بلا علم له بذلك. ونحن إن أطرينا أنفسنا، وأطرانا غيرنا، وافتخرنا، وافتخرنا من سوانا أو افتخرنا؛ فنحن بحمد الله أهل الفخر والإطراء والفضل. وألسنا من قرابتنا من رسول الله (صلع)، ومحلنا الذي أحنا الله به من الإمامة، وما أولانا من الفضل والفخر والكرامة؟ فإن ذكرنا ذلك وقلنا، فبأمر الله ع ج ذكرناه. قال تبارك وتعالى لنبيه: «وأما بنعمة ربك فحدث». فهذه نعم الله علينا، وفضله وإحسانه إلينا، لا على أن نفتخر زهوا وتكبرا، ولا نذكر من فضلنا ما نذكره أشرا ولا بطرا. وقد قال رسول الله صلوات الله عليه: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أتقاكم لله ولا فخر». فهذا القول الذي قاله صلح هو غاية الفخر، ولكنه إنما نفي عن نفسه الكبر والتجبر والدعوى بغير الحق، كما فخر هذا المنتقد علينا الفخر. ثم قرأ علينا فصلا بعد هذا من الكتاب، فإذا فيه من افتخاره ما يطول ذكره، فتعجب المعز، صلوات الله عليه! وتعجبنا من غفاته عن نفسه. وقال: هذا بما قلناه، إن هذا كتاب جوابه فيه، وإننا لو رأينا

(١) النعمان: المجالس والمعارف ج ١ ص ٢٤٨ - ٢٨٦.

الجواب عنه ، لدرجناه ورددناه إلى كاتبه ، وقلنا له جواب فصل كذا من كتابك فصل كذا ، حتى نأتى عليه . ثم قال (عم) : وهذا مما قيل لنا : إنه جمع كتابه ووزراه فيه ، ثم اختار من كلامهم ما جمعه ، ولم يدر أن بعضه لبعض نقيض ، بسوء تمييزه ، وبعد فهمه ، وشغله بما هو فيه من معاصيه ، عن انتقاد الكلام والنظر في معانيه .

وفي الفصل الثاني قال : وكان في فصل من الكتاب ، افتخار اللعين الأموى بما حواه من الأموال ، وورثه عن آبائه من الخزائن والذخائر . فقال المعز (صلع) : وهذا مما ذكرناه له ؛ يأخذ علينا الفخر بفضلنا على البرية ، بولادة رسول الله (صلع) وبما خصنا الله به من إمامة عباده ، وبما نطق به كتاب الله ع ج من فضلنا وحقنا ، وافترضه فيه على الأمة من مودتنا وطاعتنا ، وجعله مع رسول الله صلوات الله عليه من النبي لنا ، فوصفنا إحسان الله ع ج في ذلك إلينا ، وفضله وإنعامه علينا .

وهذا يفخر هو علينا بملك مال تغلب عليه ، ومن الحرام اكتسبه ، وبسلطان تعدى عليه واغتصبه . يكثرنا لاهيا ، كما قال الله عز وجل : «الطُّكُمُ التُّكَاثُرُ ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ» (١) ، إلى آخر السورة . وهذا وعيد الله لهذا الفاسق ولأمثاله ، الذين ألهاهم التكاثر بما تغلبوا عليه من أمواله . فهذا الذى نغر به عائد عليه وزره وإثمه ووباله ، والقليل من ذلك كان أحق عليه وأولى به ، وما استكثر منه ، فإنما استكثر به من سخط الله وغضبه ، وإثما هو في ذلك بمنزلة السارق يفخر بما سرق ، والخائن يكثر بما فيه خان ؛ فليفاخر وليكثر بذلك أمثاله ، ويباه به نظراه وأشكاله الذين تعبدوا للدينا فآثروها ، واطرحوا الآخرة ورفضوها ، واستعدوا منها ما استعدوه لمعاصي الله ، وما يبعدم منه كالذى استعداه له هذا الشقي من الملاحى والخنور ، واعتكاف على المخازى والفجور . فقد روى عن رسول الله (صلع) أنه قال : من أراد أن يعرف مال أمرى من حيث اكتسبه ، فليظرفيا ينفقه ؛ فإن الحرام فى مثله ينفق . وقال : يسأل كل أمرى منكم عن ماله : بما اكتسبه ، وفيما أنفقه . وهذا بما لا يشك فيه أحد منكم ، إن الحرام إذا أنفق كان حراما ، لأنه ليس لمن اكتسبه أخذه ولا إنفاقه .

وفي الفصل الثالث قال : وكان فى فصل من فصول هذا الكتاب ، أن الروم يزعم

(١) سورة التكاثر آية ١ ، ٢

من كتبه قد غلبوا علينا ، وأسروا خلقا من المسلمين من أساطيلنا ، وأنا وادعناهم  
على تركهم لهم ، إثارة الحرب المسلمين . فقال المعز لدين الله - أمير المؤمنين (عم) :  
أفلا تعجبون لهذا الخائن الكاذب ؟ لو أن هذا القول مما تزين به عند أهل موضعه  
لكان قبيحا شنيعا من الكذب ، فكيف بأن يكتب به إلى من يعلم باطله ، ويقف  
على كذبه ؟ فهل علمتم أن الروم أسروا من المسلمين من قبلنا ، إلا أهل المركب  
الحمال ، الذي مر بهم ؟ فاسترجعناهم ، وعقدنا عليهم ، فيما عقدناه من المصادقة بيننا  
وبينهم ، أن يأتونا بمن أسروه من أهل المشرق ، وما أخذوه لهم ، وأنهم قد سألونا  
ورغبوا إلينا أن نطلق لهم بمن سبناهم وأسرناهم من رجالهم ونسائهم وذرائعهم ، فما  
أجبتهم إلى إطلاق نسمة واحدة منهم ، إغزازا للإسلام وأهله ، ووضعنا للكفر  
وحزبه ، أفما يستحي هذا الخائن من الكذب والتجوية ؟ ولكنه ما استجيا بما هو من  
ذلك أخزى له ، من العيوب الفاضحة ، والآثام القبيحة ، التي اشتهر بها ، واستفاض عنه  
الخبر فيها ، من أنه يؤتى في نفسه . يقول ذلك المعز صلى الله عليه ، مطرقا معرضا بوجهه ،  
استحياء من ذكره . قال : ولقد قلت لهذا الرسول قولاً في ابن هذا الفاسق المنسوب  
إلى عمه ، إنني أردت به هذا المعنى ، فقال لي محتجا عنه : إنما يقال هذا يا مولاي في أبيه ،  
فكفى بمن لم ينف ذلك عنه وليه ورسوله ، لاشتهاره به . ولعمري أن هذا إقدام من  
كانت هذه حاله ، وذلك داؤه ودام سلفه ، قبحهم الله وأخزاهم ، ولعنهم وأقصاهم .  
وفي الفصل الرابع قال : وكان في فصل من هذا الكتاب ، افتخار الأموي  
اللعين بما يحاك له في بلد الأندلس من الخبز والوشى وأصناف الثياب ، مما زعم أنه  
لا يحاك بالمشرق مثله ، وأنه قد استغنى بذلك عما يجلب إليه من المشرق . قال أمير  
المؤمنين المعز لدين الله ص ع : وما سمعنا أحدا يدعى عقلا يفخر بالخائف . ولو كان  
ذلك مما يفخر بمثله ، لكان عندنا من الطراز ، وأنواع الأعمال البديعة ، والصنعة  
العجيبة ، مما يشك من رآه أنه ما رأى مثله ، مما يعمله عبيدنا الذين أفاء الله ع ج بهم  
علينا ، من سبي الروم بأسياقتنا ، دون من نخر هو بمثله من سائر الرعايا . ولكن مثل هذا  
لا يفخر به ذوو العقول ، بل الحاكة وأهل الصنائع ، إذا كانوا هم الأغلب على أهل بلد  
نقصوا بهم ، كما قال المصري لليمانى : إنما أهل اليمن بين حائك برد ، ودابغ جلد ، وسائس  
قرد ، فدمهم بذلك . فجعل هذا الجاهل هذا نفرا ، وأنه إذا قيس إلى معاييه يفخر بمثله .

وفي الفصل الخامس قال : وذكر في فصل من فصول هذا الكتاب عليا ص ع ،  
فترحم عليه وقال : وإن كان الذي صار إليه إنما تهيأ له بالحيلة . قال المعز ص ع :  
والذي دعاه إلى أن ترحم على علي ع م ، الضرورة ، التي دعته إلى الصلوات على رسول  
الله ، صلوات الله عليه وعلى آله ، ولأن الجماعة اليوم قد أجمعوا على فضله . ولو أمكنه  
ما كان أمكن اللعناء سلفه ، لعنه كما لعنوه على المنابر ، حتى كان مما مدح به عمر بن  
عبد العزيز منهم بعض من مدحه لما أمسك عن لعنه أن قال :

وليت فلم تشتم عليا ولم تحف بريا ولم تقبل مقالة مجرم

ثم قال ص ع : وفي ترحم هذا الفاسق على علي ص ع ما يلزمه لعن آبائه الذين  
لعنوه ، والبرامة منهم ، لو كان ذلك منه اعتقادا . فأما قوله : إن عليا صار إلى ما صار  
إليه بالحيلة ، فهذا مما تقدم ذكرنا له من فحته ومباهته . وقد علم الخاص والعالم أن  
الذي صار إليه بالحيلة اللعناء سلفه ، أقربهم إليه مروان الطريد ، في احتياله على معاوية  
ابن يزيد ، ودسه من دس من أهل الجابية في توليته ، وإن لم يوجد له يومئذ منقبة  
ولا فضيلة يقولها أو يذكره بها من ذكره ، إلا أنه قال : إنه شاب حتى شابت ذراعاها ،  
وقد كان فيهم يومئذ من شيوخ السوء من هو أكثر شيئا منه ، وإن من حضر يومئذ  
بالجابية أكثروا التعجب من قام بذكره ، ورضى بولايته ، على ضعف أهل الجابية ،  
وقلة تمييزهم ، حتى تمثل المتمثل منهم بأن قال : هذا أمر مسي في ليل . فأما على  
صلوات الله عليه ، فقد علم الخاص والعام ، والمحالف والمؤلف ، أنه لم يجتمع الناس  
على أحد قبله بعد رسول الله ، صلوات الله عليه وآله ، اجتمعهم على بيعته . أما  
أبو بكر فقد نازعه الأنصار وغيرهم ، ومات كثير من الصحابة وما بايعوه . وأما  
عمر فقد اجتمعوا فيه إلى أبي بكر ، فقالوا له : نناشدك الله أن تولى علينا رجلا فظا  
غليظا . قال : أربى تخوفوني ! إذا لقيت الله قلت له : إني وليت عليهم خير أهلك .  
وأما عثمان ، فما اجتمعوا على توليته ، ولكنهم اجتمعوا على قتله . وأما علي ص ع  
وعلى الأئمة من ولده ، فأجمعوا بإجماعهم عليه ، وامتنع منهم ، وأطبقوا عليه ، وما زالوا  
به حتى أجابهم ، إذ لم يجد لدفع ذلك وجهها تقوم له به الحجة . ولو توقفوا عنه ، كما  
توقف من توقف منهم قبل ذلك ، لتركهم . وكان أول من بايعه الذين نكثوا عليه ،  
لما لم يجدوا عنده من الأثرة ما عثودوه ، وقد سأله معاوية تركه على الشام ،



فلو فعل ذلك لما كان الذي كان منه ، ولكنه (صلح) تلا عند ذلك قول الله عز وجل :  
وما كنت متخذ المضلين عضدا . فعمد هذا الفاسق إلى ما عسى أنه كان يقال في أسلافه ،  
فرمانا به ، كما قيل في المثل لعاهرة رمت عفيفة بالزنا : ورمتها بدائها وانسلت .

وفي الفصل السادس قال : وذكر في فصل من هذا الكتاب معاوية ، فترحم عليه ،  
وقال : أمير المؤمنين معاوية . فقال مولانا المعز صلح : فإذا كان معاوية عنده أمير  
المؤمنين ، فقد شهد على أسلافه بالعصب ، وعلى نفسه بذلك ، لأن معاوية قد أقر الأمر  
في ولده ، فما أدخل مروان وآل مروان فيها ، ومعاوية وولده لم يجعلوا ذلك لهم ، ولا عهد  
أحد منهم إليهم ، ولا أجمع المسلمون عليهم . فهم بقوله مغتصبون متغلبون ، وبمثل هذا  
رضى هو وأسلافه لمن ادعى التفقه من العامة ، أن جعلوهم أئمة يأخذون دينهم عنهم ،  
وأقتاهم أولئك أن من رضيه المسلمون فهو أمير عليهم ، ولو أفادوا هذا الأصل ، لم  
يعد ذلك الذين رضوه لو كان ذلك كما أصلوا ، إذ ليس عندهم لأحد أن يستخلف  
ولا يوكل أحدا على ما ليس له . وكيف وليس ذلك لهم في أنفسهم ولا في غيرهم ،  
لأن الله جل ذكره قرن طاعة الأئمة بطاعته وطاعة رسوله ، فقال جل ذكره :  
« وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » . فلو كان للناس أن يقيموا  
لأنفسهم إماما ، فتجب طاعته بإقامتهم إياه ، لوجب كذلك أن يقيموا نبيا وإلهما ، كما  
فعلت الجاهلية في نصبها آلهة من دون الله تعالى عن قول المبطلين الظالمين ، فالكلام  
في هذا يتسع .

وفي الفصل السابع قال : وكان في فصل من هذا الكتاب ، ذكر أبي عبد الله  
صاحب الدعوة ، وقيامه بها ، وقتل المهدي له صلح ، وأنه لم يف له ، وانتقم الله منه  
على يديه . فقال المعز صلح : ما عسى أن يجعله هذا الجاهل من أمر أبي عبد الله فقد  
عرفتموه ، وأن أخاه أبا العباس كان سبب قتله ، وأن المهدي صلح ما أراد قتله ،  
وإن استحق القتل عنده ، حفظا لما تقدم له . وإن كان قد سمى مع أخيه ، ومال  
إليه ، وغلب الهوى عليه ، لما رأى الأمور خرجت من يديه . وهذا الفاسق لا يدرى  
ما أوجب قتله ، ولا كيف كان سببه ، ولا يعلم حال القتل ، الذي هو سخط وانتقام ،  
وقهر من حال القتل ، الذي هو قصاص وواجب وطهر ، فما الذي أدخله فيما لا علم له به ؟

فإن أنكر مثل هذا ، فلينكر فعل الله عز وجل فيمن عاقبه من أنبيائه الذين اصطفاهم على عبادته ، ثم عاقبهم بما اجترموه ، وطهرهم بالعبودية بما كانوا اقترفوه . فقد أخبر الله تعالى ، وهو أصدق القائلين ، عن عاقبه من أنبيائه ، مثل آدم ويونس وأيوب وسليمان وداود ويعقوب ، فإن أنكر عقاب المحسنين إذا اقترفوا السيئات بعد الحسنات ، فلينكر ما جعله الله عز وجل من ذلك قرآنا مسطورا ، وذلك قوله : «وقد سئنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا» (١) . والأمة لا تختلف في أن عابدا لو عبد الله طول دهره ، وسائر عمره ، قائما لا يقتر ، وصائما لا يفطر ، ثم كفر بعد ذلك طرفة عين به ، ومات على كفره ، لأحبط الله عمله . فإن أنكر ذلك ، فليقرأ قول الله عز وجل وهو أصدق القائلين : «ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك : لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين» (٢) . وقد كان رسول الله صلح وعلى الأئمة من ذريته الطاهرين ، كما وصفه الله في كتابه المبين ، إذ يقول وهو أصدق القائلين : «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم» (٣) . فكان صلح مع ما وصفه الله من الرحمة فيه ، يقتل القتال ، ويرجم الزاني المحسن ، ويحد البكر ، ويقطع السارق ، لأن هذه حدود الله التي ذكر في كتابه أن من تعداها فقد ظلم نفسه ، وأن الرحمة فيها وفي ترك تنفيذها ، لا تعد رحمة الله ، لأن الله عز وجل ، الذي ذكر حدوده التي افترضها ، وأمر عااده بإقامتها ، هو أرحم بخلقه ، وأعلم بصلاح عبادته أجمعين . فإن زعم الذي أنكر قتله أنه لم يقتل ، فيجب القتل عليه ، واحتج بالحديث الذي رواه أئمتنا ، أن رسول الله قال فيما زعموه : لا يحل قتل امرئ يؤمن بالله واليوم الآخر ، إلا في ثلاث : زنا بعد إحصان ، أو كفر بعد إيمان ، أو قتل نفس بغير نفس . فهو لا يدري ، إن كان هذا الذي أنكر قتله ، قد اقترف شيئا من ذلك أو لم يقترفه . وقد نطق الكتاب بقتل غير من ذكروه في هذا الحديث ، فقد قال الله تعالى : «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض» (٤) . والمفسد في الأرض وقاطع الطريق يقتل في قول أئمتنا ؛

(١) سورة الفرقان آية ٢٣ .

(٢) سورة الزمر آية ٦٥ .

(٣) سورة التوبة آية ١٣٧ .

(٤) سورة المائدة آية ٣٣ .

وكذلك اللص، ومن نازع رجلا على شيء من ماله أو مال غيره من المسلمين، أو أراد قتله، جازأله أن يقتله. قال الله ع ج: «فإن بغت إحداهما على الأخرى، فقاتلوا التي تبغي حتى تقي». إلى أمر الله<sup>(١)</sup>، فأوجب قتال أهل البغي، وأباح قتلهم. فهل كان هذا الفاسق الجاهل المعترض يعلم حال الذي أنكر قتله، وأنه كان بريئا من هذه الوجوه كلها، والتباعات بأسرها؟ أو كان علم كيفية قتله، وعلى أي الوجوه جرت أموره؟ بل هو لا يدري على الحقيقة من ذلك شيئا، ولكنه يدري أن العبد الذي هرب بجده الداخل إلى الأندلس من المشرق، وخاطر بنفسه فيه، حتى أصاره المصير الذي صار إليه، قد قطع، وقتله من أجل أنه لطمه يوما في حين مجيئه به. وقد رأى بعض رجال السلطان، ليومهم أنه عبده، وأراد بذلك نجاته، فكان ينبغي لهذا المنتقد ما يجمله، أن ينتقد على سلفه ما يدره ويعرفه. وقد يكون المؤدب والقيم على أولاد الملوك، يؤدبهم ويضربهم في الأمر اليسير، ثم يصير من يصير منهم بعد ذلك إلى الملك، فيوفي حق مؤدبه والقيم عليه، الذي كان يضربه ويؤدبه، لما يقيمه عليه من الواجب. فكيف لمن كان إما أراد بما فعله حياة من فعل ذلك به، واستنقاذه من القتل، فاستنقاذه من ذلك، وأصاره إلى الملك، وبذل نفسه فيه، فيكون جزاؤه أن تقطع يده ويقتل؟ فمثل هذا لو تعقبه الجاهل الأحق على سلفه، لشغله عن تعقبه ما لا يدره على غيره. ثم قال مولانا الإمام المعز صلح: وفي مثله قال بعض الحكماء: من عمى عن معائب نفسه لم يعلم محاسن غيره، فهو لا يقلع عن المعائب إذ جهلها، ولا يدري المحاسن في غيره فيستحسنها. ثم قال ع م: لقد مر بي هذا الكلام منذ أيام في كتاب، فأعجبني غاية الإعجاب، وأحسبه بهذا اللفظ، ثم دعا صلح بالكتاب فاستخرجه منه، فوجده ورده، ثم قال: إنه لمن كلام الحكمة.

في الفصل الثامن قال القاضي النعمان بن محمد: وكان في فصل من فصول هذا الكتاب، مما اقتخر به الاموى اللعين، أن ذكر عدة رجاله، فقال المعز صلح: لو علمنا أنا ندرك بمشقة، لرأينا أننا نتحملها. فإن كان هذا الأحق الجاهل لم يعلم أن علم هذا في أقل بلد من بلداننا وأدنى عسكر من عساكرنا، أضعاف ما ذكره من العدد الذي به تهيب، فقد جهل مالا ينبغي لمثله أن يجمله؛ وإن كان قد علم ذلك، فعرفنا بما عنده من العدد، فما زاد على أن أوقفنا على ضعفه ووهنه، وعرفنا قدر ما يحتاجه إذا أردنا محاربتة. وما أدري ما معنى ذكره هذا؛ ولكن لا عقول ولا تحصيل إلا لذوى العقول.

وفي الفصل التاسع قال : وكان في فصل من فصول هذا الكتاب ذكر إفريقية فقال : إنما بها بربر أغتنام لا يميزون شيئا . فتبسم المعز صلح عند ذكر ذلك وقال : هذا بما قيل في الأخبار عن بعض الملوك ، أن اختلاطا أصاب الناس في زمانه ، وسلم هو منه لأمر تحفظ له . فلما رأوه وقد خالف معانهم قالوا : قد اختبل الملك ، وهموا أن يخلعوه ، فاتصل به ذلك ، فتناول ما كان تحفظ منه ، حتى دخل عليه ما دخل عليهم ، فقالوا : قد صح ، وصبر على ذلك ، حتى زال عنه بزواله عنهم ؛ فكذلك هذا الجاهل الركيك ، لما قصر عقله عن عقول ذوى العقول ، رامهم بالجهل . أفلم ير الجاهل أمته الذين هم فيما يزعمون فقهاء أهل بلده ؟ وإنما أخذوا عليهم أكثره عن كان بإفريقية ، وكتبهم إلى اليوم في أيديهم ، وكل من طرأ منهم إليهم فأخذ عنهم ، حتى إنهم ليأخذون عن لايؤبه إليه منهم . والجهل إذا نعت ، والحق إذا وصف ، والرفاعة إذا نزلت ، فإنما يضاف ذلك إلى أهل الأندلس ، ( فهم ) أشبه الناس طباعا وأخلاقا ، وزيا ومنظرا وهما ، بأهل وادي الروم ، وهم منهم . وقد رأيت كثيرا من ألف الكتب في البلدان وذكر أحوال أهلها ؛ فكل قد أجمعوا على أن الذكاء والفضة والعلم والرفقة في أهل العراق ، ثم بعدهم في أهل إفريقية . وذكروا سائر البلدان ، وما ذكروا الأندلس في الذاكرين . ولولا سخف عقولهم ، وغلظ طباعهم وأذهانهم ، لما أقروا لمن طرأ إليهم من فر من بني أمية ، ولو وجد في الأرض أجمل منهم لقصده إليهم دونهم . فأما ما ذكره من البربر ، فلولا ما ينتزع إلى ناحيته منهم ، رغبة في جهاد المشركين وذودهم عنه ، لما قرب به قراره ، ولا اطأنت به داره .

وفي الفصل العاشر قال : فكان في فصل من فصول هذا الكتاب أنه ترك أهل المذاهب ، وما اختاروه لأنفسهم ، ولم يعرض لأحد منهم ، فنزع أكثر الناس إليه ، وسكنوا بلده لذلك . فقال المعز صلوات الله عليه : وهذا بما قدمنا ذكره ، أنه والمتغلبين أمثاله ، إنما أرادوا عاجل الدنيا . فلما سلها الناس إليهم ، لم ينظروا في شيء من أمر دينهم ، وسلموا إليهم ، وأخذوا عنهم . ولو كانوا من تعبدوا الله عج لتقويم عبادته ، على ما شرعه لهم من دينهم ، والدعاء إليه ، لقوموه عليه ، ودعوه إلى ما فيه صلاحهم ، وكان ذاك أهم عليهم من أمر الدنيا ، لأن الله عز وجل لم يرسل الرسل

و(لا) أقام الأئمة، إلا لإظهار دينه، وتقويم عبادته عليه، والدعاء إليه. وأما ما ذكره  
من نزع إلى بلده، فما علينا أحدنا نزع إليه لعلم يأثره، ولا لدين يطلبه، وما نزع من نزع  
إليه إلا لما أباح لهم من شرب الخور، والمجاهرة بالمعاصي، وجعل ذلك سببا لمجاهرته  
هو بذلك. ولو أنكرك ذلك على غيره، لوجب أن ينكره على نفسه. على أنه إن عد  
من نزع إليه نغرا، فإننا لانعرف قرية من القرى، فضلا عن الأمصار والمدن، من  
أقصى المغرب إلى ما يقرب من المشرق، إلا وفيها طائفة من أهل الأندلس،  
قد نزعوا إليها، ووطنوا بها؛ وأن كثيرا منهم ليذكر أن الذي نزع به خوف سخط  
الله، لما رآه من إظهار المعاصي ببلده، فخرج هاربا لذلك بنفسه. فإن كان يعد من  
نزع إليه مفخرا، فليظن من نزع عنه، مع أن هذا من مفاخر الجهال. وما زال  
الناس ينتقلون من بعض البلدان إلى بعض، اختيارا أو شهوة، ولعلة أو لغير علة،  
على قديم الزمان. في كل مكان. فإن كان عنده أن كل بلد ينتقل إليه، له الفضل على البلد  
المنقول منه، فليفضل إن شاء ذلك وقال به، البلد الذي نفي رسول الله صلح جده  
الحكيم بن أبي العاص إليه، على حرمة الذي نفاه منه، ليفيد قوله، وبكلم له افتخاره.

وفي الفصل الحادى عشر قال: وقد كان في فصل من فصول هذا الكتاب، أنه  
يعنى أمير المؤمنين، مولانا صلح لم يرض في الدعاء له بطول البقاء، حتى تعدى إلى  
ما يدعى به للأنياب من الصلاة. قال المعز صلح: فلو علم هذا الجاهل معنى الصلاة  
على الحقيقة، أو معناها في مجاز اللغة، لما أنكرا ما أنكره، ولكن لجهله مثل هذا  
عدلتنا عن جوابه، وسكتنا عنه، لأنه كان يقال: السكوت عن الأحمق  
جوابه، فرجعنا إليه رسوله من غير جواب، احتقارا له. وكان هذا الجاهل لم  
يسمع قول الله وهو أصدق القائلين: «وبشر الصابرين الذين إذا أصابهم  
مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون؛ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة،  
وأولئك هم المهتدون»<sup>(١)</sup>، وقوله: «إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين  
آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما»<sup>(٢)</sup>. وما رواه أئمته، أن الناس سألوا رسول الله صلح  
لما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله، كيف فصلى عليك؟ فقال: قولوا: اللهم صل

(١) سورة البقرة آية ١٥٧

(٢) سورة الأحزاب آية ٥٦

على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين ، إنك حميد مجيد ... ثم قال المعز صلح : فنحن آل محمد المصلي علينا في كتاب الله ، وعلى لسان رسوله ، على رغم أنف الفاسق المنكر ذلك والجاهل له . ثم قال صلح : فإن كان هذا عنده لم يُستعارف إلا للأنبياء كما قال ، فما باله يسمى أمير المؤمنين ، وذلك لا يعرف بالآندلس ، ولا كان من تقدمه من آباءه يسمون به ، ولا هو صدرا طويلا من أيامه ، فما الذي أوجب ذلك له ؟ هل كان هو فيما تقدم له وآبؤه من قبله على جهل في ذلك ، فاهتدى إلى الصواب بعد ذلك ؟ فليشهد على نفسه وعليهم بذلك ، وإن كانوا على صواب ، فقد أتى الجهل بخلافه إياهم ، ودعوا ما ليس له دونهم .

وفي الفصل الثاني عشر (قال) : وقد كان في فصل من فصول هذا الكتاب ، أنه آثر السلم والصلح والموادعة ، لما أراده من حقن دماء المسلمين ، وكرهه ما يدعو إلى غير ذلك . فقال المعز صلح : فهلا كره إذ أرسل رسله وهدايا وأمواله ، إلى طاغية الروم يستنصره عليهم ، وواطأه على حربهم ، وأقبل كل واحد منهم من ناحيته برجاله ونجدته ؟ أفلم يكونوا عنده يومئذ مسلمين ؟ وإنما أسلبوا اليوم لما صرفنا وجوهنا إليه ، وبرقت بوارقنا نحوه ، يخاط لنا اللين بالشدة ، ويظهر لنا التجلد والنجدة ، ثم يسترحمنا للمسلمين . ثم ذكر صلح في ذلك نحو ما ذكره للرسول ، وقد تقدم ذكره في مثل هذا القول لما ذكره له .

وفي الفصل الثالث عشر قال : وكان في فصل من فصول هذا الكتاب ، أنه ، يعني أمير المؤمنين صلح ، منع أهل بلده ، يعني أهل الآندلس ، من حج بيت الله الحرام ، وحال بينهم وبينه ، فقال المعز صلح : أفرأيتم أشنع من هذا الفاسق كذبا ، أو أقبح منه قولاً ؟ ومتى منعنا نحن أهل الآندلس ، أهل بلده ، من الحج أو من السفر حيث أحبوا ؟ بل هو الذي منعهم ، وغيرهم من كان من أهل البلدان يبيلده من الخروج ، لئلا يؤدوا بزعمه أخباره إلينا ، فرد ذلك علينا . وهؤلاء يذهبون ويرجعون ، فما تعرض لأحد منهم ولا تمنعهم . وكيف نصد عن بيت الله ونحن أهله ؟ أم تمنع من زيارة قبر جدنا محمد صلح ونحن ولده ؟ قبح الله هذا الفاسق وترحه ، فما أشنع شناعته وأقبح كذبه والعيان يدفعه ، والمشاهدة تبطله .

وفي الفصل الرابع عشر قال : وكان في فصل من فصول هذا الكتاب ، أن جميع من ضمنته وحوته جزيرة الأندلس ، أولياؤه ورجاله وأشياعه ، ومواليه وعبيده ، وجنده وأنصاره . قال المعز صلح : فلو صدقنا في ذلك قوله ، وأخذناهم بشهادته وادعائه ، لقتلنا من ظفرنا به منهم ، وأخذنا أموالهم . فضلا عن أن نحول بينهم وبين حجهم ، لأنهم إذا كانوا على ما وصفهم ، فهم لنا حرب وأعداء ، وجاز لنا أن نفعل فيهم ما قلناه ؛ إذ هم على ما زعم منه وهو منهم ، بتوليهم له ، وكونهم في حربه . ولكننا نعلم أن الأمر فيهم على خلاف ما ادعاه ، وأنه كذب ، لعنه الله وأخزاه . وإنا لتعلم أن كثيرا ممن حوته داره ، وأحاط به جداره ، يشنؤه ويمقته ، ويستبعد أجله ، ويستبطن موته ، وأنه لو قدر على ذلك لاستعجله له ، فضلا عن سائر أهل بلده ، الذين قد سامهم سوء العذاب ، وتجاوز في أموالهم حد الواجب ، إلى أن صاروا إلى الانتهاب ؛ وما كف عنهم بعض شره إلا منذ أوقفنا به ، وأنهم ليدعون الله لنا لذلك بالنصر عليه ، لما كففنا عنهم منه . فنحن لانقبل قوله عليهم ، ولا نصدقهم فيهم ؛ نحسن لمحسنهم ، كما قد أحسنا إلى من قدرنا عليه منهم .

وفي الفصل الخامس عشر قال : وكان في فصل من فصول هذا الكتاب المتقدم ذكره ، قال : وكتب إلينا ، يعني من كتب إليهم من الحضرة ، أنا أرسلنا مدد البربر عليهم في مراكب ، وأنها عطيت ، ونكب أهلها فأسروا ، فبيعوا بالكلاب ، فقال : وهذا موضع غم واسترجاع لمن عقل ، أن يكون أحرار المسلمين يباعون بالكلاب . قال المعز لدين الله صلح : والكاتب بذلك إليهم ، لم يقل أنا أبحنا ذلك ولا أجزناه ، وإنما أخبر عن عقوبة الله إليهم لما فعلوه . وأما نحن ، فلو ظفرنا بهم ، لما حكمتنا فيهم إلا بالقتل أو المن ، أو ما يجب في أمثالهم في الحكم . ثم قال صلح : وما حجزهم عن الملك والسبي إلا ظاهر الشهادة . فأما أعمالهم فأعمال أهل الشرك . وإذا كان الله ع ج قد أحل بهم من البأس والعقوبة ، ما عسى أن لو كنا ظفرنا بهم ، لم نفعله فيهم ، فذلك أشقى لقلوبنا ، وأبلغ في نعمة الله وفضله علينا ، فجعل معرفتنا بنعمة الله علينا في هلاك عدونا ، ومن قصد بالمكروه إلينا ، وذكرنا ما أحله الله به عيبا علينا قال : ثم ذكر هو في كتابه هذا ، أنا لما أخرجنا أسطولنا إلى الريبة ، وأحرقنا مراكبه ، ووطننا ببلده ، أن الله لم يتم ذلك لنا ، لانا أخرجنا مع ذلك

أسطولا إلى غزوة الروم بقرشقة ، فلم نظفر بشيء ، وانصرف أهل أسطولنا خائبين ، وأوقع ببعضهم المشركون . قال المعز صلح : وهذا بما ذكرناه من تناقض كتابه ، وأنه لو صرف إليه لكان جوابا له ، وهو ما هنا يبيكتنا بأن ذكرنا نعمة الله علينا ، في دفاعه عن أرسله مادة علينا ، وأنه أحل بهم الثقمة والبأس دوننا . فهو ههنا يعتد ويسر بأن المشركين حوا أنفسهم منا ، وأصابوا من المسلمين بما هو فيه مع الكاذبين ، بل وطئنا بلدهم ، وقتلنا منهم ، وأجليناهم . وانصرف رجالنا سالمين ، بحمد الله رب العالمين . فجمع في الكذب المسرة بخلص المشركين ، ونكبة المسلمين . وهذا هو اعتقاده ، قد أبداه الله على لسانه ، وأظهره حميته ، مع التغير في كتابه ، الذي لا يجوز على كثير من المجانين مثله ، أنه ينتقد علينا مالا ينتقد ، ويأتي بمثل المعنى الذي نحلنا إياه ، وبأعظم منه .

وفي الفصل السادس عشر قال : وكان في فصل من فصول هذا الكتاب ، ثم زعم أن الله ع ج ، سيقطع مدتنا ، وينتقم منا . قال : وهذا قول جاهل به ، وكيف يجمله بأن يقطع بالغيب على الله مالا يعمله ؟ قال المعز صلح : ونحن فلو قلنا ذلك ، لقلنا من كتاب الله جل ذكره ، وقول جدنا رسوله صلح ، لانا إذا رأينا هذا الفاسق مرتكباً لمحارم الله ع ج ، متهاونا بأمره ، مناصبا لأوليائه وحزبه ، حكمنا عليه بحكم الله ، واستنجزنا فيه وعده لأنه يقول - لا شريك له - : « إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون » ، « فلما آسفونا انتقمنا منهم » ، « وأملى لهم إن كيدى متين » وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » . فعللنا أن الله ع ج لا يدع مثله حتى ينتقم منه ، ولا يهمل منكروه بل يغيره ، ولا يدع أن يطهر منه أرضه ، ويورثها . كما قال - صالحى عباده .

قال المعز صلح : ثم هذا فصل في كتابه بعد هذا ، يذكر فيه بزعمه سوء رأينا ، وقال فيه : ومن كانت هذه أحواله لم تدم أيامه ، فجاء بمل ما أخذه بزعمه علينا لم يعده ، كأنه ليس هو الذى أخذه ، ثم قال : وهذا بما قدمنا ذكره من تغاير قوله ، وسوء توجيهه ، والله للظالمين بالمرصاد .



### المحرم العاشر

بعض الأحكام الشرعية الإسماعيلية في عهد المعز لدين الله (١)

وأما ما جاء من قول الباقر محمد بن علي بن الحسين ، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين ، والصفوة من ذريته الأئمة الصادقين : « بنى الإسلام على سبع دعائم : الولاية هي أفضلها ، وبها وبالولي ينتهى إلى معرفتها ، والطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد . ف هذه كما قال صلوات الله عليه ، دعائم الإسلام وقواعده ، وأصوله التي افترضها على عباده ، ولها في التأويل الباطن أمثال . فالولاية مثلها مثل آدم عليه السلام ، لأنه أول من افترض الله تعالى ولايته ، وأمر الملائكة بالسجود له ؛ والسجود الطاعة ، وهي الولاية ، ولم يكلفهم غير ذلك ، فسجدوا إلا إبليس ، كما أخبر الله سبحانه ، فكانت المحنة بآدم عليه السلام الولاية . وكان آدم مثلها ، ولا بد لجميع الخلق من اعتقاد ولايته . ومن لم يتوله ، لم تنفعه ولاية من تولاه من بعده ، إذا لم يدين بولايته ، ويعترف بحقه ، وبأنه أصل من أوجب الله عز وجل ولايته ، من رسله وأنبيائه وأئمة دينه ، وأولهم أبوهم .

والطهارة مثلها مثل نوح عليه السلام ، وهو أول مبعوث ومرسل من قبل الله عز وجل ، لتطهير العباد عن المعاصي والذنوب التي اقترفوها ووقعوا فيها من بعد آدم صلى الله عليهما ، وهو أول ناطق من بعده ، وأول أولى العزم من الرسل أصحاب الشرائع ، وجعل الله عز وجل آيته التي جاء بها ، الماء الذي جعله للطهارة ، وسماه طهورا .

والصلاة مثلها مثل إبراهيم عليه السلام ، وهو الذي بنى البيت الحرام ، ونصب المقام ، فجعل الله عز وجل البيت قبلة ، والمقام مصلى ، وحكى قوله عز وجل : « إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين (٢) » . فكان هذا القول هو افتتاح الصلاة للمصلين . والزكاة مثلها مثل موسى عليه السلام ، وهو أول من دعا إليها وأرسل بها . قال الله تعالى : « وهل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه

(١) المجالس المستنصرية : نشره الدكتور محمد كامل حسين ص ١٥٨ - ١٦٤ .

(٢) سورة الأنعام آية ٧٩ .

بالوادي المقدس طوى ، اذهب إلى فرعون إنه طغى ، فقل هل لك إلى أن تزكى<sup>(١)</sup> ، فكان أول ما أمره الله أن يدعو إليه أن يزكى .

والصوم مثله مثل عيسى عليه السلام ، وهو أول ما خاطب به أمه أن تقول لمن رآته من البشر ، وهو قوله الذي حكاه عز وجل عنه لها : « فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما ، فلن أكلم اليوم إنسيا<sup>(٢)</sup> » ، وكان هو كذلك عليه السلام يصوم دهره ، ولم يكن يأتي النساء ، كما لا يجوز للصائم أن يأتيهن في حال صومه . والحج مثله مثل محمد صلى الله عليه وآله ، وهو أول من أقام مناسك الحج ، وسن سنته . وكانت العرب وغيرها من الأمم تنجح البيت في الجاهلية ، ولا تقيم شيئا من مناسكه ، كما أخبر الله عز وجل عنهم بقوله : « وما كان صلواتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية » . وكانوا يطوفون به عراة ، فكان أول شيء نهاهم عنه ذلك ، فقال في العمرة التي اعتمرها قبل فتح مكة ، بعد أن وادع أهلها وهم مشركون : « ولا تطوفن بعد هذا البيت عريان ولا عريانة » . وكانوا قد نصبوا حول البيت أصناما لهم يعبدونها ، فلما فتح مكة ، كسرها وأزالها ، وسن لهم سنن الحج ومناسكه ، وأقام لهم بأمر الله تعالى معالمه ، واقترض فرائضه . وكان الحج خاتمة الأعمال المفروضة ، وكان هو صلى الله عليه وآله خاتم النبيين . فلم يبق بعد الحج من دعائم الإسلام غير الجهاد ، وهو مثل سابع الأئمة ، الذي يكون سابع أسبوعهم الأخير ، الذي هو صاحب القيامة<sup>(٣)</sup> .

والطهارة في الظاهر الوضوء والغسل بالماء ، والتيمم بالصعيد لمن يجوز له ذلك من أحداث الأبدان . والطهارة في الباطن التطهير بالعلم وبما يوجه العلم من أحداث النفوس . قال الله جل من قائل : « وأنزلنا من السماء ماء طهورا » . وقال عز وجل : « وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم » . وقد تقدم القول بأن الماء مثله مثل العلم ، فكما يطهر الماء الظاهر من أحداث الأبدان الظاهرة ، كذلك يطهر العلم من أحداث النفوس الباطنة ، وأفاعيلها الرديئة الموبقة . فأصل القول في باطن الطهارة ، أنها الطهارة من أنجاس الأبدان في الظاهر بالماء ، ومن أنجاس الأرواح في الباطن بالعلم .

(١) سورة قنازعات آية ١٤ — ١٨

(٢) سورة مريم آية ٢٦

(٣) المجلس الأول من كتاب دعائم الإسلام لثمنان المغربي من ٧ وما بعدها .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : « بنيت الصلاة على أربعة أسهم : إسباغ الوضوء ، وسهم للركوع ، وسهم للسجود ، وسهم للخشوع » ؛ فإسباغ الوضوء في الباطن المبالغة في التطهر من الذنوب ، بالنزوع عنها ، والتوبة منها ...

ومن صفات الوضوء اعتقاد النية فيه ، وقيل في ذلك إنه لا وضوء إلا بنية . وكذلك جاء في سائر الأعمال ، أنه لا عمل إلا بنية ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » . ومثل النية في الباطن مثل الولاية . فمن لم يتول أولياء الله عز وجل الذين اقترض ولا يهتم على العباد ، لم يقبل له عمل ، كما لا يكون العمل كذلك في الظاهر عملاً يرجى قبوله إلا بنية . وقد سمعتم أن مثل الطهارة في الظاهر بالماء ، مثل الطهارة في الباطن بالعلم المأخوذ عن أولياء الله ، ولا يكون ذلك إلا بعد اعتقاد ولا يهتم ، كما لا يجوز الطهارة في الظاهر إلا بنية .

أما غسل الوجه ، فهو أول الفرائض ؛ والوجه في التأويل الباطن ، مثله مثل النبي صلى الله عليه وسلم في عصره والإمام في زمانه . فكل واحد منهما ، به يتوجه أهل عصره إلى الله تعالى ، وهو وجه الله الذي يؤتى من قبله ، وفيه أمثال النطقاء السبعة ، وهي العينان والأذنان والمنخران والفم ؛ وفيه الحواس الخمس ، وذلك السمع والبصر والشم والطعم واللبس ، لأن اللبس قد يكون باليد وبكل الجسد ، فيحس به كما يحس باليد . كذلك الناطق قد جمع الله تعالى فيه جميع الآيات منافع الدين للعباد ، فمثل غسله في الباطن مثل الإقرار بإمام الزمان ، وبالسبعة النطقاء ، وبالسبعة الأئمة ، الذين يتعاقبون الإمامة .

وغسل اليدين إلى المرفقين ، فباطن ذلك أن اليدين مثلهما مثل الإمام والحجة ، ويجرى مثلهما كذلك فيمن دونهما من الحدود المزدوجة ، فغسلهما إلى المرفقين ، وهما منتهى حديهما ، إقرار ومعرفة بحدودهما ، من أولها إلى آخرهما ، وغسل كل واحدة منهما بالأخرى ، مثله مثل إقامة باطن الحجة على ظاهر الإمام ، وإقامة ظاهر الإمام على باطن الحجة ، واعتقاد لإيجاب أهل الظاهر والباطن والإيمان بهما . وتصديق الظاهر للباطن ، والباطن للظاهر ، وشهادة بعضهما لبعض .

وأما ما جاء من الأمر بالمسح على الرأس ، فالرأس في التأويل هو الرئيس ، وكذلك هو في اللغة ، ورأس كل شيء أعلاه وأشرفه وأفضله . والرأس مسكن

الدماغ الذى فيه العقل، وبه الحواس والحياة. وإذا بطل، بطلت الحواس، وفسد العقل، وإذا ذهب هلك صاحبه. فمثل المسح بالرأس فى الباطن، مثل الإقرار بصاحب الشريعة محمد (ﷺ)، والتمسك بشريعته وسنته.

وأما ما جاء من غسل الرجلين والمسح عليهما، وأن المسح هو الواجب، فعلى الرجلين يقوم، وهما يحملان الجسد وينقلانه. ومثلها أيضا مثل الإمام والحجة. هما ينهضان بعالم زمانهما، ويحملان ثقله، وينقلان أهله على مراتبهم، ويصرفانهم فى أمور الدين إلى حيث يتوجهون. وذلك يقع، كما ذكرنا، على من دونهما من الحدود المزدوجة، إلى الداعى والمأذون، وكل يحمل من أمور الخلاق ما حمله الله عز وجل. ويصرفهم فيما أذن له يصرفهم فيه. فالمسح على الرجلين، هو الإقرار بالإمام والحجة فمن دونهما من الحدود، ومعرفة الواجب لهم، والغسل تأويله الطاعة، والمسح تأويله الإقرار. فما أمر الله عز وجل بغسله من أعضاء الوضوء، فتأويل ذلك الطاعة لمن جعله مثلا فى الباطن، وما أمر بمسحه، فتأويله الإقرار لمن جعله مثلا فى الباطن؛ فمن أجل ذلك كان الغسل أتم، وأمر بإسباغه، لأن الطاعة كذلك تلزم المأمور بها فى قليل الأمور وكثيرها. والغسل لا بد فيه من مسح اليد، فهو يجمع الطاعة والإقرار، والإقرار إنما يكون بجارحتين، قول باللسان واعتقاد بالقلب. كذلك المسح لا يعم جميع العضو الذى يمسح عليه، ولا يصيبه الماء كله بالمسح، كما يصيبه بالغسل.

### الملحوم الحارثى عشر

ما ينبغى أن يستعمله الدعاة إلى الأئمة صلوات الله عليهم فى دعائهم إليهم<sup>(١)</sup>. وأن يدهوا بصلاح أنفسهم... فهم أحق الناس بالورع والصلاح، والتقوى والعفاف، والعمل بكل صالحة، واجتناب كل مكروه. وهذا باب أيضا يدخل فيه جماعة المؤمنين... لقول الصادق جعفر بن محمد (ﷺ)، لكافة شيعته ممن لم تطلق له الدعوة: كونوا لنا دعاة صامتين. ثم بين ذلك، وأخبرهم أنهم إذا عملوا صالحا، علم الناس أنهم خير، فدخلوا فى جملتهم، وكانوا دعائهم بأعمالهم لا بألسنتهم: وكل مؤمن يعمل الخير، فهو داع إلى الأئمة، ولكن سبيله ما حُدد له، لا ينبغى له أن يتجاوزَه.

(١) الثمان: المهمة فى آداب أتباع الأئمة \* ٢ من ٨٨ - ٩١.

ولا يقصر عنه . فرأس أمر الدعاة إلى أولياء الله وسيد أعمالهم ، وقطب أمورهم ، صلاح أنفسهم بالدين الصادق ، والورع الحاجز ، والدعاء بالحكمة البالغة ، والموعظة الشافية ، كما قال الله لرسوله : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة (١) » .

ثم ينبغى للداعى اختيار أمر من يدعوه ، وتعرف أحوالهم رجلا رجلا ، وتمييز كل امرئ منهم ، ومعرفة ما يصلح له أن يؤتى إليه . ويحمله من أمر الله وأمر أوليائه ، ومقدار ما يحمله من ذلك ، ومدى قرته وطاقته ، ومتى يوصل ذلك إليه ، وكيف يغذوه به ، وامتحان الرجال ، وتعرف الأحوال ، ومقدار القوى ، ومبلغ الطاقات . وعلم ذلك هو أفضل ما يحتاج إليه الدعاة في باب السياسات والرياضات . فكثير ما فسد أمر الداعى من جهله بهذا الباب (ج ٢ ص ٨٩) . وفسدت دعوته منه . وقد يعترف من يجوز عليه التضييع من الدعاة ، وينفق عنده منهم ، ويجوز عليه الخيل ، من الفساد في أمره ، والخلل في دعوته ، ما يطول القول بذكره . فينبغى للداعى أن يحكم أمر هذا الوجه من نفسه ، ويكون أسبق أهل دعوته به ، وأقربهم منه ، وأحقهم بفوائده ، من حسنت نيته ، وصدقت طويته ، ودق ذهنه ، وصح اعتقاده ، وجاد عقله ، وملك سره ، وقام بفرضه ما كان ، بما كثر أو قل ، شرف عند الناس من كانت هذه حاله ، أو انحط لديهم ، أو صغر أو كبر عندهم ، إلا أن يحتاج الداعى إلى استمالة الإشراف في حال ما يستميلهم ، كما تستمال المؤلفعة قلوبهم على مقدار أحوالهم ... فإن التقريب على الدين ، والتفضيل به ، والترفع لأهله . أقرب سببا إلى اغتباط الناس به ، ودخولهم فيه .

وينبغى للداعى أن يستهيب عند أهل دعوته ، وأن لا يعودهم الجراءة عليه ، ولا يبسطهم كل البسط لديه ، فيهن عندهم ، ويصغر أمره لديهم . فإنه كلما كان أهيب عندهم ، كانوا أكثر انتفاعا به ، وأحرى عنده . وليسكن تهيبه ذلك بحسن الصمت ، وخفض الجناح ، ولين الجانب ، وحسن العشرة ، وجميل المخالفة ، من غير تجبر عليهم ، ولا تكبر في أمره عليهم ، بل يكون التواضع سببا ، والوقار همته . وقد جاء عن الصادق جعفر بن محمد ، صلوات الله عليه . أنه قال : اطلبوا

العلم ، وتزينوا معه بالوقار والحلم ، وتواضعوا لمن تتعلون منه ولمن تعلونه . ولا تسكنوا علماء جبارين ، فيذهب باطلكم بحقكم . وقال : من طلب العلم ليدافع به العلماء ، ويجارى به السفهاء . ( ج ٢ ص ٩٠ ) ، أو ليصرف به وجوه الناس إليه ، ويتكبر عليهم ، فليتبوا مقعده من النار . إن الرياسة لا تصلح إلا لأهلها .

فينبغي للداعي أن يكون مهيبا في غير تكبر ولا صلف<sup>(١)</sup> ، متواضعا للمهانة ولا لضعف . فإن اجتمع له أمره واستحكم ، واتصل له مراده ، وانتظم وعده في أهل دعوته وعظم ؛ فليحسن إلى محسنهم ، ويقربهم على درجاتهم ، وينزلهم على طبقات أعمالهم ؛ ولا يهمل أمرهم ، فيدع عقوبتهم على ما يتضح له من ذنوبهم ، ويصح له من إساءتهم . فقد كان من استحكم أمره من الدعاة ، يؤدب من أدب من أهل دعوته بصنوف من الأدب ؛ فيقصي بعضهم ويهجره ، ويأمر المؤمنين أن يهجره ، فلا يكلمه أحد منهم ، ولا يدانيه ، فيبقى مهجورا في قومه ، مبعدا في أهله وخاصته ، حتى تضيق الأرض عليه برحبها ، ويتطرح عليه في التوبة وقبولها ، ويمتنحه بما شاء أن يمتحنه في نفسه أو في ماله ، أو فيما رآه من أهواله ، بعد المدة الطويلة ، والنكابة الشديدة . ومنهم من يبيته على رموس الملائ ، ومنهم من يذله ويوحه في الخلاء ، ومنهم من يأمر بجلده ، ومنهم من يمضي العقوبة في قتله ، ويمتنح بذلك أقرب الناس إليه ؛ فيأمر الأخ بقتل أخيه ، والحميم بقتل حميمه ، فيقتله ، ويكون ذلك محنة القاتل في نفسه ، وعزاء في وليه ، إذ لم يل أمره غيره ، وصلاحا في أن يسلم من الحقد قلبه ، فيعاقب كل امرئ . ثم بقدر ذنبه ، ويجعل العقوبة له بحبسه ، ولم يكن يهمل شيئا من أمرهم ، فاستقامت لذلك إرادته منهم .

وقد قال علي ، صلوات الله عليه : إن الله جل ذكره أدب هذه الأمة بالسيف والسوط ، ليس عند الإمام فيها هوادة . ولو علم الله ، جل ثناؤه ، أن عباده يصلحهم التجاوز عنهم ، لأمر به ، ولسكنه ، جل ثناؤه ، حد حدود الذنب بهم ، إذ علم - لا شريك له - أن بها صلاحهم ، فجعل حد القاتل في أعمد القتل ، وجعل في الخطأ الدية ، وحكم في الزاني المحصن<sup>(٢)</sup> بالرجم ، وفي البكر بالجلد ، وفي السارق

(١) الصلف : التكلم بما يكره صاحبه ، ومجازاة القدر تكبرا .

(٢) الرجل المحصن : المتزوج .

بالقطع ، وفي المحارب بالصلب أو النقي وقطع اليد والرجل ، والقاذف بالجلد ،  
وفي الشارب بالحد في حدود فصلها وأحكام اقترضها وأجراها ... (ج ٢ ص ٩١) .  
وطبقات الدعاة والولاة ، ينبغي لهم التأدب بكل ما جرى ذكره في هذا الكتاب  
والتخلق به ، واعتقاده قولاً وعملاً ، وديناً ونية . ولذلك أجريت ذكرهم فيه ، وهم  
أخص بالآئمة ، صلوات الله عليهم ، من كثير ممن قدمنا ذكرهم ... فإذا تأدب  
المبتدئ بها أولاً فأولاً ، واستعملها باباً باباً ، صار إلى درجة هؤلاء ، ودخل  
في جملةهم .

### الملحوظ الثاني عشر

في الحث على طاعة الفاطميين (١)

يقول النعمان : سمعت المعز لدين الله ، وقد دخل إليه جماعة من الأولياء  
والعبيد ورجال المملكة ، فأوصاهم بوصاياها ... منها أن قال لهم : « السعيد والله منكم  
من امثل أمرنا وقبل عنا . والله ما هو إلا أن يأخذ المرء نفسه ويروضها قليلاً على  
طاعتنا ، والعمل بما يرضينا ، فما أيسر ما يناله من ذلك حتى ينال خير الدنيا  
والآخرة . إن الله عز وجل قد وصل أيام سلطاننا وظهور أمرنا بأيام الآخرة ،  
فمن أحسن منكم فيها ، اتصلت له سعادة الدنيا بسعادة الآخرة ، واجتمع له خيرهما ،  
ومن غلبت عليه شهوة عاجل الدنيا ، حتى يخالف أمرنا ، ويعتاض منه خطأ ما قليلاً ،  
خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

حسبكم وصية عنا ، ما تشاهدونه منا . فاقفوا بنا ، واقفوا آثارنا ، والله لو  
لم يجب طاعتنا واتباع أمرنا عليكم إلا بإحساننا في أمور الدنيا إليكم ، لكان من  
الواجب الوفاء لنا منكم ، وأن تكافئونا بإحساننا إليكم ، وكيف وقد جمع الله لكم بنا  
خير الدنيا والآخرة ؟ والله إن الرجل المتمسك بشيء من المروءة والآداب ، ليكون  
له الصديق والصاحب ، يأمره بالأمر ، فلا يرى مخالفة أمره ، ويكلفه الحاجة ،

(١) النعمان : المجالس والمساربات ج ٢ ص ٦٥ - ٦٧ .

فيبدل فيها مجوده ، فكيف من يعتقد إمامتنا ، ويعرف فرض طاعتنا ؟ ،

### الملحوم الثالث عشر

#### مدح المعز كتامة (١)

يقول النعمان : سمعت المعز ، صلوات الله عليه يقول ، وقد دخل إليه رجال من كتامة ، أتوا من النواحي لشهود العيد ، فدخلوا إليه وسلبوا عليه ، ووقفوا بين يديه ، فسألهم عن أحوالهم ، ومن خلفوه منهم ، فأحفي السؤال بهم ، فشكروا ذلك من اقتاده وسؤاله ، وذكروا جميل أحوالهم ، وهدو نواحيهم ، واستقامة الأمور فيهم ، وشكروا عمال بلدانهم . فابتهج لذلك المعز ، صلوات الله عليه ، وسره ، وتمهل وجهه ، وتبسم .

ثم نظر إلى فقال : هؤلاء أولياؤنا وخالصتنا ، هؤلاء حزبنا وزمرتنا ، هؤلاء أتباعنا وعمدتنا ، هؤلاء خاصتنا وأهل مودتنا . هؤلاء الذين يكونون في الجنة معنا ، كما كانوا معنا في الدنيا ، ما أسرفي بهم ، وأبهجني برؤيتهم ، وأحسن في عيني منظرهم ! إنى لأرى جماعتهم ، وكانوا عندي صورة واحدة ، قد تساوا في الجمال والهيئة والبهجة ، حتى إذا خالطوا الناس من غيرهم ، فالواحد منهم متى رأيت بين الجماعة من غيرهم ، كان عندي كالعلم السني ، وكالسراج المضيء . أما أنى لأقول في نفسي كثيرا إذا رأيت ذلك منهم ، إن ذلك لفرط محبتي لهم ، فلذلك أراهم كذلك .

فقبلوا الأرض بين يديه وقالوا : يقول ، ولانا ما يقوله بفضله علينا ، فأما نحن في موالاتنا إياه ، ومحبتنا له ، فلا نفسنا سعينا ، ورضاء ربنا بذلك أردنا ، وما ذلك منا بالتكلف ، ولا بشيء . نكره أنفسنا عليه ، ولا نرى عليه مشقة ولا كلفة فيه ، وما ذلك فينا دون بنيينا ، وخدمنا وعبيدنا . والله ما يحلف أطفالنا وعبيدنا وخدمنا إلا بحق مولانا وفضله ، ولا على ألسنتهم ولا لهم غيره . ولا يعرفون لهم مولى سواه ، وما نشأ منا ومنهم من نشأ إلا على ذلك ، وعايه يموت إن شاء الله . والله لقد حاز العدو أيام الفتنة من النساء والأطفال ، ولقد كانت وصاياهم



وكتبهم تأتينا . يأمرونا بالصبر مع ولي الله ، وألاً نعطي لمكانهم الدنية لأعداء الله . فصبرا على السراء والضراء ، والسبي والأسر ، حتى أظهرنا الله تعالى بوليه ، واستنقذناهم قسرا بحول الله وقوته ، فقال صلوات الله عليه : لن يضيع الله سبحانه لكم ذلك ولا ينسأه . والله لو اطلعتم على ما لكم عند الله بذلك ، لقرت أعينكم ، وطابت أنفسكم ، وإن الله سبحانه تعبد الخلق بضروب المحن ، فما تعبدكم إلا بأفضلها ، وما استعملكم إلا في خيرها وأشرفها ، موالاة أوليائه ، والجهاد في سبيله ، فأبشروا من الله بالقسم الأوفى ، والحظ الأسنى . . . وسمعتهم ص ع يقول لبعض الأولياء :

والله والله ما يتخالجنى الشك في اعتقاد صغيركم وكبيركم ، وحرركم وعبدكم ، وذكركم وأثأكم ، ولا يتنا ، واجتماع قلوبكم على محبتنا . على ذلك نشأ صغيركم ، وعليه كبر كبيركم .

قال أحدهم : والله لو قد سمع مولانا ع م ما يلفظ به نساؤنا وعبيدنا وصيدانا ، من القول بولايته ، والمحبة له ، ونشر فضله ، لعلم أنهم على ما ذكره فيهم . فقال ع م منا الحظ الأوفر في المحبة لهم ، والإشفاق عليهم ، والمودة لصغيرهم وكبيرهم ، وما لم يكن مثله من أحد من آبائنا ، مع ما وهب الله تعالى لهم في أيامنا من العز والامن والسعة والسلطان ، وعلو الكلمة ، ما لو أدركه من مضى من أسلافهم ، ثم أمرناهم أن يلجوا النار بين أيدينا لو لجرها . فقال أحدهم : والله إنا لتقول ذلك ، وتمنى لمن مات من آبائنا وإخواننا ، أن لو مد في أعمارهم ، حتى يكونوا بلغوا هذه الأيام ، ورأوا هذه النعم ، وشملهم هذا الفضل ، لقد كان مما يزيد في بصائرهم ، وتعظم به نعم الله عليهم . على أنا لا نرى بمن بقي منهم ، تقصيرا في الولاية والطاعة . قال : لا والحمد لله ، ما بهم في ذلك تقصير ، وإنهم في الثبات لعلى أفضل حال ممن مضى من سلفهم ، ولكنهم ربما أرادوا رضاءنا بالشئ . فأخطنوه ، وربما تعلقوا بمن دوننا ، ليجعلوا ذلك وسيلة إلينا . لا والله ما جعلنا لأحد عليهم في ذلك من سبيل ، ثم قال : ومن مثل هذا دخل ما دخل على من مضى من أسلافهم .

رأيت بخط القائم بأمر الله ، صلوات الله عليه ، حكاية عن قول بعض من كان من الشيوخ الأولين ، لحقهم ما لحقهم من الشك في أيام المهدي بالله (١) ، وقد عاتبه

( ) يعبر بذلك إلى ثورة أبي عبد الله الشيبلي وأخيه أبي العباس . ومن انضم إليهم من كتابة .

المهدى في ذلك ، فقال له : والله يا مولانا ، ما ناقفنا عليك ، ولا غيرنا ولا بدلنا .  
والله لقد ناقفنا وغيرنا وبدلنا ، من حيث لم نعلم ذلك ، ولم نقصد إليه ، ولكن شبه  
علينا فيه ، فدفعنا في ذلك من حيث لم نعلم ، فإن يعف مولانا عنا فيفضله ، وإن  
يعاقب بما شاء من العقوبة ، فنحن أهلها ، فقال المهدي بالله : بل يعفو الله عنكم .

### الملحق الرابع عشر

#### اشتغال الأئمة ، في صلاح الأمة (١)

كان المعز لدين الله يقول : « للناس شغل بدينامهم وما يتلذذون به منها ، وشغلنا  
إقامة أودهم ، وصلاح أحوالهم ، والنظر فيما يعود عليهم ، ويحصى حماهم ، ويدفع عن  
بيضتهم ، ويحقق دماءهم ، ويحصن حريمهم وأموالهم ، ويكف أيدي المتطاولين إليهم ،  
بذلك تقطع ليلنا ونهارنا ، وهم عن ذلك معزول ، ومنه في غفلة بما هم فيه متشاغلون .  
فتمي أردنا منهم أمرا لا بد لنا منه ، رفعوا رءوسهم كما ترفع الغنم رءوسها عند زجرة  
الراعي من مراعاها ، وتكلم المتكلم منهم بما لا يعنيه ، وأنكر الجاهل منهم بما لا يدريه .  
والله المستعان على ما قلدهناه من أمورهم ، واقترضه علينا من القيام بأسبابهم ، وترغب  
إليه في إصلاحهم وهدايتهم ، إلى ما فيه حظهم ونجاتهم ، في دنياهم وأخراهم .

### الملحق الخامس عشر

#### توقيع في ذكر عاشوراء (٢)

يقول النعمان : « كنت رويت عن الصادقين الأئمة من أهل بيت رسول الله ص ،  
بما رواه إلينا الرواة عنهم ، فضائل يوم عاشوراء ، وحضر وقته ، فرأيت أن أذكرها  
في خطبة الجمعة التي يتلوها ، وأذكر فيها مصاب الحسين صلح ، وأن الله أكرمهم  
بالشهادة في هذا اليوم الذي عظمه ، كما أكرم أباه عليا أمير المؤمنين بها في يوم  
أيضا من شهر رمضان . ثم رأيت أن لا أفعل ذلك حتى أطلع به المعز ص .

(١) النعمان : المجالس والمساربات ج ١ ص ١٤٣ - ١٤٤ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

فذكرت ما رويته في ذلك ، وما أردت أن أخطب به ، فوقع إلى فيه : يا نعيان ، ما ذكرتُ إلا ما جاء عن الصادقين صحيحا .

ويوم عاشوراء ، فقد علت تفضيل الجاهل إياه ، من غير وجه التفضيل الذي فضله الله عجب ، وأنهم جعلوه يوم عيد وسرور ، لما سئمه لهم الفسقة بنو أمية . فصف تعظيمهم له من أي وجه كان ، مثل أن تقول : فعظموا عباد الله هذا اليوم - عظمه الله - واستنوا في تعظيمكم إياه سنة نبيكم محمد رسول الله ص ، لا أن تتخذوه يوم عيد وسرور ، كما اتخذته أعداء الله وأولياء الشيطان ، وأعداء الرحمن ، من أبناء مروان ، لما نالوا فيه من هتك حرم رسول الله ، وقتل أولياء الله ، فأحلوه محل السرور والجدل ، لا محل الاستغفار والعمل ، فرحم الله امرأ عمل لنفسه ، واقتنى سنة نبيه ، ورغب في عفو ربه ، لم يفعل في هذا اليوم العظيم عن ذكر مصاب أنبياء نبيه ، ولم يخل الظالمين فيه من لعنة ، إلا لعنة الله على الفاسقين المارقين ، أولياء الشياطين ، وقتلة المؤمنين . ثم تنسق على هذا الكلام ما يشبهه ، فإن الذي منعى عن تمام الكلام الشغل بشئ . نؤلفه . نسأل الله عونته وتوفيقه لنا ولأوليائنا ، فلقد انفردنا بحمل ما اجتمعت الأمة الضالة على رفضه .

### الملحق السادس عشر

الذي عن الغلو في أولياء الله (١)

قال المعز : « ينهى إلينا أخبار عن بعض من يزعم أنه يتولانا ، وبعض من يدعى أنه يدعو إلينا ، من الغلو فينا ، والقول بما لم نقله في أنفسنا ، وبما لم يسمعه أحد منا ، حتى كأنهم أعلم منا بما يقولونه فينا ، ونحن نبرأ (٢) إلى الله من كذبهم علينا ، وتقولهم فينا . ونحن عباد من عباد الله ، مخلوقون مر بوبون ، لا علم لنا إلا ما علمنا ، وصار إلينا عن نبيه جدنا محمد ص ، بما أودعه الله إياه ، وأورثنا من بعده وأودعناه ، لا نحيط من علمه إلا بما شاء ، ولا من غيبه إلا ما أطلع عليه منا من ارتضاه ، كيف أحب وشاء .

(١) الثعمان : المجالس والمساربات - ٢ من ٥٧٧ - ٥٨٠ :

(٢) في الأصل نبرأ .

لا ندعى النبوة والرسالة ، بل نحن المستحفظون على الإمامة . حلالنا من كتاب الله ، وحرماننا منه ، وطاعتنا مفروضة على عباد الله بحكمه . من عرفنا فقد عرف الله ، ومن جهلنا فقد جهله . نحن الدالون بحكمته عليه ، والقائمون بأمره على عبادته ، نحن دون ما يقول الغالون ، وفوق ما يظن الجاهلون . إنما أراد من نحلنا علم الغيب ، ونسب إلينا تنزيل الوحي ، ممن يدعو بزعمه إلينا ، أن يجعل ذلك مقدمة لتفاهه علينا . فإذا أراد ذلك قال لمن دعاه : لم أدعكم إلا لمن وصف لكم فيه ما وصفت (١) ، فيصدهم بذلك عنا . لعن الله الصادق عنا ، فإنهم عن الله يصدون ، وبدينه يتلاعبون ، أرادوا الدنيا ، وعسر عليهم طلبها من وجوهها ، فالتمسوا بوجه الدين ، لينالوا من حطامها ما هو عن قليل منهم زائل ، وهم به مطالبون . وقد سعد من أخذ عنا ما نعطيه ، واقتصر عليه ، ولم يقل بغيره ، ولا تكلف من القول ما لا يعلمه .

لقد انتهى إلى عن بعضهم أنه قال : وددت أنه لو سئلت عما لا يكون ، فأجبت عنه ، فرأى عند نفسه ، ومن سمع ذلك ممن يصدقه ، أنه قد جاء بما أبان به من علمه ، واقتخر بذلك له . فلو تدبر هذا القول من وفق للصواب ، لوضح له من خطئه (٢) أن ما لا يكون ، فلا يكون عنه جواب ، لأنه سيكون .

### الملحق السابع عشر

#### نصيحة المعز لعالمه (٣)

دخل إلى المعز رهط من كتامة ، قدموا من أعمالهم ، وارتضى سيرتهم فيها ، وهم أحداث نشئوا في دولته ، ومضى آباؤهم وأجدادهم في أيام الأئمة الطاهرين من قبله . فأثنى عليهم خيرا ، وقال : أما والله لو تعلمون ما لكم وبنيع أولياتنا عندنا من الرضا والمحبة ، لاستغفرتمكم المسرة ؛ وما نعرض عنكم عنه منكم ، ونعاقب من نعاقبه ، إلا تأديبا وتقويما ، لكي يزدادوا من الفضل والخير . ولو علم آباؤكم ومن

(١) في الأصل وما وصفت .

(٢) في الأصل من خطاء .

(٣) القنعان : المجالس والمساربات ٢٣٠ من ٥٨١ - ٥٨٧ .

مضى (من) أسلافكم ، قبل أن يموتوا ، ما لحقهم فيكم من بعدهم ، لتمنوا الموت في أيام حياتهم ، لما تطيب به أنفسهم لكم من بعدهم ، إذ كانوا في دون ما أنتم فيه في أيامنا ، وإن كان الأئمة لم يتركوا في الإحسان إليهم ، فلم يبلغوا معهم ما بلغتم أنتم اليوم معنا ، ولكل زمان حال توجهها الحكمة ، ويجرى فيها بالعقوبة والرحمة .  
 إنا والله إن قتلناكم ، فما نريد إلا الحياة الدائمة ، إذا وجب تطهيركم بالقتل في العاجلة ، وإن عاقبناكم بدون ذلك ، فما نعاقبكم حنقا عليكم ، ولا مقتا وبغضا لكم ، ولكننا نفعل ذلك بأيدينا تطهيرا لكم ، وإن عفونا عنكم وأحسننا إليكم ، فنحن أهل العفو والإحسان . فأنتم والله معنا في كل الأحوال ، وعلى جميع الأمور ، كيفما تصرفتم ، وجرى تدبيرنا فيكم ، على سبيل نجاة وخير ، وسلامة وغطاة . فاعرفوا حقنا وفضلنا ، وسلوا الحكمتنا وأمرنا ، ولا ترتابوا فينا ، ولا تشكروا فيما نأتيه ونذره من أمركم ، كيفما جرت الأحوال بكم معنا ، تسلم صدوركم ، وتظفروا بحظكم في دنياكم وآخرتكم .  
 فشكروا له بما قدروا عليه ، وقبلوا الأرض بين يديه ، وقالوا : نحن يا أمير المؤمنين عبيدك وصنائعك ، والمعتفون بفضلك ، فأصبناه بتقويمك وتأييدك ، وما أخطأنا فيه ، فنحن نرجو فيه رأفتك ورحمتك . فقال عم : يعصمكم الله من الخطأ بتأديبنا وتقويمنا ، إذ لا يرى لاحد منكم زلة إلا نهبناه ، ولا غفلة إلا أيقظناه ، ولا تخلفا إلا حركناه ، ولا تقصيرا إلا وعظناه . فليس يهلك مع هذا إلا الشقي الذي غلبت عليه شقوته ، والله يعيدكم من الشقوة بولايتنا وجميل رأينا فيكم إن شاء الله تعالى .

### الملحق الثامن عشر

#### نصيحة المعز لأحد العمال (١)

شمع المعز أحد عماله بقوله : « سر على بركة الله ، مصحوبا بعافيته ، نحن نرجو أن يجعل الله فيك من البركة ، ويوفقك من الخير ، إلى ما تكون به أفضل من أهلك . فأنت من بلادنا ، وربي أيامنا ، ونشسي دولتنا ، وغدني نعمتنا . فاشعر نفسك العمل بما أمرناك ، والانتها عما نهيناك ، والوقوف على ما حذرتناك . وخذها بذلك ولا تتعمده ، تحسن أحوالك ، وتركوا أعمالك ، وتستكمل رضانا عندك . اجعل الحق

(١) التعمان : المجالس والمسارير ج ٢ ص ٦٠٢ - ٦٠٤ .

قصدك، والعدل سيرتك، وأمرنا ونهينا نصب عينيك وأمامك. إن غضبت، فليكن غضبك لله عجب (عز وجل) ولنا، وإن رضيت، فليكن رضاك بسبيل ذلك، وذو الرضاء والغضب لنفسك عنك بجانب. فمن تجاوز إليك ما عسى أنه بغضبك وينقصك، فإلينا تجاوز ذلك، ونحن من وراء الانتصار لك مالا تنتصر به لنفسك. طالعنا بأمورك ما عسى أن تريد العمل به قبل أن تعمله، فما أتاك منه فامضه على ما تأمرك به، تكن على سبيل نجاة وسلامة وراحة في كل أمرك، وتزول الحجة عندك فيما تخشى أن تقدم فيه عليك. فما ندّم من شاورنا في أمره، وطالعنا به، وما عدم ندما، من ترك ذلك من أمثالك، واعتمد على هواه. ورأى نفسه. سر راشدا، وفقك الله!

### الملحوظ التاسع عشر

في ترتيب استعمال العمل على العمل (١)

ذكر المعز بعض الأولياء لبعض الأعمال فقال: إنا ربما أردنا مثل هذا لمن نندبه، فيرى نفسه فوق ما ندبناه إليه، ويرى أننا قصرنا به في ذلك، وما نقصد بأحد من أولياتنا وغيرهم، ممن نندبه إلى عمل نستعمله عليه، إلا شرفه وترقيعه، وما شيء استعملنا الله تعالى فيه، فعملناه له بقليل، ينبغي لمن ندبناه إليه، ألا يحتقره، ويرى نفسه فوقه، ونحن عمال الله عجب (عز وجل) عليه. وإتاما نقل الناس كما ينبغي أن ينقلوا في الأحوال حالا عن حال. فمن رفعته كفايته ونصيحته، رفعناه، ومن قعد بنفسه، فلا يلم أحدا سواه، وليس ينبغي لنا أن نبتدىء من نبتدئه حتى نخبره بمعالى العمل، وما سبق منه فيما هو دونه، لأننا لو فعلنا ذلك، لعرضنا به إلى هلاكه، فقد قيل: إن الإنسان إذا رمى شيئا من يده من نحو صدره، إلى ما دون ذلك من أسفل يديه انكسر. والمعلوم أنه لم يرد به كسره ولا إفساده، وإذا رفعه إلى أعلى من ذلك، وإلى فوق رأسه، وضرب به الأرض، كان العلم محيطا بأنه أراد أن يكسره ويوهته. فهذا مثل لما قلناه، إنا لربما نعطي من نعطينه اختبارا ومحنة، فان رأينا من أعطيناه ما نعطينه، قام به، وشكر عليه، وأدى الأمانة، زدناه، وإن قصر قصرناه به ونقصناه. وهذا آداب الله تعالى لخلقه، فقد جعل ثوابا لمن أطاعه، وعقابا لمن عصاه، وقال: ولئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عذابنا لشديد.

(١) التعمان: المجالس والمسائرات ٢٠٣ ص ٥١٦ - ٥١٨.

## مصادر الكتاب

نورد في التَّبَيُّت الآتي أهم مصادر الكتاب ، وقد رتبت أسماء المؤلفين  
في جميعها حسب أحرف الهجاء .

ابن الأثير (٦٣٠ هـ = ١٢٣٨ م) : علي بن أحمد بن أبي الكرم  
١ — .. الكامل في التاريخ ، ١٢ جزءاً ( بولاق سنة ١٢٧٤ هـ ) .

أرنولد : Thomas W. Arnold :  
٢ — "The Preaching of Islam", 3rd edition by Reynold A. Nicholson (Lond., 1935).

وترجمه إلى العربية حسن إبراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين ، وإسماعيل التبراي  
( القاهرة سنة ١٩٤٧ ) .

التاميرا : Altamira  
٣ — "Cambridge Mediaeval History", vol. iii.

أماري : ميشيل . Amari : Michel.  
٤ — .. مكتبة صقلية العربية ، ، Biblioteca Arabo-Sicula ، ن جرابين .

أوتيتا ( ٣١١ هـ = ٩٢٩ م ) . سعيد بن البطريق .  
٥ — .. التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، ، ( بيروت ١٩٠٩ ) .

أوليري : دي ليسي O'Leary : De Lacy  
٦ — "A Short History of the Fatimid Khalifate" (Lond., 1923).

إيفانوف : فلاديمير Ivanow : Valadimir  
٧ — "The Rise of the Fatimids" (Calcutta, 1942).

٨ — "A Guide to Ismaili Literature" (Lond., 1934).

٩ — .. استنار الامام ، ، ( نشره في مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول سنة ١٩٣٦ ) .

١٠ — .. سيرة جعفر الحاجب ، ، ( نشره في مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول سنة ١٩٣٦ ) .

١١ — .. مختصر تاج العقائد ، لسيدنا علي بن الوليد المتوفى سنة ٦١٢ هـ ( ١٢١٥ م ) نشره الأستاذ  
إيفانوف بعنوان "A Creed of the Fatimids" (Cambridge, 1936).

براون : إدوارد ج . Browne : Edward G.  
١٢ — "Literary History of Persia — from the Earliest Times —  
until Firdawsi (Lond., 1909).

بروكلمان : Carl. Brockelmann :

"Geschichte der Arabischer Litteratur." 2 vols. (Weimar, — ١٣  
1898 - 1902).

البدادى ( ٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م ) : أبو منصور عبد القاهر بن طاهر .

١٤ — .. الفرق بين الفرق .. ( القاهرة ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م ) .

البيكري ( ٤٨٧ هـ = ١٠٩٧ م ) : أبو عبيد الله بن عبد العزيز .

١٥ — .. كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب .. ، طبعة دي سلان (باريس ١٩١١) DeSlane

بلوشيه ل. Blochet :

"Le Missianisme dans l'Heterodoxie Musulmane" (Paris, — ١٦  
1903).

البيروني ( ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م ) : أبو الريحان محمد بن أحمد

١٧ — .. الآثار الباقية عن القرون الخالية .. ( طبعة إدوارد سنهاو ) لبيز سنة ٨٧٨ و ١٨٧٩

وترجمه إلى الإنجليزية وعلق عليه إدوارد سنهاو بعنوان  
"The Chronology of Ancient Nations (London, 1879).

بيمونت ومونود : Bemont et Monod :

"Histoire de l'Europe au Moyen-Age" (395-1270 A.D.) — ١٨  
(Paris, 1921).

تيلور : W. C. Taylor :

"History of Mohammedanism and its Sects" (Lond., 1839). — ١٩

التعالي ( ٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م ) : أبو منصور عبد الملك .

٢٠ — .. بئمة النهر .. ٤ أجزاء . ( القاهرة ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٤ م ) .

جيبون : Edward Gibbon :

"The History of the Decline and Fall of the Roman — ٢١  
Empire", 7 vols. ed. by J. B. Bury.

جوتيه : E. F. Gautier :

"Les Siècles Obscurs du Maghreb", (Paris, 1927). — ٢٢

ابن الجوزي ( ٥٩٧ هـ = ١٢٠١ م ) : أبو القرج عبد الرحمن

٢٣ — .. المنتظم .. رسالة عن القرامطة نشرها جوزيف دي سوميرسي في  
Studi Orientali, vol. xiii.

ابن الجوزي ( ٦٥٤ هـ = ١٢٥٧ م ) : أبو المظفر قزويني سبط بن الجوزي .

٢٤ — .. امرأة الزمان في تاريخ الأعيان .. ، مخطوط مصور بدارالكتب المصرية ، رقم ٥٥١ تاريخ

جولدزيهر : Ignaz Goldziher :

"Le Dogme et la Loi de l'Islam", (Paris, 1920). — ٢٥



- Guyard : S. . س . جويارد :  
"Fragments relatifs à la Doctrine des Ismaélis" — ٢٦  
(Paris, 1874). ، ، عقيدة الاسماعيلية .
- حاجي خليفة ( ١٠٦٧ هـ = ١٦٥٧ م ) : " مصطفي كاتب شلبي .  
٢٧ — ، ، كشف القطن عن أسامى السكتب والفنون . ، ( ليدك ولندن سنة ١٨٣٥ - ١٨٥٨ ) .
- ابن حرم ( ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م ) : أبو محمد علي بن أحمد .  
٢٨ — ، ، الفصل في الملل والأهواء والنحل . ، ٤ أجزاء ( القاهرة سنة ١٣١٧ هـ ) .
- حسن إبراهيم حسن : دكتور  
٢٩ — ، ، الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص . ، ( القاهرة ١٩٣٣ ) .
- ٣٠ — ، ، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي . ، الجزء الثالث ، ( القاهرة ١٩٤٦ ) .
- ٣١ — ، ، العظم الاسلامية . ، ( بالاشتراك مع الدكتور علي إبراهيم حسن ) ( القاهرة سنة  
١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م ) .
- ٣٢ — ، ، عبيد الله المهدي ، إمام الشيعة الاسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب . ،  
بالاشتراك مع الدكتور طه أحمد شرف ( القاهرة ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٧ م ) .
- ابن حماد : قاضي أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد .  
٣٣ — ، ، أخبار ملوك بني عبيد وسببهم . ، ( الجزائر ١٣٤٦ ) .
- الحمادي ( أواسط القرن الخامس الهجري ) : محمد بن مالك بن أبي الفضائل الحمادي البجلي .  
٣٤ — ، ، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة . ، ( مصر ١٣٥٧ هـ ) .
- ابن حوقل ( ٣٨٠ هـ = ٩٩٠ م ) : أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصل .  
٣٥ — ، ، كتاب المسالك والممالك والمفاوز والممالك . ، ( نشره دي غويه — ليدن ١٨٧٣ م ) .
- ابن خلدون ( ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ - ١٤٠٦ م ) : عبد الرحمن بن محمد .  
٣٦ — ، ، مقدمة ابن خلدون . ، ( مصر ١٣١١ هـ ) .
- ٣٧ — ، ، العبر وديوان المتدا والخبر . ، ٧ أجزاء . ( القاهرة ١٢٨٤ هـ ) .
- ابن خلكان ( ٦٨١ هـ = ١٢٨١ م ) : حسن الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي  
٣٨ — ، ، وفيات الأعيان . ، ( مصر ١٣١٠ هـ ) .
- دوزي : ر . ب . ا . Dozy : R. P. A.  
"Essai sur l'Histoire de l'Islamisme" (T. R. V. Chauvin. — ٣٩  
Paris, 1879).
- "Histoire des Musulmans d'Espagne" (Leyden, 1861). — ٤٠
- "Dictionnaire des Noms des Vêtements chez les Arabes" — ٤١  
(Amsterdam, 1845).

٤٢ — "Supplément au Dictionnaires Arabes" (Leyden, 1881) —

ديفريري : M. C. م. س.

٤٣ — "Essai sur l'Histoire des Ismaéliens de la Perse".

ابن أبي دينار (١١١٠ هـ = ١٦٩٨ م) : محمد بن أبي القاسم بن عمر القيرواني .

٤٤ — .. كتاب المونس في أخبار إفريقيا وتونس .. (تونس ١٢٨٦ هـ) .

الذهبي (٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ - ١٣٤٨ م) : شمس الدين محمد بن أحمد .

٤٥ — .. تاريخ الاسلام .. مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، رقم ٣٩٦ تاريخ . المجلد الثالث

الرازي (٣١١ هـ = ٩٢٢ م) : أبو بكر محمد بن زكريا .

٤٦ — .. رسائل فلسفية .. (نشره بول كراوس ، القاهرة ١٩٣٩) .

ذكي محمد حسن : دكتور .

٤٧ — .. الفن الاسلامي في مصر .. الجزء الاول (القاهرة سنة ١٩٣٥) .

٤٨ — .. كنوز القاطمين .. (القاهرة سنة ١٩٤٠) .

ابن سعيد (٦٧٣ هـ = ١٢٧٥ م) : علي بن موسى المغربي .

٤٩ — .. كتاب المغرب في حل المغرب والمشرق في حل المشرق .. (لندن ١٨٩٨ - ١٨٩٩ م) .

الملاوي : الشيخ أحمد بن خالد الناصري .

٥٠ — .. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى .. أربعة أجزاء . (القاهرة . ١٣١ - ١٣١٢ هـ)

السنهوري : الدكتور عبد الرزاق أحمد باشا

Sanhoury : Dr. A. A. "Le Califat" (Paris, 1926) — ٥١

السيوطي (٩١١ هـ = ١٥٠٥ م) : عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين .

٥٢ — تاريخ الخلفاء. أراء المؤمنين القائلين بأمر الأمة (مصر ١٣٥١ هـ) .

الشافعي (٣٨٨ هـ = ٩٩٨ م) : أبو الحسن علي بن محمد .

٥٣ — .. كتاب الديارات .. ، مخطوط ، (Berlin, We. 1100) . وقد نشر الدكتور عزيز

سوربال عطية : الجزء الخاص ، وديارات مصر التي يقصد للشرب فيها والتنزه بها ، وترجمها إلى

الانجليزية في مجلة جمعية الآثار القبطية .

Extrait du Bulletin de la Société d'Archéologie Copte, t.v. (1939).

أبو شامة (٦٦٥ هـ = ١٢٦٧ - ١٢٦٨ م) : عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن

عثمان شهاب الدين الملقب بأبي شامة شافعي من أعالي دمشق .

٥٤ — .. كتاب الروضتين في أخبار الدولتين .. جزءان (مصر ١٢٨٧ هـ) .

٥٥ — .. شرح لمعة من أخبار الممزر .. ، لم يعرف مؤلفه بعد . مخطوط بجامعة مؤاد الأول .

أبو صالح (٦٠٥ - ٦٠٦ هـ = ١٢٠٨ م) : الأرميني .

٥٦ — .. تاريخ الشيخ أبي صالح الأرميني .. المعروف بكتاب كناناس وأديرة مصر ، نشره وترجمه

ب. ت. ا. إيفتس (B. T. A. Evetts) (أكسفورد سنة ١٨٩٥ م) .

- الطبرى ( ٣١٠ هـ = ٩٢٢ م ) : أبو جعفر محمد بن جرير .  
٥٧ — .. تاريخ الأمم والملوك .. ١٢ جزءا ( القاهرة ١٣٢٦ هـ ) .  
طه أحمد شرف : دكتور .  
٥٨ — .. تاريخ الاسماعيليه السياسيه حتى سقوط بغداد .. مخطوط ، رسالة الدكتوراه .  
.. عبده الله المهدي .. ، بالاشتراك مع الدكتور حسن إبراهيم حسن ( القاهرة ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٧ م ) .  
٥٩ — .. البيان المغرب في أخبار المغرب .. ، نشره دوزي في ثلاثة أجزاء ( لندن ١٨٤٨ - ١٨٥١ م )  
على إبراهيم حسن : دكتور .  
٦٠ — .. تاريخ جوهر الصقل .. ( القاهرة ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م ) .  
٦١ — .. تاريخ مصر في العصور الوسطى .. ( القاهرة سنة ١٩٤٧ ) .  
.. النظام الاسلاميه .. ، بالاشتراك مع الدكتور حسن إبراهيم حسن ( القاهرة سنة ١٩٢٩ ) .  
على مبارك باشا  
٦٢ — .. المخطط التوفيقية .. ، ٢٠ جزءا ( بولاق ١٣٠٦ هـ ) .  
الميمى ( ٨٥٥ هـ = ١٤٥١ م ) : بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى .  
٦٣ — .. عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان .. ، مخطوط مصور بدارالكتب المصرية ، ١٥٨٤ تاريخ .  
دى غويه : M. J. De Goeje  
٦٤ — "Mémoire sur les Carmathes du Bahraïn et les Fatimides (Leyden, 1886).  
٦٥ — "La Fin de l'Empire des Carmathes du Bahraïn" (Journal Asiatique, 1895).  
٦٦ — "The Karmathians" (Encyclopaedia of Religion and Ethics).  
فايضى أساف : Fayzee : Asaf, A.A.  
٦٧ — "A Chronological List of the Imams and Daïs of the Musta'lian Ismailis" (Journal of Bombay Branch of the Royal Asiatic Society, 1934).  
٦٨ — "Cadi-An-Numan (J. R. A. S., 1934)  
٦٩ — "The Ismailian Law of Mut'a (J. B. R. A. S., 1929).  
فنلي : George Finlay  
٧٠ — "History of the Byzantine Empire (716 - 1500 A. D.)" (London, 1856).

Fournel : هنري فورنيل

"Étude sur La Conquête de l'Afrique par les Arabes", — ٧١  
T. Second, (Paris, 1881).

- ابن القلانسي (٥٥٥ = ١١٦٠ م) : أبو يعلى حمزة .  
٧٢ — "تاريخ ابن القلانسي" ، المسمى "ذيل تاريخ دمشق" ، مصحوب بشذرات من تواريخ  
ابن القارق وسبط بن الجوزي والدهي ( بيروت ١٩٠٨ م ) .  
القلقشندي ( ٨٢١ = ١٤١٨ م ) : أبو العباس أحمد .  
٧٣ — "صنيع الأئمة في صناعة الانشا" ، ١٤ جزءا ( القاهرة سنة ١٩١٣ - ١٩١٧ ) .  
كامل حسين : دكتور محمد .  
٧٤ — "المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي" ، رسالة الدكتوراه .  
٧٥ — "المجالس المنصيرية" ، للداعي تذا الامام ( القاهرة سنة ١٩٤٧ ) .

Quatremère : إتيان كترمير

"Mémoires Historiques sur la Dynastie des Khaliphs — ٧١  
Fatimites (Journal Asiatique, 1836, série ii).

- الكندي ( ٣٥٠ = ٩٦١ م ) : أبو عمر محمد بن يوسف .  
٧٧ — "كتاب الولاية والقضاء" ، ( نشره روفن جيب ) ( E. J. W. Gibb Memorial  
Series, vol. xix, 19٠2).

Lewis : برنارد لويس

"The Origins of Ismailism" (Cambridge, 1940). — ٧٨

Lane-Poole : ستانلي لينبول

"The Story of Cairo" (London, 1912). — ٧٩

"History of Egypt in the Middle Ages" (London, 1892). — ٨٥

Massignon : لوي ماسنيو

"Esquisse d'une Bibliographie Carmathe" — ٨١

مقالة نشرت في كتاب عجب نامه ( Cambridge, 1922 )

- الملاودي ( ٤٥٠ = ١٠٥٨ م ) : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري .  
٨٢ — "الأحكام السلطانية" ، ( القاهرة سنة ١٢٩٨ هـ ) .

أبو الهامان ( ٨٧٤ = ١٤٦٩ م ) : جمال الدين بن يوسف بن تغري بردي .  
٨٣ — "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" ، ( القاهرة سنة ١٩٣٥ ) .

- المراكشي ( ٦٦٩ = ١٢٧٠ - ١٢٧١ م ) : محي الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي القمي  
٨٤ — "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" ، ( طبعة دوزي ، لندن سنة ١٨٨١ ) ، وترجمه  
وشرحه ا. فانان E. Fagnan ( الجزائر سنة ١٨٩٣ ) .

- Margoliouth : D. S. . د . س .  
"Cairo, Jersusalem and Damascus" (Oxford, 1907). — ٨٥
- المسعودى ( ٣٤٦ هـ = ٩٥٦ م ) : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي .  
— ٨٦ .. التنبيه والاذراف .. ( القاهرة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م ) .
- مسكويه ( ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م ) : أبو علي أحمد بن محمد .  
— ٨٧ .. كتاب تجارب الأمم .. . جزوا ١ ( طبعة هـ . ف . أمدرود ( H. F. Amedroz )  
وترجمه د . س . . مرجليوث D. S. Margoliouth ( أكسفورد ١٩٢١ م ) .
- المقرئ ( ١٠٤١ هـ = ١٦٢٣ م ) : شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ النلساني .  
— ٨٨ .. نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب .. . أربعة أجزاء . ( بولاق ١٢٧٩ هـ = ١٨٦٢ م )
- المقرئى ( ٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م ) : تقي الدين أحمد بن علي .  
— ٨٩ .. المواغظ ولاعتبار في ذكر الحفظ والآثار .. . جزوان ( بولاق ١٢٧٠ هـ ) .
- ٩٠ .. اعطاء الحنفا بأخبار الحلقا .. ( بيت المقدس ١٩٠٨ م ) .
- ابن منجب ( ٥٤٢ هـ = ١١٤٧ م ) : أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم علي ، الصيرفي المصري  
— ٩١ .. الاشارة إلى من نال الوزارة .. ( القاهرة سنة ١٩٢٤ ) .
- المصورى ( ٧٢٥ هـ = ١٣٢٥ م ) : ركن الدين بيبرس المصورى الدوادار .  
— ٩٢ .. زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة .. ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة فؤاد الآل، المجلد الخامس
- ميغون : ج . ميجون : G. Migeon  
"Manuel d'Art Musulman" 2 vols. (Paris, 1920). — ٩٣
- ابن ميسر ( ٦٧٧ هـ = ١٢٧٨ م ) : محمد بن علي بن يوسف بن جلب .  
— ٩٤ .. تاريخ مصر .. ، طبعة هنرى ماسيه ( Henri Massé ) ( القاهرة سنة ١٩١٩ م ) .
- ميور : وليام تيمبل Muir : William Temple  
"The Caliphate : Its Rise, Decline and Fall" (Lond. 1924). — ٩٥
- ابن النديم ( ٣٨٢ هـ = ٩٩٣ م ) : محمد بن إسحاق .  
— ٩٦ .. كتاب الفهرست .. ( القاهرة ١٣٤٨ هـ ) .
- نظام الملك ( ٤٨٥ هـ = ١٠٩٣ م ) : الوزير .  
— ٩٧ .. سياسة نامه .. ، المجلد الثاني ( باريس ١٨٩٣ م ) .
- القمان ( ٣٦٣ هـ = ٩٧٢ - ٩٧٣ م ) : أبو حنيفة بن حيون المغربي .  
— ٩٨ .. المجالس والمسائرات .. ، ثلاثة أجزاء . ، مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد ، رقم ٢٦٠٦٠ .
- ٩٩ .. الهمة في آداب اتباع الأئمة .. .

- التويرى ( ٧٢٢ هـ = ١٣٢٢ م ) : أحمد بن عبد الوهاب .  
١٠٠ — .. نهاية الأرب في فنون الأدب .. ، مخطوط مصور ، مدار الكتب المصرية ، رقم  
٢٥٧٠ تاريخ ، ٥٤٩ معارف .  
نيكلسون : أ. رينولد . Nicholson : A. Reynold .  
"Literary History of the Arabs" (Cambridge, 1930). — ١٠١  
هامر : فون Hammer : Von  
"Histoire de l'Ordre des Assassins" (trad. par — ١٠٢  
Hellert, Paris, 1833).  
ابن هاني ( ٣٦٢ هـ = ٩٧٣ م ) : أبو القاسم المكشي بأبي الحسن محمد .  
١٠٣ — .. ديوان ابن هاني .. ( بيروت ١٣٢٦ هـ ) .  
الممداني : دكتور حسين .  
"Some Unknown Ismaili Authors and their Works" — ١٠٤  
(J.R.A.S. 1933).  
A. Compendium of "Ismaili Esoterics" .. زهر المعاني .. — ١٠٥  
(Islamic Culture, 1937, Vol. ii).  
ويستفيلد : ف. فون . Wüstenfeld : F. von  
"Geschichte der Fatimiden Chalifen", Göttingen, 1881). — ١٠٦  
ياقوت ( ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م ) : شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي .  
١٠٧ — .. معجم البلدان .. ١٠ أجزاء . ( القاهرة ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٦ م ) .  
١٠٨ — .. إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ..  
E. J. W. Gibb Memorial, Series vi. سبعة أجزاء ( القاهرة ١٩٠٧-١٩١١ ) .  
بجعي بن سعيد الأنطاكي ( ٤٥٨ هـ = ١٠٦٦ م ) .  
١٠٩ — .. صلة تاريخ أوتينا .. ، جزءان ( بيروت ١٩٠٩ م ) .

# فهارس الكتاب

## ١ - الأعلام

بلسكين بن زيري بن مناد — ملك صنهاجة :

٢٣ • ٣٤ • ٣٥ • ٣٦ • ٤٥ • ٦٤

٦٦ • ٦٧ • ١٥٦ • ١٥٧ • ١٥٩ • ١٦٤

١٨١ • ١٨٣ • ٢٩٦

(ت)

أبو تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان : ٩

تميم بن المعز : ٣٠١

(ج)

جستنيان — الامبراطور : ٥٩

جعفر الصادق — الامام : ١٢ • ١٣٨ • ٢٦٢

٢٧١ • ٣٤٣

جعفر بن علي الأندلسي — القائد : ٣١

جعفر بن علي الكلبي : ١٥٩

جعفر بن القرات — الوزير : ٨٠ • ٨٥ • ٨٦

١١٤ • ١٤٧ • ١٤٨ • ١٤٩ • ١٥٠

١٩٥ • ٢٩٥

جعفر بن فلاح الكتاني — القائد : ٩٠ • ٩٣

٩٤ • ٩٥ • ٩٦ • ٩٧ • ٩٨ • ١٠٤

١٠٦ • ١٠٩ • ١١٠ • ١١١ • ١١٢

١١٦ • ١٢٢ • ١٢٣ • ١٦٣ • ١٦٤ • ١٨٠

١٨٣ • ٣١٤ • ٣١٥

أبو جعفر بن محمد بن أحمد البغدادي — الوزير :

١٤٥

أبو جعفر مسلم بن محمد — الشريف : ٩٠

١٤٠ • ١٤١

أبو جعفر المنصور — الخليفة : ١٤٥ • ١٤٧

جعفر بن منصور ابن — ٢٥٧ • ٢٦٢ • ٣٦٨

٢٧٠ • ٢٧٢ • ٣٠٢

(١)

الأمير — الخليفة الفاطمي : ١٨٢

الأبطح بن جعفر الصادق : ٢٧١

أبو بكر الصديق — الخليفة : ١٥٠ • ١٧٩

٢٥١ • ٢٣٠

أبو بكر التالبي — الزاهد : ١٣٠

أحمد بن أبي بكر بن سهل الجذامي — والي فاس :

٢٦ • ٢٢ • ٢٣

أحمد التقي — الامام : ١٢

أحمد بن الحسن بن أحمد الكلبي } ٥٤ • ٥٥

٥٦ • ٥٨ • ٥٩ • ٦١ • ٦٢ • ٦٣ • ١٥٨

١٥٩

أحمد بن أبي سعيد الجنابي : ٧٣ • ٩٨ • ٩٩ • ١٠٠

١٠١ • ١٠٣ • ١٠٥

أحمد بن طولون — والي مصر : ٧٩ • ٨١ • ٩١

أحمد بن القائم بن محمد بن إدريس : ٢٩

إدريس الداعي : ٢٠ • ٢٥٨ • ٢٧٠

أريانس بن قسطنطين الثامن — الامبراطور : ٥١

إسماعيل بن جعفر الصادق — الامام : ١٣٥

٢٧٠ • ٢٧١

أفتكين التركي — القائد : ٧٥ • ١٢٧ • ١٣٠

١٣١ • ١٣٢ • ١٦٤ • ٢٩٤

الانفصل شاهنشاه — الوزير : ١٧٢ • ١٨٢

أفطح — غلام المعز : ١٥٤

أوتو — الامبراطور : ٦٠ • ٦٣

(ب)

بختيار — أحد ملوك البويهيين : ١٠٩ • ١٣١

بدر الجمالي — أمير العيوش : ١٤٧ • ١٨٢

الحسن بن عبيد الله بن طنج : ٧٣ ، ٨٠ ، ٩٤

١٦٣ ، ١٠٣ ، ١٠٢ ، ١٠٠ ، ٩٥

أبو الحسن عدي بن محمد بن العمر : ١١٦

أبو الحسن علي بن الاخشيد : ٣٠٣

الحسن بن علي الكاكي — صاحب صفية :

١٣ ، ٤٣ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٦١ ، ١٥٥

٢٩٠ ، ١٥٨

الحسن بن عمار — القائد الفاطمي : ٥٥ ، ٥٦

١١٥ ، ٦١ ، ٥٩ ، ٥٨ ، ٥٧

الحسن بن القاسم الادريسي : ٣٣ ، ٣٤

الحسن بن القاسم اللواتي : ١٧

الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس — الحجام

٢٦ ، ٢٧ ، ١٩

الحسين بن أحمد الروذباري : ١٧١

الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل

الامام المستور : ١٤٠

الحسين بن الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن إدريس : ٤٦

— حسين بن خلف : ١٥٦

الحسين بن علي بن أبي طالب : ١١ ، ١٢٠ ، ٢٨٥

الحسين بن علي بن النعمان — القاضي : ١٩٩

ابن حفصون — الثائر بالأندلس : ٣٧ ، ٦٨

الحكم المستنصر — الخليفة الأموي : ٣٤ ، ٤٦

حميد الدين الكرمانى — الداعي : ٢٦

حميد بن يصل — صاحب ناهرت : ٢٦ ، ٣٨

أبو حنيفة النعمان المغربي — قاضى القضاء : ١٤٠

١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٨٥ ، ١٩٠ ، ٩٢ ، ٢٥٤

٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٧٠ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٣٠٢

ابن حوشب الداعي : ٧٦

(ح)

عالم بن برمك — الوزير : ١٤٧

أبو خور الزناني : ٣٥

خفيف الصفلي — صاحب المتر : ٦٥

حمارويه بن أحمد بن طولون : ٧١

جوزر — أحد الخاضعين للفاطميين : ٢٠

جورج — ملك النوبة : ١٦٢

جوهر الصفلي — القائد : ٣٣ ، ٢٧ ، ٣٠

٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٤٤ ، ٥٦ ، ٦٠

٦٢ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣

٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠

٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧

١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١

١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧

١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٢٣ ، ١٤٦ ، ١٤٧

٤٨ ، ٤٩ ، ١٦ ، ١٦١ ، ١٦٢

١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١

١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١

١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٤ ، ١٩٥

٢٠٠ ، ٢٥٣ ، ٢٦٣ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨

٢٨٠ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣

٣٠٣

جيش بن الصمصامة — والى دمشق : ١٢٩

(ح)

الحافظ — الخليفة : ١٨٢

الحاكم بأمر الله — الخليفة : ٢٥٩ ، ٢٧٢

حامد بن حمدان — القائد : ٢٦

الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن إدريس : ٤٦

الحسن بن أحمد الكاكي : ٥٩

الحسن الأعظم بن أحمد بن سعيد القرمطي : ٩٨

١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦

١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢

١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨

١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١١٤

١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٨٣ ، ٢٩١ ، ٣٠٧

حسان بن الجراح الطائي — الزعيم العربي

١٤ ، ١٦

الحسن الصباح : ٢٧٢



(ص)

صلاح الدين الأيوبي : ٩٣ ، ١٤٧ ، ٢٥٢

طارق بن زياد : ٣٧

أبو طاهر الجنابي قمرمطى : ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦

٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤

١١٠ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣

١٢٥

أبو الطاهر الذملى — القاضي : ٨٩ ، ٩٣

١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠

الطائغ — الخليفة العباسى : ١٣١ ، ٢٩٠

(ظ)

ظالم بن موهوب العقيلي — الزعيم العربى : ٩٥

٩٦ ، ٩٨ ، ٩٨ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٢

١١٧ ، ١١٨ ، ١١٨ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩

١٣٠ ، ١٣١ ، ١٦٣ ، ١٦٤

(ع)

العاقد — الخليفة الفاطمى : ١٨٢

عبد الجبار الخراسانى : ١٥٦

عبد الرحمن الناصر — الخليفة الاموى : ٢٥

٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٦

٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣

٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٦١ ، ١٣٦ ، ١٨٤

٢٦٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٣٢٥

عبد المسيح — الخطيب : ١٩٨

عبد العزيز بن يوسف — عامل القارم : ١١٣

أبو عبد الله الشيبى : ٢٤ ، ١٧٥ ، ٣٣١

عبد الله بن طاهر والى مصر : ٤٦ ، ٥١

عبد الله بن عطاء الله : ١٧١

عبد الله بن القديم — الوزير : ١٤٥

عبد الله بن محمد بن أبى ثوبان القاضى : ١٩٦

١٩٧ ، ٢٠٠

عبد الله بن محمد الكتاب : ١٥٧

(د)

الدمستق — القائد : ٤٧ ، ٥٠

(ر)

الراضى — الخليفة العباسى : ٧٠ ، ٧١

ابن رائق — القائد : ٧٠ ، ٧١ ، ١٠٠

رجاء بن حوLAB — صاحب الخراج : ١٧٠

رومانس — الامبراطور : ٣٣٢

روميل القائد : ٨٤ ، ٨٥

ربان الخادم — والى دمشق : ١٣٠ ، ١٦٤

(ز)

زيادة الله بن القديم : ١٥٦ ، ١٥٧

زبرى بن مناد الصهاجى : ١٣ ، ٢٤ ، ٣٠

٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٦٧ ، ٨٣ ، ١٥٥

١٧٥

زبسكس — الامبراطور : ٦٣ ، ٧٩

(س)

سابر بن أبى طاهر : ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١

١٠٢ ، ١٠٥

ابن أبى الساج — القائد : ١١٠

سعادة بن حبان — القائد : ١١١ ، ١١٢

١٢٢ ، ١٤٠ ، ٣١٥

سعيد بن أبى سعيد الجنابى : ٩٢ ، ٩٩ ، ١٠٣

١٠٥ ، ١٥٧ ، ١٢٠ ، ١٢١

السفاح — أبو العباس الخليفة : ١٤٧

سقراط — رسول ملك القسطنطينية : ٥٤

أبو سلة الخلال — وزير آل محمد : ١٤٧

سلطان القارى : ١١

سيف الدولة الخردانى : ٤٧

(ش)

الشافى الامام : ٣٦١

الهاكر بالله — صاحب تاهرت : ٣٢ ، ١٣٧

شمس الاخشيدى — والى دمشق : ٩٥





إخميم : ٨٠

الاوراس — مفتاح المهديّة : ٢٤

أذرمات — قرب عمان : ١٢٥

الازهر الشريف : ٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠

٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٣٠٠ ، ٣٠١

أسبانيا : أنظر الأندلس

الاسكندرية : ٨٥ ، ٨٦ ، ١٦٠ ، ١٨٦ ، ١٨٧

١٨٩ ، ١٩٦ ، ٢٠٨

الاسكندرونة : ٤٦ ، ٩٧ ، ١٥٠

أسيوط : ١٦١ ، ١٦٢

الأشورين : ١٦١ ، ١٧٢

إفريقية : ١٤ ، ٢٤ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥

٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥

٤٦ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦

٦٨ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٩٣ ، ١٢٦ ، ١٥٦ ، ١٥٧

١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٤

١٨٥ ، ١٩٠ ، ٢٦٣ ، ٢٧٤ ، ٢٩١ ، ٣٣٤

إفريطس — جزيرة : ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩

٥٠ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٥٥ ، ٥٥ ، ١٨٥

٢٦٣ ، ٢٧٧ ، ٢٩٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٣١

ألمانيا : ٢٧

إنجلترا : ٢٧

الأندلس : ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٦

٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤

٤٥ ، ٤٦ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧١

٧٧ ، ٨٣ ، ٩٣ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٨٤

٢٦٣ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٣٣٣ ، ٣٣٩

٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧

أطاكية : ٧٨ ، ٩٧ ، ١١٠ ، ١٨٩

أوال : — جزيرة : ١٠١ ، ١١٦

إبريا : ٤٢ ، ٦٧ ، ٢٩٢

إيطاليا : ١٦ ، ٢٣ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٩ ، ٦٠

١٨٥ ، ٢٧٧ ، ٢٩٢

(ب)

باغاية — مدينة بالمغرب : ٣٥ ، ٣٦

البحرين : ٦٩ ، ١٠٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٣

١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٦٩ ، ٢٩٤

البحيرة : — مديرية : ١٦٠

برقة : ٥٠ ، ٦٦ ، ٨٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٤

١٦٥ ، ١٧٩ ، ٢٧٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٦ ، ٣٠٤

البحيرة : ٧٦ ، ١٨٤

بعلبك : ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٦٤

بغداد : ٩ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٦ ، ٦٨ ، ٩٧ ، ١٠٦

١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ٢٩٣

٢٩٩

بلرمو — حاضرة صفلية : ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٩

البقان : ١٨٢

برصور — كورة : ١٦١ ، ١٧٤

الهنسا : ١٦١ ، ١٦٢

(ت)

ناهرت — مدينة بالمغرب : ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٠

٣١ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥

١٥٥

تروجة — قرب الاسكندرية : ٨٦

ترمين — مدينة بصقلية : ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦

تلسان : ٣٦

تليس : ٩٠ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٧٢ ، ١٩٩

توزر : ٢٤

تونس : ٣٤ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٦ ، ٦٦ ، ٨٢

١٥٦ ، ١٧٥ ، ١٨٠ ، ٢٧٤ ، ٢٩١

تيطوان — مدينة بجوار سبتة : ٢٩

(ج)

الجاية : ٣٣٠

جرائنى : مدينة بايطاليا : ٥٣

الجريد : ٢٤

الجزائر : ٤٤ ، ٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٥ ، ٢٧٤ ، ٢٩١

جنوة : ١٦

الجزيرة : ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٠ ، ٩٠ ، ١٦٢

(س)

سبتة : ٢٨١ . ١٦٥ . ١٤٤ . ١٣٦ . ٩٨ . ٤٥  
 ١٨٦  
 سجلماسة : ٢٣ . ٢٢ . ٣٠ . ٠ . ٤ . ٢٣  
 ١٦٣ . ١٧٨ . ١٧٦ . ١٥٥ . ١٣٧ . ٤٥  
 ٢٢ . ٣١٨ . ٣١٧ . ٢٧٤  
 سلفية - مدينة بالقام : ٧٤ . ١١

سورية : ٩٢ . ٧٨

سوسة : ٢٩٨ . ١٨٦ . ١٨٥ . ١٨٤

السويس : أنظر القلزم

سيوة - واحة : ٨٢

(ش)

الشام : ٩ . ٤٥ . ٤٧ . ٥٢ . ٦ . ٦٣ . ٦٦  
 ٧٣ . ٧٤ . ٧٦ . ٧٧ . ٧٨ . ٧٩ . ٨٠  
 ٨٦ . ٨٧ . ٩٠ . ٩١ . ٩٣ . ٩٤ . ٩٥  
 ٩٦ . ١٠٠ . ١٠١ . ١٠٢ . ١٠٣ . ١٠٥  
 ١٠٦ . ١٠٧ . ١٠٨ . ١٠٩ . ١١٠ . ١١١  
 ١١٢ . ١١٤ . ١١٥ . ١١٧ . ١١٩ . ١٢٤  
 ١٢٥ . ١٢٦ . ١٢٧ . ٢٨ . ١٢٩ . ١٣٠  
 ١٣١ . ١٣٣ . ١٤١ . ١٤٤ . ١٦ . ١٦٢ . ١٦٣  
 ١٦٣ . ١٦٥ . ١٦٩ . ١٧١ . ١٨٠ . ١٨٣  
 ١٨٧ . ١٨٦

الشرقية - مديرية : ١٦ . ٦١

(ص)

الصعيد : ١٢٤

صقلية : ١٦ . ١٧ . ٢٣ . ٢٩ . ٤٣ . ٥٢  
 ٥٣ . ٥٤ . ٥٥ . ٥٦ . ٥٨ . ٥٩ . ٦٠  
 ٦١ . ٦٣ . ٦٤ . ٦٦ . ٦٧ . ١٥٦  
 ١٥٨ . ١٥٩ . ١٦٤ . ١٦٥ . ١٨٤ . ١٨٦  
 ٢٧٣ . ٢٧٤ . ٢٧٧ . ٢٩٢ . ٢٩٣  
 ٢٩٦ . ٣٠٤

صنهاجة : قبيلة مغربية : ٢٤ . ٣٥ . ١٨١

صور : ١٨٦ . ١٨٧ . ١٨٩

صيدا : ١٨٩

(ح)

الحجاز : ٢٨١ . ١٦٥ . ١٤٤ . ١٣٦ . ٩٨ . ٤٥  
 حجر اللمر - قمة بالمغرب : ٢٨  
 حلب : ٧٨ . ٧٧  
 حمص : ١٦٤ . ١٣٢ . ٣٠  
 حوف رمسيس : ١٦١

(خ)

خراسان : ١٦٩ . ٧٧ . ٧٤ . ٦٩

الخرطوم : ١٦٢

(د)

دجلة - نهر : ١٠٩ . ٨٧

الدقيلية - مديرية : ١٦١

الدكا - مدينة قرب دمشق : ١٠٩

دمشق : ١١١ . ١١٠ . ١٠٩ . ١٠٥ . ١٠٤ . ٦٣  
 ١١٢ . ١١٧ . ١٢٥ . ١٢٧ . ١٢٨ . ١٢١  
 ١٣٠ . ١٣١ . ١٣٢ . ١٦٣ . ١٦٤ . ١٨٠  
 ١٩٤ . ٣١٤ . ٣١٥

دمياط : ١٨٩ . ١٨٧ . ١٨٦ . ١٧٢ . ١٦٠ . ٩٠

١٩٩ . ٢٩٨

ديار بكر : ٧٩

(ر)

الرحبة : ١٠٩

رقادة : ٣٦

رطلة - مدينة بصقلية : ٥٥ . ٥٦ . ٥٨ . ٦١

١٥٩

الرملة : ١٣٠ . ١٣٠ . ١١٢ . ١١١ . ٩٥ . ٩٤

١٦٣ . ١٦٤ . ١٨٠ . ٣١٤ . ٣١٥

الروضة - جزيرة : ٩٠

رومة : ٦٨

الرها : ٧٩

الريف - إقليم بالمغرب : ٢٨

ريو - جزيرة : ٥٨

(ز)

الزواب : - إقليم بالمغرب : ٣٥ . ٢٤

٢٩٦ • ٢٩٣ • ٢٩١ • ٢٨٦ • ٢٨٥ • ٢٨١

٣٠١ • ٣٠٠ • ٢٩٩

قرطبة : ٢٩٩ • ٤٦ • ٤٣ • ٣٨ • ٣٦ • ٣٤

القسنطينية : ٣٣٤ • ٦٨ • ٥٨ • ٤٨ • ٣٧

القطائع : ١٦٧ • ٩١

القلزم : ١١٤ • ١١٣

قلورية — جنوب إيطاليا : ٥٢ • ٣٣ • ١٦

٥٢ • ١٨٥ • ٦٣ • ٦٠ • ٥٩ • ٥٤ • ٥٣

٢٩٢ • ٣٧٧

قوص : ١٦٣ • ١٦٠

القهيروان : ٢٧٤ • ١٩٠ • ١٥٧ • ٣٦ • ٣٣ • ٢٤

( ك )

الكعبة : ١٦٦

كلبريا : ٥٩

كلبيبا : ٧٨

( ل )

لبنان : ٧٧

ليون — ملكة بأسيانيا : ٤٣ • ٤١

( م )

الملكة الكبرى : ١٦٠

المعدية — مدينة بأفريقية : ٢٤

المدينة المنورة : ٣٣٤ • ٣٨٢ • ١٦٥

مراكش : ٢٩١ • ٢٧٤ • ٦٦ • ٤٤

المرية — قلعة بالاندلس : ٤٥ • ٤٠ • ٣٩

٣٣٧ • ٦١

المسيبة : ٣٥ • ٣١

مسينا : ٥٨ • ٥٦ • ٥٤

مصر : ٣٥ • ٣٤ • ٣٠ • ٢٥ • ٢٣ • ١٧ • ٩

٥١ • ٤٩ • ٤٨ • ٤٧ • ٤٦ • ٤٥ • ٣٩

٥٢ • ٣٧ • ٦٦ • ٦٥ • ٦٤ • ٦٣ • ٦٠ • ٥٢

٧٥ • ٧٤ • ٧٣ • ٧٢ • ٧٠ • ٦٩ • ٦٨

٨٥ • ٨٤ • ٨٢ • ٨١ • ٨٠ • ٧٧ • ٧٦

١٠٣ • ٩٧ • ٩٤ • ٩٢ • ٩١ • ٨٩ • ٨٦

١١١ • ١٠٩ • ١٠٨ • ١٠٧ • ١٠٦ • ١٠٤

١١٨ • ١١٦ • ١١٥ • ١١٤ • ١١٣ • ١١٢

١٢٧ • ١١٦ • ١٢٥ • ١٢٤ • ١٢٣ • ١٢٢ • ١١٩

١٤٤ • ١٤٣ • ١٤١ • ١٤٠ • ١٣٥ • ١١٩ • ١٢٨

١٥٧ • ١٥٦ • ١٥٥ • ١٥١ • ١٥٠ • ١٤٩ • ١٤٨

( ط )

طبرمين : ١٥٩ • ٥٤

طبرية : ١٢٨ • ١٠٥ • ١٠٠ • ٩٦ • ٩٥ • ٩٤

طبنة : ٣٠٤

طرابلس : ١٥٥ • ١٥٦ • ١٣١ • ١٣٠ • ٦٦ • ٦٣

٢٩٦ • ٢٩١ • ٢٧٤ • ٢٥٨ • ١٦٥ • ١٦٤

طرسوس : ٧٨

طنجة : ٣٩ • ٣٤ • ٣٣ • ٣٠ • ٢٩ • ٩

طوروس — جبال : ٩٧

( ع )

العراف : ٩٣ • ٨٧ • ٧٧ • ٧٦ • ٧٤ • ٧٣

٢٩٨ • ١٧١ • ١٢٨ • ١٠٩

عسقلان : ٢٩٨ • ١٩٤ • ١٨٩ • ١٨٧ • ١٨٦

عكا : ١٨٩ • ١٨٧ • ١٨٦

عمان : ١٦٩ • ١٠٦ • ١٠٠

عذيب : ١٨٩

عين شمس : ١٢٤

( ف )

فاس : ٣٣ • ٣٠ • ٢٨ • ٢٧ • ٢٦ • ٢٥ • ٢٣

٣٦٣ • ١٥٧ • ١٥٥ • ٦٩ • ٤٦ • ٣٣

٢٧٢

فارس : ١٦٩ • ١٤٤ • ٧٦ • ٧٤

الفرات — فر : ١٠٦ • ٩٣

الفرما : ١٩٩ • ١١٥ • ١١٣

القمعاط : ٩٤ • ٩٣ • ٩١ • ٩٠ • ٨٨ • ٨٦

١٨٨ • ١٦٧ • ١٦١ • ١٢٢ • ١١٣

٣١١ • ٢٩٨ • ٢٠٠ • ١٩٥ • ١٨٩

فلسطين : ١١٧ • ٩٤

القيوم : ١٦٢ • ١٦١

( ق )

القاهرة : ١١٤ • ١١٣ • ٩٤ • ٩٣ • ٩١ • ٨١ • ٩

١٤٤ • ١٢٧ • ١٢٤ • ١١٧ • ١١٧ • ١١٥

١٨٩ • ١٨٠ • ١٦٧ • ١٦١ • ١٥٩ • ١٥٦

٢٦٧ • ٢٦١ • ٢٥٧ • ٢٥٦ • ٢٥٥ • ١٩٧

ومهران : ٣٠

(ى)

يافا : ١١١ • ١١٢ • ١١٣ • ١١٥ • ١١٧ • ١٢٢

٣١٤

العين : ٦٩ • ٧٤ • ٧٦ • ١٤٤ • ١٦٩ • ٢٥٤

٢٦٨ • ٢٥٩

## الاسماء التي تدل على حوادث تاريخية هامة

(أ)

الأبطحية — فرقة : ٢٧١

الأتراك : ١٣١ • ١٨٢

الاثنا عشرية : ٢٧١

الاشعبيون : ٤٧ • ٤٨ • ٤٩ • ٥٠ • ٥١

٩٣ • ٩٥ • ١٠٢ • ١٠٧ • ١٣٥ • ١٤٧

١٤٨ • ١٤٩ • ١٦٠ • ١٩٤ • ٢٩٦

الاشعبيية — فرقة من الجنيد : ٧٩ • ٨٩

٩٠ • ٩٤ • ٩٦ • ١٠٨ • ١١٥

الادارة : ٢٣ • ٢٤ • ٢٥ • ٢٦ • ٢٧ • ٢٨

٢٩ • ٣٠ • ٣٣ • ٣٤ • ٣٥ • ٣٧ • ٣٨

٦٧ • ٦٨ • ٨٣ • ٢٩١

الاصحابيلية : ١٠ • ١٢ • ١٩ • ٢٠ • ٢١ • ١٠٠

١٠٢ • ١٠٦ • ١٢٠

الأتان : ٤٩ • ٥٠

الأمويون : ١٠ • ١١ • ١٢ • ٢٣ • ٢٥ • ٢٦

٢٧ • ٢٨ • ٢٩ • ٣٠ • ٣١ • ٣٢ • ٣٣ • ٢٤

٣٥ • ٣٦ • ٣٧ • ٣٨ • ٣٩ • ٤٠ • ٤٢

٤٣ • ٤٤ • ٤٥ • ٤٦ • ٥٢ • ٥٩ • ٦١

٦٤ • ٦٦ • ٦٧ • ٧٣ • ٧٧ • ٨٣ • ٩٨

١٣٥ • ١٣٧ • ١٣٨ • ١٣٩ • ١٥٧ • ١٥٨

١٦٦ • ١٧٧ • ١٨٢ • ٢١٢ • ٢٧٦ • ٢٨٢

١٦٠ • ١٦٤ • ١٦٦ • ١٦٦ • ١٦٩ • ١٧٠

١٧١ • ١٧٢ • ١٧٣ • ١٧٥ • ١٧٩ • ١٨٠

١٨١ • ٢٦٦ • ٢٦٨ • ٢٧٠ • ٢٧٢ • ٢٧٧

٢٧٩ • ٢٨٠ • ٢٨٣ • ٢٨٥ • ٢٩٣ • ٢٩٤

٢٩٥ • ٢٩٧ • ٢٩٨ • ٢٩٩ • ٣٠٠ • ٣٠١

٢٠٢ • ٢٠٤

المصبعة : ٧٨

المغرب : ٩ • ١٠ • ١١ • ٢٢ • ٢٣ • ٢٤

٢٦ • ٢٧ • ٢٨ • ٣٠ • ٣١ • ٣٢ • ٣٣

٣٤ • ٣٥ • ٣٦ • ٤٣ • ٤٤ • ٤٥ • ٤٦

٥٢ • ٥٣ • ٥٦ • ٦٠ • ٦٤ • ٦٦

٦٧ • ٦٨ • ٦٩ • ٧٠ • ٧٩ • ٨١

٨٢ • ٨٣ • ٨٣ • ٨٤ • ٩٣ • ٩٤

١٠٤ • ١١٠ • ١١٠ • ١١٤ • ١١٩ • ١٢٢ • ١٢٦

١٢٦ • ١٢٩ • ١٤١ • ١٤٣ • ١٤٤ • ١٥٤

١٥٥ • ١٥٦ • ١٥٧ • ١٦٣ • ١٦٥ • ١٦٨

١٦٩ • ١٧٥ • ١٧٦ • ١٧٦ • ١٨١ • ١٨٣

١٨٤ • ١٨٦ • ١٨٨ • ١٩٧ • ٢٠٠ • ٢٥٥

٢٠٧ • ٢٥٨ • ٢٥٩

المقس : ١٨٦ • ١٨٨ • ٢٥٢

مكة المكرمة : ١٦٥ • ٢٨٢ • ٢٢٤ • ٢٤٠

المنصورية : ٩ • ١٤ • ٤٧ • ٦١ • ٦٢ • ٦٣ • ٦٧

٧١ • ٨٢ • ١١٩ • ١٤٤ • ٢١٧ • ٢٧٣

٢٧٤ • ٢٨٠ • ٢٨٨ • ٢٩١ • ٢٩٣ • ٢٩٩

٣٠٠ • ٣٠١

الموصل : ٧٧

المدية : ١٣ • ١٤ • ٢٤ • ٢٦ • ٢٧ • ٢٩

٣٣ • ٤٣ • ٤٤ • ٥٨ • ٦٢ • ٦٧ • ٧٦

١٥٧ • ١٨٤ • ١٨٥ • ١٨٦ • ١٩٠ • ٢٥٧

٢٩٨ • ٢٢٤

مياقارقين : ٧٩

(ن)

نصيبين : ٧٩

النوبة : ٨٠ • ١٦٢ • ١٦٤

(هـ)

هوزارة — قبيلة : ٢٤





١٠٤ • ١١١ • ١١٧ • ١٢١ • ١٢٢ • ١٢٣  
١٢٣ • ١٢٤ • ١٢٥ • ١٢٦ • ١٢٦ • ١٢٦ • ١٢٦ • ١٢٦  
١٤٤ • ١٤٩ • ١٥٦ • ١٦٠ • ١٦٧ • ١٧٠ • ١٧٦ • ١٨٠ • ١٨٠  
٢٥٢ • ٢٥٢ • ٢٥٦ • ٢٥٦ • ٢٥٦ • ٢٥٦ • ٢٥٦ • ٢٥٦ • ٢٥٦  
٢٧٠ • ٢٧١ • ٢٨٦ • ٢٨٧ • ٢٩٠ • ٢٩٧ • ٢٩٧ • ٢٩٧

٢٩٨ • ٣٠٠ • ٣٠١ • ٣٠٢

المجاز — موقعة : ٥٨

المصاندة : ١٧٩

المغازية : ٢٣

( ى )

المورد : ٤٤

١١٩ • ١٢٠ • ١٢١ • ١٢٢ • ١٢٣ • ١٢٦ • ١٢٦ • ١٢٦  
١٢٧ • ١٢٨ • ١٤١ • ١٤٣ • ١٧١ • ١٨٠ • ١٨٠ • ١٨٠  
١٨١ • ١٨٣ • ١٨٦ • ١٨٧ • ٢٥٤ • ٢٦٦ • ٢٦٦ • ٢٦٦  
٢٦٦ • ٢٦٦ • ٢٦٦ • ٢٦٦ • ٢٦٦ • ٢٦٦ • ٢٦٦ • ٢٦٦

( ك )

الكتابية — فرقة من الجند : ٧٩ • ٨٩

٩٠ • ٩٤ • ١٠٧ • ١٠٨ • ١١٥

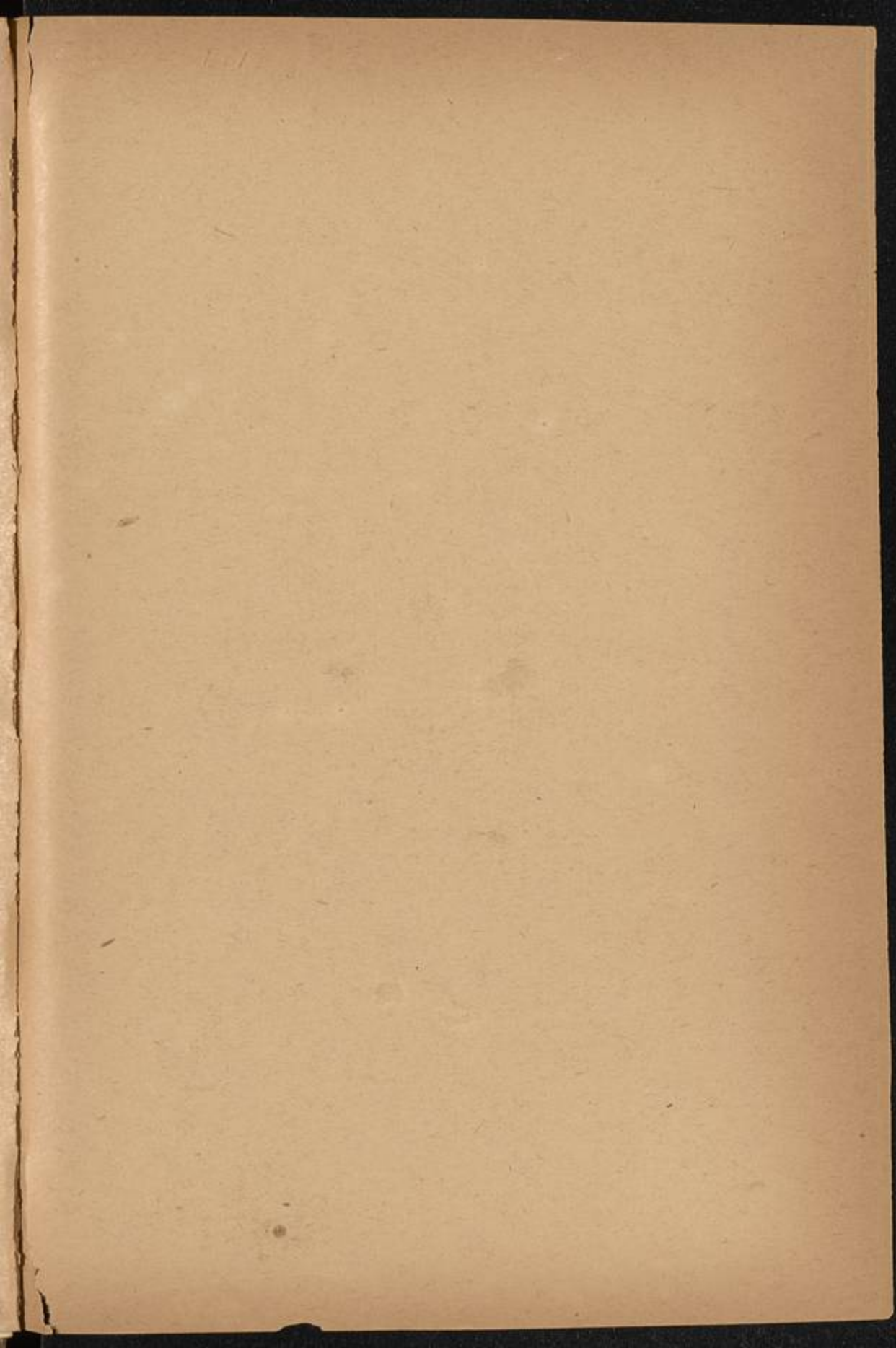
كتابة : ٢٢ • ٢٣ • ٦٥ • ٨٢ • ٨٨ • ٩٥

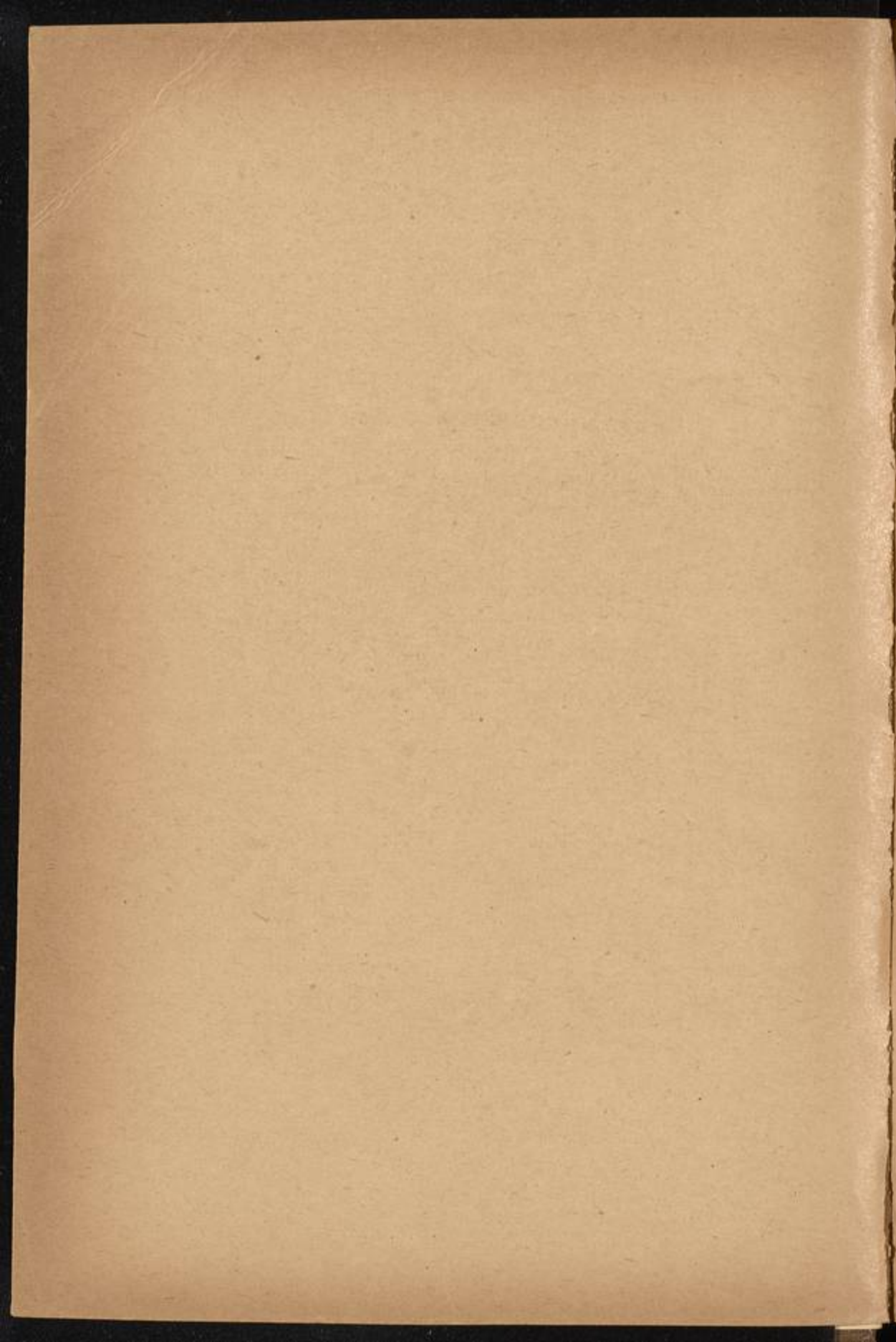
١٣٥ • ١٤٤ • ١٥٣ • ١٧٥ • ١٧٦ • ١٧٩

١٨٠ • ١٨١ • ٣١٤ • ٣٤٦

( م )

المذهب الامتاعل : ١٥ • ١٦ • ٦٩ • ٧٣ • ٨٧





# AL-MU'IZZ LI DIN-I'LLAH

The Ismaili Imam and Founder of the  
Fatimid Dynasty in Egypt

BY

**HASSAN IBRAHIM HASSAN**

D.Litt. (Cairo), Ph.D., D.Lit. (London)  
Professor of Islamic History, Head of the Dept. of History  
Fouad 1st University, Cairo.

and

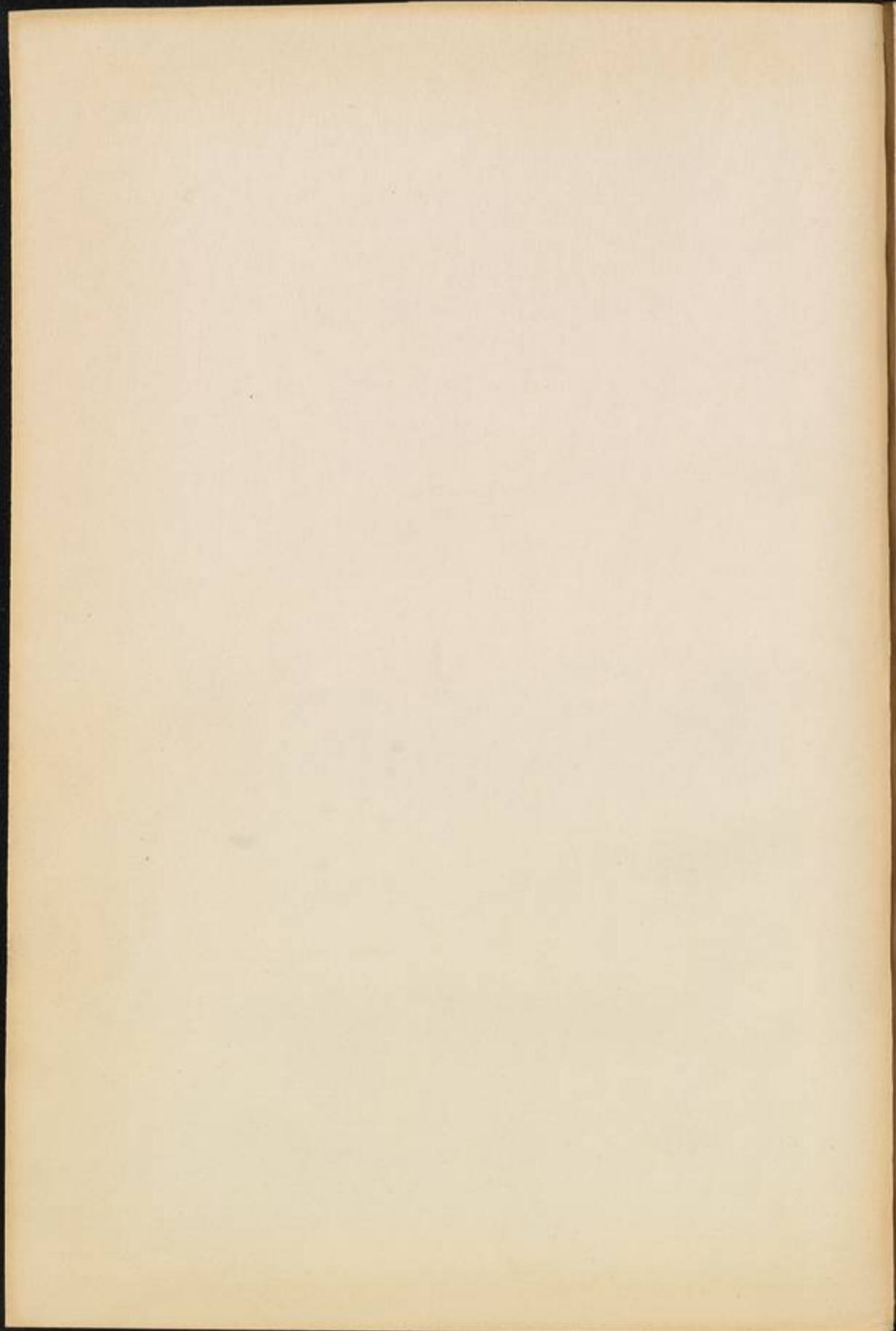
**TAHA AHMED SHARAF**

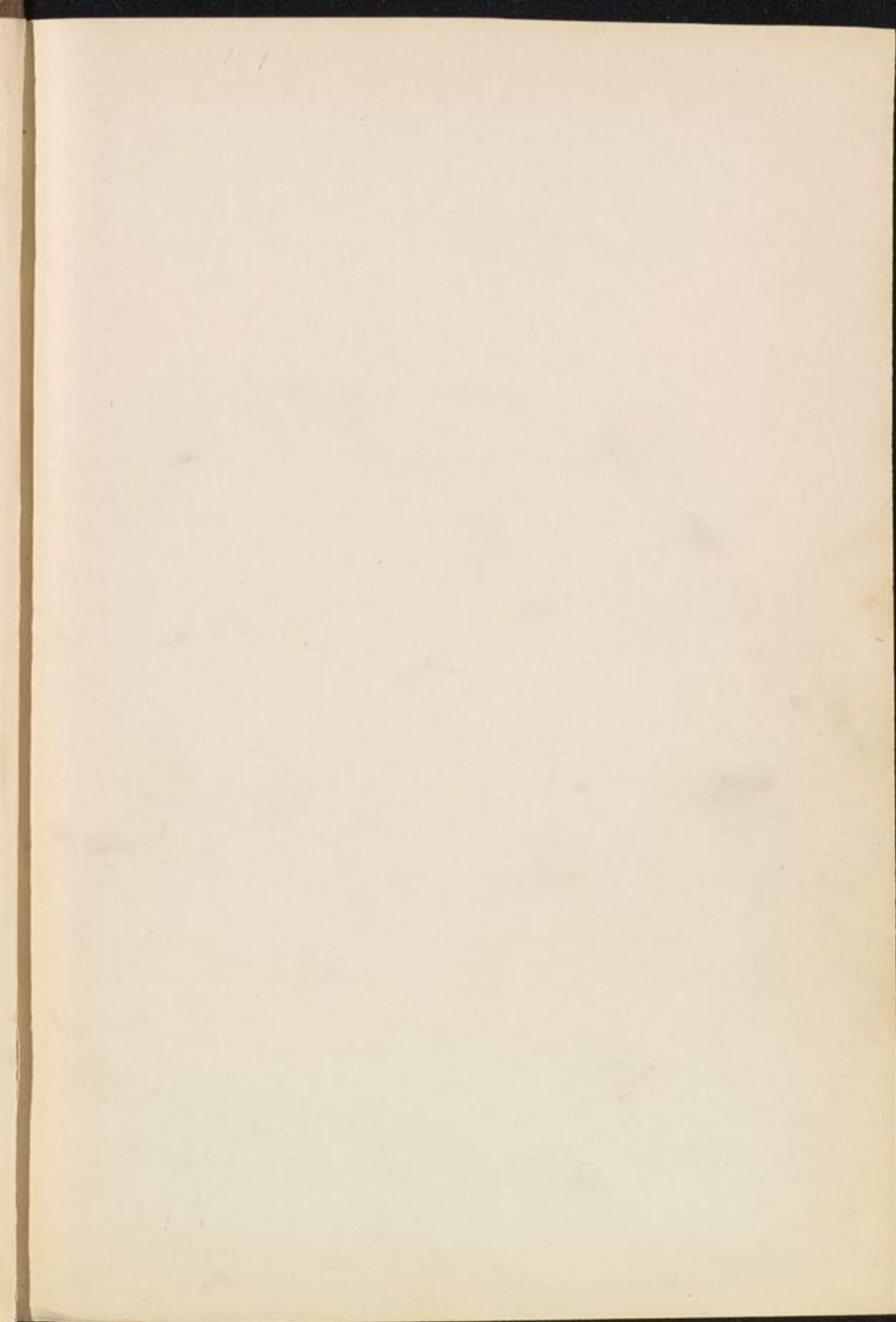
B.A., M.A., D.Litt.  
Fouad 1st University, Cairo  
Higher Dipl. of Education, Cairo.

1367 — 1948

Published By  
THE RENAISSANCE BOOKSHOP  
9, Adly Pacha Street, Cairo.

Shibokshi Press - Azhar Cairo





893.791  
H2733

11093013

BOUND  
NOV 26 1957

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58885897

893.791 H2733 Muizz il-Din-Allah,